المجموع القيم

من كلام ابن القيم

في الدعوة والتربية وأعمال القلوب

جمع وإعداد

منصور بن محمد المقرن

المجلد الأول

دار طيبة للنشر والتوزيع

ح) دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقرن، منصور محمد
الجموع القيم في الدعوة والتربية وأعمال القلوب. / منصور محمد المقرن. - الرياض، ١٤٢٦هـ
٢ مج، ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٥-٦١-٨٩١-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣ - ٦٢ - ٨٩١ - ٩٩٦٠ (ج١)

١- الدعوة الإسلامية ٢- التربية الإسلامية أ. العنوان
ديوي: ٢١٣ ١٤٢٦ / ٤٢٩١

رقم الإيداع: ١٤٢٦ / ٤٢٩١
ردمك: ٥ - ٦١ - ٨٩١ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٣ - ٦٢ - ٨٩١ - ٩٩٦٠ (ج١)

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فغير خاف على كل من له صلة بكتب أهل العلم مكانة وأهمية مؤلفات الإمام ابن قيِّم الجوزية رحمه الله تعالى؛ وخاصة في أبواب الدعوة والتربية وأعمال القلوب والرقاق؛ فهو أبرز من صنف فيها حيث يعد طبيبًا للقلوب ماهرًا، ومرشدًا في الدعوة والتربية حاذقًا، وواعظًا في الرقاق مبدعًا.

ولما كان كلامه في تلك الأبواب في غاية الأهمية؛ لأنها تتعرض لمحل الإيمان ومحرك الجوارح للعمل - وهو القلب - وتعالجه[1]، ولكونها تهذب سلوك السائرين إلى الله تعالى وترشد الدعاة والمربين، فقد قمت - مستعينًا بالله - بجمع كلماته الذهبية المتعلقة بتلك المواضيع من بين آلاف الصفحات من كتبه ومؤلفاته لأجعلها - بعد توفيق الله - في متناول

---

(١) قال ابن القيِّم رحمه الله مبينًا أهمية أعمال القلوب في كتابه بدائع الفوائد: «فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها»، وقال أيضًا: «عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»، وقال: «عمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح»، وقال في كتابه الوابل الصيب: «تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان».

طالبيها، فيسهل الرجوع إليها، وتزداد الاستفادة منها، خاصة أن الأخيار والدعوة الإسلامية بشكل عام في حاجة ماسة لها؛ يتدارسونها في مجالسهم وملتقياتهم فيتربون ويربون عليها، فيشتد العود ويتضح المنهج وتقوى العزيمة بإذن الله.

من جهة أخرى فإن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة لمن قرأ ويقرأ في كتب ابن القيم تذكيراً له وتوفيراً لجهده ووقته، وبمثابة فهرسة لكتبه في تلك الأبواب، أما بالنسبة لمن لم يسبق له أن قرأ في كتب ذلك الإمام فعسى أن يكون ذلك دافعًا ومشجعًا لقراءتها.

وقد كان عملي في هذا الكتاب كالتالي: -

١- حصر مؤلفات ابن القيم المطبوعة والثابت نسبتها إليه. وقد كفيت ذلك والحمد لله بأن وجدت كتابًا للعلامة الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد أسماه «ابن القيم حياته وآثاره» أثبت فيه - وفقه الله - كل مؤلفاته المطبوعة والتي بلغت ٣١ كتابًا تقع في ٥٨ مجلداً[١].

٢- قراءة تلك المؤلفات كاملة، وقد جاوز عدد صفحاتها اثنين وعشرين ألف صفحة[٢].

٣- نقل المواضيع المتعلقة بالدعوة والتربية وأعمال القلوب والرقائق منها وإعادة كتابتها كما هي بعد حذف الاستطرادات والتفريعات التي ليس

---

(١) انظر قائمة بها في آخر الكتاب.

(٢) ما عدا كتاب «أسماء مؤلفات ابن تيمية» فلم أجده، ويظهر من عنوانه أنه لم يتطرق لأحد مواضيع هذا الكتاب، وعليه فلن يكون مؤثراً على استكمال مادته.

لها علاقة مباشرة بالموضوع؛ كالكلام عن صحة حديث أو الرد على شبهة قد تعرض ونحو ذلك. وقد استلزم ذلك كما هو معلوم تصرفًا يسيرًا جدًا وخاصة في بداية بعض المواضيع أملته طبيعة النقل والانتزاع وقد وضعت مكان الكلام المحذوف ثلاث نقاط علامة على الحذف كما هو مُتَّبع في عرف التأليف.

٤- وضع عنوان لكل موضوع يدل عليه أو يحفز لقراءته، وقد بلغت ٥٨٠ عنوانًا.

٥- تبويب وتصنيف العناوين حسب مواضيعها تيسيرًا للقارئ في كل موضع، وقد قُسِّمَت على ستة أبواب كالتالي:-

الباب الأول: الفرائض والنوافل: وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: الصلاة. **الفصل الثاني**: الصيام.

الفصل الثالث: الصدقة. **الفصل الرابع**: الحج.

الفصل الخامس: القرآن الكريم. **الفصل السادس**: الذكر.

الباب الثاني: أعمال القلوب: وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: أهمية أعمال القلوب.

الفصل الثاني: أنواع القلوب وآفاتها.

الفصل الثالث: صيانة القلوب وعلاجها.

الفصل الرابع: أعمال القلوب: (الإخلاص، المحبة، الرضا، التوكل، الخوف والرجاء، التوبة، التفكر، الصبر، أخرى).

الفصـــــل الرابع: حِكَم قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

الفصل الخامس: متفرقات.

الباب السادس: الرقائق: وفيه:

الفصل الأول: حقيقة الدنيا. **الفصل الثاني:** الزهد.

الفصل الثالث: نعيم الجنة. **الفصـل الرابع:** متفرقات.

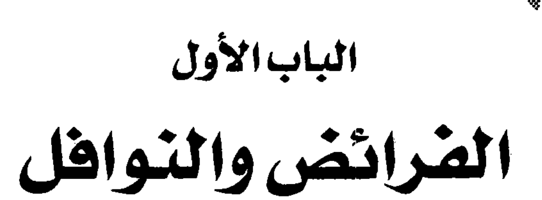
وختـامًا... فإني لا أدَّعي أني قد أوردت كل ما كتبه ابن القيِّم رحمه الله في تلك الأبواب، ولكن أزعم أنِّي أوردت غـالبيتـه؛ فقد تـكون العين مرت عـلى شيء ولم يمر عليـه القلب؛ ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ثم إني أجـد نفـسي ملزمـة برفع أصـدق الدعـاء وأبلـغ الثناء للشـيخ الفاضل/ بهاء الدين عقيل على جـهده البارز، وعمله الوافي، ودوره الكبير لكي يظهـر الكتاب بالشكل الذي تراه أخي الـقارئ الكريم؛ فـالله أسأل أن يجزيه خير الجزاء.

أسأل الله جل وعـلا كما يسَّـر إخرج هذا الكتاب أن يضع له القـبول، وأن ينفع به جامعـه وقارئه وكل من ساهم في إخراجه؛ إنه سبـحانه حسبنا ومولانا لا إله إلا هو.

منصور بن محمد بن عبد الله المقرن
الرياض - محرم ١٤٢٣هـ
mmalmegren@gawab.com
الرياض ١١٤٩٧ - ص. ب ٣١٠٥٨





الباب الأول

الفرائض والنوافل

وفيه:

- الفصل الأول: الصلاة .
- الفصل الثاني: الصيام .
- الفصل الثالث: الصدقة .
- الفصل الرابع: الحج.
- الفصل الخامس: القرآن الكريم .
- الفصل السادس: الذكر .

الفصل الأول: الصلاة

[الحكم والمصالح في الصلاة]

[الصلاة اشتملت] على الحكم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن، والقوى التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغاياتها المحمودة.

بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة وما فيها من: المعارف الإلهية، والحكم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء على الله تعالى بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخليقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم.

وما في مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة؛ من تطهير الأعضاء والثياب والمكان، وأخذ الزينة واستقبال بيته الذي جعله إمامًا للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة على أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفات إلى ما سواه، والإقبال على غيره.

فيقوم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل كبير، أكبر من كل شيء، وأجل من كل شيء، وأعظم من كل شيء، تلاشت في كبريائه السماوات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها، عَنَتْ له الوجوه،

وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم بما تكن صدورهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ولايخفى عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه وتعالى جدّه، وتفرده بالإلـهية.

ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثني عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه ملك سواه، حين يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم.

ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلـهيته عبودية له.

ثم سؤاله أفضل مسؤول وأجل مطلوب على الإطلاق؛ وهو هداية الصراط المستقيم الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطًا موصلاً لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته بأن عرَّفهم الحق وجعلهم متبعين له، دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمنت تعريف الربّ، والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول. وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات وهي العبودية، وأقرب الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدمًا فيها الغاية على الوسيلة، والمعبود المستعان

على الفعل إيذانًا بالاختصاص، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمنت ذكر الإلـهية والربوبية والرحمة، فيُثْنَى عليه ويُعبد بإلـهيته، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويدبّرُ الملك، ويُضلُّ من يستحق الإضلال، ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينُعِم ويرحم، ويجود ويعفو ويغفر، ويهدي ويتوب برحمته.

فللّه كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد، وحقائق الإيمان.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب، شفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح وهو كلام ربِّ العالمين، فيحلّ به في ما شاء من روضات مونقات، وحدائق معجبات، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذللت قطوفها تذليلاً، وسهلت لمتناولها تسهيلاً، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يُؤمر به، وشراً يُنهى عنه، وحكمة وموعظة، وتبصرة وتذكر وعبرة، وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالة لشبهة، وجوابًا عن مسألة، وإيضاحًا لمشكل، وترغيبًا في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيرًا من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدى، وردّاً عن ردى؛ فتنزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأي نعيم وقرة عين ولذة قلب وابتهاج وسرور، لا يحل له في هذه المناجاة، والربّ تعالى مستمع لكلامه جاريًا على لسان عبده، ويقول:

(حمدني عبدي، أثنى عليَّ عبدي، مجَّدَني عبدي)[١] .

ثم يعود إلى تكبير ربّه عز وجل فيجدد عهد التذكرة، كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يعامل به.

ثم يركع حانيًا له ظهره خضوعًا لعظمته، وتذللاً لعزّته، واستكانةً لجبروته، مسبحًا له بذكر اسمه العظيم، فَنَزَّه عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذلّ والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربّه فوقه يشاهده، ويرى خضوعه وذلّه، ويسمع كلامه؛ فهو ركن تعظيم وإجلال كما قال ﷺ : **(أما الركوع فعظموا فيه الرب)**[٢] .

ثم عاد إلى حاله من القيام، حامدًا لربّه مثنيًا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمِّها، مثنيًا عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفًا بعبوديته، شاهدًا له بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحاب الجدود والأموال والحظوظ جدودهم عنه ولو عظمت.

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٩٥) في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ونصّه: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: (الحمد لله ربّ العالمين) قال الله: **حمدني عبدي**، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله: **أثنى عليَّ عبدي**، وإذا قال: (مالك يوم الدين) قال: **مجَّدني عبدي** ... الحديث».

(٢) رواه مسلم برقم (٤٧٩).

ثم يعود إلى تكبيره، ويخر له ساجداً على أشرف ما فيه وهو الوجه، فيعفِّره في التراب ذُلاً بين يديه، ومسكنةً وانكساراً، وقد أخذ كل عضو من البدن حظَّه من هذا الخضوع، حتى أطراف الأنامل ورؤس الأصابع، ونُدبَ له أن يسجد معه ثيابه وشعره فلا يكفّه، وأن لا يكون بعضه محمولاً على بعض وأن يباشر التراب بجبهته، وينال ثقل وجهه المصلى، ويكون رأسه أسفل ما فيه تميلاً للخضوع والتذلل لمن له العزّ كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خلق إلى أن يموت لما أدى حق ربّه عليه.

ثم أُمرَ أن يسبح ربَّه الأعلى، فيذكر علوه سبحانه في حال سفوله هو، وينزِّهه عن مثل هذه الحال، وأن مَنْ هو فوق كل شيء، وعالٍ على كل شيء، ينزَّه عن السفول بكل معنى، بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلو، ولما كان هذا غاية ذلّ العبد وخضوعه وانكساره، كان أقرب ما يكون الربّ منه في هذه الحال، فأمر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له، فينتقل من خضوع إلى خضوع أكمل وأتم منه، وأرفع شأنًا، وفصل بينهما بركن مقصود في نفسه، يجتهد فيه في الحمد والثناء والتمجيد، وجُعلَ بين خضوعين، خضوع قبله وخضوع بعده، وجُعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك.

فتأمل هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقل في مراتب العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء على الربّ بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده، إلى منزلة خضوعه وتذلله لمن له هذا الثناء، ويستصحب في مقام خضوعه ثناء يناسب ذلك المقام، يليق به، فيذكر عظمة الربّ في حال خضوعه، وعلوه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن، شُرع في أشرف أحوال الإنسان، وهي هيئة القيام التي قد انتصب فيها قائمًا على أحسن هيئة، ولما كان أفضل أركانه الفعلية السجود، شُرع فيها بوصف التكرار، وجعل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها. تطابق افتتاح الركعة بالقرآن واختتامها بالسجود أول سورة افتتح بها الوحي؛ فإنها بدئت بالقراءة، وختمت بالسجود.

وشرع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل ربَّه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه، ويهديه ويعافيه. وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شرع تكرار الأذكار والدعوات مرة بعد مرة، ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ زاده ونصيبه وافرًا من الدواء ليقاومه؛ فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من الغذاء لقمة أو لقمتين، كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرًا جدًا، وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدر معين من

الدواء، إذا أخذ منه المريض قيراطًا من ذلك لم يزلْ مرضه بالكلية، وأزال بحسبه. فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته، شرع له أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلم على من جاء بهذا الحظ الجزيل، ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علَّم الأمة هذا الخير، ودلَّهم عليه، ثم شُرع له أن يسأل حوائجه ويدعو بما أحب ما دام بين يدي ربّه مقبلاً عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة.

هذا إلى ما تضمنته من الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد منزل من منازل السير إلى الله تعالى، ولا مقامًا من مقامات العارفين إلا وهو في ضمن الصلاة، وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر. [1] أهـ.

[الصلاة.. الميزان العادل]

[الصلاة] بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه؛ فإنه محل المناجاة والقربة لا واسطة فيها بين العبد وبين

---

(١) شفاء العليل: ٢/٦٢٧ - ٦٣٢.

ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبًا؛ فإنه لاشيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد أقبل محبوبه عليه، وكان قبل ذلك معذبًا بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم، فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وآوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته؛ فلا شيء أهم إليه من الصلاة؛ كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: (**يا بلال، أرحنا بالصلاة**)[1]، ولم يقل : ارحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون. وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر الصلاة فيزول همه وغمه، أو كما قال. فالصلاة قرة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم؛ يحملون هم الفراغ منها إذا خلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقّارين شأن، يشكون إلى الله سوء صنيعهم بها إذا ائتموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان مَنْ فاضل بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم. وبالجملة فمن كان قرة عينيه في الصلاة فلا شيء أحب إليه ولا أنعم عنده منها، ويودّ أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلي نفسه إذا فارقها بأنه سيعود إليها عن قرب؛ فهو دائمًا يثوب إليها ولا يقضي منها وطرًا، فلا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٥/ ٣٦٤.

وزنه غير عائل[١].

[مراتب الناس في الصلاة]

الناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط؛ وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يُضيِّع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها؛ قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل؛ ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا

---

(١) طريق الهجرتين: ٣٠٧، ٣٠٨.

من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه؛ فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه لأن له نصيبًا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة. فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه أيضًا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. وقد رُوي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل: **(ارفعوا الحجب، فإذا التفت قال أرخوها)**، وقد فُسِّر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره فإذا التفت إلى غيره أرخى الحجاب بينه وبين العبد فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا وأراه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة[١].

---

(١) الوابل الصيب: ٣٨ - ٣٩.

[السجود سر الصلاة وركنها الأعظم]

شرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية. والسجود سر الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة. وما قبله من الأركان كالمقدمات له؛ فهو شبه طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج ومحل الدخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له. ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة. ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه؛ فإن العبد لو تُرك لطبعة ودواعي نفسه لتكبر وأشر وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما. وأُمِرَ بالسجود خضوعًا لعظمة ربه وفاطره، وخشوعًا له وتذلالاً بين يديه وإنكساراً له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًا له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه - وهو الوجه - وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يدي ربه الأعلى، وخشوعًا له وتذللاً لعظمته واستكانة لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر؛ فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها وردَّه إليها ووعده بالإخراج منها؛ فهي أمه وأبوه وأصله وفصله، فضمته حيًا على ظهرها، وميتًا في بطنها، وجُعلت له

طهراً ومسجـداً، فأُمر بالسجود إذ هو غاية خشـوع الظاهر وأجمع العبودية لسائر الأعضـاء، فيعفـر وجهه بالتراب اسـتكانة وتواضعًا وخضـوعًا وإلقاء باليدين. قال مسروق لسعيد بن جـبير: ما بقي شيء يُرغب فيه إلاّ أن نعفر وجـوهنا في هذا التراب له. وكـان النبي ﷺ لا يتـقي الأرض بوجهـه قصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سـجد في الماء والطين... قال الله تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

ولما كانت العبـودية غاية كمال الإنسان، وقربه من الله بحـسب نصيبه من عبوديتـه، وكانت الصلاة جامعـة لمتفرق العبـودية متضمنة لأقسـامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السـجود أفضل أركـانها الفعلـية وسرها الذي شـرعت لأجله، وكان تكرره في الصـلاة أكثـر من تكرار سائر الأركـان، وجعله خـاتمة الركـعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركـوع؛ فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فـيه من الثـناء على الله ما يناسـبه، وهو قـول العبـد «سبحـان ربي الأعلى»، فهـذا أفضل مـا يقال فيـه، ولم يرد عن النبي ﷺ أمـــره في السجود بغـيره؛ حيث قال: (**اجعلوها في سـجودكم**)[1]. ومن تركه عـمدًا فصـلاته باطلة عند كثيـر من العلماء، منهم الإمـام أحمد وغـيره؛ لأنه لم يفعل ما أُمر به. وكان وصف الرب بالعلـو في هذه الحال في غاية المناسبة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ح٨٦٩، وأحمد في المسند: ٤/ ١٥٥.

لحال الساجد الذي قد انحط إلى السفل على وجهه، فذكر علو ربه في حاله سقوطه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه. أهـ[١].

[الالتفات في الصلاة]

[الالتفات نوعان]: **أحدهما**: التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى.

الثاني: التفات البصر. وكلاهما منهي عنه. ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: (**اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**)[٢] وفي أثر يقول الله تعالى: (**إلى خير مني إلى خير مني؟**) ومَثَلُ من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالاً، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به لأن قلبه ليس حاضراً معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مبعدًا قد سقط من عينيه؟

---

(١) الصلاة وحكم تاركها: ١٢٧ - ١٢٩ باختصار.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة، ح ٧٥١.

فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره أو يلتفت عنه. وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل ما بين السماء والأرض؛ وذلك أن أحدهما مقبل على الله عز وجل، والآخر ساه غافل.

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقريبًا فما الظن بالخالق عز وجل؟ وإذا أقبل على الخالق عز وجل وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفة بها ملأى منها، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار وذهبت به كل مذهب؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه؛ فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهوِّن عليه شأن الصلاة فيتهاون بها فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيُذكِّره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي شيئًا [أو حاجة][(١)] وأيس منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ويأخذه عن

---

(١) في الأصل: والحاجة، والتصحيح من قبلنا ليتسق الكلام.

الله عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة؛ فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطًا وراحة وروحًا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرة عينيه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها. فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: **(يا بلال أرحنا بالصلاة)**(١) ولم يقل أرحنا منها، وقال ﷺ: **(جعلت قرة عيني في الصلاة)**(٢)، فمن جعلت قرة عينه في الصلاة كيف تقر عينه بدونها؟ وكيف يطيق الصبر عنها؟(٣). أهـ.

[التخفيف والتطويل في الصلاة]

الإيجاز والتخفيف المأمور به، والتطويل المنهي عنه [في الصلاة] لا يمكن أن يرجع فيه إلى عادة طائفة وأهل بلد وأهل مذهب، ولا إلى شهوة المأمومين ورضاهم، ولا إلى اجتهاد الأئمة الذين يصلون بالناس ورأيهم في

---

(١) سبق تخريجه ص ١٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ٣/ ٢٨٥، والنسائي في السنن، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، ح ٣٩٤٠.

(٣) الوابل الصيب: ٣٥ - ٣٧.

ذلك؛ فإن ذلك لا ينضبط، وتضطرب فيه الآراء والإرادات أعظم اضطراب، ويفسد وضع الصلاة، ويصير مقدارها تبعًا لشهوة الناس. ومثل هذا لا تأتي به شريعة، بل المرجع في ذلك والتحاكم إلى ما كان يفعله من شرع الصلاة للأمة وجاءهم بها من عند الله، وعلَّمهم حقوقها وحدودها وهيآتها وأركانها. وكان يصلي وراءه الضعيف والكبير والصغير وذو الحاجة، ولم يكن بالمدينة إمام غيره صلوات الله وسلامه عليه. فالذي كان يفعله صلوات الله عليه وسلامه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وقد سئل بعض أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما لك في ذلك من خير، فأعادها عليه، فقال: «كانت صلاة الظهر تقام فينطلق أحدنا إلى البقيع فيقضي حاجته، ثم يأتي أهله فيتوضأ، ثم يرجع إلى المسجد ورسول الله ﷺ في الركعة الأولى مما يطولها»(١). رواه مسلم في الصحيح. وهذا يدل على أن الذي أنكره أبو سعيد وأنس وعمران بن الحصين والبراء بن عازب إنما هو حذف الصلاة والاختصار فيها والاقتصار على بعض ما كان رسول الله ﷺ يفعله. ولهذا لما صلى بهم أنس قال: إني لا آلو أن أصلي بكم صلاة رسول الله ﷺ، قال ثابت: فكان أنس يصنع شيئًا لا أراكم تصنعونه؛ كان إذا انتصب قائمًا يقوم حتى يقول القائل قد أوهم، وإذا جلس بين السجدتين مكث حتى يقول القائل قد أوهم. فهذا مما أنكره أنس على الأئمة حيث كانوا يقصرون هذين الركنين، كما أنكر عليهم تقصير الركوع والسجود، وأخبر أن أشبههم صلاة

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، ح ٤٥٤.

برسول الله ﷺ عمر بن عبدالعزيز، فحزروا تسبيحه في الركوع والسجود عشرًا عشرًا.

ومن المعلوم أنه لم يكن يسبحها هذًّا مسرعًا من غير تدبر، فحالهم أجل من ذلك. وقد بلي أنس بمن وهَّمه في ذلك كما بلي بمن وهَّمه في روايته ترك رسول الله ﷺ في صلاته الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: كان صغيرًا يصلي وراء الصفوف فلم يكن يسمع جهره بها، وكما بلي بمن وهَّمه في إحرام رسول الله ﷺ بالحج والعمرة معًا وقالوا: كان بعيدًا منه لا يسمع إحرامه، حتى قال لهم: ما تعدونني إلا صبيًا؛ كنت تحت بطن ناقة رسول الله ﷺ فسمعته يهلّ بهما جميعًا. وقدم رسول الله ﷺ المدينة ولأنس عشر سنين فخدمه واختص به، وكان يُعَدُّ من أهل بيته. وكان غلامًا كيِّسًا فطنًا. وتوفي رسول الله ﷺ وهو رجل كامل له عشرون سنة، ومع هذا كله فيغلط على رسول الله ﷺ في قراءته وقدر صلاته وكيفية إحرامه! ويستمر غلطه على خلفائه الراشدين من بعده! ويستمر على صلاته في مؤخر المسجد حيث لا يسمع قراءة أحد منهم! وقد اتفق الصحابة على أن صلاة رسول الله ﷺ كانت معتدلة؛ فكان ركوعه ورفعه منه وسجوده ورفعه منه مناسبًا لقيامه. فإذا كان يقرأ في الفجر بمائة آية إلى ستين آية فلا بد أن يكون ركوعه وسجوده مناسبًا لذلك، ولهذا قال البراء ابن عازب: إن ذلك كله كان قريبًا من السواء. وقال عمران بن حصين: كانت صلاة رسول الله ﷺ معتدلة، وكذلك كان قيامه بالليل وصلاة الكسوف. وقال عبد الله بن عمر: «إن كان رسول الله ﷺ ليأمرنا

بالتخفيف، وإن كان ليؤمنا بالصافات». رواه الإمام أحمد والنسائي[١].

فهذا أمره وهذا فعله المفسر له، لا ما يظن الغالط المخطئ أنه كان يأمرهم بالتخفيف ويفعل هو خلاف ما أمر به، وقد أمر صلاة الله وسلامه عليه الأئمة أن يصلوا بالناس كما كان يصلي بهم؛ ففي الصحيحين عن مالك بن الحويرث قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمن تركنا من أهلنا فأخبرناه، فقال: (**ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلِّموهم، ومُروهم فليصلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا، وإذا حضرت الصلاة فليُؤذِّن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم، وصلوا كما رأيتموني أصلي**)[٢] والسياق للبخاري.

فهذا خطاب للأئمة قطعًا وإن لم يختص بهم، فإذا أمرهم أن يصلوا بصلاته وأمرهم بالتخفيف علم بالضرورة أن الذي كان يفعله هو الذي أمر به. يوضح ذلك أنه ما من فعل في الغالب إلاّ وقد يسمى خفيفًا بالنسبة إلى ما هو أطول منه، ويسمى طويلاً بالنسبة إلى ما هو أخف منه، فلا حد له في اللغة يُرجع فيه إليه. وليس من الأفعال العرفية التي يرجع فيه إلى العرف كالحرز والقبض وإحياء الموات، والعبادات يرجع إلى الشارع في مقاديرها وصفاتها وهيآتها كما يرجع إليه في أصلها، فلو جاز الرجوع في ذلك إلى عُرف الناس وعوائدهم في مسمى التخفيف والإيجاز لاختلفت

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٢/٢٦، ٤٠، والنسائي في السنن، كتاب الإمامة، ح ٨٢٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، ح ٦٣١، بلفظ مقارب.

أوضاع الصلاة ومقاديرها اختلافًا متباينًا لا ينضبط. ولهذا لما فهم بعض من نكس الله قلبه أن التخفيف المأمور به هو ما يمكن من التخفيف اعتقد أن الصلاة كلما خفت وأوجزت كانت أفضل، فصار كثير منهم يمر فيها مر السهم ولا يزيد على «الله أكبر» في الركوع والسجود بسرعة، ويكاد سجوده يسبق ركوعه، وركوعه يكاد يسبق قراءته، وربما ظن الاقتصار على تسبيحة واحدة أفضل من ثلاث. ويحكى عن بعض هؤلاء أنه رأى غلامًا له يطمئن في صلاته فضربه وقال: لو بعثك السلطان في شغل أكنت تبطئ في شغله مثل هذا الإبطاء؟! وهذا كله تلاعب بالصلاة، وتعطيل لها وخداع من الشيطان، وخلاف لأمر الله ورسوله حيث قال تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] فأمرنا بإقامتها وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علَّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعًا، بل لا يحصل الخشوع قط إلاّ مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعًا، وكلما قلَّ خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية ولا معرفة حقيقة العبودية، والله سبحانه قد قال ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من

التنزيل إلاّ مقرونًا بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر ﷺ: «الحاج قليل والركب كثير»، فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويج تحلة القسم، ويقولون يكفينا أدنى ما يقع عليه الاسم، وليتنا نأتي به، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم فتعرضها على الرب جل جلاله بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم، فليس مَن عمد إلى أفضل ما يقدر عليه فيزينه ويحسنه ما استطاع ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه كمن يعمد إلى أسقط ما عنده وأهونه عليه فيستريح منه ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع. وليست من كانت الصلاة ربيعًا لقلبه وحياة له وراحة وقرة لعينه وجلاء لحزنه وذهابًا لهمه وغمه ومفزعًا له إليه في نوائبه ونوازله كمن هي سحت لقلبه، وقيد لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه، فهي كبيرة على هذا وقرة عين وراحة لذلك. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه؛ فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله. قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيى: «إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة».

فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك؛ فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك. وليس حظ

القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك. فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة وقف هذا بقلب مخبت خاشع له، قريب منه سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، خالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات، وعلوها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همه على الله وقرَّت عينه به، وأحس بقربه من الله قربًا لا نظير له، ففرغ قلبه له وأقبل عليه بكليته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه؛ فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول(١). أهـ.

[النقَّارون]

حديث معاذ هو الذي فتن النقارين وسُراق الصلاة، لعدم علمهم بالقصة وسياقها.

فإن معاذًا صلى مع النبي ﷺ عشاء الآخرة، ثم ذهب إلى بني عمرو ابن عوف بقباء، فقرأ بهم سورة البقرة. هكذا جاء في الصحيحين من حديث جابر: أنه استفتح بهم بسورة البقرة، فانفرد بعض القوم وصلى وحده، فقيل: نافق فلان! فقال: والله ما نافقت، ولآتين رسول الله

---

(١) الصلاة وحكم تاركها: ١١٦ - ١٢٠.

ﷺ، فأتاه فأخبره، فقال النبي ﷺ حينئذ: **(أفتان أنت يا معاذ؟! هلاَّ صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟)**(١).

وهكذا نقول: إنه يستحب أن يصلي العشاء بهذه السور وأمثالها. فأي متعلق في هذا للنقَّارين وسُرَّاق الصلاة؟ ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان يؤخر العشاء الآخرة، و [معلوم](٢) بعد ما بين بني عمرو بن عوف وبين المسجد، ثم طول سورة البقرة؛ فهذا الذي أنكره النبي ﷺ، وهو موضع الإنكار، وعليه يحمل الحديث الآخر: **(يا أيها الناس، إن منكم مُنَفِّرين)**(٣) ومعلوم أن الناس لم يكونوا ينفرون من صلاة رسول الله ﷺ ولا ممن يصلي بقدر صلاته، وإنما ينفرون ممن يزيد في الطول على صلاته، فهذا الذي ينفر.

وأما إن قُدِّر نفور كثير ممن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، وكثير من الباطولية الذين يعتادون النقر، كصلاة المنافقين، وليس لهم في الصلاة ذوق ولا لهم فيها راحة، بل يصليها أحدهم استراحة منها لا بها، فهؤلاء لا عبرة بنفورهم، فإن أحدهم يقف بين يدي مخلوق معظم اليوم، ويسعى في خدمته أعظم السعي، فلا يشكو طول ذلك ولا يتبرم به، فإذا وقف بين يدي ربه في خدمته جزءًا يسيرًا من الزمان، وهو أقل القليل بالنسبة إلى

---

(١) رواه البخاري بنحوه في الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، ح ٧٠٥، ومسلم بنحوه في الصلاة، باب القراءة في العشاء، ح ٤٦٥.

(٢) ما بين معكوفين إضافة لتوضيح السياق.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، ح ٦١١٠، ومسلم، كتاب الصلاة، ح ٤٦٦.

وقوفه في خدمة المخلوق، استثقل ذلك الوقوف، واستطال وشكا منه، وكأنه واقف على الجمر يتلوى ويتقلى. ومن كانت هذه كراهته لخدمة ربه والوقوف بين يديه فالله تعالى أكره لهذه الخدمة منه وبالله المستعان[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مختصر سنن أبي داود: ١/٤١٦.



الفصل الثاني: الصيام

[المقصود من الصيام]

المقصودُ مِن الصيام حبسُ النفسِ عن الشهوات، وفِطامها عن المألوفات، وتعديلُ قوتها الشهوانية، لتستعدَّ لطلب ما فيه غايةُ سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتُها الأبدية، ويكسرِ الجوعُ والظمأ مِن حِدَّتِها وسَوْرتِها، ويُذكِّره بحال الأكباد الجائعةِ من المساكين، وتضيق مجاري الشيطانِ من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قُوى الأعضاء عن استرسالها لحكمْ الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكّنُ كُلُّ عضوٍ منها وكُلُّ قوةٍ عن جماحه، وتلجم بلجامه؛ فهو لجامُ المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال؛ فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذُّذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربه لا يَطَّلِعُ عليهِ سواه، والعبادُ قد يَطَّلِعُون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخبط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها

أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصومُ يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أبر العون على التقوى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ (**الصوم جنة**)(١). وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح، ولا قدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وحِمية لهم وجنة(٢).

[من حكم الصيام]

الصوم ناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها، وتُخْرِجها عن شَبَهِ البهائم إلى شَبَهِ الملائكة المقربين؛ فإن النفس إذا خُلِّيَت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كُفَّت شهواتها لله ضُيقت مجاري الشيطان، وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهواتها؛ محبةً له، وإيثارًا لمرضاته، وتقربًا إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقًا بنفسه، من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه، فهو عبادة، ولا تُتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله؛ فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، ح ٧٤٩٢، ومسلم، كتاب الصيام، ح ١١٥١.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٢٨ - ٣٠.

ربه؛ وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى، وبهذا فسر النبي ﷺ هذه الإضافة في الحديث فقال: (**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها، قال الله: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجلي**)(١)، حتى إن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضا الله.

وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمع النفس، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها، وترغب فيما عند الله، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكرًا.

وبالجملة؛ فعون الصوم على تقوى الله أمرٌ مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهد لمن شرعه وأمر به أنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحسانًا إلى عباده، ورحمة بهم، ولطفًا بهم، لا بخلا عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة، وأنَّ شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم، ورحمته بهم(٢). أهـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب الصوم، ح ١٩٠٤، ومسلم، كتاب الصيام، ح ١١٥١ واللفظ له.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

[خلوف فم الصائم]

[قال الرسول ﷺ : (.. **ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**)[1]].

أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة، فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر وتبدو على الوجوه وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسود وجوههم، وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون فلأنه وقت ظهور أثر العبادة، ويكون حينئذ طيبها على ريح المسك عند الله تعالى وعند ملائكته، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد فرب مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى، وبالعكس، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد وصار علانية، وهكذا سائر آثار الأعمال من الخير والشر.

وإنما يكمل ظهورها ويصير علانية في الآخرة، وقد يقوى العمل ويتزايد حتى يستلزم ظهور بعض أثره على العبد في الدنيا في الخير والشر كما هو مشاهد بالبصر والبصيرة.

قال ابن عباس ﷺ: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في القلب،

(١) هو تتمة الحديث السابق نفسه، ص ٣٧.

وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

وقال عثمان بن عفان ﷺ: «ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله رداءه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر» وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتى إن الرجل الطيب البر لتشم منه رائحة طيبة وإن لم يمس طيبًا، فيظهر طيب رائحة روحه، على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس. والمزكوم الذي أصابه الهوى لا يشم لا هذا ولا هذا، بل زكامه يحمله على الإنكار. فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب[1]. أهـ.

[أثر الاعتكاف]

لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفًا على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى - فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى - وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام، مما يزيدة شعثًا، ويُشتته في كل واد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه، أو يعوقه ويوقفه: اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط

(١) الوابل الصيب: ٤٨ - ٤٩.

الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيَّتُه عليه، والخلوةُ به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبالُ عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كُلُّه به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيُعدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم يُنقل عن النبي ﷺ، أنه اعتكف مفطرًا قَطُّ، بل قد قالت عائشة رضي الله عنها: «لا اعتكاف إلا بصوم»[(١)].

ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم.

فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف أن الصوم شرطٌ في الاعتكاف، وهو الذي كان يُرجِّحه شيخُ الإسلام أبو العباس ابن تيمية[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب المعتكف يعود المريض، ح ٢٤٧٣.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٨٦ - ٨٨.

الفصل الثالث: الصدقة

[هدي النبي ﷺ في صدقة التطوع]

كـان ﷺ أعظم الناس صدقةً بما ملكت يده، وكان لا يسـتكثر شيئًا أعطاه لله تعالى، ولا يسـتقله، وكان لا يسـأله أحد شيـئًا عنده إلا أعطاه، قليلاً كـان أو كثيرًا، وكـان عطاؤه عطاء مَنْ لا يخاف الفقـر، وكان العطاء والصدقةُ أحب شيء إليـه، وكان سُرورُه وفرحُه بمـا يعطيه أعظمَ من سرور الآخذِ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة.

وكان إذا عرض له مُـحتاج آثره على نفسه؛ تارةً بطعامـه وتارةً بلباسه، وكان ينوِّع في أصناف عطائه وصدقته؛ فـتارةً بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعًا، كما فعل ببعـير جـابر. وتارة كان يقـترض الشيء فيـرد أكثـر منه، وأفضل وأكـبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهديَّة ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافـها؛ تلطفًا وتنوعًا فـي ضروب الصدقة والإحسـان بكل ممكن، وكانت صـدقته وإحسـانه بما يملكه، وبحاله، وبـقوله، فيخـرج ما عنده، ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليـها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحـيح دعاه حاله إلى البذل والـعطاء، وكان من خالطه وصحـبه، ورأي هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى.

وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا؛ فإن للصدقة وفعلِ المعروف تأثيرًا عجيبًا في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره بالنبوة والرسالة، وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حسًا وإخراج حظ الشيطان منه(١).

[الحث على الإنفاق وأحوال المتصدقين]

قال تعالى: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني؛ فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل وما يدعو إليه داعي الإنفاق وبيان ما يدعو به داعي الأمرين؛ فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن انفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق؛ فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل؛

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٢ - ٢٣.

فهـذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعـده، الغارّ الفاجـر في أمره. فالمستجـيب لدعوته مغرور مخدوع مغبـون؛ فإنه يُدلِّي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد كما قال:

دلاهم بُغـرور ثم أوردهم   إن الخبيث لمن والاه غرّار

هذا وإن وعده له الفـقر ليس شـفقة علـيه ولا نصيـحة له كـما ينصح الرجل أخـاه، ولا محـبة في بقـائه غنيًا، بل لا شيء أحب إليـه من فـقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقـر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحـانه فإنه يعد عبده مغفـرة منه لذنوبه، وفضلا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافـه إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان، فلينظر البـخيل والمنفق أي الوعدين هو أوثق وإلى أيهم يطمئن قلبـه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء ويخـذل من يشاء وهو الواسع العليم. وتأمل كـيف خـتم هذه الآية بهذين الاسـمين؛ فـإنه واسع العطاء عليم بمن يسـتحق فـضله ومن يستـحق عدله، فـيعطي هذا بفـضله ويمنع هذا بعدلـه وهو بكل شيء عليم... وقد أخبـر سبحـانه عن أحوال المتقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها بعد أن تكون خالصة لوجه فقال: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] أي فنعم شيء هي، وهذا مـدح لها مـوصوفة بكونهـا ظاهرة بادية فلا يـتوهم مبـديها بطلان أثره وثوابه فـيمنعـه ذلك من إخراجهـا وينتظر بها الإخـفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويـحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين إخراجها، فلا

يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة. ثم قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها. وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش وبناء قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى وأنه لا شي له فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة. ولهذا جعله سبحانه خيرًا للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته. ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها. وإن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصًا لأنها صادرة عن إيمانهم، وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولايظلم منها مثقال ذرة. وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم، بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من

يشاء لمرضاته[١]. أهـ.

[السنابل]

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة: ٢٦١] شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله - سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر - كمن بذر بذرًا، فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعة نفسه ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه، وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبَّه الإنفاق بالبذر؛ فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية فمغله بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال

---

(١) طريق الهجرتين: ٣٧٤ - ٣٧٧.

الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوة - وهي المكان المرتفع الذي تكن الجنة فيه نصب الشمس والرياح - فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع، فرواها ونمَّاها، فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل، فطَلٌّ: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل، وينمى عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع مثقال ذرة[1]. أهـ.

[فضل أهل الصدقة والإحسان والتحذير من المنِّ]

أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم - على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم في مهماتهم - هم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق)**[2] يعني أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا على نعمة ويتمنى مثلها إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق؛ فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه، كتاب الزكاة، ح ١٤٠٩، ومسلم بنحوه أيضًا، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ٨١٦.

بماله، والخلق كلهم عيال الله؛ أحبهم إليه أنفعهم لعياله. ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟ وسمَّى ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوَّعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض مليّ وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه

من البخل والشح أو عدم الشقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها. وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية؛ فإنه سماها قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض، واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح؛ فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به. ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة: **أحدها** أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ.

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١] ، وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثَّل سبحانه بهذا المثل إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غُيبت في الأرض فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين

إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة، فينضاف الشاهدالعياني إلى الشاهد الإيماني القرآني فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق. وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة، اذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، قيل: المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، ولصفات المنفق وأحواله في شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة. واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة. وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق المثل للممثل به. فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر. فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به البذر إذ هو المحل الذي حصلت به المضاعفة، وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره. فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان، وهذا كثير في أمثال القرآن، بل عامتها ترد على هذا النمط. ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع العليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه؛ فإن

المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يضمن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لايستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهل بحكمته وعلمه.

ثم قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾**﴾ [البقرة: ٢٦٢]، هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله أي في مرضاته والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها سبيل الجهاد. وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام. وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى، فالمنُّ نوعان: أحدهما منٌّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فللَّه المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منَّة لغيره؟ والنوع الثاني أن يمن عليه بلسانه فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقًا وطوقه منَّة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول أعطيتك فما شكرت. وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئًا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة لا تنسوها. وفي ذلك قيل:

وإنَّ امرءا أهدى إلي صنيعة وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضن.

وحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة واختص به صفة لنفسه؛ لأن منَّ العباد تكدير وتعيير، ومنَّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير. وأيضًا فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة. وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله. وأيضا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله. وأيضًا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذ مستعليًا عليه غنيًا عنه عزيزًا، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد. وأيضا فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى فبقي عوض ما أعطى عند الله. فأي حق بقي له قِبَل الآخذ؟ فإذا امتن عليه فقد ظلمه ظلمًا بينًا، وادعى أن حقه في قلبه. ومن هنا - والله أعلم - بطلت صدقته بالمن، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعِوَض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له. فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته، ولا إله غيره ولا رب سواه. ونبه بقوله: ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى﴾ على أن المنّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتى بالواو وقال: «ولا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى» لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا

كان المنُّ والأذى المتراخي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعًا من الثواب فالمقارن أولى وأحرى. وتأمل كيف جرَّد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي، هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الانفاق بالليل والنهار سرًا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد في ليل أو نهار وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية؛ فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه. فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له[1]. أهـ.

---

(١) طريق الهجرتين: ٣٦٢ - ٣٦٦.

[آفة الإنفاق]

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة: ٢٦٤] المن والأذى يبطل الثواب الذي كانت [الصدقات] سببًا له؛ فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان - وهو الحجر الأملس - عليه تراب فأصابه وابل، وهو المطر الشديد، فتركه صلدًا لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمة القرآن وجلالته؛ فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي، فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل، فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ. وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه، فبرز من تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته؛ لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه، وبالله التوفيق[1]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٢٠٢ - ٢٠٣.



الفصل الرابع: الحج

[التلبية]

اشتملت كلمات التلبية على قواعد عظيمة وفوائد جليلة:

إحداها: أن قولك «لبيك» يتضمن إجابة داع دعاك ومناد ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلم ولا يدعو من أجابه.

الثانية: أنها تتضمن المحبة . . . ولايقال لبيك إلا لمن تحبه وتعظمه؛ ولهذا قيل في معناها: أنا مواجه لك بما تحب، وأنها من قولهم: امرأة لبة؛ أي محبة لولدها.

الثالثة: أنها تتضمن التزام دوام العبودية؛ ولهذا قيل: هي من الإقامة؛ أي أنا مقيم على طاعتك.

الرابعة: أنها تتضمن الخضوع والذل؛ أي خضوعًا بعد خضوع، من قولهم: أنا ملب بين يديك، أي خاضع ذليل.

الخامسة: أنها تتضمن الإخلاص؛ ولهذا قيل: إنها من اللب، وهو الخالص.

السادسة: أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب تعالى؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لبيك لمن لا يسمع دعاءه.

السابعة: أنها تتضمن التقرب من الله؛ ولهذا قيل: إنها من الإلباب، وهو التقرب.

الثامنة: أنها جعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال، ومن منسك إلى منسك، كما جعل التكبير في الصلاة سبعًا للانتقال من ركن إلى ركن، ولهذا كانت السُّنة أن يلبي حتى يشرع في الطواف، فيقطع التلبية، ثم إذا سار لبى حتى يقف بعرفة فيقطعه، ثم يلبي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها. فالتلبية شعار الحج والتنقل في أعمال المناسك، فالحاج كلما انتقل من ركن إلى ركن قال «لبيك اللَّهم لبيك» كما أن المصلي يقول في انتقاله من ركن إلى ركن «الله أكبر»، فإذا حلَّ من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلي قاطعًا لتكبيره.

التاسعة: أنها شعار التوحيد ملة إبراهيم، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلها والمقصود منها. ولهذا كانت التلبية مفتاح هذه العبادة التي يدخل فيها بها.

العاشرة: أنها متضمنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنه لا شريك له.

الحادية عشرة: أنها مشتملة على الحمد لله الذي هو من أحب ما يتقرب به العبد إلى الله، وأول من يُدعى إلى الجنة أهله، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

الثانية عشرة: أنها مشتملة على الاعتراف لله بالنعمة كلها؛ ولهذا عرَّفها باللام المفيدة للاستغراق؛ أي النعم كلها لك، وأنت موليها والمنعم بها.

الثالثة عشرة: أنها مشتملة على الاعتراف بأن الملك كله لله وحده؛ فلا ملك على الحقيقة لغيره.

الرابعة عشرة: أن هذا المعنى مؤكد الثبوت بـ «إن» المقتضية تحقيق الخبر وتثبيته، وأنه مما لا يدخله ريب ولا شك.

الخامسة عشرة: في «إن» وجهان: فتحها وكسرها؛ فمن فتحها تضمنت معنى التعليل؛ أي لبيك لأن الحمد والنعمة لك، ومن كسرها كانت جملة مستقلة مستأنفة، تتضمن ابتداء الثناء على الله، والثناء إذا كثرت جمله وتعددت كان أحسن من قلتها، وأما إذا فتحت فإنها تقدر بلام التعليل المحذوفة معها قياسًا والمعنى لبيك لأن الحمد لك. والفرق بيِّنٌ بين أن تكون جملة الثناء علة لغيرها، وبين أن تكون مستقلة مرادة لنفسها، ولهذا قال ثعلب: من قال: «إن» بالكسر فقد عم ومن قال «أن» بالفتح فقد خص. ونظير هذين الوجهين والتعليلين والترجيح سواء: قولُه تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٨] كسر «إن» وفتحها. فمن فتح كان المعنى ندعوه لأنه هو البر الرحيم، ومن كسر كان الكلام جملتين: إحداهما قوله: «ندعوه»، ثم استأنف فقال: «إنه هو البر الرحيم»؛ قال أبو عبيد: والكسر أحسن، ورجحه بما ذكرناه.

السادسة عشرة: أنها متضمنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله عز وجل، وهذا نوع آخرمن الثناء عليه غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العلية؛ فله سبحانه من أوصافه العلى نوعا ثناء: نوع متعلق بكل صفة على انفرداها، ونوع متعلق باجتماعها، وهو كمال مع كمال، وهو عامة الكمال، والله سبحانه يفرق في صفاته بين الملك والحمد، وسوغ هذا

المعنى أن اقتران أحدهما بالآخر من أعظم الكمال، والملك وحده كمال، والحمد كمال، واقتران أحدهما بالآخر كمال، فإذا اجتمع الملك المتضمن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبته، كان في ذلك من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به وهو أهله، وكان في ذكر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه، والتوجه بدواعي المحبة كلها إليه ما هو مقصود العبودية ولبها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...

السابعة عشرة: أن النبي ﷺ قال: (**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**)[(١)] وقد اشتملت التلبية على هذه الكلمات بعينها، وتضمن معانيها.

وقوله: (**وهو على كل شيء قدير**) لك أن تدخلها تحت قولك في التلبية: «لا شريك لك»، ولك أن تدخلها تحت قولك «إن الحمد والنعمة لك»، ولك أن تدخلها تحت إثبات الملك له تعالى؛ إذ لو كان بعض الموجودات خارجًا عن قدرته وملكه، واقعًا بخلق غيره، لم يكن نفي الشريك عامًا، ولم يكن إثبات الملك والحمد له عامًا، وهذا من أعظم المحال، والملك كله له، والحمد كله له، وليس له شريك بوجه من الوجوه.

الثامنة عشرة: أن كلمات التلبية متضمنة للرد على كل مبطل في صفات الله وتوحيده؛ فإنها مبطلة لقول المشركين على اختلاف طوائفهم

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات باب في دعاء يوم عرفة، ح ٣٥٨٥.

ومقالاتهم، ولقول الفلاسفة وإخوانهم من الجهمية المعطلين لصفات الكمال التي هي متعلق الحمد؛ فهو سبحانه محمود لذاته ولصفاته ولأفعاله، فمن جحد صفاته وأفعاله فقد جحد حمده، ومبطلة لقول مجوس الأمة القدرية الذين أخرجوا عن ملك الرب وقدرته أفعال عباده من الملائكة والجن والإنس، فلم يثبتوا له عليها قدرة، ولا جعلوه خالقًا لها، فعلى قولهم لا تكون داخلة تحت ملكه؛ إذ من لا قدرة له على شيء كيف يكون هذا الشيء داخلاً تحت ملكه؟ فلم يجعلوا الملك كله لله، ولم يجعلوه على كل شيء قدير، وأما الفلاسفة فعندهم: لا قدرة له على شيء البتة. فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطلة.

التاسعة عشرة: في عطف الملك على الحمد والنعمة بعد كمال الخبر - وهو قوله: «إن الحمد والنعمة لك والملك»، ولم يقل إن الحمد والنعمة والملك لك - لطيفة بديعة؛ وهي أن الكلام يصير بذلك جملتين مستقلتين؛ فإنه لو قال: إن الحمد والنعمة والملك لك، كان عطف الملك على ما قبله عطف مفرد على مفرد، فلما تمت الجملة الأولى بقوله «لك» ثم عطف الملك، كان تقديره: والملك لك، فيكون مساويًا لقوله: (**له الملك وله الحمد**)، ولم يقل له الملك والحمد، وفائدته تكرار الحمد في الثناء.

العشرون: لما عطف النعمة على الحمد ولم يفصل بينهما بالخبر، كان فيه إشعار باقترانهما وتلازمهما، وعدم مفارقة أحدهما للآخر؛ فالإنعام والحمد قرينان.

الحادية والعشرون: في إعادة الشهادة له بأنه لا شريك له لطيفة؛ وهي أنه أخبر أنه لا شريك له عقب إجابته بقوله لبيك، ثم أعادها عقب قوله: «إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وذلك يتضمن أنه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك، والأول يتضمن أنه لا شريك لك في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾**﴾ [آل عمران: ١٨]، فأخبر بأنه لا إله إلا هو في أول الآية، وذلك داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثم أخبر عن قيامه بالقسط وهو العدل ، فأعاد الشهادة بأنه لا إله إلا هو مع قيامه بالقسط. أهـ[1].

❁ ❁ ❁

(١) مختصر سنن أبي داود: ٢/٣٣٧ - ٣٤٠.

الفصل الخامس: القرآن الكريم

[فوائد تدبر القرآن]

التأمل في القرآن هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن ﷺ: نزل القرآن ليُتدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً؛ فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه وجمع الفكر على معنى آياته؛ فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلّ[1] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتُحْضِره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتُبَصِّره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه

---

(١) تَتُلّ: أي تدفع أو تُلقي.

وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول إليه والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتُمَيِّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم؛ فتريه الحق حقًا والباطل باطلاً، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأنٍ والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعِلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يُنَزَّهُ عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسُّفلي، وما

يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقَدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتراح طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربِّه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقَع في العَناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته ونَى في سيره: تقدَّم الركبُ وفاتك الدَّليل، فاللحاقَ اللحاقَ والرَّحيل الرَّحيل، وتَحْدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعْتَصِمْ بالله واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرناه من الحكم والفوائد. وبالجملة فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى

قرار معانيه. أهـ [(١)].

[تدبر القرآن يورث محبة الله تعالى]

تأمّلْ خطاب القـرآن تجد مَلِكًا له المُلْكُ كلـه، وله الحمد كـله، أزِمَّةُ الأمور كلها بيده، مصدرها منه، ومـردُّها إليه، مستويًا على سرير ملكه لا تخفى عليه خـافية في أقطار مملكته، عـالِمًا بما في نفوس عبـيده، مُطَّلِعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع، ويرى، ويعطي، ويمنع، ويثـيب، ويعـاقب، ويُكرم، ويُهـين، ويخلق، ويرزق، ويُمـيت، ويُحيي، ويقدِّر، ويقـضي، ويدّبر. الأمورُ نازلةٌ من عنده دقيقـها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرّك في ذرّة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلاَّ بعلمه.

فتـأمَّلْ كيف تجده يثنـي على نفسه، ويمـجد نفسـه، ويحمد نفـسه، وينصح عـباده، ويدلهم على مـا فيه سـعادتهم وفـلاحهم ويرغـبهم فـيه، ويحذرهم مـما فيه هلاكـهم، ويتعرض إليهم بأسـمائه وصفاته، ويتـحبب إليهم بنعـمه وآلائه. فيذكّـرهم بنِعَمه عليهم، ويأمـرهم بما يستوجـبون به تمـامهـا، ويحـذرهم من نقمـه. ويذكّـرهم بما أعـدَّ لهم من الكرامـة إن أطاعوه، وما أعدَّ لـهم من العقوبة إن عصوه. ويخبـرهم بصنعه في أوليائه وأعـدائه وكيف كـانت عاقـبة هؤلاء وهؤلاء. ويـثني على أوليائه بصـالح أعمالهم، وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٤٠ - ٤٤٢.

ويضرب الأمثال، وينوِّع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شُبَه أعدائه أحسن الأجوبة، ويُصدِّق الصادق، ويُكذِّب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل.

ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرّة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرّة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مُقيلُ عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليّهم الذي لا وليّ لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوِّهم؛ فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن مَلِكًا عظيمًا، رحيمًا، جوادًا، جميلاً، هذا شأنه؛ فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودُّد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه، والشوق إليه، والأنس به، هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إذا فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم

تنتفع بحياتها؟[١].

[شهادة الله تعالى للقرآن]

من شهادة [الله سبحانه للقرآن] ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه؛ فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته؛ بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر - التي فطر عليها الحيوان - الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي كالأبوال والأنتان؛ فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه. ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره؛ ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن؛ فإن كل من تدبره أوجب له تدبرُه علمًا ضروريًا ويقينًا جازمًا أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق؛ وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم، وأكملهم علمًا وعملاً ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

---

(١) الفوائد: ٥١٠.

فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية - من الفرح، والألم، والحب، والخوف - أنه من عند الله تكلم به حقًا، وبَلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد؛ فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يَرْتَدُّ أحد منهم سَخَطَة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد».

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧].

يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية، بل الله هو الذي يهدي ويضل؛ ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي بكتابه وكلامه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب

والافتراء والباطل أهـ[١].

[في الفاتحة شفاء القلوب]

أما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنـها اشتملت عليه أتم اشتمال؛ فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان؛ وهما الضـلال والغضب. فالضلال نتيجة فسـاد العلم، والغضب نتـيجة فـساد القصـد. وهذان المرضان همـا ملاك أمراض القلوب جميعها؛ فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضـلال، ولذلك كـان سـؤال هـذه الهـداية أفـرض دعـاء على كل عبـد، وأوجـبَهُ عليـه كل يوم وليلة، في كل صـلاة، لشـدة ضرورته وفـاقتـه إلى الهداية المطلوبة. ولا يقوم غير هـذا السـؤال مقامه.

والتحـقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفـة، وعملاً وحالاً يتضـمن الشفاء من مرض فـساد القلب والقصـد؛ فإن فساد القـصـد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسـل إليهـا بأنواع الوسـائل الموصـلة إليها كـان كِلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءهـا، وأصحـاب الرياسات المتبعين لإقـامة رياسـتهم بأي طـريق كـان من حـق أو باطـل. فـإذا جاء الحق مـعارضًـا في طـريق

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٤٠٩ - ٤١١.

رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين؛ لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي

من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره، بأمره وشرعه لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، واستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله، ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإذا ركَّبها الطبيب اللطيف العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرياء والكبر؛ فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة وكان من المنعَم عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، و﴿الضَّالِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه وفهمت عنه فهمًا خاصًا اختصها به من معاني هذه السورة. أهـ[١].

[فضائل الفاتحة]

فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبعُ المثاني، والشفاءُ التام، والدواءُ النافع، والرُّقيةُ التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظةُ القوة، ودافعةُ اللهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارَها وأعطاها حقَّها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعَرَفَ وجهَ الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعضُ الصحابة على ذلك رقي بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: **(ومَا يدريك أنَّهَا رُقية)**[٢].

ومن ساعده التوفيق وأُعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرارِ هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثباتِ الشرع والقدر والمعاد، وتجريدِ توحيد الربوبية والإلـهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كُلُّه، وله الحمدُ كله، وبيده

(١) مدارج السالكين: ١/٦٨ - ٧٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإجارة، ح ٢٢٧٦.

الخيرُ كُلُّه، وإليه يرجع الأمرُ كُلُّه، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصلُ سعادة الدارين، وعَلِمَ ارتباطَ معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمةَ الكاملة منوطةٌ بها، موقوفة على التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرُّقى، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابَه.

وهذا أمر يحتاجُ استحداث فِطرةٍ أخرى، وعقلٍ آخر، وإيمانٍ آخر، وتاللهِ لا تجد مقالةً فاسدة، ولا بدعةً باطلة، إلا وفاتحةُ الكتابِ متضمِّنة لردها وإبطالها بأقرب الطرق، وأصحِّها وأوضحِها، ولا تجدُ بابًا من أبواب المعارف الإلـهية، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحُه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى ربِّ العالمين إلا وبدايته ونهايتُه فيها.

ولعمر الله إن شأنها لأعظمُ من ذلك، وهي فوقَ ذلك. وما تحقق عبدٌ بها واعتصم بها، وعقل عمن تكلم بها، وأنزلها شفاءً تامًا، وعِصمةً بالغةً، ونوراً مبينًا، وفهمها وفهم لوازمَها كما ينبغي ووقع في بدعة ولا شِرك، ولا أصابه مرضٌ مِن أمراض القلوب إلا لِمامًا، غير مستقر.

هذا، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاحُ لكنوز الجنة، ولكن ليس كل واحد يُحسن الفتح بذا المفتاح، ولو أن طُلابَ الكنوز وقفوا على سر هذه السورة، وتحقَّقُوا بمعانيها، وركبوا لهذا المفتاح أسنانًا، وأحسنُوا الفتح به، لوصلوا إلى تناول الكُنوزِ من غير معاوق، ولا ممانع.

ولم نقل هذا مجازفة ولا استعارة، بل حقيقة، ولكن الله تعالى حكمة بالغة في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين، كما له حكمة بالغة في إخفاء كنوز الأرض عنهم. والكنوزُ المحجوبة قد استُخدِمَ عليها أرواحٌ خبيثة شيطانية تحولُ بين الإنس وبينها، ولا تقهرُها إلا أرواحٌ علوية شريفة غالبة لها بحالها الإيماني، معها منه أسلحةٌ لا تقومُ لها الشياطين، وأكثرُ نفوس الناس ليست بهذه المثابة، فلا يُقاوم تلك الأرواح ولا يَقْهَرُها، ولا ينالُ من سلبها شيئًا، فإن من قتل قتيلاً فله سلبه.[1] أهـ.

[مراتب اهدنا]

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان؛ فيجعله عالماً بالحق مدركًا له.

الثانية: أن يُقْدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة أخص من الأولى؛ فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالا، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلا.

---

(١) زاد المعاد: ٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه؛ فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها؛ وهما طريق أهل الغضب الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم يشهد جمع «**الصراط المستقيم**» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع فقد هُدي الصراط المستقيم. والله أعلم[1]. أهـ.

[فوائد الاستعاذة عند قراءة القرآن]

قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾** ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠]... فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور؛ يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها

(١) مدارج السالكين: ٣/٤٤٦ - ٤٤٧.

الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خاليًا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله، أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله ملحظ جيد، إلا أن السُّنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: **(تلك الملائكة)**[١]. والشيطان ضد الملك

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن ح ٧٩٦.

وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمِر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أُذنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىّ ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشياطن في تلاوته. قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: **(إن شيطانًا تفلت عليَّ البارحة، فأرد أن يقطع عليَّ صلاتي)**[١] الحديث وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **(إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد،- وهو جهاد النفس والمال - فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد)**[٢].

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بلفظ مقارب، كتاب الصلاة، ح ٤٦١، وكذا مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح ٥٤١.

(٢) رواه النسائي، كتاب الجهاد، ح ٣١٣٤، وأحمد في المسند: ٣/ ٤٨٣.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة تنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شُرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها، فهذه بعض فوائد الاستعاذة[1].

[هجر القرآن والحرج منه]

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإنْ قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصل الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

الخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

---

(١) إغاثة اللهفان: ١٠١ - ١٠٢.

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه؛ فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقًا من عند الله. وتارة يكون من جهة المتكلّم به أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق، وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم. ولاتجد مبتدعًا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته.

فتدبّر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء. .[١] أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد: ١٢٣.



الفصل السادس: الذكر

[جماع الدين]

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر، والشكر؛ قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبي ﷺ لمعاذ: (**والله إني لأحبك، فلا تنسَ أن تقول دبر كلِّ صلاة: اللَّهم أعِني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**)[١]، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه. وذلك يستلزم معرفته، والإيمان به، وبصفات كماله، ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح. وذلك لا يتمّ إلا بتوحيده. فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر، فهو القيام له بطاعته، والتقرُّب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران هما جماع الدين؛ فذكْرُه مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته. وهذان هما الغاية التي خلقَ لأجلها الجن والناس والسموات والأرض، ووَضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرْسَل الرُّسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما،

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، ح ١٥٢٢، وأحمد: ٥/ ٢٤٥.

وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدَّس عنه، وهو ظنُّ أعدائه به.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]... فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر وأن يُشكر؛ يُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر. وهو سبحانه ذاكر لِمَنْ ذكره، شاكر لمن شكره؛ فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله. فالذِّكْرُ للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللّسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة[١] إهـ.

[منزلة الذكر]

هي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون.

و«**الذكر**» منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانًا فننتكس

---

(١) الفوائد: ١٨٦ - ١٨٨.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم؛ فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورًا.

وعلى كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة . و«**الذكر**» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة؛ بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء. به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زيَّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن؛ فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم(١). أهـ.

[أفضل الذكر وأنفعه]

من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر.

ومنهم من لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعًا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحسُّ بظهور الناطق فيه، فإذا أحسَّ بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٢١ - ٤٢٢.

وأفضلُ الـذكر وأنفعُـه ما واطأ فـيه القلب الـلسان، وكان مـن الأذكار النبوية، وشهد الذاكرُ معانيه ومقاصده[١]. أهـ.

[ذكر الله سبحانه للعبد]

الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه [هو] أعلى درجات الغنى، [وهـو] أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قـبل ذكرك له، وأنه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداء قـبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدَّر خلقك ورزقك وعملـك وإحسانه إليك ونعـمه عليك حـيث لم تكن شيـئًا البـتة، وذكرك تعالى بالإسلام فوفقك له، واختارك له دون من خذله؛ قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] فجعلك أهلا لما لم تكن أهلاً له قط، وإنما هو الذي أهَّلك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاكه لم يكن لك إليه سبيل، ومن الذي ذكَّرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقـدة الغفلة مع النوام؟ ومن الذي ذكَّـرك سـواه بالتوبة حـتى وفقك لهـا، وأوقعها في قلبك، وبعـث دواعيك، وأحيا عزماتك الصادقـة عليها، حتى تُبتَ إليـه وأقبلت عليـه، فذقت حـلاوة التوبة وبردها ولذتهـا؟ ومن الذي ذكَّرك سـواه بمحـبتـه حتى هاجت من قلبـك لواعجهـا، وتوجهت نـحوه سبحانه ركائبها، وعمَّر قلبك بمـحبته بعد طول الخراب، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟ ومن تقرب إليك أولاً حتى تقربت إليه، ثم أثابك على هذا التقرب تقربًا آخر فصار التقـرب منك محفوفًا بتقربين منه تعالى:

---

(١) الفوائد: ٢٧٢.

تقرب قبله وتقرب بعده، والحب منك محفوفًا بحبين منه: حب قبله وحب بعده، والذكر منك محفوفًا بذكرين: ذكر قبله وذكر بعده. فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه، فهذه كلها آثار ذكره لك. ثم إنه سبحانه ذكَّرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكَّرك بها قبل وجودك، وتعرَّف بها إليك وتحبَّب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده؛ إذ هو الجواد المفضل المحسن لذاته لا لمعاوضة ولا لطلب جزاء منك ولا لحاجة دعته إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟ فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكرك بها، فلتعظم عندك لذكره لك بها، فإنه ما حقرك من ذكرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبب إليك بنعمته، هذا كله مع غناه عنك.

فإذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء، وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه، فهو يحصل له - بشعوره بذكر أستاذه له - غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد . . . والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم؛ فإن الفقر من كل خير حاصل لهم، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر

أسباب فقرهم[١]. أهـ.

[من فوائد الذكر]

في الذكر أكثر من مئة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يُرضي الرحمن عز وجل.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة. وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر. فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم؛ فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم

---

(١) طريق الهجرتين: ٤١ - ٤٢.

وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عز جل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه، وقِبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه؛ فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يُورِّثه ذكرَ الله تعالى له كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: (**من ذكرني في نفسه**

ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[١].

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب، وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

السابعة عشرة: أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبا من هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر. أو كلامًا هذا معناه. . .

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها؛ فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات. . .

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرَّف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة قالت الملائكة: يارب صوت معروف، من عبد معروف. والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله قالت الملائكة: يارب، صوت منكر، من عبد منكر.. .

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، ح ٧٤٠٥، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء. . .، ح ٢٦٧٥.

الرابعة والعشرون: أنه سبب تنزيل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبي ﷺ.

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل؛ فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذِكْر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها ألبتة إلا بذكر الله تعالى، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك؛ فمن عوَّد لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة لا بالله. . .

الحادية والثلاثون: أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها؛ فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة بل لا يمكنه ذلك. . .

السادسة والأربعون: أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى. وذكر حماد ابن زيد عن المعلى ابن زياد أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلب. قال: أذبه بالذكر. وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار. فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل. . .

الثامنة الأربعون: أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها؛ فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه. قال الأوزاعي: قال حسان ابن عطية: ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذِكْره أو من يذكُرُه. فهذه المعاداة سببها الغفلة ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ويكره من ذَكَرَه، فحينئذ يتخذه عدواً كما اتخذه الذاكر وليا. . .

الستون: أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز جل؛ إذا بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له. والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا، والله المستعان.

الحادية والستون: أن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى أنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكرُ من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا. وقد علَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يُسبِّحا كل ليلة إذا أخذوا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ويكبرا أربعًا وثلاثين لما سألته الخادمَ وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي

والخدمة، فعلمها ذلك وقال: (**فهو خير لكما من خادم**)[١]، فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم...

الثامنة والستون: أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق؛ فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل؛ قال الله عز وجل في المنافقين: ﴿**وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعب: من أكثر ذكر الله عز وجل بريء من النفاق، ولهذا - والله أعلم - ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٨، ٩] فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل فوقعوا في النفاق. وسئل بعض الصحابة ﷺ عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً. فهذا من علامة النفاق: قلة ذكر الله عز وجل. وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عز وجل أكرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل.

التاسعة والستون: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء؛ فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به، ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة، قال مالك بن دينار: وما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل. فليس شيء من الأعمال أخف مؤنة منه ولا أعظم لذة ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب...

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب علي ﷺ، ح ٣٧٠٥، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء...، ح ٢٧٢٧.

الثانية والسبعون: أن في الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من الغيبة واللغو ومدح الناس وذمهم وغير ذلك؛ فإن اللسان لا يسكت البتة: فإما لسان ذاكر، وإما لسان لاغ، ولا بد من أحدهما؛ فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنته محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو وما هو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين[١]. أهـ.

[كيف يُحرس النائم]

لما كان النائمُ بمنزلة الميت، والنومُ أخو الموت - ولهذا يستحيل على الحيِّ الذي لا يموت، وأهل الجنة لا ينامون فيها - كان النائمُ محتاجًا إلى من يحرُس نفسه، ويحفظُها مما يَعْرِضُ لها من الآفات، ويحرُسُ بدنه أيضًا من طوارق الآفات، وكان ربُّه وفاطره تعالى هو المتولي لذلك وحَده. علَّم النبيُّ ﷺ النائمَ أن يقول كلماتِ التفويضِ والالتجاء، والرغبة والرهبة[٢]، ليستدعي بها كمال حفظ الله له، وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلى أن يستذكرَ الإيمانَ، وينامَ

(١) الوابل الصيب: ٦١ - ١١١ مختصراً.

(٢) يُشير - رحمه الله - إلى الحديث المتفق عليه: (اللَّهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت).
أخرجه البخاري في الدعوات، ح ٦٣١٥، ومسلم في الذكر والدعاء...، ح ٢٧١٠.

عليه، ويجعل التكلم به آخر كلامه، فإنه ربما توفاه الله في منامه، فإذا كان الإيمانُ آخرَ كلامه دخل الجنة فتضمن هذا الهديُ في المنام مصالحَ القلب والبدن، والروح في النوم واليقظة، والدنيا والآخرة، فصلواتُ الله وسلامُه على من نالت به أمّتُه كُلَّ خير.

وقوله ﷺ: «**أسلمت نفسي إليك**»، أي: جعلتها مسلمة لك تسليمَ العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه. وتوجيه وجهه إليه يتضمّن إقبالَه بالكلية على ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد؛ قال تعالى: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ [آل عمران: ٢٠]، وذَكَرَ الوجه إذ هو أشرفُ ما في الإنسان، ومجمعُ الحواس، وأيضًا ففيه معنى التوجه والقصد؛ من قوله:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذنبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَب العِبَادِ إِلَيْهِ الوَجْهُ العَمَلُ

وتفويض الأمر إليه ردُّه إلى الله سبحانه، وذلك يُوجب سكون القلب وطمأنينته، والرضا بما يقضيه ويختارُه له مما يحبه ويرضاه، والتفويضُ من أشرف مقامات العبودية، ولا علة فيه، وهو من مقامات الخاصة خلافًا لزاعمي خلاف ذلك.

وإلجاء الظهر إليه سبحانه يتضَمَّنُ قوةَ الاعتماد عليه، والثقة به، والسكونَ إليه، والتوكلَ عليه؛ فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق، لم يخف السقوطَ.

ولما كان للقلب قوتان: قوة الطلب، وهي الرغبة، وقوة الهرب، وهي الرهبة، وكان العبد طالبًا لمصالحه، هاربًا مِن مضاره، جمع الأمرين في

هذا التفويض والتوجه، فقال: (رغبة ورهبة إليك)، ثم أثنى على ربه، بأنه لا ملجأ للعبد سواه، ولا منجا له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبدُ لِيُنْجِيَه من نفسه، كما في الحديث الآخر: (**أعُوذُ بِرِضَاك منْ سَخَطِك، وبمُعافَاتِكَ من عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ**)[1]، فهو سبحانه الذي يُعيذ عبده ويُنجيه من بأسه الذي هو بمشيئته وقدرته، فمنه البلاءُ، ومنه الإعانة، ومنه ما يطلب النجاة منه، وإليه الالتجاء في النجاة، فهو الذي يُلجأ إليه في أن يُنجيَ مما منه، ويُستعاذ به مما منه، فهو ربُّ كل شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، ثمَّ ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذي هو مَلاك النجاة، والفوز في الدنيا ولآخرة، فهذا هديه في نومه.

لَو لم يقل إني رسول لكا ... ن شاهد في هديه ينطق[2]

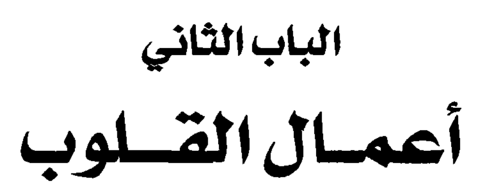
❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح ٤٨٦.

(٢) زاد المعاد: ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥.





الباب الثاني

أعمال القلوب

وفيه:

- الفصل الأول: أهمية أعمال القلوب .
- الفصل الثاني: أنواع القلوب و آفاتها .
- الفصل الثالث: صيانة القلوب وعلاجها .
- الفصل الرابع: أعمال القلوب .



الفصل الأول: أهمية أعمال القلوب

[أهمية عبودية القلب]

لله على العبد عـبوديتان: عبودية باطنة وعـبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية، فـقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعرِّية عـن حقيـقة العـبودية الباطنـة مما لا يقـرِّبه إلى ربه، ولا يوجب له الثواب وقبول عـمله؛ فإن المقصود امتحان القلوب وابتـلاء السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية ولبـها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كـان كالجسد الموات بلا روح. والنية هي عمل القلب الذي هو ملك الأعضاء والمقصود بالأمر والنهي، فكيـف يسقط واجبه ويعـتبر واجب رعـيته وجنده وأتبـاعه اللاتي إنما شـرعت واجبـاتها لأجله ولأجل صلاحـه؟ وهل هذا إلا عكس القضية وقلب الحـقيقة؟ والمقصود بالأعمـال كلها ظاهرها وباطنها إنما هو صلاح القلب وكماله وقيامه بالعبودية يبن يدي ربه وقيومه وإلـهه، ومن تمام ذلك قيامه هو وجـنوده في حضرة معبوده وربه، فإذا بعـث جنوده ورعيته، وتغيب هو عن الخـدمة والعبودية فـما أجدر تلك الخدمـة بالرد والمقت، وهذا مثل في غاية المطابقة.

وهل الأعمـال الخاليـة عن عمل القلب إلا بمنزلة حـركات العـابثين، وغايتها أن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب. ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحـرف عنها إلى أن صـرف همه إلى عبـودية القلب، وعطل

عبودية الجوارح، وقال: المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة، والجوارح تبع. والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل؛ هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية جوارحهم، ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم. والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهرًا وباطنًا، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعًا لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقة العبودية.

ومن المعلوم أن هذا هو مقصود الرب تعالى بإرساله رسله، وإنزاله كتبه، وشرعه شرائعه؛ فدعوى المدعي أن المقصود من هذه العبودية حاصل، وإن لم يصحبها عبودية القلب من أبطل الدعاوى وأفسدها.. والله الموفق.

ومن تأمل الشريعة في مصدرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم؛ فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان؛ فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح، فهذه كلمات مختصرة في هذه المسألة، ولو بسطت لقام منها سفر ضخم، وإنما أشير إليها إشارة:

وحرف المسألة أن أعمال الجوارح إنما تكون عبادة بالنيّة، والوضوء عبادة في نفسه، مقصود مرتب عليه الثواب، وعلى تركه العقاب، وكما يجب في العبادات إفراد المعبود تعالى عن غيره بالنية والقصد، فيكون وحده المقصود المراد، فكما أنه يجب في العبادات إفراد المعبود تعالى بها لا سواه، فكذلك يجب فيها تمييز العبادة عن العادة، ولا يقع التمييز بين النوعين [عند] اتحاد صورة العملين إلا بالنية، فعمل لا يصحبه إرادة المعبود غير مقبول ولا يعتد به، وكذلك عمل لا تصحبه إرادة التعبد له والتقرب إليه غير مقبول ولا معتقد به، بل نية التقرب والتعبد جزء من نية الإخلاص، ولا تقوم نية الإخلاص للمعبود إلا بنية التعبد، فإذا كانت نية الإخلاص شرطًا في صحة كل أداء العبادة فاشتراط نية التعبد أولى وأحرى، ولا جواب عن هذا البتة إلا بإنكار أن يكون الوضوء عبادة.

وكذلك يلتحق بإنكار المعلوم من الشرع بالضرورة، وهو بمنزلة إنكار كون الصوم والزكاة والحج والجهاد.. وغيرها عبادات.. والله الموفق للصواب[1].

[الهدى والضلال ثمرة عمل القلب والجوارح]

تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأمره، وكذلك الضلال.

---

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١٦٢ - ١٦٣.

فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد؛ وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحبُّ أهل البِرّ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرِّ. ويبغض الفجور وأهله؛ فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتّصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول قوله تعالى: **﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾** [البقرة: ١ - ٣] وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتَّقى مساخطه قبل نزول الكتاب؛ فإن الناس على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعلَ ذلك. فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وَفَّقهم للإيمان به جزاءً لهم على برهِم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حالَ بينهم وبين الاهتداء به.

والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملاً، وَقَبِلَ أوامره، وصدَّق بأخباره كان ذلك سببًا لهداية أُخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبدُ فيها ما بلغ؛ ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية.

فكلما اتّقى العبدُ ربَّه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى. وكلما فوَّتَ حظًا من التقوى فاته حظ من الهداية

بحسبه؛ فكلما اتَّقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه...

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعزّ الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فُسِّر الفرقان بهذا وبهذا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩].

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ في سورة لقمان [آية ٣١]، وسورة إبراهيم [آية ٥]، وسبأ [آية ١٩]، والشورى [آية ٣٣].

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهلُ الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ١ - ٣]، وقال في الساعة: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥].

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية، ولا القرآنية. ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]؛ فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وأما من لا يؤمن بها، ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوة. وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقُوىً نفسانية. وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات لأن الإيمان ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر؛ فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه. وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله آياته، ولا يتمُّ له الإيمان إلا بالصبر والشكر؛ فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى. فإذا كان مشركًا متبعًا هواه، لم يكن صابرًا ولا شكورًا؛ فلا تكون الآيات نافعة له، ولامؤثرة فيه إيمانًا..

وأما الأصل الثاني: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال، فكثير أيضًا في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]...

وقـال تعـــالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال تعـالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فـأخبـر أنه عاقـبهم على تخلُّـفهم عن الإيمـان لما جـاءهم وعرفـوه وأعرضوا عنه بأنْ قَلَّبَ أفئدتهم وأبصارهم، وحالَ بينهم وبين الإيمان؛ كما قال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفـال: ٢٤]، فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذَّرهم من التخلف والتأخر عن الاستجـابة الذي يكـون سبـبًا لأن يحـول بينهم وبين قلـوبهـم؛ قال تعـالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفـفين: ١٤]؛ فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته فقالوا أساطير الأولين.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فجازاهم على نسـيانهم له أن نسـيهم، فلم يذكـرهم بالهدى والرحـمة. وأخـبر أنه أنساهم أنفـسهم، فلم يطلبـوا كمالهـا بالعلم النافع والعمل الصـالح وهما الهـدى ودين الحـق، فأنسـاهم طلب ذلك ومحبتـه ومعرفته والحرص عليه

عقوبة نسيانهم له، وقال تعالى في حقهم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٦، ١٧]، فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى(١). أهـ.

[نوم الأكياس]

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: يا حبذا نومُ الأكياس وفِطرُهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذَّرَّة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترِّين.

وهذا من جواهر الكلام، وأدلّه على كمال فقه الصحابة وتقدُّمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمَّته لا ببدنه. والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: **(التقوى ههنا، وأشار إلى صدره)**(٢).

فالكيِّسُ يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلوِّ الهمَّة، وتجريد القصد، وصحة النيَّة، مع العمل القليل أضعافَ أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق؛ فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقة، وتطيب السير. والتقدُّم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم

(١) الفوائد: ١٨٨ - ١٩٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٦٤.

وصدق الرغبة والعـزيمة؛ فيتقدَّم صاحبُ الهـمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل، فإنْ ساواه في همَّتـه تقدَّم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان.

فأكـمل الهدْي هَـدْيُ رسول الله ﷺ، وكان مـوفيًا كل واحد منهـما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى تَرِمَ قدماه، ويصوم حتى يقال لا يفطر، ويجاهد في سبـيل الله، ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شـيئًا من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعـجز عن حملها قُوى البشر.

والله تعـالى أمر عـبـاده أن يقـوموا بشـرائع الإسـلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يَقْبَلُ واحدًا منهـما إلا بصاحبه وقرينه. وفي المسند مـرفوعًا: **(الإسلام علانيـة والإيمان في القلب)**[١]؛ فكل إسـلام ظاهر لا ينفذ صاحبُه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمـان بالباطن، وكل حقيـقة باطنة لا يقم صاحبُـها بشرائع الإسـلام الظاهرة لا تنفع ولو كان مـا كانت. فـلو تمزَّق القلبُ بالمـحبـة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار، كما أنه لو قـام بظواهر الإسلام ولـيس في باطنه حقـيـقة الإيمـان لم ينجـه ذلك من النار[٢]. أهـ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣/ ١٣٤.

(٢) الفوائد: ٢٠٧ - ٢٠٨.

[هل تعرف قدر البيت؟]

من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟ فاعلمْ أن الله تعالى خلق في صدرك بيتًا وهو القلب، ووضع في صدره عرشًا لمعرفته يستوي عليه المثلُ الأعلى، فهو مستوٍ على عرشه بذاته بائن من خلقه. والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب، وعلى السرير بساط من الرضا. ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره، وفتح إليه بابًا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه. وأمطاره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس. وجعل في وسط البستان شجرة معرفة، فهي تؤتي أُكُلهَا كلَّ حينٍ بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه. وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه. وعلَّق في ذلك البيت قنديلاً أسرجه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده. فهو يستمدُّ من شجرةٍ مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسَسْه نار. ثم أحاط عليه حائطًا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين، ومَن يؤذي البستان فلا يلحقه أذاهم. وأقام عليه حَرَسًا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه. ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائمًا همُّه إصلاحُ السكن ولَمُّ شعْثه ليرضاه الساكن منزلاً. وإذا أحسَّ بأدنى شعث في السكن بادر إلى إصلاحه ولمِّه خشية انتقال الساكن منه، فنِعْمَ الساكن ونعمَ المسكن.

فسبحـان الله رب العالمين، كم بيْنَ هذا البيت وبيتٍ قد اسـتولى عليه الخراب، وصار مأوىً للحشرات والهوامِّ، ومحلاً لإلقاء الأنتان والقاذورات فيه. فمن أراد التخلي وقضاءَ الحاجة، وجدَ خَرِبَةً لا ساكنَ فيها ولا حافظَ لها، وهي معدَّة لقـضاء الحاجة، مظلمة الأرجاء، منتنة الرائحة، قـد عَمَّها الخراب، وملأتهـا القاذورات؛ فلا يأنسُ بها، ولا ينزل فيهـا إلا منَ يناسبه سكناها من الحـشرات والديدان والـهوامّ. الشـيطان جالس على سـريرها، وعلى السرير بسـاط من الجهل، وتخفق فـيه الأهواء، وعن يمينه وشـماله مرافق الشهوات. وقد فُتحَ إليه بابٌ من حقل الخذلان، والوحشة، والركون إلى الدنيا، والطمـأنينة بها، والزهد في الآخـرة. وأمطر من وابل الجهل، والهوى، والشرك، والبـدع ما أنبَتَ فيه أصناف الشـوك والحنظل والأشجار المـثمرة بـأنواع المعـاصي والمخـالفات من: الزوائد والتنديبـات والنوادر والهزليـات والمضحكات والأشعـار الغزليات والخمـريات التي تهيج على ارتكاب المحرمـات، وتُزَهِّد في الطاعات. وجُعِلَ في وسط الحـقل شجرة الجهل به والإعراض عنه؛ فهي تؤتي أُكُلَها كلَّ حين من الفسوق والمعاصي واللهـو واللعب والمجـون والذهاب مع كل ريح واتبـاع كل شهـوة. ومن ثمرها الهـموم والغموم والأحزان والآلام. ولكنـها متوارية باشتـغال النفس بلهوها ولعبـها، فإذا أفاقت من سكرها أُحـضِرَت كلَّ همٍ وغمٍّ وحزن وقلق ومعيشة ضنك، وأُجري إلى تلك الشجـرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور.

ثم ترك ذلك البيت وظلماته وخراب حيطانه، بحيث لا يمنع منه مفسد ولا حيوان ولا مؤذٍ ولا قذر؛ فسبـحان خالق هذا البيت وذلك البيت. فمن

عرف بيته، وقدَّر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات، انتفع بحياته ونفسه، ومَن جَهِلَ ذلك جهل نفسَه وأضاع سعادته.. وبالله التوفيق[١]. أهـ.

[كلمات من القلب في القلب]

* ماضُرِبَ عبدٌ بعقوبة، أعظم من قسوة القلب، والبعد عن الله.

* خُلِقت النار لإذابة القلوب القاسية.

* أبعد القلوب من الله القلب القاسي.

* إذا قسا القلب قحطت العين.

* قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

* من أراد صفاء قلبه فليؤْثِر الله على شهوته.

* القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلُّقها بها...

* خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر.

* الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهبُّ على القلب يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدنيا.

* من وطَّنَ قلبَه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتدّ به القلق.

---

(١) الفوائد: ٢٥٤ - ٢٥٦.

* لا تدخل محبةُ الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة.

* إذا أحب الله عبـدًا اصطنعه لنفسه، واجـتباه لمحـبته، واستـخلصه لعبادته؛ فشغل همَّهُ به، ولسانَه بذكره، وجوارحه بخدمته.

* القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه في التوبة والحمية؛ ويصدأ كمـا تصدأ المـرآة، وجلاؤه بالذكـر؛ ويَعْرَى كـما يعـرى الجسم، وزينـته التقوى؛ ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعـامُه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة[١].

[ملك الجوارح]

[إذا شاهدت] القلب، تجد ملكًا عظيمًا، جـالسًا على سرير مملكته، يأمر، وينهى، ويُوَلِّي، ويعزل. وقد حَفَّ به الأمراء والوزراءُ والجند، كلهم في خدمته.

إن استـقام اسـتقامـوا، وإن زاغ زاغوا، وإن صح صـحوا، وإن فـسد فسدوا.

فعليه المـعول، وهو محل نظر الرب تعالى، ومحـل معرفته، ومحـبته وخشيـته، والتوكل عليـه، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، والعبـودية عليه أولاً، وعلى رعيته وجنده تبعًا.

---

(١) الفوائد: ١٤٦ - ١٤٧.

فأشرف ما في الإنسان قلبه؛ فهو العالم بالله، الساعي إليه، المحب له، وهو محل الإيمان والعرفان.

وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا، من الإيمان والعقل.

وإنما الجوارح أتباع للقلب؛ يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعية. والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي آثاره. فإن أظلم، أظلمت الجوارح، وإن استنار، استنارت. ومع هذا، فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، عز وجل.

فسبحان مقلب القلوب، ومودعها ما يشاءُ من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه، مصرف القلوب كيف أراد، وحيث أراد.

أوحى إلى قلوب الأولياء: أن أقبلي إليَّ، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين.

وكره عز وجل انبعاث آخرين، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ **(لا وَمُقَلِّبِ القُلوب)**[(١)].

وكان من دعائه ﷺ: **(اللَّهم يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على طاعتك)**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب يحول بين المرء وقلبه، ح٦٦١٧.

(٢) أخرجه بنحوه: الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ح ٢١٤٠، وأحمد في المسند: ٦/ ٩١، ٢٥١.

قال بعض السلف: لَلْقَلْبُ أشد تقلبًا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانها.

وقـال آخر: القـلب أشد تقلبًـا من الريشـة بأرض فـلاة، في يوم ريح عاصف[١]. أهـ.

[أحسن عملاً أم أكثر عملاً]

لا يلزم من كثرة الثواب أن يكون العمل الأكثر ثوابًا أحب إلى الله تعالى من العـمل الـذي هو أقل منه؛ بل قـد يكون العـمل الأقل أحب إلى الله تعالى، وإن كان الكثير أكثر ثوابًا.

وهذا كما في «المسند» عنه ﷺ أنه قال: (دَمُ عَفْـرَاءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ)[٢] يعني في الأضْحِيَةِ.

- وكــذلك ذبح الشاة الواحـدة يوم النحر أحب إلى الله من الصـدقة بأضعاف أضعاف ثمنها وإن كثر ثواب الصدقة.

- وكذلك قراءة سورة بتدبر ومعرفة وتفهم، وجمع القلب عليها، أحب إلى الله تعالى من قراءة ختمة سردًا وهذًا، وإن كثر ثواب هذه القراءة.

- وكــذلك صلاة ركعـتين يُقْبِل العبـد فيهما على الله تعـالى بقلبه وجوارحه، ويفرغ قلبـه كله لله فيهما، أحب إلى الله تعالى من مـئتي ركعةٍ خالية من ذلك، وإن كثر ثوابها عدداً.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ٤١٧.

ومن هذا: (سَبَقَ دِرْهَمٌ مئة ألف دِرْهَمٍ)[١].

ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «إن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسُنة».

فالعمل اليسير الموافق لمرضاة الرب وسنة رسوله ﷺ أحب إلى الله تعالى من العمل الكثير إذا خلا عن ذلك أو عن بعضه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝٧﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧].

فهو سبحانه وتعالى إنما خلق السماوات والأرض، والموت والحياة وزين الأرض بما عليها ليبلو عباده أيهم أحسن عملاً، لا أكثر عملا.

والأحسن: هو الأخلص والأصوب، وهو الموافق لمرضاته ومحبته دون الأكثر الخالي من ذلك؛ فهو سبحانه وتعالى يحب أن يتعبد له بالأرْضَى له، وإن كان قليلاً، دون الأكثر الذي لا يرضيه، والأكثر الذي غيره أرضى له منه.

ولهذا يكون العملان في الصورة واحداً، وبينهما في الفضل - بل بين قليلِ أحدهما وكثير الآخر في الفضل - أعظم مما بين السماء والأرض.

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب الزكاة، باب جهد المقل، ح ٢٥٢٧.

وهذا الفـضل يكون بحسب رضـا الرب سبـحانه بالعـمل، وقبـوله له ومحبته له، وفرحه به سبحـانه وتعالى، كما يفرح بتوبة التائب أعظم فرح، ولا ريب أن تلك التـوبة الصـادقة أفـضل وأحب إلى الله تعالى من أعـمالٍ كثيرة من التطوعات، وإن زادت في الكثرة على التوبة.

ولهذا كان القبولُ يختلف ويتفاوت بحسب رضا الرب سبحانه بالعمل: فقـبول يوجب رضـا الله سبحـانه وتعالى بالعـمل، ومباهاةَ الـملائكة به، وتقريب عبده منه، وقبول يترتب عليه كثرة الثواب والعطاء فقط.

كمن تصدق بألف دينار من جملة ماله - مثلاً - بحيث لم يكترث بها، والألف لم تنقصه نقصًا يتأثر به، بل هي في بيته بمنزلة حصى لقيه في داره أخرج منه هذا المقـدار؛ إما ليتخلص من همه وحفظه، وإمـا ليجازى عليه بمثله، أو غير ذلك.

وآخر عنده رغيف واحـد هو قوته، لا يملك غيره، فـآثر به على نفسه من هو أحوج إليه منه، مـحبة لله وتقربا إليه وتوددًا، ورغبـة في مرضاته، وإيثارًا على نفسه.

فيـا لله كم بعـد مـا بين الصـدقتين في الفضـل، ومحبـة الله وقبـوله ورضاه؟

وقد قـبل سبحـانه هذه وهذه، لكن قبـول الرضا والمـحبة والاعـتداد والمباهاة شيء، وقبول الثواب والجزاء شيءٌ.

وأنت تجد هذا في الشاهد في ملك تهدي إليه هدية صغيرة المقدار، لكنه يحبها ويرضاها، فيظهرُها لخواصه وحواشيه، ويُثني على مهديها كهدية كثيرة العدد والقدر جدًا، لا تقع عنده موقعًا، ولكن لكرمه وجوده لا يضيع ثواب مهديها، بل يعطيه عليها أضعافًا وأضعاف أضعافها، فليس قبوله لهذه الهدية مثل قبوله للأولى.

ولهذا قال ابن عمر وغيره من الصحابة ﷺ: «لو أعلم أن الله يتقبل مني سجدة واحدة؛ لم يكن غائب أحب إلي من الموت».

إنما يريد به القبول الخاص، وإلا فقبول العطاء والجزاء حاصل لأكثر الأعمال.

والقبول ثلاثة أنواع: قبول رضا ومحبة، واعتدادٍ ومباهاةٍ وثناءٍ على العامل به بين الملإ الأعلى.

وقبول جزاءٍ وثواب، وإن لم يقع موقع الأول.

وقبول إسقاط للعقاب فقط، وإن لم يترتب عليه ثواب وجزاء، كقبول صلاة من لم يحضر قلبه في شيء منها، فإنه ليس له من صلاته إلا ما عقل منها؛ فإنها تسقط الفرض ولا يُثابُ عليها، وكذلك صلاة الآبقِ، وصلاة من أتى عرافًا فصدّقه؛ فإن النص قد دل أن صلاة هؤلاء لا تقبل، ومع هذا فلا يؤمرون بالإعادة؛ لأن عدم قبول صلاتهم إنما هو في حصول الثواب، لا في سقوطها من ذمتهم.

والأعـمال تتـفاضل بتـفـاضل ما في القلـوب من الإيمان والمـحبـة، والتعظيم والإجـلالِ ، وقصد وجـه المعبـود وحده دون شيء من الحظوظ سواه، حتى تكون صورةُ العملين واحدةً، وبينهـما في الفضلِ ما لا يحصيه إلا الله تعالى.

وتتفاضلُ أيضًـا بتجريدِ المتابعـةِ؛ فبين العملينِ من الفـضلِ بحسبِ ما يتفـاضلانِ به في المتابعـة ، فتتفـاضلُ الأعمالُ بحسبِ تجـريدِ الإخلاصِ والمتابعةِ تفاضلاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

وينضافُ هذا إلى كونِ أحد العملين أحبّ إلى الله في نفسه.

مـثـاله: الجهادُ وبذلُ النفسِ لله تعـالى هو من أحبِّ الأعمالِ إلى الله تعالى، ويقـترنُ به تجـريدُ الإخلاص والمتـابعة، وكذلـك الصلاة والعلم، وقراءة القرآن. فإذا فضل العمل في نفسه، وفضل قصد صاحبه وإخلاصه، وتجردت متابعته: لم يمتنع أن يكـون العمل الواحد أفضل من سبعين، بل وسبعمئة من نوعه.

فتأمل هذا، فإنه يزيل عنك إشكالات كـثيرة، ويطلعك على سر العمل والفضل، وأن الله سبحانه وتعالى أحكم الحـاكمين، يضع فضله مواضعه، وهو أعلم بالشاكرين.

ولا تلتـفت إلى مـا يقـول من غلـظ حجـاب قـلبـه من المـتكلمـين والمتكلفين: إنه يجـوز أن يكون العملان متساويين من جـميع الوجوه، لا تفاضل بينهـما، ويثيب الله على أحـدهما أضعـاف مـا يثيب على

الآخر، بل يجوز أن يثيب على أحدهما دون الآخر، بل يجوز أن يثيب على هذا، ويعاقب على هذا، مع فرض الاستواء بينهما من كل وجه.

وهذا قول من ليس له فقه في أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا فقه في شرعه وأمره، ولا فقه في أعمال القلوب وحقائق الإيمان بالله، وبالله التوفيق[١]. أهـ.

[حياة القلب]

حياة القلب بالعمل والإرادة والهمة، والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا: هو حَيُّ القلب. وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: من واظب على «يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت» كل يوم - بين سنة الفجر وصلاة الفجر - أربعين مرة، أحيا الله بها قلبه».

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب. والغفلة الجاثمة على القلب، والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته أنه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. كما قال عبد الله ابن مسعود ﷺ: «أتدرون من ميت القلب، الذي قيل فيه:

---

(١) المنار المنيف: ٢٠ - ٢٦.

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

والرجل هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه؛ إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت القلب والروح؛ فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالا؛ كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أن الحياة الدنيا - من أولها إلى آخرها - أُوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يَسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء».

وقد قيل: «إن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي. فمن أمات نفسه موتًا إرادياً كان موته الطبيعي حياة له»؛ ومعنى هذا: أن الموت الإرادي هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة؛ فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته، والاشتغال به، ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران.

فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مُؤثِّرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة فالقلب حينئذ إما أن يكون أسيرًا ذليلاً، أو مهزومًا مُخْرَجًا عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه، أو قتيلا ميتًا وما لجرح به إيلام؛ وأحسن أحواله أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه

مرة؛ فـإذا مات العبد مـوته الطبيعي كـانت بعده حيـاة روحه بتلك العلوم النافـعة، والأعمـال الصالحـة، والأحوال الفـاضلة التي حصلت له بـإماتة نفسه. فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهـمه إلا ألبّاء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمـقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) مدارج السالكين: ٣/٢١٤ - ٢١٥.

الفصل الثاني: أنواع القلوب و آفاتها

[أقسام القلوب]

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به؛ كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات؛ كالطويل والقصير والظريف؛ فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابته له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره؛ فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله؛ فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، وفي خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله؛ فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال؛ من أقوال القلب: وهي العقائد؛ وأقوال اللسان: وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب: وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح؛ فيكون الحاكم عليه في ذلك كله - دقه وجله - هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل؛ كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ①﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعْلَة - وإن صغرت - إلا ينشر لها ديوانان: لم وكيف؛ أي لم فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل هذا السؤال أنه: هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟

والثـاني: سؤال عن مـتـابعة الرسـول عليـه الصلاة والسـلام في ذلك التعبد؛ أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتـابعة؛ فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول بتـجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السـؤال الثاني بتـحـقيق المـتابعـة. وسـلامة القلب من إرادة تعـارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع؛ فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

والقلب الثاني: ضد هذا؛ وهو **القلب الميت** الذي لا حياة به؛ فهو لا يعرف ربه، ولا يعـبده بأمره وما يحـبه ويرضاه، بل هو واقف مع شـهواته ولذاته، ولو كان فـيها سـخط ربه وغضـبه، فهـو لا يبالي إذا فاز بشـهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبـد لغير الله: حبًا، وخوفًا، ورجاءً، ورضا وسخطًا، وتعظيـمًا، وذلا؛ إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه،وإن منع منع لهـواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه مـن رضا مولاه، فـالهوى إمـامه، والشـهوة قـائده، والجهل سـائقه، والغفلة مركبـه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيـوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العـاجلة مخمـور. ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان

بعيد ولا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدوٌّ لمن عادتْ، وسِلمٌ لأهلِها ... ومن قَرَّبت ليلى أُحِبُّ وأُقَرِّبا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان؛ تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما؛ ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة. وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض؛ فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا؛ فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه. وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به؛ يتأتى منه ما هُيِّئ له وخلق لأجله. وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه؛ كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العنّين، والعين التي لا تبصر شيئًا. وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد. فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه؛ فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له وكفرًا

بالباطل وكراهة له. فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان. وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله تعالى عليه وآله وسلم: **(تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا؛ فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)**[1].

فشبَّه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدان الحصير، وهي طاقتها شيئًا فشيئًا، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

- قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: (كالكوز مُجَخِّيًا) أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا أسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر؛ فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسُّنة بدعة والبدعة سُّنة، والحق باطلاً والباطل حقًا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وانقياده للهوى واتباعه له.

---

(١) رواه مسلم بنحوه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا . . . ح ١٤٤.

- وقلب أبيض قد أشـرق فيه نور الإيمان، وأزهر فـيه مصبـاحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته[(١)] . أهـ.

[حال القلوب مع الغيث]

في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكـان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتـت الكلأ والعشب الكثير، وكـان منها أجادب أمسكت المـاء فنفع الله بها الناس فشربوا منهـا وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة مـنها أخرى إنما هي قيعـان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)**[(٢)] .

فمـثَّل القلوب بالأرض التي هي مـحل النبات والثـمار، ومـثَّل الوحي الذي وصل إليهـا من بارئها وفاطرها بالمـاء الذي ينزله على الأرض. فمن الأرض أرض طيبة قابلة للماء والنبات، فلما أصابها الماء أنبتت ما انتفع به الآدميـون والبهائم وأقوات المكـلفين وغيرهم؛ وهذه بمـنزلة القلب القابل لهدى الله ووحـيه المسـتعد لزكـائه فيه وثمـرته ونمائه، وهذا خـير قلوب العالمين. ومن الأرض أرض صلبـة منخفضة غير مرتفـعة ولا رابية، قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها، ففيـها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات، فلما

---

(١) إغاثة اللهفان: ١١ - ١٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم، ح ٧٩، ومسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بُعث به النبي ﷺ، ح ٢٢٨٢.

حصل فيها الماء أمسكته وحفظته فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم؛ وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه وأداه إلى من هو أفهم له منه وأفقه منه وأعرف بمراده، وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرض قيعان - وهي المستوية التي لا تنبت إما لكونها سبخة أو رمالا ولا يستقر فيها الماء - فإذا وقع عليها الماء ذهب ضائعًا لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأ لأنها غير قابلة لحفظ الماء ولا لنبات الكلأ والعشب؛ وهذا حال أكثر الخلق وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحي في قلبه، فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته، فمن لم ينبت قلبه شيئًا من الخير البتة فهذا من أشقى الأشقياء. فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله[١]. أهـ.

[أنواع القلوب]

والقلوب ثلاثة: **قلب خال من الإيمان** وجميع الخير؛ فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية؛ للشيطان هناك إقبال وإدبار

---

(١) طريق الهجرتين: ٩٨ - ٩٩.

ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة؛ فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به؛ فهو كالسماء التي حرست بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق. وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئا ألا خطفه.

وقد مثل ذلك بمثال حسن؛ وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره، وليس جواهر الملك وذخائره، وبيت خال صفر لا شيء فيه. فجاء اللص يسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق؟ فإن قلت من البيت الخالي كان محالاً؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لابن عباس ﵄: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟ وإن قلت: يسرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع؛ فإن عليه من الحرس واليزك وما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه؟ وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟

فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذي يشن عليه الغارات.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ولينزله على القلوب فإنها على منواله[١]. أهـ.

[من علامات مرض القلب]

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص، به كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب؛ فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة؛ فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليًا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولا بد؛ فيصير معذبًا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين: من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هوخير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له؛ فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به،

---

(١) الوابل الصيب: ٤٠ - ٤١.

وكل من عرف الله أحبـه، وأخلص العبادة له ولا بدّ، ولم يوثر عليه شـيئًا من المحبوبات، فمـن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فـقلبه مريض، كما أن المعـدة إذا اعتـادت أكل الخبـيث وآثرته على الطيب سـقطت عنها شـهوة الطيب، وتعوَّضت بمحبة غيره.

وقد يمـرض القلب ويشتد مـرضه، ولا يعرف به صـاحبه، لاشتـغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لايشعر بموته؛ وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولايوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حـياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها. فهـو يؤثر بقاء المرض على مـشقة الدواء؛ فـإن دواءه في مخالفـة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفـسه على الصـبر، ثم ينفـسخ عزمـه، ولا يستـمر مـعه لضعف علمه وبصيرته وصبره؛ كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صـبر عليه انقـضى الخوف وأعـقبه الأمن، فـهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بمـا يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع عن الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجـعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسـوة. وهذه حال أكثـر الخلق، وهي التي أهلكتهم. فالبـصير الصادق لا يسـتوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، الذين أنعم الله

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

ولقد سئل إسحاق بن راهويه عن مسألة فأجاب. فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك. فقال: ما ظننت أن أحدًا يوافقني عليها، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة؛ فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به، والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس، فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج في علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه[1]. أهـ.

[عَشَرةٌ لا ينتفع بها]

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفع منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٧٥ - ٧٦.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعـة الوقت؛ فإضـاعة القلب مـن إيثار الدنيـا على الآخرة، وإضـاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفـسادُ كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاحُ كله في اتباع الهدى والاستعداد للِّقاء.. والله المستعان[١].

[الحجب العشرة]

الحـجب التي تحجـب القلب عن الرب عشـرة: **الأول**: حـجـاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها؛ فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعـرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كـما يتهيـأ للحجَر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثـالث: حجاب البدعة القوليّـة، كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كـحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخـامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كـحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخروالخيلاء ونحوها.

الســادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحـجابهم أرق من حجاب

(١) الفوائد: ١٦٤ - ١٦٥.

إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم، وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشرة حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى[١]. أهـ.

[الغفلة]

الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه؛ فإن كُشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد؛ فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله؛ فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى

---

(١) مدارج السالكين: ٣/١٧٦ - ١٧٧.

يصير حجاب كبائر توجب مَـقْتَ الرب تعالى له، وغضبه ولعنته؛ فإن بادر إلى كشـفه وإلا تكاثف حتى صار حـجاب بِدَع عمليـة يعذب العامل فيـها نفسه، ولا تجـدي عليه شيئًـا؛ فإن بادر إلى كشفه وإلا تـكاثف حتى صار حجـاب بدع قولية اعـتقـادية تتضمن الكذب على الله ورسـوله، والتكذيب بالحـق الذي جاء بـه الرسول؛ فإن بادر إلى كـشفه وإلا تكاثف حـتى صار حجـاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمـان الخمسـة؛ وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتـبه، ورسله، ولقائه، فلغلظ حجابه، وكثافـته، وظلمته وسـواده لا يرى حقـائق الإيمـان، ويتمكـن منه الشيطان، يَـعِدُه ويُمَنِّيـه،

• والنفس الأمـارة بالسوء تهـوى وتشتـهي، وسلطان الطبع قد ظفـر بسلطان الإيمـان فـأسره وسجنه، إن لم يـهلكه، وتولى تدبير المـملكة واستـخدام جنـود الشـهوات، وأقطعهـا العوائد التي جـرى عليها العـمل، وأغلق باب اليقظة، وأقـام عليه بواب الغـفلة، وقال: إياك أن نؤتَى من قـبلك. واتخذ حجابًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحدًا يدخـل عليّ إلا معـك؛ فأمرُ هـذه المملكة قـد صار إليك وإلى البواب. فـيا بواب الغفلة، ويا حـجاب الهـوى ليلزم كل منكمـا ثغره، فإن أخليـتما فَـسَـدَ أمر ممـلكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سـلطان الإيمان شـر الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فـلا إله إلا الله! إذا اجـتمـعت على القـلب هذه العـساكـر، مع رِقَّـة الإيمان، وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمـان، وطول الأمل المفـسد للإنسان أن آثـر العاجل الحاضـر على

الغائب الموعود به بعد طَيِّ هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التكلان[١]. أهـ.

[المتكبرون الأربعة]

فالأول: المنحرفون أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وعزلنا النقل؛ إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثاني: المتكبرون من المنتسبين إلى الفقه؛ قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالث: المتكبرون المنحرفون من المنتسبين إلى التصوف والزهد؛ فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدَّموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأمر.

والرابع: المتكبرون المنحرفون من الولاة والأمراء الجائرين؛ إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدَّموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر[٢]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٤١.

[الكبر شر من الشرك]

أول ذنب عَصَى الله به أبوا الثقلين: الكبـر والحرص؛ فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه، وذنب آدم على نبينا وعليه السلام كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب إبليس حمله على الاحتـجـاج بالقـدر والإصـرار، وذنب آدم أوجـب له إضـافتـه إلى نفســه، والاعتـراف به والاستغفـار.

فأهل الكبـر والإصرار، والاحتجـاج بالأقدار مع شيخـهم وقائدهم إلى النار إبليس. وأهل الشهوة المستغفـرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميـة - رحمه الله - يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره.

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين؛ كـما قال تعالى في سورة غـافـر: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافـر: ٧٦]، وقال في سـورة النحل: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٩]، وقال في سورة تنزيل: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهـل الكــبر والتجبر هم الذين طبع الله علـى قلوبهم، فقال تعـالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافـر: ٣٥].

وقال ﷺ: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**)(١) رواه مسلم. وقال ﷺ: (**الكبر بَطَر الحق. وغمط الناس**)(٢).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء: ٤٨]، تنبيهًا على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «من تواضع لله رفعه» فكذلك من تكبرعن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وَصَغَّرَه وحقره، ومن تكبرعن الانقياد للحق - ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أويعاديه - فإنما تكبره على الله؛ فإن الله، هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله، فإذا ردَّه العبد وتكبر عن قبوله فإنما رد على الله، وتكبر عليه، والله أعلم(٣). أهـ.

[أنواع شر الشيطان]

[١] الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه.

[٢] فإن يئس منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر؛ وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ح ٩١ وفيه قصة.

(٢) هو بقية الحديث السابق.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٣٩ - ٣٤٠.

والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجـعله من أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيًا من دعاته.

[٣] فإن أعـجزه من هذه المرتبـة وكان العـبد ممن سـبقت له من الله موهبة السنة ومـعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثـالثة من الشر؛ وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها ولا سيما إن كـان عالـمًا متبوعًا، فهـو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيـب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر؛ فإن الذين يحبون أن تشيع الفـاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليـم، هذا إذا أحبوا إشاعـتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيـابة عنه؟ كل ذلك لينفـر الناس عنه، وعن الانتفـاع به. وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عـند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا اسغـفر الله وتاب إليه قبل الله توبته، وبدل سيـئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمـؤمنين وتتبع لعـوراتهم وقصـد لفضـيحـتهم، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس.

[٤] فإن عجز الشيطان عن هذه المـرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة؛ وهي الصغائر التي إذا اجـتمعت فربما أهـلكت صاحبها، كـما قال النبي ﷺ: **(إياكم ومـحقـرات الذنوب؛ فـإن مـثل ذلك مثل قـوم نزلوا بفـلاة من الأرض)**[١] ،

(١) رواه أحمد: ١/ ٤٠٢، ٥/ ٣٣١.

وذكر حديثا معناه: أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشتووا، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه.

[٥] فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة، وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

[٦] فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته، شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة السادسة؛ وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، يزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقَلَّ من يتنبه لهذا من الناس؛ فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقل: إن هذا الداعي من الشيطان؛ فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير: إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل.

وهذا لا يُتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعملها نصيحة لله تعالى

ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

[٧] فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير، والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته، واجعله ميزانك تزن به الناس، وتزن به الأعمال، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق.. والله المستعان، وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعًا لمن تدبّره ووعاه[1]. اهـ.

[من شرور الشيطان]

فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس؛ فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله تعالى عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف، وكذلك يبيت في البيت

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٢٠ - ٢٢٢.

إذا لم يذكر فيه اسم الله تعالى؛ فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية، ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنامًا إنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له، وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به؛ فالرب تعالى يستره، والشيطان يجتهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله تعالى، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقلّ من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عُقدًا تمنعه من اليقظة كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**)[١].

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذُكِرَ عنده رجل نام ليلة حتى أصبح قال: (**ذاك رجل بال**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ح ٣٢٦٩ واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ٧٧٦.

الشيطان في أذنيه، أو قال في أذنه)[١] رواه البخاري.

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخيـر كلها، فما من طريق من طرق الخيـر إلا والشيطان مـرصد عليه، يمـنعه بجهـده أن يسلكه، فإن خـالفه وسلكه ثبَّطه فيه وعـوَّقه، وشوَّش عليه بالمعارضات والـقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

ويكفي من شـره أنه أقسم بالله ليـقعـدن لبني آدم صراطه المسـتـقيم، وأقسم ليـأتينهم من بين أيديهم ومن خلفـهم وعن أيمانهم عن شـمائلهم، ولقد بلغ شـره أن أعمل المكيـدة، وبالغ في الحيلة، حـتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك حتى اسـتقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف [تسعـمئة] وتسعة وتسعين، ثم لم يكفـه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقـصد أن تكون الدعوة له وأن يعـبد من دون الله؛ فهـو ساع بأقصى جـهده على إطفـاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامـة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض[٢]. أهـ.

[كيد إبليس .. إفراط أو تفريط]

من كيد الشيطان العجـيب أنه يشام النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟

---

(١) متفق عليه، رواه البخـاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ح ٣٢٧٠، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ٧٧٤.

(٢) بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠.

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقَّله عليه، فهون عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.

فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني؛ كما قال بعض السلف: « ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو. ولا يبالي بأيهما ظفر».

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي. والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه.

- فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس.

- وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلاً على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم.

- وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

- وكذلك قصــر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حــتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم.

- وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتــزلوهم في الطاعات؛ كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلــم العلم، وتجازو بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

- وقصر بقــوم حتى امتنعوا من ذبــح عصفور أو شاة ليــأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة.

- وكذلك قصر بــقوم حتى منعهم من الاشتغــال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هوايتهم دون العمل به.

- وقصــر بقومٍ حتى أطعمــهم من العشب ونبات البــرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص.

- وقصر بقومٍ حتى زيــن لهم ترك سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النكاح فــرغبــوا عنه بالكلية، وتجــاوز بآخرين حــتى ارتكبــوا ما وصلوا إليه من الحرام.

- وقصر بقوم حتى جفــوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى.

- وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه،

وقدَّموا أقوالهم على سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة الصريحة. . .

- وقصر بقومٍ حتى تزيَّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسموا أنفسهم الملامتية.

- وقصر بقومٍ حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلاً أو فضولاً، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا باب واسع جدًا لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة[١]. أهـ.

[الاقتصاد والاعتصام]

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا - وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنة - فإن الشيطان يَشُمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة أخرجه عن الاعتصام به، وإن رأى فيه حرصًا على السُّنة، وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها؛ فأمره بالاجتهاد والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد

(١) إغاثة اللهفان: ١٢٤ - ١٢٧.

فيها، قائلا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل؛ فلا تفتر مع أهل الفـتور، ولا تنم مع أهل الـنوم، فلا يزال يحـثه ويحـرضه حـتى يخرجه عن الاقتصاد فيها؛ فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاسـتقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامـهم مع صيامـهم، وقراءتهم مع قراءتهم. وكلا الأمـرين خروج عن السُّنَّة إلى البـدعة؛ لكن هذا إلى بدعـة التفـريط، والإضاعـة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشـيطان فيه نزغتان. إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، ولا يبالي بأيهما ظفر. وقال النبي ﷺ لعبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: **(يا عبد الله بنَ عمـرو. إن لكل عامل شِرَّة، ولكل شرَّة فترة؛ فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كـانت فترته إلى بدعة خاب وخسر)**(١)؛ قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجـتهاد باقتصـاد، وإخلاص مقرون بالاتباع؛ كـما قال بعض الصـحـابة: اقتصـاد في سبيل وسـنة خـير من اجـتـهاد في خـلاف سـبيل وســنة؛ فاحرصـوا أن تكـون أعمالكم على منـهاج الأنبيـاء عليهم السلام وسنتهم.

وكذلك الرياء في الأعـمال يخرجـه عن الاستقـامة، والفتـور والتواني

---

(١) رواه أحمد بنحوه: ٢/ ٢١٠.

يخرجه عنها أيضًا[١].

[عندما تكون الكبائر صغائر]

ههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها - من الحياء والخوف والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر؛ بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يُعْفَى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: انظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجَرّ بلحية نبيٍّ مثله - وهو هارون - ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورَفْعِه عليه، وربُّه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويُدَلِّلُه لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أُمّتَي القِبْط وبني إسرائيل أشد المعالجة؛ فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١١٥.

وانظر إلى يونس بن مَتَّى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضبَ ربه مرة، فأخذه وسَجَنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لمـوسى. وفرقٌ بيـن منْ إذا أتى بذنب واحد، ولم يـكن له من الإحسـان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شـفيع

فالأعمـال تشـفع لصاحبها عند الله، وتذكِّـر به إذا وقـع في الشدائد؛ قال تـعـالى عن ذي النـون ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعـون لما لم تكن له سابقـة خير تشـفع له وقال ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١][١].

[من مفسدات القلب: التمني]

ركوبه بحـر التمني؛ وهو بحـر لا ساحل له، وهو البـحر الذي يركـبه مفاليس العالم، كما قيل: إن الـمُـنَى رأسُ أموالِ المفاليس، وبضاعة ركابه مواعـيد الشيطان، وخـيالات المـحال والبهـتان، فلا تزال أمـواج الأماني الكاذبة، والخيـالات الباطلة تتلاعب براكبـه كما تتلاعب الكلاب بالجـيفة، وهي بضاعـة كل نفس مهـينة خسـيسة سـفلية، ليـست لها همة تـنال بها

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٢٧.

الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية، وكلٌّ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان. فيُمَثِّل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصلها، وَالْتَذَّ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله؛ كالقائل: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه، وقال: «**هما في الأجر سواء**»[(١)] وتمنى ﷺ في حجة الوداع: (**أنه لو كان تمتع وحَلَّ ولم يسُقِ الهدي، وكان قد قَرَن**)[(٢)]. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين[(٣)].

---

(١) الترمذي في الزهد باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم (١٨٩٤).

(٢) يقصد ما أخرجه مسلم من قوله ﷺ: (**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة**) وهو جزء من حديث جابر الطويل في الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٣) مدارج السالكين: ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦.

[من مفسدات القلب: التعلق بغير الله]

وهذا أعظم مفسدات القلب على الإطلاق؛ فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن الله وأحجب له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى من تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلّق به وصل؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ مذمومًا لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك؛ إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه

أردأ الأقسام الأربعة؛ لا محمود ولا منصور أهـ[(١)].

[من مفسدات القلب: كثرة النوم]

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل؛ ومنه المكروه جداً، ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر، والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس؛ فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس؛ فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٤٦.

الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه؛ فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل؛ فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير، وبالله المستعان[١]. أهـ.

[من مفسدات القلب: الطعام]

والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته؛ كالمحرمات، وهي نوعان: محرمات لحق الله؛ كالميتة والدم ولحم الخنزير وذي الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد؛ كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا وإما حياء وتذممًا.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده؛ كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط؛ فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوّى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه،

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٤٨ - ٤٤٩.

والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور (**ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**)(١) ويحكى أن إبليس - لعنه الله - عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيى: هل نلت مني شيئًا قط؟ قال: لا؛ إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتى شبعت منه، فنمت عن وردك. فقال يحيى: لله عليَّ ألا أشبع من طعام أبدًا. فقال إبليس: وأنا، لله عليَّ أن لا أنصح آدميًا أبدًا(٢).

[مراتب الحسد، وأحد أدويته]

تأمل تعبيره سبحانه شر الحاسد بقوله في سورة الفلق: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما: لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعاجل أخاه، إلا بما يحب الله فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري رحمه الله: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف.

---

(١) الترمذي في الزهد باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨١)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩٣٩).

(٢) مدارج السالكين: ١/٤٤٧.

لكن الفرق بين القـوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعهـا ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخـوفًا وحياءً منه وإجلالاً له أن يكْرَه نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضًا لمـا يحب الله ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفـسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعـاء للمحسود وتمني زيـادة الخير له، بخلاف ما إذا حـقق ذلك وحسد ورتَّب على حسده مقـتضاه من الأذى بالقلب واللسـان والجوارح، فـهذا الحـسد المذمـوم هو كله حسـد تمني الزوال. وللحسد ثلاث مراتب:

أحدهما: هي هذه.

الثانـية: وهي تمني استصحاب عدم الـنعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبـده نعمة بل يحب أن يبـقى على حاله من جهله أو فـقره أو ضعـفه أو شـتات قلبـه عن الله، أو قلة دينه فـهو يتـمنى دوام مـا هو فيـه من نقص وعيب، فـهذا حسـد على شيء مقـدّر، والأول حسد على شيء مـحقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله وعـدو عباده، وممقوت عند الله تعالى وعند الناس، ولا يُسـوَّد أبدًا ولا يواسى؛ فإن الـناس لا يُسوِّدون عليـهم إلا من يريد الإحسان إليهم.

فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدًا إلا قهرًا، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها؛ فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحـسـد الثـالث: حسـد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مـثل حال المحسود من غير أن تزول النعمـة عنه؛ فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هـذا قـريب من المنافـسة، وقد قـال تعـالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه عى هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها الناس)**(١) فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه وحب خصال الخير والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سُبَّاقهم وعليتهم ومصلهم، لا من فساكلهم. فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود؛ فإنها تتضمّن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة؛ فهو مستعيذ بولي النعم ومموليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤمِّن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته؛ فإن الله تعالى بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدراً لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله؛ قال

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٦.

تعـالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠] وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٠٢.



الفصل الثالث: صيانة القلوب وعلاجها

[من علامات صحة القلب]

أن يرتحل عن الدنيا حتـى ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حـتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا يأخـذ منها حاجته، ويعدو إلى وطنه؛ كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (**كن في الدنيا كـأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور**)[١].

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو، فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم؟

وقـال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الدنيـا قـد ترحَّلت مـدبرة، وإن الآخـرة قد ترحَّلت مـقبلة، ولكل منهمـا بنون، فكـونوا من أبناء الآخـرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيـا؛ فإن اليـوم عمـل ولا حـسـاب، وغـدًا حساب ولا عمل».

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقـرب منها حتى يصير من أهـلها، وكلما مرض القـلب واعتل آثر الدنيـا واسـتوطنها، حتى يصير من أهلها.

---

(١) رواه الترمذي بلفظه، كتاب الزهد، باب مـا جاء في قصر الأمل، ح ٢٣٣٣، وأخرج البخاري أوله ، كتاب الرقاق، ح ٦٤١٦.

- ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن ، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذِكْرُه قُوتُه، وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة؛ فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده؛ فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِقَ الخلقُ، ولأجله خُلقتْ الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

قال بعض العارفين: «مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته».

وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخـر: «والله ما طابت الدنيا إلا بمـحبته وطاعـته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته».

وقال أبو الحسين الوراق: «حـياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير».

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟!

وقال آخر: «من قـرَّت عينه بالله تعالى قرت به كل عـين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات».

وقال يحيى بن معاذ: «من سر بخدمـة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه».

- ومن علامـات صـحة القلب: أن لا يفـتر عن ذكـر ربه، ولا يسـأم من خدمـته، ولا يأنس بغـيره، إلا بمـن يدله عليـه، ويذكـره به، ويذاكـره بهذا الأمر.

- ومن علامات صـحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفـواته ألـمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

- ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

- ومن علامات صحتـه: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خـروجه منها، ووجد فيها راحته ونعـيمه، وقرت عينه

وسرور قلبه.

- ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

- ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بماله.

- ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل؛ فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وعمله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث. وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له؛ قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بن يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها توددا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله. فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق: «لبيك وسعديك، إني سامع

مطيع ممتثل، ولك عليّ المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك».

وإذا أصـابه قدر وجـد من قلبـه ناطقًا يقـول: «أنا عـبدك ومـسكينك وفقيـرك، وأنا عبدك الفقيـر العاجز الضعيف المـسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجـأ لي منك إلا إليك، ولا مسـتـعان لي إلا بك، ولا انصـراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك».

فينطرح بمـجمعه بين يديه، يعـتمد بكليـته عليه، فإن أصـابه بما يكره قال: رحمـة أهديت إليَّ، ودواء نافع من طبيب مشفـق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شرٌّ صرف عني[1]. أهـ.

[أشياء في القلب]

في القلب شعثٌ لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسـرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقـضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٧٨ - ٨٠.

وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً[(١)]. أهـ.

[ثلاث تجمع الإيمان]

قال البخاري في صحيحه: قال عمار: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار».

وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه؛ فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفرة، وأداء حقوق الناس كذلك، وأن لا يطالبهم بما ليس له، ولا يحملهم فوق وسعهم، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به، ويعفيهم مما يحب أن يعفوه منه، ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها؛ ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه؛ فلا يدَّعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، ويُنميها ويكبِّرُها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبه وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله، بل يعزلها من البين كما عزلها الله، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه، وعطائه ومنعه، وكلامه وسكوته، ومدخله ومخرجه؛ فينجي نفسه من البين، ولا يرى لها

(١) مدارج السالكين: ٣/ ١٢٠ - ١٢١.

مكانة يعمل عليها، فـيكون ممن ذمهم الله بقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعـام: ١٣٥] . فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل علـيها؛ فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسـه ملك لسيده، فهو عامل على أن يؤدي إلى سيـده ما هو مسـتحق له عليـه، ليس له مكانة أصلاً، بل قـد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصـود أن إنصافه من نفسه يوجـب عليه معرفة ربه، وحـقه عليه، ومعرفة نفسه، ومـا خلقت له، وأن لا يزاحم بها مالكها، وفاطرها ويدَّعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سـيده، ويدفعه بمراده هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزى مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمـة بين نفسه وشركائه وبين الله لجـهله وظلمه وإلا لبس علـيه وهو لا يشـعر؛ فـإن الإنسان خلق ظلومًـا جهولاً، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟! وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟! كما في أثر إلهي يقول الله عز وجل: (ابن آدم ما أنصـفتني؛ خيري إلـيك نازل، وشرك إلي صاعد، كم أتحـبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملَكَ الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح).

وفي أثـر آخـر: **(ابن آدم ما أنصفتني، خلقتك وتعبد غيري، وأرزقك وتشكر سواي)**.

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه، وظلمها أقبح الظلم، وسعى في ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها، فأتعبها كل التعب، وأشقاها كل الشقاء من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها، وجدَّ كل الجدِّ في حرمانها حظها من الله وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كل التدسية وهو يظن أنه يكبرها وينميها، وحقرها كل التحقير وهو يظن أنه يعظمها؛ فكيف يرجي الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟! إذا كان هذا فعل العبد بنفسه فماذا تراه بالأجانب يفعل؟

والمقصود أن قول عمار ﷺ: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار، كلام جامع لأصول الخير وفروعه.

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد، بل يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه. والمتكبر ضدُّ هذا؛ فإنه لايرد السلام على كل من سلم عليه كبراً منه وتيهًا، فكيف يبذل السلام لكل أحد.

وأما الإنفاق من الإقتار؛ فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله، وأن الله يخلفه ما أنفقه، وعن قوة يقين، وتوكل، ورحمة، وزهد في الدنيا، وسخاء نفس بها، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلاً، وتكذيبًا بوعد

من يعده الفقر، ويأمر بالفحشاء، والله المستعان[١]. أهـ.

[التخلية ثم التحلية]

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضدِّه.

وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات. فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبقَ فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع؛ فكما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها.

فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به؛ لايمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره. ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته إلاَّ إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته.

فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق، والعلوم التي لا تنفع، لم يبقَ فيها موضع للشغل بالله، ومعرفة أسمائه، وصفاته، وأحكامه. وسرُّ ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن؛ فإذا أصغَى إلى غير حديث الله لم يبقَ فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبقَ فيه مَيْلٌ إلى

---

(١) زاد المعاد: ٢/٤٠٧ - ٤١٠.

محبته. فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبقَ فيه محل للنطق بذكره كاللسان.

ولهذا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحًا يَرِيه[1] خير له من أن يمتلئ شعرًا)**[2] فبيَّن أن الجوفَ يمتلئ بالشعر، فكذلك يمتلئ بالشُبه والشكوك والخيالات، والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها.

وإذا امتلأ القلب بذلك، جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته، فلم تجد فيه فراغًا لها ولا قبولاً؛ فتعدّته وجاوزته إلى محل سواه. كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه، فإنه لا يقبلها ولا تلج فيه، ولكن تمرّ مجتازة لا مستوطنة[3].

[الحروز المانعة من الشيطان]

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز منه، وذلك في عشرة أسباب:

الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]. . .

---

(١) يَرِيه: أي يأكل جوفه ويفسده.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، ح ٦١٥٤، ومسلم، كتاب الشعر، ح ٢٢٥٨، واللفظ له.

(٣) الفوائد: ٥٣.

الحرز الثاني: قراءة المعوذتين: فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله تعالى من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: (ما تعوذ متعوذ بمثلهما)[١]، وقد كان ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة.

وعنه ﷺ: **أن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي، وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء**[٢].

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي: ففي الصحيح من حديث محمد ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فذكر الحديث، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: **(صدقك، وهو كذوب، ذاك شيطان)**[٣].

---

(١) رواه أبو داود بلفظه، كتاب الصلاة، باب في المعوذتين، ح ١٤٦٣، وبنحوه عند النسائي، كتاب الاستعاذة، ح ٥٤٣٠، ٥٤٣١، ٥٤٣٨.

(٢) أخرج أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن خُبيب: (قل: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء) [كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ح ٥٠٨٢]، وأخرجه أيضًا الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، ح ٣٥٧٥، والنسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، ح ٥٤٢٨.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ح ٣٢٧٥.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة: ففي الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان)**(١).

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة: فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه)**(٢)، وفي الترمذي عن النعمان ابن بشير عن النبي ﷺ قال: **(إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)**(٣).

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي: في الترمذي من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: **(من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين**

---

(١) رواه مسلم بنحوه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ٧٨٠، والترمذي بلفظه كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة... ح ٢٨٧٧.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، ح ٥٠١٠، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ٨٠٧.

(٣) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في آخر سورة البقرة، ح ٢٨٨٢، والدارمي، كتاب فضائل القرآن، ح ٣٣٨٧.

يمسـي حـفظ بهـمـا حـتى يصـبح)[١]، وعبد الرحـمن المليكي وإن كان قد تُكلِّم فيه من قبل حفظه، فـالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي، وهو محتمل على غرابته.

الحرز السـابع: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحـمد، وهو على كل شيء قـدير: ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من قال لا إله إلا الله وحده، لا شـريك له، له الملك وله الحمـد، هو على كل شيء قدير، فـي يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مـائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً مـن الشيطان يومـه ذلك حتى يمـسي، ولم يأت أحد بأفـضل ممـا جاء به إلا رجل عمل أكـثر من ذلك**)[٢] فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله تعالى عليه.

الحرز الثامن: كثرة ذكر الله وهو من أنفع الحروز من الشيطان...

الحرز الـتاسع: الوضـوء والصلاة: وهذا من أعظم مـا يتحـرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشـهوة؛ فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، ح ٢٨٧٩، والدارمي، كـتـاب فضـائل القـرآن، باب فـضل أول سورة البـقـرة وآية الكرسي، ح ٣٣٨٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخـاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ح ٣٢٩٣، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، ح ٢٦٩١.

(ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمـرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض)[١].

وفي أثر آخر: **(إن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء)**[٢]، فما أطفـأ العبـد جمـرة الغضب والشـهوة بمـثل الوضوء والصـلاة؛ فإنهـا نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله ذهب أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فـضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس: فـإن الشـيطان إنمـــا يتـسلط على ابن آدم وينال منــه غــرضــه من هذه الأبواب الأربعـة، فإن **فضول النظر** يدعو إلى الاستحسان، وقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكر في الظفر به، فـمبدأ الفتنة من فضول النظر كمـا في المـسند عن النبي ﷺ أنه قـال: **(النظرة سهم مـسموم من سـهام إبليس، فمن غض بصـره لله أورثه الله حلاوة يجـدها في قلبه إلى يوم يلقـاه)**[٣]، أو كمـا قال ﷺ، فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكل نظـرة أعقبت حسرات لا حسرة.

---

(١) رواه الترمـذي، كتاب الفـتن، باب ما جاء مـا أخبر النبي ﷺ أصـحابه... ، ح ٢١٩١، وأحمد في المسند: ٣/ ١٩، ٦١.

(٢) رواه أبو داود، كـتـاب الأدب، باب ما يـقال عنـد الغضب، ح ٤٧٨٤، وأحـمـد: ٤/ ٢٢٦.

(٣) أخرجـه الحاكم بنحـوه في المستـدرك: ٤/ ٣١٤، والطبراني في الكبـير ١٠/ ١٧٣ ح ١٠٣٦٢ بنحوه أيضًا، وفي سنده: عبد الرحمن الواسطي وهو ضعيف.

كما قال الشاعر:

كل الحـوادث مبداهـا من النظـر ومعظم النار من مستصغر الشرر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء، وأما **فضـول الكلام** فإنها تفتح للعبد أبـوابًا من الشر، كلها مداخل للشـيطان؛ فإمساك فضـول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: **(وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم)**(١). وفي الترمذي أن رجـلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصـحابة: طوبى له، فــقــال الـنبي ﷺ: **(فـمـا يدريك فلعله تكـلم بمـا لا يعنيـه، أو بخل بمـا لا ينقـصـه)**(٢)، وأكثر المعاصي إنمـا تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسـع مداخل الشـيطان؛ فإن جارحتـيهما لا يمـلان ولا يسـأمان، بخلاف شهـوة البطن فـإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعـام، وأمـا العين واللسـان فلو تركا لم يفـترا من النظر والكلام؛ فجنايتـهما متـسعة الأطراف، كثـيرة الشعب، عظيـمة الآفات. وكان الســلف يحذرون من فضول النظر، كـما يحذرون من فـضول الكلام، وكـانوا يقولـون: مـا شيء أحـوج إلى طـول السجن من اللسان.

---

(١) أخرجه الترمـذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حـرمة الصلاة، ح ٢٦١٦، وقال: حسن صـحيح، وابن ماجه، كـتاب الفتن، باب كف اللسـان في الفتنة، ح ٣٩٧٣، أحمد ٥/ ٢٣١.

(٢) أخرجه الترمذي بنحـوه كتـاب الزهـد، باب فيمــن تكلم بكـلمة يضـحك بها الناس، ح ٢٣١٦.

وأمـا **فضل الطعـام** فهو داعٍ إلى أنـواع كثيرة من الشر؛ فـإنه يحرك الجوارح إلى المعـاصي، ويثقلها عن الطاعات وحسـبك بهذين شرًا؛ فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونهما، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًا عظيمًـا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا مـلأ بطنه من الطعـام، ولهذا جـاء في بعض الآثار: ضـيّقـوا مجـاري الشيطان بالصوم، وقال النبي ﷺ: **(ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن)**[١] ولو لم يكن في الامـتلاء من الطعـام إلا أنه يدعو إلى الغـفلة عن ذكـر الله عز وجل، وإذا غفل القلب عن الذكـر ساعة واحدة جثم عليـه الشيطان ووعده ومناه وشهّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شـبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

مخالطة الناس: إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخـالطة والمعاشرة من نعمـة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول؛ ففضول المـخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنمـا ينبغي للعبد أن يأخذ من المخـالطة بمقدار الحاجة ويجـعل الناس فيها أربعة أقـسام؛ متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا

---

(١) أخرجه الترمـذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كـثرة الأكل، ح ٢٣٨٠، وأحمد ٤/ ١٣٢، وابن ماجـه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصـاد في الأكل... ح ٣٣٤٩.

الضرب أعز من الكـبريت الأحمر، وهـم العلماء بالله تعـالى وأمره ومكايد عدوه، وأمـراض القلوب وأدويتها، الناصـحون لله تعالى ولكتـابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتـاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًـا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لايُستغـنى عن مخالطتهم في مـصلحة المـعـاش، وقيـام ما أنت مـحـتاج إليـه من أنواع المـعامـلات والمشاركات والاستشارة والعـلاج للأدواء.. ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اخـتلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه؛ فمنهم من مخالطته كالداء العضال، والمرض المزمن؛ وهو من لا تربح عليـه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فـلا بد من أن تخسـر عليه الدين والدنيا أو أحـدهما، فهذا اذا تمكـنَّتْ مخالطته واتصلت فـهي مرض الموت المخوف.

ومنـهم: من مخالطته كوجع الضرس يـشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم: من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفـيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستـفيد منك، ولا يعرف نفسه فـيضعهـا في منزلتها؛ بل إن تكلم فكلامه كـالعِصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحْدِث من فيه كلما تحدَّث، ويظن أنه مـسك يطيب به المـجلس، وإن سكت فـأثقل من نصف الرحـا

العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله، وقد ضعفت القوى عن حملة فالتفت إلي وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة.

ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلاك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس - لا كثرهم الله - وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنّة، والسنّة بدعة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين. وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المـعروف ونهـيت عمـا نهى الله عنه ورسـوله من المنكر قـالوا: أنت من المفـتنين. وإن اتبعت السنّة وتركت ما خـالفها قـالوا: أنت من أهل البدع المـضلين. وإن انقطعت إلى الله تعـالى وخلّيت بينهم وبين جـيـفة الدنيـا قالوا: أنت من المبلسين. وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخـاسرين، وعندهم من المنافقين، فـالحزم كل الحزم التماس مـرضاة الله تعالى ورسوله بإغـضابهم، وأن لاتشتغل بإعـتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك، كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... هي الشـهادة لي بأني كامل

وقال آخر:

وقـد زادني حـبًا لنفـسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل

فمن كـان بواب قلبه وحارسه من هذه المـداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم؛ وهي فضـول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستـعمل ما ذكرنا من الأسـباب التسعـة التي تحرزه من الشيطان فـقد أخذ بنصيـبه من التوفيق، وسد على نفسه أبواب جهنـم، وفتح عليه أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحـمد عند المـمات عـاقبة هذا الدواء؛ فـعند الممـات يحمد القـوم التقى و (عند الصبـاح يحمد القـوم السرى).. والله

الموفق لا رب غيره، ولا إله سواه[١].

[طرق صيانة القلب]

جماع الطرق والأبواب التي يصان منها القلب وجنوده أربعة، فمن ضبطها وعدلها، وأصلح مجاريها، وصرفها في محالها اللائقة بها، استفاد منها قلبه وجوارحه، ولم يشمت به عدوه. وهي: **الحرص، والشهوة، والغضب، والحسد**.

فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير. وكما هي طرق إلى العذاب السرمدي، فهي طرق إلى النعيم الأبدي.

فآدم أبو البشر ﷺ أُخْرِجَ من الجنة **بالحرص**، ثم أدخل إليها **بالحرص**. ولكن فرق بين حرصه الأول، وحرصه الثاني.

وأبو الجن، أخرج منها **بالحسد**، ثم لم يُوفَّق لمنافسة وحسد يعيده إليها، وقد قال النبي ﷺ: **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار)**[٢].

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/٢٢٦ - ٢٣٣.

(٢) هذان حديثان أُدخل أحدهما في الآخر؛ فالأول متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها)**. رواه البخاري برقم ١٤٠٩، ومسلم رقم ٨١٦.

وأما الغضب فهو غول العقل؛ يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته.

وإذا كان حـرصه إنما هو على مـا ينفعه، وحسـده منافسة في الخـير، وغضبه لله على أعدائه، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعونًا له على ما أُمر به، لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع[1]. أهـ.

[كيف ندفع لمة الشيطان؟]

الشيطان يُلِمُّ بالقلب لـما كان هناك من جواذب تجـذبه، وهي نوعان: صفات، وإرادات.

فإذا كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجد موطنًا ومقرًا. فتأتي الأذكار والدعوات، والتعوذات كحديث النفس لا تدفع سـلطان الشيطان لأن مـركبه صـفـة لازمة. فإذا قلع العـبد تلك الصـفات، وعمل على التطهر منها والاغتـسال بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولَمَّات من غير اسـتقرار؛ وذلك يضعفه ويقوي لمـة الملك، فتأْتي الأذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شيء.

= والثاني متفق عليه أيضًا من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: **(لا حسـد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فـهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مـالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)**. رواه البخاري برقم ٧٥٢٩، ومسلم برقم ٨١٥.

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢/٢٩٦ - ٢٩٧.

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا: فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه، وهو أقرب منك. فأنت تزجره وتصيح عليه وهو يأبى إلا التّحوّم عليك، والغارة على ما بين يديك.

فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه، فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب. وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوى على إخراج العدو منه.

ومصداق ذلك تجده في الصلاة: فتأمل في الحال وانظر: هل تُخْرِجُ الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالى بكليته، وتقيمه بين يدي ربه مقبلا بكليته عليه؛ يصلي لله تعالى كأنه يراه، قد اجتمع همه كله على الله، وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان.

وههنا نكتة ينبغي التفطن لها؛ وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة فالعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط؛ كما يثير الدواءُ أخلاط البدن. فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حِمْيَةٌ، لم يزد الدواءُ على إثارته، وإن أزال منه شيئًا ما.

فمدار الأمر على شيئين: الحمية، واستعمال الأدوية.

وأول ما يطرق القلب الخطرة، فـإن دفعها استراح مـما بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب.

- فإن بادر ودفعها، وإلا قويت وصارت شهوة.

- فإن عالجها، وإلا صارت إرادة.

- فإن عالجها، وإلا صارت عزيمة.

ومتى وصلت إلى هذه الحـال لم يمكن دفعها، واقتـرن بها الفعل ولا بد. وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئـذ ينتقل العلاج إلى أقـوى الأدوية؛ وهو الاستفراغ التـام بالتوبة النصوح.

ولا ريب أنَّ دفع مبـادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من اسـتفـراغه بعد حصوله - إن ساعد القدر، وأعان التوفيق - وأنَّ الدفع أولى به.

وإن تألَّمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المـشوب بالآلام والهمـوم، وبين فوات المحـبوب الأعظم الدائم، الذي لا نسبة لهـذا المحبوب إليه ألبـتة؛ لا في قدره، ولا في بقائه.

- وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس.

- وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى، والتنعم بحبه وذكره

وطاعته ولذة الإقبال على الرذائل والأنتان والقبائح.

- وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عدوه ورده خاسئًا ذليلاً، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلاً، وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته، والله المستعان[١]. أهـ.

[لمة الملك ولمة الشيطان]

إذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب؛ فهذا يُلِمُّ به مرة، وهذا يلم به مرة.

فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح، والانشراح، والنور، والرحمة، والإخلاص، والإنابة، ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور.

فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنإ عيش وألذه وأطيبه. ولكن تأتيه لمة الشيطان فتحدث له من الضيق، والظلمة، والهم، والغم، والخوف، والسخط على المقدور، والشك في الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢/ ٣٠٠ - ٣٠٥.

ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله:

فـمنهم من تكون لَمَّة الْمَلَكِ أغلب من لمة الشيطان وأقوى. فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصـر وسوء الحال بحسب ما عنده من حيـاة القلب. فيبـادر إلى طرد تلك اللمة، ولا يدعـها تسـتحكم فيـصعب تداركها. فـهو دائمًا في حرب بين اللمتين؛ يُدَالُ له مـرة، ويدال عليه مرة أُخرى. والعاقبة للتقوى.

ومنـهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليـه وأقوى؛ فلا تزال تغلب لمةَ الملك حتى تستحكم ويصير الحـكم لها، فيموت القلب ولا يُحِسُّ ما ناله الشيطان به، مع أنه في غاية العذاب والضـيق والحصر، ولكن سكر النشوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم.

فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحَسْمُه، وإن عاد الغطاءُ عاد الأمر كما كان، حـتى ينكشف عنه وقت المـفارقة لـلدنيا فتـظهر حينئـذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهي لم تتـجدد له، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنًا، وتجدد له أضعافه[1].

[كيف تأتي جيوش النصر للعبد]

ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمّارة وبين القلب. وابتلى العبد بذلك،

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢/ ٢٩٧ - ٢٩٩.

وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان؛ فلا تزال الحرب سجالاً ودُولاً بين الفريقين، إلى أن يستولي أحدهما على الآخر، ويكون الآخر مقهوراً معه.

فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك، فهنالك: السرور، والنعيم، واللذة، والبهجة، والفرح، وقُرَّة العين، وطيب الحياة، وانشراح الصدر، والفوز بالغنائم.

وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان، فهنالك: الغموم، والهموم، والأحزان، وأنواع المكاره، وضيق الصدر، وحبس الملك.

فما ظنُّك بِملكٍ استولى عليه عدوٌّ، فأنزله عن سرير مُلكه، وأَسَرَهُ وحبسه، وحال بينه وبن خزائنه وذخائره وخدمه وصيَّرها له؛ ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره، ولا يستغيث بمن يغيثه، ولا يستنجد بمن ينجده. وفوق هذا الملكِ ملكٌ قاهر لا يُقهر، وغالب لا يُغلب، وعزيز لا يُذل؛ فأرسل إليه: إن استنصرتني نصرتك، وإن استغثت بي أغثتك، وإن التجأت إليَّ أخذتُ بثأرك، وإن هربت إليَّ وأويْت إليَّ سلَّطتُك على عدوِّك وجعلته تحت أسْرِك.

فإن قال هذا الملك المأسور: قد شَدَّ عدوي وثاقي، وأحكم رباطي، واستوثق منِّي بالقيود، ومنعني من النهوض إليك والفرار إليك والمسير إلى بابك؛ فإن أرسلت جنداً من عندك يحلُّ وثاقي، ويفكّ قيودي، ويخرجني من حبسه أمكنني أن أوافي بابك، وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي، ولا كسر قيودي.

فإن قال ذلك احتجاجًا على ذلك السـلطان، وَدَفعًا لرسالته، ورضا بما هو فيه عند عدوه خلاه السلطان الأعظم وحاله، وولاه ما تولى.

وإن قال ذلك افتقارًا إليه، وإظهارًا لعجزه وذله، وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبس عدوه، ويخلص منه بحوله وقوته، وأن من تمام نعمته ذلك عليه - كما أرسل إليه هذه الرسالة - أن يمده من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص، ويكسر باب محبسه، ويفكّ قيوده. فإن فعل به ذلك فقد أتم إنعامه عليـه، وإن تخلّى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقًا هو له. وأنَّ حمده وحكمته اقتضيا منعـه وتخليته في محبسه، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه، وأن هذا العدو الذي حبسه مملوكٌ من مماليكه وعبدٌ من عبيده، ناصيته بيده لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته؛ فهو غير ملتفت إليه، ولا خائف منه، ولا معتقد أن له شيئًا من الأمر، ولا بيده نفعٌ ولا ضرّ، بل هو ناظر إلى مـالكه ومتـولي أمره ومَن ناصـيتـه بيده؛ قـد أفرده بالـخوف والرجاء والتضرُّع إليه والالتجاء والرغبـة والرهبة؛ فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر[١].

[إدراك الحياة الطيبة]

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]. .

---

(١) الفوائد: ٩٢ - ٩٣.

فتضمّنت هذه الآية أمورًا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله؛ فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا؛ فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكملُ الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمَنْ فاته جزءٌ منه فاته جزءُ من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحق.

وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

وقال السدي: هو الإسلام أحياهم بعد موتهم بالكفر.

وقال ابن إسحاق، وعروة بن الزبير واللفظ له: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحرب التي أعزَّكم الله بها بعد الذُّلّ، وقوَّاكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوِّكم بعد القهر منهم لكم.

وكل هذه عِباراتٌ عن حقيقة واحدة؛ وهي القيام بما جاء به الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد، وهو قولُ ابن إسحاق، واختيارُ أكثر أهل المعاني.

قال الفـراء: إذا دعاكـم إلى إحـيـاء أمركـم بجهـاد عـدوكـم؛ يريد: إنما يقـوى بالحـرب والجهاد، فلو تركـوا الجـهاد ضـعُفَ أمرُهـم واجـترأ عليهم عدوُّهم.

قلت: الجـهاد مـن أعظم ما يحـيـيهم به في الدنـيا وفي البـرزخ وفي الآخرة. أمـا في الدنيا، فـإن قوتهم وقـهرهم لعـدوِّهم بالجهـاد. وأما في البرزخ، فقـد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما في الآخرة، فـإن حظ المجاهدين والشهـداء من حياتها ونعيـمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الجنة؛ فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هذا كله؛ فـإن الإيمان والإسلام والقـرآن والجهـاد تحيي القلوب الحياة الطيـبة. وكمالُ الحيـاة في الجنة، والرسول داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داعٍ إلى الحياة في الدنيا والآخرة.

والإنسـان مضطَرّ إلى نوعـين من الحيـاة: حـيـاة بدنه التي بهـا يدرك النافـع والضـارّ ويؤثر ما ينفـعه على مـا يضـرُّه، ومتى نقـصـت فيـه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك. ولذلـك كانت حياة المريض والمحزون وصـاحب الهـمِّ والغمِّ والخـوف والفقـر والذُّلِّ دون حياة مَن هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغيِّ والرشاد، والهوى والضلال؛ فيختار الحق على ضدِّه. فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضارّ في العلوم والإرادات والأعمال. وتفيد قوة الإيمان والإرادة والحب للحقِّ، وقوة البغضِ والكراهةِ للباطل. فشعوره وتمييزُه وحبُّه ونَفْرَتُهُ بحسب نصيبه من هذه الحياة. كما أن البدن الحيّ يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتمَ، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم.

فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلتْ حياته بطلَ تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضارّ. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك، الذي هو رسول الله، من روحه، فيصير حيًّا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات[1].

[لا تنشغل بما ضمن لك]

فَرِّغْ خاطرك للهمِّ بما أُمِرْتَ به، ولا تشغله بما ضُمِنَ لك؛ فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان. فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا، وإذا سَدَّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

فتأمَّلْ حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرّة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق، فتح له طريقين

(١) الفوائد: ١٣٢ - ١٣٤.

اثنين، وأجرى له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول: لبنًا خالصًا سائغًا. فإذا تمَّت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام، فـتح طرقًا أربعًا أكمل منها: طعامــان وشرابان؛ فالطعــامان من الحيــوان والنبات، والشرابان من المــياة والألبان، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربع. لكنه سبحان فتح له - إن كان سـعيدًا - طرقًا ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيُّها شاء.

فهكذا الرب سبحــانه؛ لا يمنع عبده المؤمن شيئًـا من الدنيا إلا ويؤتيه أفـضل منه وأنفع له. وليس ذلك لغـير المـؤمن؛ فإنه يمنعــه الحظ الأدنى الخسـيس ولا يرضى له به ليعـطيه الحظ الأعلى النفـيس. والعبد لـجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمـته ولطفه، لايعرف التفاوت بين ما مُنع منه وبين ما ذُخِر له؛ بل هو مولع بحب العــاجل وإن كان دنيًّا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا. ولو أنصف العبدُ ربَّه - وأنَّى له بذلك؟! - لَعَلِمَ أن فضله عليــه فيما منعه من الدنيــا ولذاتها ونعيمهــا أعظم من فضله عليه فيــما آتاه من ذلك؛ فما منعــه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعــافيه، ولا امتحنه إلا ليــصافيه، ولا أمــاته إلا ليحييه، ولا أخــرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليــه وليسلك الطريق الموصلة إليه، فـ ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفـرقـان: ٦٢]، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٩]، والله المستعان[١]. أهـ.

(١) الفوائد: ٨٧ - ٨٨.

[علاج الهم والغم والحزن]

في المسند، وصحيح أبي حاتم، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أصاب عبداً هم ولا حزن، فقال: اللَّهم إني عبدُك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي إلا أذهب الله همَّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا. قالوا: يا رسول الله ﷺ، أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[١].

فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة، والتوحيد، والعبودية.
منها: أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله: (إني عبدُك ابن عبدك ابن أمتك)، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملُّق له، واستخذاء بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلَّى عنه هلك ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة. فتحت هذا الاعتراف: إني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي مَن أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبَّر مأمورٌ منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه؛ فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار. وأما العبيد فتصرّفهم على محض العبودية؛ فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله:

---

(١) رواه أحمد بنحوه: ١/ ٣٩١.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، [الإسراء ٦٥] ، وقـوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومَنْ عداهم عبـيد القهـر والربوبية؛ فإضـافتهم إليـه كإضافـة سائر البـيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبـودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. . ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسـراء: ١]. . ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحـقيق بمـعنى قوله: (إني عـبـدُك) التزام عـبوديتـه من الذلّ، والخضـوع، والإنابة، وامتثال أمـر سيده، واجـتناب نهيه، ودوام الافتـقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاءً.

وفيه أيضًـا: إني عبد من جميـع الوجوه: صغيرًا وكـبيرًا، حيًّا ومـيتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: إن مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا: إنك أنت الذي مننت عليَّ بكل ما أنا فـيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًـا :إني لا أتصرّف فيما خوّلتَني من مـالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصـرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفـسي ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فإن صحَّ له شهود ذلك، فقد قال: (إني عبدك) حقيقة.

ثم قال: (ناصيتي بيدك)؛ أي أنت المتصرف فيَّ تصرفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرف مَنْ نفسُه بيد ربه وسيِّده، وناصيتُه بيده، وقلبُه بين إصبعين من أصابعه، وموتُه وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كلُّه إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرّفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شَهِدَ العبدُ أن ناصيته، ونواصي العباد كلها، بيد الله وحده، يصرفهم كيف يشاء، لم يَخَفْهُم بعد ذلك، ولم يَرْجُهُمْ، ولم يُنزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبّر لهم غيرهم.

فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقرُه وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناسَ كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته. ولهذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: (ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ في قضاؤك)، تضمّن هذا الكلام أمرين:

أحدهما: مضاءُ حكمه في عبده.

والثاني: يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد،

وهذا معنى قول نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي مع كونه مالكًا قـاهرًا، متصرفًـا في عباده، نواصيــهم بيده، فـهو على صراط مـستقـيم. وهو العدل الذي يتـصرف به فيهم؛ فهو على صــراط مستقيم في قوله وفعله وقضــائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه. فخبره كله صدق، وقـضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفســدة، وثوابُه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحــمتُه وعقابُه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفرَّق بين الحكم والقضــاء، وجعل المضاء للحكم، والعــدل للقضاء؛ فإن حكمه ســبحانه يتناول حكمه الديني الشـرعي وحكمه الكوني القدري. والنوعان نافذان في العـبد ماضيان فـيه، وهو مقهور تـحت الحكمين، قد مضيا فـيه، ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مـخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضــاء هو الإتمام والإكمال - وذلك إنما يكون بعـد مضيّه ونفوذه - قال: (عدلٌ فيَّ قضاؤك)، أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه، وأما الحكم فهـو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء تنفيذه، وقد لا ينفذه. فإن كان حكمًا دينيًا، فهو ماضٍ في العبد، وإن كان كونيًا؛ فـإن نفذه سبحانه مضى فـيه وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو ســبحانه يقضي مــا يقضي به. وغيـره قد يقضي بقـضاء، ويقدّر أمـرًا، ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضي ويُمضي، فله القضاء والإمضاء.

وقوله: (عدلٌ فيَّ قضاؤك) يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه: من صحة، وسقم، وغنى، وفقر، ولذة، وألم، وحياة، وموت، وعقوبة، وتجاوز، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].. وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].. فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه...

وقوله: (أسألك بكل اسم) إلى آخره: توسُّل إليه بأسمائه كلها - ما علم العبد منها وما لم يعلم - وهذه أحبّ الوسائل إليه؛ فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: (أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري) الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبّه القرآن به لحياة القلوب به. وكذلك شبّهه الله بالنور، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وفي قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥] الآيات. ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ [النور: ٤٣] الآية.

فتضمن الدعاء أن يُحيى قلبه بربيع القرآن، وأن ينوِّر به صدره؛ فتجتمع له الحياة والنور. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب، كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه.

ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب - تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح - سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها.

ولما كان الحزن والهمّ والغمّ يضاده حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن؛ فإنها أحرى أن لا تعود، أما إذا ذهبت بغير القرآن من: صحة أو دنيا، أو جاه، أو زوجة، أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماضٍ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغمّ. والله أعلم[١]. أهـ.

[علامات تعظيم المناهي]

[من] علامات تعظيم المناهي: الحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها؛ كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها.

---

(١) الفوائد: ٤٢ - ٤٨.

- وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

- وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه.

- ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها؛ فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

- ومن علامات تعظيم النهي أن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصي الله تعالى في أرضه، ولم يضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

- ومن علامات تعظيم الأمر والنهي أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط؛ مثال ذلك أن السُّنَّة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يبرد إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه فيكون مترخصًا جافيًا، وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر، فمن حكمة الشارع ﷺ أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر فيصلي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى. ومِنْ هذا: نهيه ﷺ أن يصلي بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط، لتعلق قلبه من ذلك بما يشوش عليه مقصود الصلاة ولا يحصل المراد منها، فمن فقه الرجل في عبادته أن يقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي

بهما مـا تقدم من ذنبه. . .وأما تعـريض الأمر والنهي للتشديد الغـالي فهو كمن يتوسوس في الوضـوء متغاليًا فيه حـتى يفوت الوقت، أو يردد تكبيرة الإحرام إلى أن تفـوته مع الإمام قـراءة الفاتحـة أو يكاد تفوته الركـعة، أو يتشدد في الورع الغالي حـتى لا يأكل شيئًا من طعام عامة المسلمـين خشية دخول الشبهات عليه. . .

- ومن عـلامـات تعظيم الأمـر والنهي أن لا يحـمل الأمـر على علة تضـعف الانقيـاد والتسليم لأمـر الله عـز وجل، بل يسلم لأمر الله تعـالى وحكمه ممتثلاً ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر[1]. أهـ.

[مصارف قوى القلب]

ما ابتُلي القلب بصفة من الصفات، إلا وجـعل لها الله مصرفًا ومحلاً، ينفذها فيه.

- فجـعل لقوة الحـسد فيـه مصرفًـا، وهو المنافسـة في فعل الخـير، والغبطة عليه، والمسابقة إليه.

- ولقوة الكبر مصرفًا، وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم.

وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب: **(إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن)**[2] وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه.

---

(١) الوابل الصيب: ٢٤ - ٢٧.

(٢) رواه الطبراني في الكبير ٧/ ١٠٤ ح (٦٥٠٨)، وابن إسحاق في السيرة ص ٣٠٥ رقم ٥٠٥.

- وجعل لقوة الحرص مصرفًا، وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: **(احرص على ما ينفعك)**[١]. ولقوة الشهوة مصرفًا، وهو التزوج بأربع والتَّسرِّي بما شاء.

- ولقوة حب المال مصرفًا، وهو إنفاقه في مرضاته تعالى، والتزود منه لمعاده. فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم.

- ولمحبة الجاه مصرفًا، وهو استعماله في تنفيذ أوامره، وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وقمع أعداء الله. فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة.

- وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا، وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه، وكل ما أعان على الحق.

- وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا، وهو التحيل على عدوه، وعدو الله تعالى بأنواع التحيل، حتى يراغمه، ويرده خاسئًا، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوى التي رُكِّبت فيه، جعل لها مصرفًا. وقد ركَّبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل، ومن موضع إلى موضع.

ومن تأمل هذا الموضع وتفقَّه فيه، علم شدة الحاجة إليه وعظم الانتفاع به[٢]. أهـ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة، ح (٢٦٦٤).

(٢) التبيان في أقسام القرآن: ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٦.

[حي القلب]

قال تعالى في آياته المشهودة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت؛ فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائب القلب، ليس حاضراً. فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقٍ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه.

فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب؛ فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقَّاد، مليءٌ باستخراج العبر واستنباط الحكم؛ فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار؛ فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول ﷺ مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصديق ﷺ مع النبي ﷺ كمثل رجلين دخلا داراً، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أموراً عظيمة لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا، فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه لما عنده من شواهده، وهذه أعلى درجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره؛ فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمعَ وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن

شراب أحد النوعين الصّرف يطيب به شـراب النوع الآخر ويمزج به مزجًا. قـال الله تعـالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦] فكل مـؤمن يرى هذا، ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر[١]. أهـ.

[مما ينقص الأجر مع كثرة العمل]

الجهـل بالطريق وآفاتهـا والمقصـود يوجب التعـب الكثير مع الـفائدة القليلة؛ فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجـوارح لم يواطئـه عمل القلب، أو عـمل بالبـاطن والظاهرُ لم يتـقيـد بالاقتداء، أو هـمّةٍ إلى عمل لم ترْقَ بصاحـبها إلى ملاحظة المـقصود، أو عمل لم يحترز من آفـاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عـمل غفَلَ فيه عن مشـاهدة المنّة فلم يتجرّد عن مـشاركة النفس فـيه، أو عمل لم يشـهد تقصيـره فيه فيقوم بعـده في مقام الاعتذار منه، أو عمل لم يوفـه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنه وفـاه، فهذا كلُّه مما ينقص الثمـرة مع كثرة التعب.. والله الموفق[٢]. أهـ.

[الخطرات مبدأ الخير والشر]

الخطرات مبدأ الخـير والشر، ومنها تتـولد الإرادات والهمم والعزائم. فمن راعى خطراته ملك زمـام نفسه وقـهر هواه، ومن غلبته خطراته فـهواه

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) الفوائد: ٢٤٧.

ونفسه له أغلب. ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات. ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنىً باطلة ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، وأخس الناس همة، وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال؛ كما قال الشاعر:

أماني من سعدى رواء على الظما ... سقتنا بها سعدى على ظمإ بردا

منى إن تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، ويتولد التفريط والحسرة والندم. والمتمني لمَّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَلَّ صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صوَّرها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور في وهمه صور الطعام الشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب. والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها. وإنما شرف النفس وزكاؤها، وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بعدُ أقسامٌ تدور على أربعة أصول: خطرات يستجلب بها منافع دنياه، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه، وخطرات يستجلب بها

مصالح آخرته، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصـر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسـام الأربعة، فإذا انحصرت له فـيها فما أمكن اجتـماعه منها لم يتركه لغـيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدّم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، وأخرَّ الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران: أحدهما: مـهم لا يفوت، والثاني: غير مهم ولكنه يفوت؛ ففي كل منهما ما يدعو إلى تقـديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قدَّمَ المـهم خشي فوات مـا دونه، وإن قدَّم مـا دونه فاته الاشتـغال به عن المـهم، وكذلك يعـرض له أمران لا يمكـن الجمع بينهـما، ولا يحـصل أحدهما إلا بتفويت الآخـر، فهذا موضع استعمال العقل والفـقه والمعرفة، ومن ههنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح، وخاب من خاب. وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومـعرفته يؤثر غير المـهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي عليها مدار الشرع والقدر، وإليها مرجع الخـلق والأمر، وهي: إيثار أكبر المصلحـتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخـول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها، فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها.

فـخطوات العـاقل وفكـره لا يجـاوز ذلك، وبذلك جـاءت الشـرائع، ومصالح الدنيا والآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحـدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة. قال بعض السلف: أنزل القرآن ليُعمل به، فاتَّخَذوا تلاوته عملاً.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته، وإحسانه، وبره، وجوده، وقد حض الله سبحانه عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعقلها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها، فحييَ القلبُ، ودارت كلمته في مملكته، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه؛ فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي ﷺ: «صحبت الصوفيــة فلم أستفد منهم سوى حرفين، أحدهــما قولــهم: الوقت سيف، فــإن قطعتــه وإلا قطعك، وذكر الكلــمة الأخــرى: ونفسك إن لم تشــغلهــا بالحق، وإلا شغلــتك بالباطل، فــوقت الإنسان هو عمره في الحــقيقة، وهو مادة حياته الأبدية فــي النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من السحاب، فما كان من وقــته لله وبالله فهو حــياته وعمــره، وغير ذلك ليس محــسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البــهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير مــا قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته. وإذا كــان العبد وهو في الصلاة ليس له من صــلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله. وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فإما وســاوس شيطانية، وإما أمــاني باطلة، وخدع كاذبة، بمنزلة خــواطر المــصــابين في عــقــولهم من السكارى والــمحــشــوشــين والموسوَسين، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كان منزلتي في الحشر عندكم ... ما قد لقيت، فقد ضيَّعت أيامـي

أمنيةٌ ظَفَــرتْ نَفســـي بِهـا زَمَنًا ... واليومُ أحسبُـها أضــغاثَ أحلامِ

واعلم أن ورود الخــاطر لا يضر، وإنمــا يضر اســتدعــاؤه ومحادثــته، فالخاطر كــالمار على الطريق فإن تركتــه مر وانصرف عنك، وإن استدعــيته سحرك بحــديثه وخدعه وغروره؛ أخف شيء على النفس الفــارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفســين: نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة،

وهما متعاديتـان؛ فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما تلذذت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواهـا، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطـمئنة أشق من العمل لغير الله، وما جاء به داعي الهوى، وليس عليها شيء أضر منه. والمَلَك مع هذه عـن يمنة القلب، والشـيطان مع تـلك عن يسـرة القلب، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفي أجله من الدنيا، والباطل كله يتحيـز مع الشيطان والأمارة، والحق كله يتحيـز مع المَلَك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصـبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله تعالى حكمًا لا يبدل أبدًا: أن العاقبة للتقوى، والعاقبـة للمتقين. فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكـيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه مـا بين كذب وغرور وخدع، وأمـاني باطلة، وسراب لا حـقيـقة له، فأي حكمـة وعلم وهدى ينتقش مع هـذه النقوش، وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبـه كان بمنزلة كتابة العلم النافـع في محل مشغول بكتـابة ما لا منفعة فيـه. فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخـواطر النافعة؛ فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ كما قيل:

أتاني هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوَى ... فصـادفَ قَـلبـًا فارغـًا فَتَـمَـكَّـنا

وهذا كثير من أرباب السلوك: بنوا سـلوكهم على حفظ الخواطر، وأن لا يمكنوا خاطرًا يدخل قلوبهم، حـتى تصير القلوب فارغـة قابلة للكشف وظهور حقـائق العلويات فيها، وهؤلاء حـفظوا شيئًا وغابـت عنهم أشياء؛

فإنهم أخلو القلـوب من أن يطرقها خـاطر، فبقيت فـارغة لا شيء فيـها، فصادفـها الشيطان خالية، فبـذر فيها الباطل في قـوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها، وعوضـهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجـد المحل خاليًا، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجـريد والفراغ من الإرادة التـي لا صـلاح للعبـد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المسـتولية على قلبه، وهي إرادة مـراد الله الديني الأمري الذي يحـبه ويرضاه، وشـغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصـيل به، والقيام به وتنفيـذه في الخلق، والتطـرق إلى ذلك، والتوصل إليـه بالدخـول في الخـلق لتنفـيذه، فيضلهم الشـيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله، من باب الزهد في خواطـر الدنيا وأسبـابها. وأوهمهم أن كـمالهم في ذلك التجـريد والـفراغ؛ وهيهـات هيهات، إنمـا الكمال في امتـلاء القـلب من الخـواطر والإرادات والفكـر في تحـصيل مـراضي الرب تعالى من العـبد ومن الناس، والفكـر في طـرق ذلك والتوصل إليه، فـأكمـل الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لذلك، كما أن أنقص الـناس أكثرهم خواطـر وفكرًا وإرادات لحظوظـه وهـواه أين كانت، والله المسـتعان.

ولهذا فـإن عمر بن الخطاب رضي الله تعـالى عنه كانت تتـزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالى، فربما استـعملها في صلاته، وكان يجهز جيـشه وهو في الصلاة، فيكون قـد جمع بين الجهـاد والصلاة، وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة. وهو باب عزيز شريف، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب، متضلع من العلـم عالي الهمة، بحيث يدخل في

عبادة يظفر فيها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[١]. أهـ.

[انتبه لخواطرك]

مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصوُّرات، والتصوُّرات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة. فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها؛ فصالح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليِّها وإلهها صاعدة إليه دائرةً على مرضاته ومحابِّه؛ فإنه سبحانه به كلُّ صلاح، ومِنْ عندهِ كل هدى، ومِنْ توفيقه كل رشد، ومِنْ تولِّيه لعبده كل حفظ، ومِنْ تولِّيه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء.

فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونِعَمه وتوحيده، وطرق معرفته، وطرق عبوديته، وإنزاله إياه حاضراً معه، مشاهداً له، ناظرًا إليه، رقيبًا عليه، مُطَّلعًا على خواطره وإرادته وهمِّه. فحينئذٍ يستحيي منه، ويجلُّه أن يُطْلِعَه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرى في نفسه خاطرًا يمقته عليه.

فمتى أنزل ربَّه هذه المنزلة منه رفعه وقرَّبه منه، وأكرمه واجتباه ووالاه؛ وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة. كما أنه كلما بَعُدَ منه وأعرض عنه قَرُبَ من الأوساخ والدناءات والأقذار، ويُقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص.

---

(١) الداء والدواء: ٢٢٨ - ٢٣٣.

فالإنسان خيرُ المخلوقات إذا تقرَّب من بارئه، والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه، وشرُّ المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته.

فمتى اختار التقرُّب إليه، وآثره على نفسه وهواه، فقد حكَّمَ قلبَه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وَحكَّمَ رشدَه على غيِّه، وهُداه على هَواه. ومتى اختار التباعد منه فقد حكَّمَ نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده.

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدِّي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤدِّيها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيودِّيها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوَّتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يُعْطَ الإنسانُ إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها؛ فإنها تهجم عليه هجوم النَّفَس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونَفْرَته منه؛ كما قال الصحابة: **(يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أحبُّ إليه من أن يتكلم به، فقال: أوقدْ وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان)**[(١)]، وفي لفظ: **(الحمد لله الذي رَدَّ كيده إلى الوسوسة)**[(٢)] وفيه قولان: أحدهما: أن رده وكراهته صريح الإيمان. والثاني: أن وجوده

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب (٦٠) بيان الوسوسة في الإيمان... ح(١٣٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب (١١٨) في رد الوسوسة، ح(٥١١٢)، وأحمد في المسند: ١/ ٢٣٥.

وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمـان؛ فإنه إنما ألقاه في النفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته به.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بُدَّ لها من شيء تطحنه، فإنْ وُضع فيهـا حب طحنته، وإنْ وُضع فيها تراب أو حصى طحنته. فالأفكار والـخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحبّ الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيـها؛ فمن الناس مـن تطحن رحاه حبًّـا يخرج دقيـقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصىً وتبنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجْن والخبز تبيَّن له حقيقة طحينه.

فإذا دَفَـعْتَ الخاطر الوارد عليك اندفع عنك مـا بعده، وأنْ قبلتـه صار فكرًا جـوالاً، فاستـخدم الإرادة، فـتسـاعدت هي والفكر عـلى استـخدام الجوارح، فإن تعذّر اسـتخدامها رَجَعا إلى القلب بالتمني والشـهوة وتوجهه إلى جهة المراد.

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطـر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسـهل من إصـلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسـهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفـع الدواء أن تشغل نفـسك بالفكر فيـما يعنيك دون مـا لا يعنيك؛ فالفكر فيـما لا يعني باب كل شر، ومَن فكَّرَ فـيما لا يعنيه فاته مـا يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفـعة له فيه. فالفكر والخواطر والإرادة والهمَّة أحق شيء بإصـلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصتك وحقـيقتك التي

تبتـعد بها أو تقـرب من إلـهك ومعـبودك الذي لا سعـادة لك إلا في قربه ورضـاه عنك، وكُلُّ الشقـاء في بُعدك عـنه وسخطه عليك. ومَن كـان في خواطره ومجالات فكره دنيًّا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك.

وإياك أن تمكِّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فـإنه يفسدها عليك فـسادًا يصـعب تداركـه، ويلقي إليك أنواع الوسـاوس والأفكار المضـرّة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنتَه على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكَها عليك. فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيـها جيّـد الحـبوب، فأتاه شـــخص معه حِـمْل تراب وبعر وفحم وغـثاء ليطحنه في طاحـونه، فإن طرده ولم يمكنه من إلقـاء ما معـه في الطاحون استمرّ على طحن ما ينفعه، وإنْ مكَّنه من إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحبّ وخرج الطحين كله فاسداً.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفيـما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما يَملِكُ الفِكْرَ فيه من أنواع الفواحش والحرام، أو في خيالات وهمية لاحقيقـة لها، أو في باطل، أو فيما لا سبـيل إلى إدراكه من أنواع ما طُوِيَ عنه علمه، فيلقيه في تلك الخـواطر التي لا يبلغ منها غاية، ولا يقف منها على نهاية، فيجعل ذلك مجالَ فكره ومسرح وهمه.

وجـماع إصـلاح ذلك: أن تشغَلَ فكرَك فـي باب العلـوم والتصـورات بمـعـرفة مـا يلزمك من التوحـيد وحـقـوقه، وفي المـوت ومـا بعـده إلى دخـول الجنـة والنار، وفي آفات الأعمـــال وطـرق التحرُّز منهـا، وفي باب

الإرادات والعُزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرداته وطرح إرادة ما يضرُّك إرادته.

وعند العارفين أنّ تمنِّي الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها؛ فإنّ تمنِّيها يشغل القلب بها ويملؤها منها ويجعلها همّه ومُراده.

وأنت تجد في الشاهد أن الملك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدمه مَن هو مُتَمَنٍ لخيانته مشغولُ القلب والفكر بها ممتلئ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله، فإذا اطلع على سرِّه وقَصْدِهِ مَقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنى بعض الجنايات وقلبُه وسرُّه مع الملك غير منطوٍ على تمنِّي الخيانة ومحبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزاً واشتغالاً بما هو فيه وقلبه ممتلئ بها، والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهذا أحسن حالاً وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة، فالقلب لا يخلو قط من الفكر: إما في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة.

وقد تقدَّم أن النفس مثلها كمثل رحى تدور بما يُلْقى فيها؛ فإنْ ألقيتَ فيها حبًّا دارت به، وإن ألقيتَ فيها زجاجًا وحصىً وبعرًا دارت به، والله سبحانه هو قيِّمُ تلك الرحى ومالِكُهَا ومصرفها، وقد أقام لها ملكًا يُلقي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطانًا يُلقي فيها ما يضرّها فتدور به، فالملَك يُلمُّ بها

مـرة، والشيطان يُلمُّ بهـا مرة، فـالحَبُّ الذي يلقـيه الملك إيعـادٌ بالخيـر وتصديق بالوعد، والحَبُّ الذي يلقيه الشيطان إيعادٌ بالشر وتكذيب بالوعد. والطحين على قدر الحَبِّ، وصاحبُ الحَبِّ المـضرِّ لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجدَ الرحى فـارغة من الحب، وَقـيِّمُـها قـد أهملها، وأعرض عـنها، فحينئذٍ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها.

وبالجملة، فقيِّمُ الرحى إذا تخـلى عنها، وعن إصلاحها، وإلقاءِ الحب النافع فيـها، وجـد العدوُّ السبـيل إلى إفسـادها وإرادتها بمـا معـه. وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك، وفـسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك، وما أحسن ما قال بعض العقلاء: لما وجدتُ أنواع الذخائر منصوبة غرضًـا للمتالـف، ورأيت الزوال حاكمًـا عليها مـدركًا لهـا، انصرفت عن جمـيعها إلى مـا لا يُنازِع يه ذو الحجا أنه أنفع الذخـائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر. والله المستعان(١). أهـ.

[قرين النفس المطمئنة وقرين النفس الأمارة]

أمد الله سـبحانه النفس المطمئنة بـجنود عديدة: فجعل الملَك قـرينها وصاحبـها الذي يليها ويسـددها، ويقذف فيهـا الحق ويرغبها فـيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته.

وأمـدها بما علمَّـها من القـرآن والأذكار وأعـمال البـر، وجعل وفـود

---

(١) الفوائد: ٢٤٩ - ٢٥٣.

الخيرات ومداد التوفيق بنياتها، ويصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله، ازداد مددها فتقوى على محاربة الأمارة.

فمِنْ جندها - وهو سلطان عساكرها ومَلِكُها - الإيمان واليقين؛ فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه: إن ثبت ثبتت، وإن انهزم ولت على أدبارها، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان، وشعبه الباطنية المتعلقة بالقلب؛ كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة، وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله، وتعظيم أوامر الله وحقوقه، والغيرة لله وفي الله، والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة، وملاك ذلك كله: الإخلاص والصدق، فلا يتعب الصادق المخلص؛ فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد، ولا يتعب إلا من حرم الصدق والإخلاص، فقد قُطِعَت عليه الطريق واستهوته الشياطين في الأرض حيران، وإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك، فلا يزيده عمله من الله إلا بعداً.
وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة.

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطانَ قرينها وصاحبها الذي يليها؛ فهو يعدها ويمنيها، ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء، ويزينه لها ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد

البـاطل من الأماني الكاذبة والشـهوات المـهلكة، ويستـعين عليـها بهـواها وإرادتها، فمنه يُدخل عليها كل مكروه. فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه، وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس، فلا يستعينون على الصـور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم، فإذا أعيتهم صورة طلبـوا بجهدهم ما تحبه وتهواه، ثم طلبوا بجـهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصـورة، فإذا فتحت لهـم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا، وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها؛ فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة، وخرَّبوا المساجد وعمَّروا البيع والكنائس والحانات والمواخير، وقصدوا إلى المِلك فأسـروه وسلبوه ملكه، ونقلوه من عبـادة الرحمن إلى عبادة البـغايا والأوثان، ومن عز الطاعـة إلى ذُلِّ المعصـية، ومن السماع الرحـماني إلى السماع الشيطاني. ومن الاسـتعداد للقاء رب العالمين إلى الاسـتعداد للقاء إخوان الشـياطين، فبينا هـو يراعي حقوق الله وما أمـره به، إذ صار يرعى الخنازير، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيـم إذ صار منتصبًا لخدمة كل شيطان رجيم. **والمقصود أن المَلَك قرين النفس المطمئنة والشيطان قرين الأمارة.**

وقد روى أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبدالله، قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(إن للشـيطان لمـة بابن آدم، وللملك لمة؛ فأما لمة الشيطان فإيعـاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخيـر وتصديق بالحق، فمن وجد ذلـك فليعلم أنه من الله، وليحمـد الله، ومن وجد الآخر فليـتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم**

بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما[١].

وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب، وزاد فيه عمرو قال: سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال: إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا فليحمد الله وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان[٢].

[أوجه عداوة النفس الأمارة للنفس المطمئنة]

انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها؛ فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجاءه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه، فيكون ما له عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم، وهذا حال أكثر هذا الخلق.

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السُّنة، وعدم الالتفات إلى آراء الرجال. فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله.

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة، ح ٢٩٩١.

(٢) الروح: ٢٧١ - ٢٧٢.

وإذا جـاءت تلك بالإخـلاص والصـدق والتـوكل والإنابة والمـراقبـة، جاءت هـذه بأضدادها وأخرجتهـا في عدة قوالب، وتقســم بالله ما مرادها إلا الإحسان والـتوفيق، والله يعلم أنها كـاذبة، وما مرادها إلامجـرد حظها واتباع هواها والتـفلت من سجن المتـابعة والتحكيم المـحـض للسـنة إلى قضـاء إرادتها وشهـوتها وحظوظها، ولعـمر الله ما تخلصت إلا من فـضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيـقه وظلمته ووحشته، فهي مسجـونة في هذا العالم، وفي البرزخ في أضيق منه، ويوم المـعـاد الثاني في أضيق منهما.

ومن أعجب أمرها أنهـا تسحر العقل والقلب فتأتي إلـى أشرف الأشياء وأفضلهـا وأجلها، فتخـرجه في صـورة مذمـومـة، وأكثر الخـلق صبـيان العـقـول أطفـال الأحـلام لـم يصـلوا إلى حـد الفطام الأول مـن العـوائد والمـألوفات، فـضـلاً عن البلوغ الذي يمـيـز به العـاقـل البـالغ بين خـيـر الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيـجتنبه. فتريه صـورة تجـريد التوحيد التي هي أبهـى من صورة الشمس والقمـر في صـورة التنقيص المذموم، وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العـبودية المحضة والمسكنة والـذل والفقـر المحـض، الذي لا ملكـة لهم مـعــه ولا إرادة ولا شفاعة، إلا من بعـد إذن الله، فتريهم النفس السحارة هذا القدر غـاية تنقيصهم وهضمهم، ونزول أقدارهم وعدم تميـيزهم عن المساكين الفقـراء، فـتنفر نفوسـهم من تجريد التوحيد أشد النفار، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

- وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم، وأنهم قد فاتهم الصواب، وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم. فتنفر من ذلك أشد النفار، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم، فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه، وتُقْسِمُ النفس السحارة بالله ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٢، ٦٣].

- وتريه صورة الإخلاص في صورة ينفر منها؛ وهو الخروج عن حكم العقل المعيشي والمداراة والمداهنة التي بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس، فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئا تجنبهم وتجنبوه، وأبغضهم وأبغضوه، وعاداهم وعادوه، وسار على جادة وهم على جادة، فينفر من ذلك أشد النفار، وغايته أن يخلص في القدر اليسير من أعماله التي لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله.

- وتريه صورة الصدق مع الله، وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق، وأنه يصير غرضًا لسهام الطاعنين، وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها.

- وتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير

الأولاد يتامى ويقسم المال.

- وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس، ومساواته للفقير وعوده بمنزلته.

- وتريه حقيقة إثبات صفات الكمال لله في صورة التشبيه والتمثيل، فينفر من التصديق بها ويُنفِّر غيره.

- وتريه حقيقة التعطيل والإلحاد فيها في صورة التنزيه والتعظيم.

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر؛ فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة، فيتباين الفعلان في البطلان، ويشتبهان في الظاهر[١]. أهـ.

[تحقيق كلمة التوحيد]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه

(١) الروح: ٢٧٣ - ٢٧٥.

إلى يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، فطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقيّ وسعيد ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر عن دار الإيمان، وتميزت دار النعم عن دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسُّنَّة و(**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**)[1].

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب - جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره - بالمحبة والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء وتوابع ذلك من: التوكل والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه، ولا ينذر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يطاع إلا أمره، ولا يتحسب إلا به، ولا يستغاث في الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد؛ وهو أن لا يُعبد إلا إياه

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب (٢٠) في التلقين، ح ٣١١٦، وأحمد في المسند: ٥/ ٢٣٣.

بجميع أنواع العبادة؛ فهذا هـو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيـقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيـقة هذه الشهادة وقام بها، كـما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المـعارج: ٣٣]، فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه؛ فإن من الناس من تكون شـهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القـيام أقرب، وهي في القـلب بمنزلة الروح في البدن؛ فـروح ميـتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحيـاة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: **(إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند المـوت إلا وجدت روحه لها روحًا)**[1] فحيـاة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حيـاة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عـاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعـيشه أطيب عيش، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعـــات: ٤٠، ٤١]، فالجنة مـأواه يوم اللقاء! وجنة المعـرفة والمحـبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفـرح به والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار، فـمن كانت هذه الجنة مـأواه ههنا كانت جنة الخلـد مأواه يوم المعاد، ومن حـرم الجنة فهو لتلك الجنة أشد حـرمانًا، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا؛ والفجار في جحيم وإن اتسعت

---

(١) رواه أحمـد: ١/٢٨، وابن ماجه بنحـوه، كتـاب الأدب، باب (٥٤) فضل لا إله إلا الله، ح ٣٧٩٥.

عليهم الدنيا؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وطيب الحياة جنة الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فأي نعيم أطيب من شرح الصدر، وأي عذاب أمرُّ من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي ﷺ: **(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة، قال: حلق الذكر)**(١). ومن هذا قوله ﷺ: **(ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)**(٢). ومن هذا قوله - وقد سألوه عن وصاله في الصوم -: **(إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني)**(٣) فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل:

---

(١) رواه أحمد: ٣/ ١٥٠، والترمذي، كتاب الدعوات، باب (٨٧) أسماء الله الحسنى ح ٣٥٠٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، ح ١١٩٥، ١١٩٦، ومسلم ح ١٣٩٠.

(٣) رواه بنحوه مسلم، كتاب الصيام، باب (١١) النهي عن الوصال في الصوم، ح ١١٠٤.

لها أحـــاديثُ من ذكـراك تَشْـغَـلُها عَنِ الشَّـــرابِ وتلهـــيها عَنِ الـزَّادِ

لَهَا بوجـــهـك نـورٌ تســـتضـيءُ بِهِ وَمِنْ حَـديثِكَ في أعقـــابها حَـادِي

إذا شكَتْ مِنْ كَلال السـير أوْعَدَهَا رُوحَ اللَّقـــاء، فَتَحْـيَا عِنْدَ ميعَـادِ

وكلما كان وجـود الشيء أنفع للعبد، وهو إليه أحوج كان تألمـه بفقده أشد ، وكلمـا كان عدمـه أنفع له كان تألمه بوجـوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبـد من إقباله على الله، واشتـغاله بذكره، وتنعمـه بحبه، وإيثاره لمرضـاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سـرور ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له وأشده عليه، وإنمـا تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستغراقـها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيـه من ألم الفوات بفـراق أحب شيء إليهـا وأنفعه لهـا، وهذه منزلة السكران المـستغـرق في سكره الذي احترقـت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستـغراقه في السكر لا يشعـر بألم ذلك الفوات وحسـرته، حتى إذا صحـا وكشف عنه غطاء السكر وانتـبه من رقدة الخـمر، فهـو أعلم بحاله حـينئذ، وهكـذا الحال سـواء عند كـشف الغطاء ومعـاينة طلائع الآخـرة والإشراف على مفـارقة الدنيا، والانتقال منهـا إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعـاف مضاعفة؛ فإن المصاب في الدنيـا يرجو جبر مصيـبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصـيب بشيء زائلٍ لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها، فلو قضى الله سـبحانـه عليه بالموت من هذه الحـسرة والألم لكان العـبد جديرًا به، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته، وهذا لو كان الألم

على مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره، فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أخذ منك، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفي أثر إلهي: **(ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)**(١). أهـ.

[التوحيد ملجأ أعداء الله وأوليائه]

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه:

فأما أعداؤه، فينجيهم من كُرَب الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأما أولياؤه، فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها؛ ولذلك فزع

(١) الداء والدواء: ٢٨٩ - ٢٩٣.

إليه يونس، فنجّاه الله من تلك الظلمات. وفزع إليه أتباع الرسل، فنجوا به مما عُذِّب به المشركون في الدنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

ولما فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يُقبَل.. هذه سُنَّة الله في عباده.

فما دُفِعَتْ شدائدُ الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه بالتوحيد. فلا يُلْقي في الكُرَب العظام إلاَّ الشرك، ولا يُنجي منها إلا التوحيد؛ فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها.. وبالله التوفيق[1].

[عظم الشهادة أيام الصحة]

لشهادة «أن لا إلـه إلا الله» عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسهُ المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلّتْ بعد عزِّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفضولها، واستخذَتْ بين يَدَيْ ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرْجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه؛ فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه؛ فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا،

---

(١) الفوائد: ٨٢.

واستوى سرُّه وعلانيته فقال: **لا إله إلا الله** مخلصًا من قلبه. وقد تخلّص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. وقد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله؛ فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرُّها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة، لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحونٍ بالشهواتِ وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءةٍ بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجرّدَتْ كتجرُّدها عند الموت، لكان لها نبأ آخر، وعيش آخر سوى عيشها البهيمي.. والله المستعان[1]. أهـ.

[شهادة التوحيد وثمارها]

قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع.

وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة

---

(١) الفوائد: ٨٦ - ٨٧.

هي شهـادة أن لا إله إلا الله فإنها تثـمر جمـيع الأعمال الصـالحة الظاهرة والباطنة؛ فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحـة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **(كلمة طيـبة)** شهادة أن لا إله إلا الله **(كشجرة طيبة)** وهو المؤمن، **(أصلها ثابت)** قول لا إله إلا الله في قلب المـؤمن، **(وفرعهـا في السماء)**، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وقال الربيع بن أنس: **(كلمة طيـبة)** هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان: الشـجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخـلاص فيه، وفرعه في السماء: خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه سبحانه شبَّه شجرة التوحيـد في القلب بالشجرة الطيبة الثـابتة الأصل الباسقة الفـرع في السماء علوًا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجـرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

لا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمـال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبـة القلب لها، وإخلاصه فيـها، ومعرفته بحـقيقتها، وقـيامه بحقـوقهـا، ومراعاتهـا حق رعايتـها؛ فمـن رسخت هذه الكلمة فـي قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغـة منها، فعرف حقيقة الإلـهية التي يثبتها قلبـه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقهـا جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمـها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد

له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالحُ الكلمَ الطيبَ كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحًا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة؛ ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس ﷺ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن؛ لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: ذلك المؤمن؛ ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له، (أصلها ثابت) قال: أصل عمله ثابت في الأرض، (وفرعها في السماء) قال: ذكره في السماء. ولا اختلاف بين القولين[1].

[شعاع لا إله إلا الله وضباب الذنوب]

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه؛ فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور - قوةً وضعفًا - لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء. **وآخر**: كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار؛

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٨٧ - ١٨٩.

بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملاً ومعرفة وحالا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته. حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معه شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا؛ فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها؛ فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته؛ فلا ينال منه السارق إلا على غِرَّةٍ وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه، أو حَصَّل أضعافه بكسبه؛ فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته وَوَلَّى الباب ظَهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عُبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن - من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض - ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: **(إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)**[1] وقوله: **(لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله)**[2]، وما جاء من هذا

(١) البخاري في حديث مطول في الصلاة، باب المساجد في البيوت ح (٤٢٥)، ومسلم ح (٣٣)، (٢٦٣).

(٢) مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ح(١٤٨).

الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثيـر من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى: لا يدخلها خالدًا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

والشارع - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجـعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط؛ فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام؛ فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قـول القلب، وقول اللســان. وقول القلب يتـضمن - من معرفتـها، والتصديق بها، ومعـرفة حقيقة ما تضـمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلـهية المنفية عن غير الله المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقـيام هذا المعنى بالقلب علمًـا ومعرفة ويقينًـا وحالاً - ما يوجب تحريم قـائلها على النار. وكل قـول رَتَّبَ الشارع ما رتب عليـه من الثواب فإنما هو القول التام؛ كقوله ﷺ: **(من قال في يوم: سبحـان الله وبحمده مائة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه - أو غفرت ذنوبه - ولو كانت مثل زَبَدِ البحر)**[1]، وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه غافلاً عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانـه، ولا عرف قدرها وحقيـقتها، راجيًـا مع ذلك ثوابها حَطَّتْ من خطاياه بحسب ما في قلبه؛ فإن الأعمـال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما

---

(١) الترمذي في الدعوات باب فضل سبحان الله ح ٣٤٦٢ وقال: حسن صحيح. وأخرجه مسلم مطولاً في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ح (٢٦٩١).

تتفاضل بتفاضل ما في القلوب؛ فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كِفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مَدُّ البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقَّلَ بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات، لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك؛ هل يكون ذكرهما واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أوعبداك، أوزوجتاك، عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب قاتل المئة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته - وهو في تلك الحال - على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت؛ فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أن أُلحِق بالقرية الصالحة وجُعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البَغيّ التي رأت ذلك الكلب - وقد اشتد به العطش يأكل الثرى - فـقام بقلبها ذلك الوقت - مـع عدم الآلة، وعدم المعـين، وعدم من ترائيه بعـملها - ما حملهـا على أن غَرَّرت بنفسـها في نزول البئر، وملء الماء في خُفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحَمْلِها خفها بفيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرُّقِيُّ من البـئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمـسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً؛ فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعـمال والعمال عند الله. والغـافل في غفلة من هذا الإكسـير الكيمـاوي، الذي إذا وضع منه مثقـال ذرة على قناطير من نحاس الأعـمال قلبها ذهبًا، والله المستعان[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين: ١/٣٢٨ - ٣٣١.



الفصل الرابع: أعمال القلوب

أولاً: الإخلاص

[عبارات في الإخلاص]

وقد تنوعت العبارات في «الإخلاص» و«الصدق» والقصد واحد.

✓ **فقيل**: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

✓ **وقيل**: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، و «**الصدق**» التنقي من مطالعة النفس؛ **فالمخلص** لا رياء له، **والصادق** لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

✓ **وقيل**: من شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص. فنقصان كل مخلص في إخلاصه بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلِصًا مُخلَصًا.

✓ **وقيل**: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

✓ **وقيل**: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزَّين

للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد؛ لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مُجازيًا سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء[١]. أهـ.

[سبيل الإخلاص]

لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمعُ فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضبّ والحوت.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٩٩ - ١٠٠.

فإذا حدَّثتْكَ نفسُك بطلب الإخلاص فأقبلْ على الطمع أولاً فاذبحْه بسكين اليأس، وأقبلْ عـلى المدح والثناء فازهدْ فيـهما زُهْدَ عُشّاق الـدنيا في الآخرة. فإذا استقام لك ذبْحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح سَهُلَ عليك الإخلاص.

فإنْ قلت: وما الذي يُسَهِّل عليَّ ذبحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبـح الطمع، فيسـهله عليك علمك يقـينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكهـا غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح، فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويزين ويضرُّ ذمُّه ويَشـين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمِّي شَيْن، فقال: (ذلك الله عز وجل)[1].

فـازهد في مـدح من لا يزينك مـدحُه، وفي ذمٍّ من لا يشـينك ذمُّـه، وارغب في مدح من كلُّ الزين في مـدحه وكل الشين في ذمِّـه. ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقـين، فمتى فقدتَ الصبـر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب.

قال تعـالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

وقـال تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤][2]. أهـ.

---

(١) رواه أحمد في المسند: ٣/ ٤٨٨ و ٦/ ٣٩٣.

(٢) الفوائد: ٢١٨ - ٢١٩.

[الإخلاص يُعين على ترك المألوفات]

〈 إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله. أما من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليُمتَحَن أصادقٌ هو في تركها أم كاذب، فإنْ صبرَ على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة؛ قال ابن سيرين: سمعت شريحًا يحلف بالله: ما ترك عبدٌ لله شيئًا فوجد فقده. وقولهم: مَن ترك لله شيئًا عوّضه الله خيرًا منه حقّ. والعوض أنواع مختلفة، وأجَلُّ ما يُعوّض به: الأنسُ بالله، ومحبتُه، وطمأنينة القلب به، وقوّتُه، ونشاطه، وفرحه، ورضاه عن ربه تعالى[1]. أهـ〉

[حفظ العمل]

تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه. وبهذا يزول الإشكال الذي يورده من نقص حظه من هذا الباب على الحديث الذي فيه **أن صوم يوم عرفة يكفر سنتين، ويوم عاشوراء يكفر سنة**[2]، قالوا: فإذا كان دأبه دائمًا أنه يصوم يوم عرفة فصامه وصام يوم عاشوراء، فكيف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة، وأجاب بعضهم عن هذا بأن ما فضل عن التكفير ينال به الدرجات.

---

(١) الفوائد: ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) أخرجه مسلم، في الصيام، باب استحباب صيام ثلاث أيام من كل شهر...، ح ١١٦٢. وهو حديث طويل فيه بيان أنواع صيام أخرى غير الفرض.

ويالله العجب، فليت العبد إذا أتى بهذه المكفرات كلها أن تكفر عنه سيئاته بإجتماع بعضها إلى بعض، والتكفير بهذا مشروط بشروط، موقوف على انتفاء موانع في العمل وخارجه، فإن علم العبد أنه جاء بالشروط كلها وانتفت عنه الموانع كلها فحينئذ يقع التكفير، وأما عمل شملته الغفلة أو لأكثره، وفقد الإخلاص الذي هو روحه، ولم يوف حقه، ولم يقدره حق قدره، فأي شيء يكفر هذا؟ فإن وثق العبد من عمله بأنه وفاه حقه الذي ينبغي له ظاهراً وباطنًا، ولم يعرض له مانع يمنع تكفيره ولا مبطل يحبطه من: عُجْب، أو رؤية نفسه فيه، أو يمن به، أو يطلب من العباد تعظيمه به، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه، أو يعادي من لا يعظمه عليه ويرى أنه قد بخسه حقه وأنه قد استهان بحرمته؛ فهذا أي شيء يكفر؟ ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن **في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.**

فالرياء وإن دق محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تحصر، وكون العمل غير مقيد باتباع السُّنة أيضا موجب لكونه باطلاً، والمنّ به على الله تعالى بقلبه مفسد له، وكذلك المن بالصدقة والمعروف والبر والإحسان والصلة مفسد لها؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢)**﴾ [الحجرات: ٢].

فحذَّر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردة، بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها، فما الظن بمن قدَّم على قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه؟

أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر؟ ومن هذا قوله ﷺ: **(من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)** (١)، ومن هذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها لزيد بن أرقم رضي الله عنه لما باع بالعينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب. وليس التبايع بالعينة ردة، وإنما غايته أنه معصية، فمعرفة ما يفسد الأعمال في حال وقوعها ويبطلها ويحبطها بعد وقوعها من أهم ما ينبغي أن يفتش عليه العبد ويحرص على علمه ويحذره. وقد جاء في أثر معروف: إن العبد ليعمل العمل سرًا لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى فيتحدث به فينتقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، ثم يصير في ذلك الديوان على حسب العلانية؛ فإن تحدث به للسمعة وطلب الجاه والمنزلة عند غير الله تعالى أبطله كما لو فعله لذلك(٢).

[السراب]

[الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا

---

(١) أخرجه البخاري، في مواقيت الصلاة، باب من ترك العصر، ح ٥٥٣.

(٢) الوابل الصيب: ٢٠ - ٢٢.

مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وتأمل جعل الله سبحانه السـراب بالقيـعة وهي الأرض القـفر الخـالية من البناء والشـجر والنـبات والعالم، فمحل السراب: أرض قفرة لا شـيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وتأمل ما تحت قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩] والظمآن الذي قد اشتد عطشــه فرأى السراب، فظنه ماء، فتبعه فلم يجـده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لمـا كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ولغير الله جُعِلَت كالسراب، فرُفِعَت لهم أظمأ ما كانوا، وأحوج ما كانوا إليهـا، فلم يجدوا شيئًا، ووجـدوا الله سبحانه ثَمَّ فجـازاهم بأعمالهم ووفاهم حســابهم.] وفي الصحيح من حديث أبي سعـيد الخدري ﷺ عن النـبي ﷺ في حديث التجلي يوم القـيامة: (**ثم يؤتى بجهنم تعـرض كأنها السراب، فـيقال لليهـود. ما كنتم تعبـدون؟ فيقولون: كنا نعـبد عزير ابن الله. فـيقال: كـذبتم، لم يكن لله صاحـبـة ولا ولد، فمـا تريدون؟ قـالوا: نريد أن تسقـينا، فـيقـال: اشربوا. فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فـيقال: كذبتم، لم يكن لله صـاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فـيقولون. نريد أن تسقينا، فيقال لـهم: اشربوا. فيتساقطون**)[1] وذكر الحديث. وهذه حال كل صاحب بـاطل؛ فإنه يخونه باطـله أحوج ما كـان إليه؛ فـإن الباطل لا حقيـقة له، وهو كاسمه باطل، فـإذا كان الاعتقاد غـير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلاً.

---

(١) متـفق عليه: رواه البخاري، فـي التوحيد، باب قـول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، ح ٧٤٤٠، ومسلم في الإيمان، ح ١٨٣.

وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة، كالعمل لغير الله، أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده، لا له ولا عليه، بل صار معذبًا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع، فلهذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى(١).

[المراءات المحمودة]

هذا فيه تفصيل أيضًا؛ وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان:

مشاهدة تبعث عليه، أو تُقَوِّي باعثه؛ فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة، كما أن المشاهدة القاطعة عنه أيضًا من الآفات والحجب.

ومشاهدة **لا تبعث عليه** ولا تعين الباعث؛ بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها، فهذه لا تدخله في التزين بالمراءاة، ولا سيما عند المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة: إما حفظًا ورعاية، كمشاهدة مريض أو مشرف على هلكة يخاف وقوعه فيها، أو مشاهدة عدو يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة.

أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم منك، فتكون محسنًا إليه بالتعليم، وإلى نفسك بالإخلاص، أو قصدًا منك للاقتداء، وتعريف

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٦٩ - ١٧٠.

الجاهل. فهذا رياء محمود، والله عند نية القلب وقصده.

فالرياء المذموم: أن يكون الباعث قصد التعظيم والمدح، والرغبة فيما عند من ترائيـه، أو الرهبـة منه. وأما مـا ذكرنـا - من قصـد رعايتـه، أو تعليمه، أو إظهار السُّنَّة، وملاحظة هجوم العدو، ونحو ذلك -: فليس في هذه المشاهد رياء، بل قد يتصدق العبد رياء مثلاً وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السر.

مثال ذلك: رجل مضـرور، سأل قومًا ما هو مـحتاج إليه، فعلم رجل منهم أنه إن أعطـاه سراً حيث لا يراه أحد لم يقـتد به أحد، ولم يحصل له سـوى تلك العطية، وأنه إن أعطـاه جهرًا اقتُدِي به واتُّبِع، وأنِفَ الحاضرون من تفرُّده عنهم بالعـطية، فجهـر له بالعطاء، وكان الباعثَ له على الجهر: إرادةُ سَعة العطـاء عليـه من الحـاضـرين. فهذه مراءاة محـمودة، حيث لم يكن الباعث عليها قصد التعظيم والثناء، وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين[1]. أهـ.

ثانيًا: المحبة

[محبة الله تعالى]

محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه أصل الدين وأصل أعمـاله وإراداته، كما أن مـعرفتـه، والعلم بأسمائه وصـفاته

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٩١ - ٩٢.

وأفعاله أجل علوم الدين كلها؛ فمعـرفته أجل المعارف، وإرادة وجهه أجل المقاصـد، وعبادته أشرف الأعمـال، والثناء عليه بأسمائه وصفـاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم.]

وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صـلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصـحابه إذا أصبـحوا أن يقولوا: **(أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم، حنيفًا مسلما، وما كان من المشركين)**(١).

وذلك هو حقيـقة شهادة لا إله إلا الله، وعليهـا قام دين الإسلام الذي هو دين جـميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دين سواه، ولا يقبل من أحد دينًا غـيـره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فـمحـبـته تعـالى، بل كـونه أحب إلى العـبد من كـل ما سـواه على الإطلاق، من أعظم واجـبات الدين، وأكبـر أصوله، وأجل قـواعده، ومن أحب معه مخلوقًا مثل ما يحبه فـهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمـان حتى يكون عبدًا لله، ورسوله

---

(١) رواه أحمد: ٣/٤٠٦، ٤٠٧، وسنده متصل صحيح.

أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وُضِع الثواب والعقاب، وأُسِّسَت الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلال ومخافة.

[فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يُخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة؛ فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال عليه، وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك؛ إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن؛ فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها.]

فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة؛ كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمر بالقلب أوقات فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا ما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًا لغيره، ولا أنسًا به. وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية وذلاً،

وخضوعًا ورقًا له، وحرية عن رق غيره.]

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقًا حتى يظفر بما خلق له وهيئ له من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه؛ فإن فيه فقرًا ذاتيًا إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره. وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له.

فأصبح حرًا عزة وصيانة على وجهه أنواره وضياؤه

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحس به لاشتغال قلبه بغيره وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول - وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعًا لأجله - لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه

من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعينًا بالله، متوكلاً عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، متيقنًا أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه؛ فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فلا يوصل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يعبد إلا بإعانته، ولا يطاع إلا بمشيئته: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾**﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وإذا عرف هذا، فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت، أو ذهبت. فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قدَّم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها. ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن**)[1] فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يشعثه وينقصه.

ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصًا لله منيبًا إليه، مطمئنًا بذكره، مشتاقًا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الحدود، ح ٦٨١٠، ورواه مسلم في الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، ح ٥٧.

قلبه إلى لقـائه، منصرفًا عن هذه المحـرمات، لا يلتفت إليهـا، ولا يعول عليها، ويرى استبـداله بها عما هو فيه كاستبدالـه البعر الخسيس بالجـوهر النفيس، وبيعـه الذهـب بأعقاب الجزر، وبيعه المسك بالرجيع.

ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة؛ إنما يصبو إلى ما يناسـبه، ويمـيل إلى مـا يشـاكله، ينفـر من المطـالب العـاليـة، واللـذات الكاملة كمـا ينفر الجعل من رائحة الورد. وشـاهـدنا من يمـسك بأنفه عند وجود رائحة المسـك ويتكره بها، لما يناله بها من المضـرة.

فمن خلق للعـمل في الدباغة لا يجيء منه العـمل في صناعة الطيب، ولا يليق ولا يتأتي مـنه. (والنفس لا تترك محـبوبًا إلا لمحـبوب هو أحب إليها منه، أو للخوف من مكروه هو أشق عليها من فوات ذلك المحبوب.)

فالذنب يعدم لعـدم المقتضي له تارة، ولاشتغـال القلب بما هو أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، ومن خوف فوات محبوب هو أحب إليه منه تارة.

فالأول: حال من حصل له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعم به ما عوض قلبه عن ميله إلى الذنوب.

والثـاني: حال من عنده داع وإرادة لها، وعنده إيمـان وتصديق بوعد الله تعالى ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيما هو أكره إليه، وأشق عليه.

فـالأول: للنفوس المطمئنة إلى ربها. **والثـاني**: لأهل الجهاد والصبر. وهاتان النفسان هما المخصوصتان بالسعادة والفلاح.

قال الله تعالى في النفس الأول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وقال في الثانية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

فالنفوس ثلاثة: نفس مطمئنة إلى ربها - وهي أشرف النفوس وأزكاها - ونفس مجاهدة صابرة، ونفس مفتونة بالشهوات والهوى؛ وهي النفس الشقية التي حظها الألم والعذاب، والبعد عن الله تعالى والحجاب[1].

[أنفع الحب]

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها: محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبته.

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركَّب فيهم من العقول، وما

(١) إغاثة اللهفان: ٥٦٥ - ٥٧٠.

أسبغ عليـهم من النعم؛ فإن القلوب مفطورة مـجبولة على محـبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل: ٥٣]، وما تعرَّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحـبة لهـا داعيـان: الجمال والإجـلال. والرب تعالى له الـكمال المطلق من ذلك؛ فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجلال كله منه؛ فلا يـستحق أن يُحَبَّ لذاته من كل وجـه سواه؛ قـال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

فالولاية أصلهـا الحب؛ فلا مـوالاة إلا بحب، كما أن العـداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده بحسب محبته له.

ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من سوَّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحب الله؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأخبر عمن سوَّى بينه وبين الأنداد في الحب أنهم يقولون في النار لمعبوديهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: **(لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**(١) فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **(...لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك)**(٢) أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم؟ وكل

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان، ح ١٥، ومسلم في الإيمان، ح ٤٤.

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ح٦٦٣٢.

ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته، مما يحب العبد ويكره؛ فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، وبره ورحمته وإحسانه، وستره وعفـوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جـميع الوجوه؛ كل ذلك داع للقلوب إلى تأليـهه ومحبته. بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضي وطَره منها وكلاءته وحراسته له، وهو يقضي وطره من معـصيته، ويعينه ويستعين عليها بنعـمه من أقوى الدواعي إلى محـبته؛ فلو أن مخلوقًـا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن مـحبته، فكيف لا يحب الـعبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إسائته؟ فخيره إليه نازل، وشره إلـيه صاعد، يتحـبب إليه بنعمه، وهو غني عـنه، والعبد يتبغض إليـه بالمعاصي وهو فقير إلـيه فلا إحسانه وبره وإنعامـه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه.

وأيضًا، فكل من تحـبه من الخلق ويحبك إنمـا يريدك لنفسه وغـرضه منك، والله سبـحانه يريدك لك؛ كـما في الأثر الإلهي: **عبـــدي كلٌّ يريدك لنفسـه، وأنا أريدك لك**، فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه بمحبة سواه.

وأيضًا فكل من تعاملـه من الخلـق إن لم يربح عليك لـم يعاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعـالى إنما يعاملك لتـربح أنت عليه

أعظم الربح وأعلاه؛ فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً.

وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته.

وأيضًا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين؛ أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولايتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأل، يستحيي من عبده حيث لا يستحيي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال: (**من يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له**)[١]، كما قيل: أدعوك وللوصل تأبى، أبعث رسولي في الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك في النوم.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات،

---

(١) متفق عليه: جزء من حديث رواه البخاري في الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، ح ٦٣٢١، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر. . . ح ٧٥٨.

ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؛ فهو أحق من ذُكر، وأحق من شُكِرَ، وأحق من عُبِدَ، وأحق من حُمِدَ، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئِلَ، وأوسع من أعطى، وأرحم من استُرحم؛ وأكرم من قُصِد، وأعز من التُجئ إليه، وأكفى من توكل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، أشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها، وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ندٍّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصي إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويُعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجل، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، وأشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ما اعتاض باذل حبه لسواهُ من … عوضٍ، ولو ملك الوجود بأسره[1]

---

(١) الداء والدواء: ٣٣٦ - ٣٤١.

[كيف لا يُحب من هذا شأنه؟]

القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه؛ فإن إحسانه على عبده في كل نَفسٍ ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفَس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة؛ فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل ١٨]، هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلأه منها بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وسواء كان المعنى من يكلأكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا ويكون يكلأكم مضمنًا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت «مِنْ» البدلية؛ أي: من يكلأكم بدل الرحمن؛ أي هو الذي يكلأكم وحده لا كالئ لكم غيره، ونظير «مِنْ» هذه قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠)﴾ [الزخرف: ٦٠] على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم؛ فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام

إليه سبحانه وتعالى؛ فإنه غني عن خلقــه من كل وجه وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه، وفي بعض الآثار يقول تعالى: **(أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبـادي في مضاجعـهم وهم يبارزونني بالعظائم)**؛ وفـي الترمذي أن النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: **(هذه روايا الأرض، يسوقها الله إلى قوم لا يذكرونه، ولا يعبدونه)**[١].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: **(لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقـهم ويعافيهم)**[٢]؛ وفي بعض الآثار يقول الله عز وجل: **(ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم، وأنا غني عنك، وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي، وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح)**.

ولو لم يكن من تحبـبه إلى عباده وإحســانه إليهم وبره بهم إلا أنه خلق لهم ما في السماوات والأرض وما في الدنـيا والآخرة؛ ثم أهلهم وكرمهم، وأرسل إليهم رسله وأنـزل عليهم كتـبه وشرع لهم شـرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونهـا عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثـيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة فإن تابوا منها مـحاها وأثبت مكانهـا حـسنة، وإذا بلغت ذنوب أحـدهم عنان السمـاء ثم

---

(١) جزء من حـديث رواه التـرمـذي بنحـوه في تفسـير القـرآن، باب تفـسـير سـورة الحـديد، ح ٣٢٩٨.

(٢) متـفق عليه: رواه البـخاري بنحوه في الأدب ٦٠٩٩، ورواه مـسلم بنحوه في صـفة القيامة والجنة والنار، ح ٢٨٠٤.

استغفره غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله فوفقهم لفعله وكفَّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات هو الذي أمرهم بها وخلقها لهم وأعطاهم إياها ورتب عليها جزاءها؛ فمنه السبب ومنه الجزاء، ومنه التوفيق ومنه العطاء أولاً وآخرًا، وهم محل إحسانه فقط ليس منهم شيء، إنما الفضل كله والنعمة كلها والإحسان كله منه أولاً وآخرًا؛ أعطى عبده ماله وقال: تقرب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبد له والمال له والثواب منه، فهو المعطي أولاً وآخرًا فكيف لا يحب من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحيي العبد أن يصرف شيئًا من محبته إلى غيره؟ من أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده لا إله إلا هو العزيز الحكيم. ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ سبحانه وتعالى سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلى هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى

التوبة، ومريضـهـم إلى أن يسأله أن يشـفيه، وفقيـرهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجـتهم يسـأله قضـاءها كل ليلة، ويدعوهـم إلى التوبة وقـد حاربوه وعذَّبوا أوليـاءه وأحـرقوهم بالنار؛ قـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البـــروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلـى كرمه كيف عـذَّبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة[1]. أهـ.

[الأسباب الجالبة للمحبة]

(وهي عشرة.)

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به؛ كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللســان والقلب، والعمل والحال؛ فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه

---

(١) طريق الهجرتين: ٣١٥ - ٣١٧.

في رياض هذه المعرفة ومباديها؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

السابع: - وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر؛ ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق[1].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٥٢٩ - ٥٣٠. وقد شُرِحَت هذه الأسباب العشرة في كتاب مستقل بعنوان: «**شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدَّها الإمام ابن القيم**»، للدكتور عبد العزيز مصطفى، دار طيبة للنشر والتوزيع، فليراجعه من أراد الاستزادة في ذلك المجال.

[كمال القلب]

الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهـو في قلق واضطراب وانزعاج بسـبب فقد كـماله الذي جعل له؛ مـثاله كمال العـين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمـال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضـاء القوى التي بها كمالهـا حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك. وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته ومحبتـه، والإنابة إليه والإقبال عليه، والشوق إليه والأنس به، فإذا عـدم القلب ذلك كان أشد عـذابًا واضطرابًا من العين التي فـقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فـقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك؛ فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين[١]. أهـ.

[أعظم نعيم الدنيا وأعظم لذات الآخرة]

أعظم نعيم الآخرة ولذاتها هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: **(فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه)**[٢]، وفي حديث آخر: **(إنه إذا تجلى لهم**

(١) الروح: ٢٦٦.

(٢) رواه الترمذي بلفظه في صفة الجنة، ح ٢٥٥٢، ومسلم بنحوه في الإيمان، ح ١٨١.

ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم)[١].

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في دعائه: (**وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك)**[٢].

وفي كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعًا: (**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن؛ فكأنما لم يسمعوه قبل ذلك)**[٣].

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته؛ فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر؛ فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك؛ فليست الحياة الطيبة إلا بالله. وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»، وقد تقدم ذلك، وكان غيره يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

---

(١) لم أجده.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٢٦٤، والنسائي في السهو، ح ١٣٠٥.

(٣) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد: ١/ ١٤٧ فقرة ١٢٣، وقال محققه: إسناده ضعيف.

وإذا كان صـاحب المحـبة البـاطلة التي هي عذاب على قلب الـمحب يقول في حاله:

وَمَا النَاسُ إلا العَاشقُونَ ذَوُو الهوى فلا خـير فيمن لا يُحـب ويعـشـقُ

فكيف بالمـحبة التي هي حـياة القلوب وغـذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فـلاح، ولاحياة إلا بهـا، وإذا فقدها القلب كـان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقـدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، والـلسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من مـحبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فســاد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمهـا وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب؛ ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبـاسه ونكاحـه وشفـاء غيظه بقـهر عدو الله وعـدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلامًا أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضـهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿ رَبَّنَا

اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩] ، ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق، وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات؛ بمنزلة من قدَّم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلى هلاكه؛ قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال في حقهم: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام كما قيل:

مآرب كانت في الحياة لأهلها عِذابًا، فصارت في المعاد عَذابًا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها

على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: (**كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته؛ فإنهن من الحق**)(١) فما أعان على اللذة المطلوبة لِذَاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل(٢). أهـ.

[طيب العيش في الدنيا]

ذكر [العبد] وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يُجازَى به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة». وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي بنحوه في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي، ح ١٦٣٧.

(٢) الداء والدواء: ٣٤٣ - ٣٤٧.

بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنَّى رحت فهي معي لا تفارقني؛ إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة». وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة». أو قال: «ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير»، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللَّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله»، وقال لي مرة: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه».

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا؛ تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال آخر: «مـساكين أهل الدنيا؛ خرجـوا منها وما ذاقوا أطيب ما فـيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره». أو نحو هذا.

وقال آخر: «إنه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وقال آخـر: «إنه لتمر بي أوقـات أقول إن كان أهل الجـنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

فمـحبة الله تعالى ومـعرفتـه ودوام ذكره والسكون إليه والطمـأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والـمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهـه نعيم، وهو قرة عين المـحبين، وحيـاة العارفين. وإنما تقـر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، من قرَّت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات[1].

[أكمل الناس لذة]

لذة كل أحد على حسب قدره وهمّته وشرف نفسه؛ فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همة وأرفـعهم قدرًا من لذته في معـرفة الله ومحبـته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بـما يحبه ويرضاه. فلذته في إقباله عـليه، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيـها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذته في أخسِّ الأشيـاء من القاذورات والفـواحش في كل شيء من الكلام والفِـعال

(١) الوابل الصيب: ٦٩ - ٧١.

والأشغال؛ فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسُه بقبوله ولا التفَتَ إليه، وربما تألمت من ذلك، كما أن الأول إذا عُرِضَ عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به، ولم تلتفت إليه، ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة مَنْ جُمِع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه. فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسُهم حظًا مِنْ اللذة مَنْ تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة؛ فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا**﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع؛ فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أُذِنَ لهم فيه، فجُمِعَ لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب، فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله في إرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لا بحكم مجرد الشهوة والهوى. وإن كان ممن زُويت عنه لذات الدنيا وطيباتها، فليجعل ما نقص

منها زيادة في لذة الآخرة، ويجمّ نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطّيبات الدنيا ولذاتها نِعْمَ العَوْن لمن صحَّ طلبه لله والدار الآخرة وكانت هِمّتُه لما هناك، وبئس القاطُع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نِعْمَ العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعًا وإلا خسرهما جميعًا[(١)]. أهـ.

[من علامات محبة الله تعالى]

﴿إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم؛ فإن من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إنْ كُنْتَ تَزْعَمُ حُبِي ... فَلِم هَجَرْتَ كِتَابِي؟

أمَا تَأمَلْتَ ما فِيه ... مِنْ لَذِيذِ خِطَابِي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله». وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟﴾ وقال النبي ﷺ يومًا لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **(اقرأ علي، فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فاستفتح فقرأ سورة النساء، حتى إذا بلغ**

---

(١) الفوائد: ٢١٩ - ٢٢١.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] قال: حسبك. فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء»[(١)].

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون. فلمحبي القرآن - من الوجد، والذوق، واللذة، والحلاوة، والسرور - أضعاف ما لمحبي السمع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه، ووجده، وطربه، وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل:

تُقْرأ عَليكَ الختمة وأنْتَ جَامِدٌ كَالحَجَرِ وَبَيْتٌ مِن الشَّعْرِ يُنْشَدُ تَمِيلُ كالسَّكْرَانِ

فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شيء[(٢)]. أهـ.

[الذل والانكسار لله تعالى]

[لا غنى للعبد عن] الذُّل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذَرَّةٍ من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقاراً تامّاً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتَها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كَسْرَةَ خاصة لا يشبهها شيء؛ بحيث يرى نفسه كالإناء

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في تفسير القرآن، ح ٤٥٨٢، ومسلم بنحوه في صلاة المسافرين وقصرها، ح ٨٠٠.

(٢) الداء والدواء: ٣٤٧ - ٣٤٨.

المـرضـوض تحت الأرجل الذي لا شيء فـيه، ولا به ولا منـه، ولا فيـه منفعـة، ولا يُرغَب في مثلـه، وأنه لا يصلح للانتفـاع إلا بجبر جـديد من صانعه وَقـيّمه؛ فحينئذ يسـتكثر في هذا المشهد ما منَّ ربه إليـه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيرًا، فأيّ خير ناله من الله استكثره على نفـسه، وعلم أن قَـدْره دونه، وأن رحمـة ربه هي التي اقـتضت ذكـره به، وسياقته إليه، واستـقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها - ولو ساوت طاعات الثـقلين - من أقل ما ينـبغي لربه عليه، واسـتكثر قليل مـعاصـيه وذنوبه؛ فإن الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فمـا أقرب الجبر من هذا القلب الـمكسور! وما أدنى النصر والرحـمة والرزق منه! وما أنفع هذا المـشهد له وأجـداه عليه!. وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المـدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكَّنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة؛ فـهو ناكس الرأس بين يدي ربه؛ لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجـد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكـسرة فهو غير ساجـد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله - هذه السـجدة العظمى - سجدت معه جـميع الجوارح، وعنا الوجهُ حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واسـتكان، ووضع خده على عـتبـة العبودية، ناظرًا بقـلبه إلى ربه

ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرَى إلا متملقًا لربه، خاضعًا له، ذليلاً مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له، الذي لا غنى له عنه، ولا بد له منه، فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له؛ يقول: كيف أُغضِب مَنْ حياتي في رضاه، وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية، وهو القَيِّم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له، فخرج عليه في طريقه عدو، فأسره وكَتَّفه وشَدَّه وَثاقا، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب، وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه، فبينا هو في أسر عدوه يَسومه سوء العذاب، ويريد نَحْره في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريبًا، فسعى إليه، وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذ فَرَّ عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحًا ببابه؛ يُمرِّغ خَدَّه في ثَرى أعتابه باكيًا

بين يديه، يقول: يا رب يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مـؤوي له سواك، ولا مـغيث له سـواك؛ مسكـينك وفقـيرك، وسائلك ومـؤملك ومرجـيك، لاملجأ له ولامنجـا له منك إلا إليك، أنت معاذه وبك ملاذه.

يا مـن ألـــــوذ به فيـما أُؤمــــــله ومن أعـــــوذُ بِهِ مِما أحــــــاذرهُ

لا يَجــبرُ الناس عَظــمًا أنت كاسِــــرهُ ولا يهيضـون عظمًا أنت جابِرهُ[1]. أهـ

[مشهد العبودية والمحبة]

هو الغاية التي شَـمَّر إليهـا السالكون، وأمَّهـا القاصدون، ولحظ إليـها العاملون. وهو مشهد العبودية والمـحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقَرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجـوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعـاصي. قد امتلأ قلبه من مـحبته، ولهج لسانـه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعـته؛ فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعبَّرُ عنه.

ويحكى عـن بعض العـارفـين أنه قـال: دخـلت عـلى الله من أبواب الطاعات كلها؛ فمـا دخـلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكـن من

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤١٩ - ٤٢٠.

الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق. فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو - سبحانه - قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة؛ يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة؛ فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة؛ لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم؛ بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في وادٍ وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة؛ فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده؛ فإنه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب، وفي حال مواقعته، وبعده، وبِرَّه به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يُمِدُّه بنعمه، ويعامله بألطافه ويُسْبِل عليه سَتره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه يراه ويطلع عليه؛ فالسماء تستأذن ربها أن تَحْصِبه، والأرض تستأذنه أن تَخْسِف به، والبحر يستأذنه أن يُغرقه، كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: **(ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه، والرب تعالى يقول: دعوا عبدي، فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض؛ إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمنِّي وإليَّ، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن مشى إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبت عليه، مَنْ أعظم مني جوداً وكرمًا، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم على فُرُشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألَنْتُ له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد، أهلُ ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم؛ أبتليهم بالمصائب**

لأطَهِّرهم من المعايب)[(١)(٢)] . أهـ .

[غيرة اللّه على قلب عبده]

الله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده أن يكون مُعَطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه، وأن يكون فيه غيره. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: **(ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كلَّ شيء لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ما خلقتُك له)**. وفي أثر آخر: **(خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلّتُ لك برزقك فلا تتعب. يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كلّ شيء، وأنا خيرٌ لك من كل شيء)**، ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلّط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحبّ غيره أنواعَ العذاب حتى يرجع قلبه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده، كما أنه

---

(١) روى الإمام أحمد أول الحديث (١/ ٤٣) بمعناه وهو قوله (ليس من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات على الأرض فيستأذن الله في أن ينتضح عليهم فيكفه الله عز وجل، وقد ضعف هذا الحديث الشيخ الألباني في ضعيف الجامع رقم (٤٩٣٢).
وبقية الحديث لم أقف عليه.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٤٢١ - ٤٢٣.

سبحانه وتعالى يغار على عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرمته، فلا يُمكن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حرمته غيرةً منه لعبده؛ فإنه سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحريمهم، وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كلِّه غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله تعالى يغار على إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقَدَرًا، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرع عليها أعظمَ العقوبات وأشنعَ القَتَلات لشدَّة غَيْرته على إمائه وعبيده، فإن عُطِّلت هذه العقوبات شرعًا أجراها سبحانه قَدَرًا[1].

[الأدب مع الله تعالى]

[فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة المرء معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقته عليه.]

قال أبو علي الدقاق - رحمه الله -: «العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلى الله».

وقال: «رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة إلى أنفه فقبض على يده».

وقال ابن عطاء - رحمه الله -: «الأدب الوقوف مع المستحسنات،

---

(١) روضة المحبين: ١/ ٢٦١ - ٢٦٢.

فقيل له: وما معناه؟ فقال أن تعامله سبحانه بالأدب سراً وعلنا، ثم أنشد.

إذا نَطقَتْ جـاءت بكل ملاحة وإن سكَتَتْ جاءت بكل مليح

وقال أبو علي - رحمه الله -: «من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل».

وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله -: «إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين».

وقال أبو علي - رحمه الله -: «ترك الأدب يوجب الطرد؛ فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب».

وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله -: « من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله».

وقال ابن المبارك - رحمه الله -: «نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم».

وسئل الحسن البصري - رحمه الله - عن أنفع الأدب فقال: «التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك».

وقال سهل - رحمه الله -: «القوم استعانوا بالله على مراد الله، وصبروا لله على آداب الله».

وقال ابن المبارك - رحمه الله -: «طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون».

وقال: «الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف»... وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ، ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها؛ فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم؛ فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك؛ فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن مرتبة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط

عتوِّهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١١٦]، أي هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم، فإذا عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه؛ فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه؛ فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى؛ فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة؛ بل مقام براءة منهم؛ فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم؛ فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على مَنْ غضب الرب عليهم؛ فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم... وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠]، ولم يقل: «وإذا أمرضني» حفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكـذلك قول مـؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، ولم يقولوا «أراده ربهم» ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قـول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل «أطعمني»[(١)]. أهـ.

[أنواع المحبة]

(ههنا أربعة أنواع من المحبة، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها: محبة الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه؛ فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله؛ وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثـالث: الحب لله وفيه؛ وهي من لوازم محبـة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

والرابع: المحبة مع الله؛ وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله لا لله، ولا من أجله، ولا فيـه، فقـد اتخـذه ندًا من دون الله؛ وهذه محبة المشركين.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٧٩ - ٣٨٣.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهو: **المحبة الطبعية**: وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه؛ كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [النور: ٣٧][١]. أهـ.

[إيثار رضا اللَّه على رضا غيره]

قال [الهروي رحمه الله]: «الدرجة الثانية: إيثار رضا الله على رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطَّوْل والبدن».

إيثار رضا الله عز وجل على غيره هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا ﷺ وعليهم؛ فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم؛ بل كان هَمُّه وعزمهَ وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق

(١) الداء والدواء: ٢٨١ - ٢٨٢.

جهــاده، وعبــد الله حتى أتاه اليقــين من ربه؛ فلم ينل أحــدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله ﷺ.

وأما قوله: **«وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن»**: فإن المحنة تعظم فيه أولاً ليتأخر من ليس من أهله، فــإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحًا، وصارت تلك المؤن عونًا. وهذا معــروف بالتجربة الخاصة والعامة؛ فإنه ما آثر عبد مرضــاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنتــه، وصبــر على محنتــه إلا أنشأ الله من تلك المــحنة والمؤنة نعــمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمَّل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا، ومظان عَطَبــه نجــاة، وتعــبه راحــة، ومــؤنتــه معــونة، وبليــتــه نعــمة، ومــحنتــه منحة، وسخطه رضا، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذِلَّة المتهيبين.

هذا، وقــد جرت سنة الله - التي لا تبــديل لهــا - أن من آثر مرضــاة الخلق على مــرضاته أن يسخط علــيه من آثر رضاه، ويخــذله من جهــته، ويجعل محنته على يديه؛ فيعود حــامده ذامًا، ومن آثر مرضاته ساخطًا فلا على مقصــوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربــه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضــا الخلق لا مــقــدور، ولا مــأمور، ولا مــأثور؛ فــهــو مستحيل، بل لا بد من سخــطهم عليك؛ فلأنْ يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحب إليك وأنــفع لك من أن يســخطوا عليك والله عنك غــيــر راض، فإذا كان سخطهم لا بدَّ منه - على التــقديرين - فآثِرْ سخطهم الذي ينال به رضى الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا؛ وإلا فأهون شيء رضا من

لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم، وخاصة العقل احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما؛ فوازن بعقلك، ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثِرْه، وأيهما شر فابْعُدْ عنه؛ فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضا الله على رضا الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لَمُصانعَةُ وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعي رحمه الله: رضا الناس غاية لا تدرك؛ فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها على غيره. ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله؛ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضراً:

فليتك تحلو، والحياة مَريرة ... وليتك ترضى، والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الوُدُّ فالكل هَيِّن ... وكل الذي فوق التراب تراب[1]. اهـ

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٠٤ - ٣٠٦.

[إيثار الخالق]

وهو إيثار رضاه على رضا غيره، وإيثار حبه على حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره؛ فالأول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له، وهذا آثر الله على غيره ونفسه من أعظم الأغيار؛ فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله. وعلامة هذا الإيثار شيئان: أحدهما: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه، الثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه؛ فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار. ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعي العادة والطبع؛ فالمحنة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة. ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، فحقيق بالعبد أن يسمو إليه وإنْ صعُبَ المرتقى، وأن يشمر إليه وإن عظمت فيه المحنة، ويحمل فيه خطرًا يسيرًا لمُلْك عظيم وفوز كبير؛ فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال، ويسير منه يُرقِّي العبد ويُسيِّره ما لا يرقى غيره إليه في المدد المتطاولة، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء. ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار، والذي يسهله على العبد أمور:

أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة، وليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

الثاني: أن يكون إيمانه راسخا ويقينه قويًا؛ فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

الثـالث: قوة صبره وثباته؛ فبـهذه الثلاثة الأمور ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه. والنقص والتخلف في النفس عن هذا يكون من أمرين: **أحـدهـما**: أن تكون جامدة غـير سريعة الإدراك، بل بطيـئة ولا تكاد ترى حـقيـقـة الشيء إلا بعد عـسـر، وإن رأتها اقـتـرنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها.

الثـاني: أن تكون القريحة وقَّادة درَّاكة، لكن النفس ضعيفة مهينة؛ إذا أبصرت الحق والرشد ضعـفت عن إيثاره، فصاحبـها يسوقها سـوق العليل المريض، كلما سـاقه خطوة وقف خطوة، أو كسوق الطـفل الصغير الذي تعلقت نفـسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه لا ينساق معـه إلا كرها. فإذا رزق العـبد قريحـة وقادة، وطبـيعة منقـادة - إذا زجرها انزجرت، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين - وارتدى مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ، أقبلت إليه وفود السعادة من كل جانب[١].

[من أعجب الأشياء]

من أعجب الأشياء: أن تـعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعـيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معامـلته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحـشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعـته، وأن تذوق عـصـرة القلب عند الخـوض في غيـر حديثـه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشـراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق

---

(١) طريق الهجرتين: ٣٠١ - ٣٠٢.

العذاب عند تعلُّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!

وأعجب من هذا: علمك أنك لا بدّ لك منه، وأنك أحـوج شيء إليه، وأنت عنه مُعرض، وفيما يبعدك عنه راغب[1]!

[السفر إلى الرب]

لما سـافر موسى إلى الخـضر وجد في طريقـه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢]، فإنه سفر إلى مخلوق.

ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعـشر، فلم يأكل فيها، لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعـالى. هكذا سفر القلب وسيره إلى ربه: لا يجـد فـيـه من الشقـاء والنصب مـا يجـده في سـفـره إلى بعض المخلوقين[2]. أهـ.

[توقير الله عز وجل]

من أعظم الظلم والجـهل أن تطلب التـعظيم والتـوقيـر لك من الناس وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقـيره، فإنك توقـر المخلوق وتجلّه أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نـــوح: ١٣]، أي لا تعاملونـه معاملة من توقـرونه. والتوقـير: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

---

(١) بدائع الفوائد: ٧٢ - ٧٣.

(٢) مدارج السالكين: ٣/ ١٧٢.

قال الحسن: «ما لكم لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرونه؟»، وقال مجاهد: «لا تبالون عظمة ربكم». وقال ابن زيد: «لا ترون لله طاعة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تعرفون حق عظمته».

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد؛ وهو أنهم لو عظَّموا الله وعرفوا حق عظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه؛ فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يُسْتَحى من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قَبَّحَ الله الكلبَ والخنزيرَ والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وَقارِه أن لا تعْدِلَ به شيئًا من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وَحَيَاتِك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء اللهُ وشئتَ، ولا في الحُب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظَّلَمة والفَجَرة، ولا في الخوف الرجاء. ويجعله أهْون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة ويُقدِّم حق المخلوق عليه، ولا يكونَ الله ورسوله في حدٍّ وناحية، والناس في ناحية وَحَدٍّ، فيكونَ في الحدِّ والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطيَ المخلوقَ في مخاطبته قلبَه ولُبَّه ويعطي اللهَ في خدمته بدَنه ولسانَه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدَّمًا على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب. ومَن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من

قلوبهم. وإنْ وقَّروه مـخافة شـرِّه فذاك وقارُ بُغْـضٍ لا وقارُ حُبٍ وتعظيم. ومن وقار الله أن يستحيَ من اطلاعه على سرِّه وضمـيره فيرى فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحيي منه في الخلوة أعظم مما يستحيي من أكابر الناس.

والمقصود أنَّ مَن لا يوقر الله وكـلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقـيره وتعظيـمه؟! القـرآنُ والعلمُ وكلامُ الـرسول ﷺ صِلاتٌ من الحـــق وتنبيهــات وروادع وزواجر واردةٌ إليك، والشـيب زاجر ورادع ومـوقظ قـائم بك، فـلا مـا وَرَدَ إليـك وعَظَـك! ولا مـا قـام بك نَصَـحَكَ! ومع هـذا تطلب التوقير والتعظـيم من غيرك! فأنت كمُصاب لم تؤثر فيـه مصيـبته وعظًا وانزجـارًا، وهو يطلب من غيره أن يتَّـعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه. فالضَّربُ لم يؤثر فيه زجرًا وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه[١]. أهـ.

[كيف يستقيم القلب]

استقامة القلب بشيئين: **أحدهما**: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جمـيع المحـاب، فإذا تعارض حب الله تعـالى وحب غيـره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.

ما أسهل هذا بالدعوى ومـا أصعبه بالفعل؛ فعند الامـتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثـر ما يقدم العبد ما يحـبه هو ويهواه أو يحبه كبـيره وأميره وشيخه وأهله على مـا يحبه الله تعالى. فهذا لم تتقدم مـحبة الله تعالى في

(١) الفوائد: ٢٦٧ - ٢٦٨.

قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع: أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سلط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي؛ فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة. ما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرَّضا لتشدد غال، ولا يحملا على علة توهن الانقياد.

ومعنى كلامه أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه؛ وذلك المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصدق وصحة

العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر.

فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر الناهي، فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها؛ كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه تقبلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا. ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى.

فإذا فوَّت العبد عليه هذا الربح قطعًا - وكثير من العلماء يقول: لا صلاة له - وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا عدم تعظيم أمر الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قرعة وكذلك فَوْتُ الجَمْعِ الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، كلما كثر الجَمْعُ كان أحب إلى الله عز وجل، وكلما بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطيئة، وأخرى ترفع درجة.

وكذلك فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبها؛ فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحيي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة؟! فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو أمير أو غيره؟ فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى؛ فهي بمنزلة هذا العبد - أو الأمة - الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها؛ فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن العبد ليصلي الصلاة وما كُتب له إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، إلا خمسها، حتى بلغ عشرها)**(١)(٢).

[حب الحبيب ﷺ]

قال تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهذا دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا:

منها: أن يكون أحبَّ إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا فيجب أن يكون الرسول أولى به

---

(١) رواه الإمام أحمد بنحوه: ٤/ ٣٢١، وأبو داود بنحوه في الصلاة، ح ٧٩٦.

(٢) الوابل الصيب: ١٥ - ١٩.

منها، وأحب إليه منها؛ فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحـبة: كمال الانقيـاد، والطاعة، والرضا، والتسليم، وسائر لوازم المحبة من الـرضا بحكمه، والتسليم لأمره، وإيثاره على كل من سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حُكْمٌ على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسـول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السـيد على عبده والوالد على ولده؛ فليس له في نفـسه تصرف قط إلا مـا تصرف فيـه الرسول الذي هو أولى به منها.

فيا عـجبًا كيف تحصل هذه الأولـوية لعبد قد عزل مـا جاء به الرسول ﷺ عن منصب التـحكيم، ورَضي بحكم غيـره، واطمأن إليـه أعظم من طمـأنينته إلى رسـول الله ﷺ، وزعم أن الهـدى لا يُتلقى من مـشكاته، وإنما يتلقى من دلالات العـقول، وأن ما جاء به لا يفـيد اليقين، إلـى غير ذلك من الأقوال التي تتـضمن الإعراض عـنه وعما جـاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره؛ ذلك هو الضلال المبين.

ولا سبيل إلى ثبـوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتولـيته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به؛ فإن شهد له بالصحة قبله وإن شهـد له بالبطلان ردَّه، وإن لم تتبـين شهـادته له بصحة ولا بـطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به.

فمن سلك هذه الـطريقة استـقام له سفـر الهجرة، واسـتقـام له علمُه

وعملُه، وأقبلت وجوهُ الحق إليه من كل جهة[(١)].

[الأدب مع الرسول ﷺ]

أما الأدب مع الرسول ﷺ فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا، أو يحمله شبهة أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم؛ فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول؛ فلا يحاكم إلى غيره، ولايرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه؛ فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإنْ طَلَبَ السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلا، وحملا؛ فقال: نؤوله ونحمله.

فلأنْ يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتك بالله، لو قُدِّر

(١) الرسالة التبوكية: ٩٣ - ٩٥.

أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا، وقد واجهنا بكلامه وبخطابه أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم. فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غيـر التفات إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه على فـيه وبقي باهتًا متحيرًا، وما نطق بكلمـة... ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقـدم بين يديه بأمر ولانهي، ولا إذن ولا تصـرف، حتى يأمر هو، وينهى ويأذن كـما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحـجرات: ١]، وهذا باق إلى يوم القـيامة ولم ينسخ؛ فـالتقـدم بين يدي سنته بعـد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمــه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حـتى يقضيه الله على لسانه.

وقال الضحاك رحمه الله: لا تقضوا أمرًا دون رسول الله ﷺ. وقال أبو عبـيدة رحـمه الله: تقول الـعرب: لا تقدم بين يدي الإمـام وبين يدي الأب؛ أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

ومن الأدب مـعـه أن لا نُرفع الأصوات فوق صوته؛ فـإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره؛ قال تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ [النور: ٦٣]، وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا؛ بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسولَ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجاب، وإن شاء ترك؛ بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلى هذا: المصدرُ مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع - من خطبة، أوجهاد، أو رباط - لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾ [النور: ٦٢]، فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يَستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله. ولا يعارض نَصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا؛ نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد؛ فكل هذا من

قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة[(١)]. أهـ.

ثالثًا: الرضا والتسليم

[مراتب الشكوى]

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه؛ فإنه لو عرف ربّه لمَا شكاه، ولو عرف الناسَ لمَا شكا إليهم.

ورأى بعضُ السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورتَه، فقال: يا هذا، والله ما زدتَ على أن شكوتَ مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك.

وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابنِ آدمَ إنما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده. وأعرف العارفينَ مَن جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس؛ فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه؛ فهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٩٠ - ٣٩٣.

فالمراتب ثلاثة:

أخسّها: أن تشكو الله إلى خلقه.

وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه.

وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه[1]. أهـ.

[حبس القلب وحبس اللسان]

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبُه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس.. وبالله التوفيق[2]. أهـ.

[العبودية التامة]

الصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية؛ كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر

---

(١) الفوائد: ١٣٠ - ١٣١.

(٢) الفوائد: ٨٣.

ونحوه. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المـحنة في حقه منحـة، واستحـالت البلية عطيـة، وصار المكروه محبوبًا. فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله تعـالى على العبد عبودية الضراء، وله عبوديـة عليه فيما يكره، كـما له عبـودية فيـما يحب، وأكـثر الخلق يـعطون العبـودية فيـما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى؛ فـالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشـرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفـقته عليها وعلى عياله ونفـسه عبودية. هذا، والوضـوء بالماء البارد في شدة البـرد عبودية، وتركه المـعصية التي اشـتدت دواعي نفسـه إليها من غيـرخوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عـبودية، ولكن فرق عظيم بين العبوديتين. فمن كان عبدًا لله في الحـالتين قائمًا بحقه في المكروه والمـحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمـر: ٣٦]... وهؤلاء هم عبـاده الذين ليس لعدوه عليهـم سلطان؛ قـال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، [الإسراء: ٦٥]، ولما علم عدوُّ الله إبليس أن الله تعالى لا يُسْلم عـباده إليه ولا يُسلطه عليـهم قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [صٓ: ٨٢، ٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سـبأ: ٢٠، ٢١]. فلم يجـعل لعدوه سلطانًا على عـباده المـؤمنين، فإنهم في حـرزه وكلاءته

وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل فهذا لا بد منه؛ لأن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احترز العبد ما احترز، فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب. . .

فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف ؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمنّ بها على ربه، ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول: فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى

نفسك، والخـذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك. فمن أراد الله بـه خيرًا فتح لـه باب الذل والانكسار، ودوام اللجـأ إلى الله تعالى والافـتقـار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجـوده وبره وغناه وحـمـده. فـالعـارف سائـر إلى الله تعـالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فـاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شـيخ الإسلام: العارف يسـير إلى الله بين مشـاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل. . . فمشاهدة المنـة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحـسـان، ومطالعـة عـيب النفس والعـمل توجب له الذل والانكسار والافـتقـار والتوبة في كل وقت، وأن لايرى نفـسه إلا مـفلسًا، وأقرب باب دخل منه العـبد على الله تعـالى هو الإفلاس؛ فلا يرى لنفـسه حالا ولا مقـامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسـيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصـرف، والإفلاس المحض؛ دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهـاته، وشهد ضرورته، إلى ربه عز وجل، وكمـال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والبـاطنة فاقة تامة، وضرورة كامـلة إلى ربه تبارك وتعـالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عـين هلك وخـسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبوديـة، ولا حجاب أغلظ من الدعوى. والعبودية مـدارها على قاعدتين هما أصلهـا: حب كامل، وذل تام. ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المـتقدمـين - وهما مشـاهدة المنة التي

تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام - وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته[١]. أهـ.

[شرح لحديث العظيم]

روى النسائي والإمام أحمد، وابن حبان في صحيحه وغيرهم، من حديث عمار بن ياسر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: (**اللَّهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللَّهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**)[٢].

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا - وهو الشوق إلى لقائه سبحانه - وأطيب شيء في الآخرة - وهو النظر إلى وجهه سبحانه - ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال: (**في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة**).

---

(١) الوابل الصيب: ١١ - ١٥.

(٢) النسائي في السهو، ح١٣٠٥، وأحمد: ٤/ ٢٦٤.

ولما كان كمال العــبد في أن يكون عالمًا بالحق متبعًا لـه معلمًا لغيره، مرشدًا له قال: **(واجعلنا هداة مهتدين)**.

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقـصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله؛ فإن ذلك عـزم على الرضا، فإذا وقع القضـاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضا بعده؛ فإن المقدر يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه. فمن سعادة العبد أن يجـمع بينهما، كما في المسند وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **(إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله، وإن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله تعالى)**[1].

ولما كانت خشـية الله عز وجل رأس كل خير في المشـهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقـد يدخله أيضًا رضاه في البـاطل، سأل الله عز وجل أن يوفـقه لكلمة الحق في الغـضب والرضا؛ ولهذا قـال بعض السلف: «لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق».

ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحنتين يبتلي الله بهما عبده؛ ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله عز وجل القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

ولما كان النعـيم نوعين: نوعًا للبدن، ونوعًا لـلقلب، وهو قرة العين،

---

(١) رواه أحمد بنحوه: ١/١٦٨، والترمذي بنحوه في القَدَر، ح ٢١٥١.

وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: (**أسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع**).

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب، وكانت زينة القلب أعظمهما قدراً وأجلهما خطراً، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العقبى، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: (**زينا بزينة الإيمان**).

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائنًا من كان، بل هو محشو بالغصص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، **سأل برد العيش بعد الموت**.

والمقصود: أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة[١].

[الخير فيما اختاره الله]

لما كان العبد محتاجًا في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلى علم بما فيه من المصلحة وقدرة عليه وتيسير له، وليس له من نفسه شيء من ذلك، بل علمه ممن علم الإنسان ما لم يعلم، وقدرته منه؛ فإن لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز، وتيسيره منه؛ فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره، أرشده[٢] النبي ﷺ إلى محض العبودية؛ وهو طلب الخيرة من

---

(١) إغاثة اللهفان: ٣٣ - ٣٤.

(٢) قوله: (أرشده) هو جواب (لمَّا) المذكورة في أول الكلام.

العالم بعواقب الأمور وتفاصيلهـا وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه؛ فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز، وطلب فضله مـنه؛ فإنه إن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متـعذر عليه. ثم إذا اختاره له بعلمه وأعانـه عليه بقدرته ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه. والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قَـدْرٌ زائدٌ على إقداره عليه وتيسيره له. ثم إذا فعل به ذلك كله فهـو محتاج إلى أن يرضِّيه به؛ فإنه قـد يخير له ما يكرهه، فيظل ساخطًا له وقد خار الله له فيه.

قال عبد الله بن عمر ﷺ: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له، فيسخط على ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خار له».

وفي المسند من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ: (**من سعادة ابن آدم استخـارته الله تعالى، ومن سعـادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومـن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله عز وجل، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله**)[١].

فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله، والرضا بعده؛ فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يختار قبل وقوعه، ويرضى بعد وقوعه، ومن خذلانه له أن لا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضى به بعد وقوعه.

وقال عـمر بن الخطاب ﷺ: «لا أبالـي أصبحت علـى ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره؟».

وقال الحـسن ﷺ: «لا تكرهوا النقمـات الواقعة، والبـلايا الحادثة،

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٠٣.

فلرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرُبَّ أمر تؤثره فيه عطبك»[١].

[اختيار الله للعبد]

فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي؛ فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦] فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيارٌ كونيٌّ قدري لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده؛ فهذا لا يضره فِراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها، ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، فهذا يكون تارة واجبًا، وتارة يكون مستحبّاً، وتارة يكون مباحًا مستوي الطرفين، وتارة يكون مكروهًا، وتارة يكون حرامًا.

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه - مثل قَدَر المعائب والذنوب - فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضا بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء.

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا، ونجا منه أصحاب الفَرْق

---

(١) شفاء العليل: ١/ ١٤٥ - ١٤٦.

والتفصيل . . . والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحـة والغنى والعافيـة واللذة - أمر لازم بمقـتضى الطبيـعة؛ لأنه ملائم للعـبد، محـبوب له؛ فليس في الرضـا به عبودية، بل العـبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته - مما لا يلائمـه ولا يدخل تحت اختـياره - مـستحب. وهـو من مقامـات أهل الإيمـان. وفي وجوبه قـولان؛ وهذا كالمـرض والفقـر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه - كأنواع الظلم والفسوق والعصـيان - حرام يعاقب عليه، وهو مخـالفة لربه تعالى؛ فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه. فكيف تتـفق المحبة ورضا ما يسـخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء[1].

[الرضا بالله رباً]

الرضا بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه؛ قـال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلها»؛ يعـني فكيف أطـلب ربا غيره وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا

(١) مدارج السالكين: ٢/١٩٦ - ٢٠٠.

فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ؛ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤] أي أفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصَّلا مبينًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولا. ورأيت الحديث يترجم عنها ، ومشتق منها؛ فكثير من الناس يرضى بالله ربًا، ولا يبغي ربًا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليّاً وناصراً؛ بل يوالي من دونه أولياء ظنّاً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه.

وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربّاً، ولا

إلهًا، ولا غيره حكمًا.

وتفسـير الرضـا بالله ربًا: أن يسخط عبـادة ما دونه، وهذا هو الرضا بالله إلهًا، وهو من تمـام الرضا بالله ربًا؛ فمـن أعطى الرضا به ربًا حقـه سخط عبادة ما دونه قطعًـا؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عـبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلـهية[١].

[الرضا بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولاً]

قـــال النبي ﷺ: **(ذاق طعم الإيمـــان من رضي بالله ربّاً، وبالإســـلام دينًا، وبمحمد رسولاً)**[٢].

وقـال: **(من قال حين يسمع النداء: رضيـت بالله ربّاً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه)**[٣].

وهذان الحديثـان عليهمـا مدار مقـامات الدين، وإليـهما ينتـهي. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعـة: فهو الصديق حقّاً، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحـقيقة والامتحان؛

---

(١) مدارج السالكين: ٢/١٨٨ - ١٨٩.

(٢) رواه مسلم في الإيمـان، باب (١١) الدليل على أن من رضي بالله ربّاً وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبياً فهو مؤمن . . . ١/٦٢ح (٣٤).

(٣) أخرجه مسلم بأطول منه في الصلاة، باب (٧) استـحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ١/ ٢٩٠ح (٣٨٦).

ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك تبين أن الرضا كان على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجاءه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فِعلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا؛ وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. **والثاني**: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه؛ فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يُحكِّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة؛ لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه. لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم. وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أونهى: رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسَلَّم له تسليما، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلَّده وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم. فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد؛ فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربّاً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب، وذاق حلاوته، وتَنَسَّم روحه، قال: اللَّهم زدني اغترابًا، ووحشة من العالم، وأنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذلَّ عين العزِّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم، وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم؛ فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يَبِعْ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان. وغايته: مودَّةَ بينهم في الحياة الدنيا. فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبُعثِر ما في القبور، وَحُصِّلَ ما في الصدور، وبُليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يَخِفُّ أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان[١].

[التسليم وعدم الأسئلة]

إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع؛ ولهذا لم يحكي الله

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٨٠ - ١٨١.

سبحانه عن أمة نبي صدقت نبيها، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت، وسلمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها، وكان رسولها أعظم في صدورها من سؤالها عن ذلك؛ كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا، ولكن قولوا: بم أمر ربنا»؛ ولهذا كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها لِمَ أمر الله بذلك؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، وذلك يوجب تعظيم الرب تعالى وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه. وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الآمر، وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا به، بحيث يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فهذا من عدم عظمته في صدره، بل يسلم لأمر الله وحكمته، ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر، أو فقهها العقل، كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته لم

يوهن ذلك انقياده، ولم يقدح في امتثـاله؛ فالمعظم لأمر الله يجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، لا يعللها بعلل توهنها وتخدش في وجه حسنها، فضـلاً عن أن يعارضهـا بعلل تقتـضي خلافهـا، فهـذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء[١].

[التسليم أو الحرج]

قال الله تعـالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِـدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًـا مِّمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْـلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم سبحانه بنفـسه المقدسة قسمًا مؤكـدًا بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يُحكِّمُـوا رسوله في كل ما شجر بينـهم من الأُصول والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد، وسائر الصفات وغيرها.

ولم يُثْبِتْ لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم، حتى ينتفي عنهم الحرج، وهو: ضيق الصدر، وتنشرح صـدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول.

ولم يثبت لـهم الإيمان بذلك أيضًا، حـتى ينضاف إليـه مقابـلة حكمه بالرضا والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض.

فهنا، قد يُحكِّم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه.

ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسلـيم والانقياد؛ إذ قد يحكمه وينتفي

---

(١) الصواعق المرسلة: ٤/ ١٥٦٠ - ١٥٦٢.

الحرج عنه في تحكيمه، ولكن لا ينقاد قلبه، ولا يرضى كل الرضا بحكمه.

والتسليم أخص من انتفاء الحرج؛ فالحرج مانع، والتسليم أمر وجودي.

ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه، إذ قد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغًا منه ومن الرضا به والتسليم له. فتأمله.

وعند هذا يعلم أن الرب تباك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق.

وعند الامتحان تعلم هل هذه الأُمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدَّعي الإسلام أم لا؟

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢/٣١٨ - ٣٢٠.

رابعًا: التوكل

[معنى التوكل]

قال الإمام أحمد رحمه الله: التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومـن الـنـاس: من يجعله من باب المـعارف والعلوم فيـقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنـهم: من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب، فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كـانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبـه كيف يشاء، وهو تـرك الاختيـار والاستـرسال مع مجـاري الأقدار. قـال سهل: التوكل: الاسترسال مع الله على ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

قال بشـر الحافي: يقول أحـدهم: توكلت على الله؛ يكذب على الله، ولو توكل على الله رضي بما يفعل الله.

وسئل يحيي بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلا.

ومنهم: من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه.

قال ابن عطاء: التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب ، مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قال ذو النون: هو ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال.

وقيل: التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات.

وقيل: نفي الشكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب؛ يريد قطعها من تعلق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم: من جعله مُرَكَّبا من أمرين أو أمور:

فقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب؛ يريد: حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلى المسبب وركون إليه، ولا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه.

وقال أبو تراب النَّخْشَبي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية؛ فإن أعطي شكر، وإن مُنِعَ صبر. فجعله مركبا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطى، وصبره إذا منع.

قال أبو يعقوب النهرجوري: التوكل على الله بكمال الحقيقة، كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام: «أما إليك فلا» لأنه غائب عن نفسه بالله، فلم ير مع الله غير الله.

وأجـمع القوم على أن التـوكل لا ينافي القـيام بالأسـباب؛ فـلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحـركة فقد طعن في السُّنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتـوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته؛ فمن عـمل على حاله فلا يتـركن سنتـه. وهذا معـنى قول أبي سـعـيـد: «هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب» وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهل عن التوكل فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وقيل: التـوكل أن يستوي عندك الإكـثار والإقلال. وهذا من موجـباته وآثاره، لا أنه حقيقته(١). أهـ.

[معنى التوكل والاستعانة]

[هو حال للقلب ينشأ عن معرفتـه بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع، وأنه ما شـاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم

(١) مدارج السالكين: ٢/١٢١ - ١٢٣.

يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقةً به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همِّه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد؛ قال الله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و «الحسب»: الكافي. فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة[١]. أهـ.

[التوكل نصف الدين]

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وفي الصحيحين - في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب -: **(هم الذين لا يَسْتَرقُون، ولا يتطيرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربهم يتوكلون)**[٢].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٩٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الطب، ح ٥٧٠٥، ومسلم بنحوه في الإيمان ٢٢٠.

وفي صحــيح البخاري عن ابن عبــاس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ قالهـا إبراهيم عليه السلام، حـين ألقي في النار، وقالها محـمد صلى الله عليه وسلم حين قالـوا له ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣](١).

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللَّهم لك أسلمتُ وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خـاصمت، اللَّهم إني أعـوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)(٢).

وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا)(٣).

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قـال - يعني إذا خـرج من بيتـه - بسم الله توكلت على الله، ولا حـول ولا قـوة إلا بالله، يقـال له: هُـديت ووُقـيت وكُفيت، فـيقـول الشـيطان لشيطـان آخر: كيف لك برجـل قد هُدي وكفي ووقي؟)(٤).

---

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن، ح ٤٥٦٣.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب (١٨) التعوذ من شـر ما عمل وشر ما لم يعمل، ٤/ ٢٠٨٦ ح(٢٧١٧)، ولم أجده عند البخاري بهذا اللفظ وإنما بلفظ: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون) برقم (٧٣٨٣).

(٣) الترمذي في الزهد، باب التوكل على الله، ح٢٣٤٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعـرفـه إلا من هذا الوجـه، وابن مـاجـه في الزهد، باب التـوكل واليـقـين رقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٣٥٩).

(٤) رواه أبو داود في الأدب، باب مـا يقـول الرجل إذا خـرج من بيتـه برقم (٥٠٩٥)، =

«**التوكل**» نصف الدين، والنصف الثاني :«**الإنابة**»؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السموات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم؛ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق، فيتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغًا عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه؛ من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول الإثم والفواحش؛ فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه؛ بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

= وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٢٤٩)، ورواه الترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته ح٣٤٢٦.

فـأفضل التـوكل: التـوكل في الواجب - أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس - وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحـة دينية، أو في دفع مفسـدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقـامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعدُ في التـوكل على حسب همـمهم ومـقاصدهم؛ فـمن متـوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حـصول شيء ناله. فإن كان مـحبوبًا له مرضيًا كانت له فيـه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطًا مـبغوضًا كان ما حصل له بتوكلـه مضرة عليه، وإن كان مـباحًا حصلت له مصـلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته. والله أعلم[١]. أهـ.

[أطيب العيش في التوكل]

من ترك الاختيـار والتدبير في رجاء زيادة، أو خـوف نقصان، أو طلب صحة، أو فـرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المـتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبـده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العـبد، وأقدر على جلبها وتحصيلهـا منه، وأنصح للعبد منه لنفســه، وأرحم به منه بنفســه، وأبر به منه بنفســه وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتـقدم بين يدي تدبيـره خطوة واحدة، ولا يتأخـر عن تدبيره له خطوة واحدة؛ فلا متقدم له بين يدي قضـائه وقدره ولا متأخر؛ فألقى نفسه

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١١٩ - ١٢٠.

بين يديه، وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر، له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه استراح[1] حينئذٍ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات وحَمّل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه وأراه لطفه وبرَّه ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه؛ لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه، وجعله وحده همَّه، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرَّغ قلبه منها، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه.

وإنْ أبى إلا تدبيره لنفسه، واختياره لها، واهتمامه بحظه، دون حق ربه خلاه وما اختاره، وولاه ما تولى؛ فحضره الهمّ والغمّ والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال؛ فلا قلب يصفو، ولا عمل يزكو، ولا أمل يحصل، ولا راحة يفوز بها، ولا لذة يتهنى بها، بل قد حيل بينه وبين مسرَّته وفرحه وقرّة عينه؛ فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش، ولا يظفر منها بأمل، ولا يتزوّد منها لمعاد.

والله سبحانه، قد أمر العبد بأمر، وضمن له ضمانًا؛ فإن قام بأمره بالنصح والصدق وإخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عَبَدَه، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همّه

---

(١) قوله (استرح) هو جواب الاسم الموصول: (من) المذكور أول الكلام.

ومراده، والمـغفرة لمن استـغفره، وقضـاء الحوائج لمن صدقه في طلبـها ووثق به وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده.

فالفَطِنُ الكيِّس إنما يهـتم بأمره وإقامته وتوفيتـه لا بضمانه؛ فإنه الوفيُّ الصادق، ومن أوفى بعهـده من الله. فمن علامات السعادة صـرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضـمانه. ومن علامـات الحرمـان فراغ قلبه من الاهتـمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه.. والله المستعان[1]. أهـ.

[أعظم التوكل]

التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثـــاني: التوكل عليه في حـصول ما يحبـه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيـه إلا الله؛ فمتى توكل عليه العبدُ في النوع الثاني حَقَّ توكله كفاه النوع الأول تمـام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفـاه أيضًا لكنْ لا يكون له عاقبة المتـوكل فيما يحبه ويرضاه.

فـأعظم التـوكل عليـه: التوكل في الهدايـة، وتجريد التوحيد، ومـتابعة

(١) الفوائد: ١٦٧ - ١٦٨.

الرسل، وجهاد أهل الباطل؛ فهذا توكل الرُّسُل وخاصة أتباعهم.

والتوكل تارةً يكون توكل اضطرار وإلجاء بحيث لا يجد العبدُ ملجأ ولا وزرًا إلا التوكل؛ كما إذا ضاقت عليه الأسبابُ، وضاقت عليه نفسُه، وظنَّ أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه؛ وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة. وتارةً يكون توكل اختيار؛ وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإنْ كان السبب مأمورًا به ذمَّ على تركه. وإن قام بالسبب وترك التوكل ذمّ على تركه أيضًا؛ فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما. وإن كان السبب محرمًا حرم عليه مباشرته وتوحّد السبب في حقه في التوكل فلم يبقَ سبب سواه؛ فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق. وإنْ كان السبب مباحًا نظرتَ هل يُضْعِفُ قيامُك به التوكلَ أو لا يضعفه؟ فإنْ أضعفه، وفرَّق عليك قلبك، وشتت همّك، فتركه أوْلى. وإنْ لم يضعفه، فمباشرته أوْلى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة.

والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطّلها لم يصحّ توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه؛ فمَن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطّلها يكون توكله عجزًا وعجزه توكلاً.

وسرُّ التـوكل وحقيقـته هو اعتـماد القلب على الله وحده؛ فـلا يضرُّه مباشرة الأسبـاب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إلـيها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتمـاده على غيره وركونه إليه وثقته به؛ فتـوكل اللسـان شيء وتوكل القلب شيء، كمـا أن توبة اللسان مـع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتمـاد قلبه على غيره مثل قـوله: تُبتُ إلى الله، وهو مُصِرٌّ على معصيته مرتكب لها[1]. أهـ.

[درجات التوكل]

الدرجة الأولى: معرفـة بالرب وصفاته: من قدرته وكفايته، وقـيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا ﷺ: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه مـا لا يشاء. ولا يستقيم أيضًا من الجهمـية النفاة لصفـات الرب جل جلاله، ولا يستقـيم التوكل إلا من أهل الإثبات. . .

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات:

فإن من نفاها فتوكله مـدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي:

(١) الفوائد: ١٢٩ - ١٣٠.

أن إثبات الأسباب يقدح في التوكُّل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببًا، ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله إن كان قد قُدِّر حصل، توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع؛ وإن لم يقدر لم يحصل، توكل أيضًا أو ترك التوكل...

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل:

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب؛ فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل؛ فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة؛ ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح؛ فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متصلاً بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه:

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها؛ بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامـة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فـرأى حصنًا مفتـوحًا، فأدخله ربه إليـه، وأغلق عليه باب الحصن؛ فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعـطاه ملك درهمًا؛ فسُـرق منه، فقـال له الملك: عندي أضعافـه فلا تهتم، متى جـئت إلَيَّ أعطيتك من خزائني أضعـافه؛ فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته.

وقد مـثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعـتماده وسكونه، وطمـأنيته بثدي أمه لا يعرف غـيره، وليس في قلبه التفات إلى غيـره، كما قال بعض العارفين: الـمتوكل كالطفل لا يعـرف شيئًا يأوي إليه إلا ثـدي أمه؛ كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل:

[فعلى قـدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون تـوكلك عليه؛ ولذلك فَسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتـحـقـيق: أن حسن الظن به يدعـوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتـصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه، والله أعلم]

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته:

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير؛ يعني الاستسلام لتدبير الرب لك؛ وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده، والله سبحانه وتعالى أعلم...

الدرجة السابعة: التفويض:

وهو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلَفِهَا وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته...

الدرجة الثامنة وهي «الرضا»:

﴿وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها فإنما فسره بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله﴾

وكان شيخنا ﷺ يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: (**اللَّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**)[١] فهذا توكل وتفويض. ثم قال (**فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب**) فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا. فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: (**وَاقْدُرْ لِي الخيرَ حيث كان، ثم رَضِّنِي به**).

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلـهية، والحقائق الإيمانية، .التي من جملتها: التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده؛ وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته؛ فإن لم يرض بما قضي له، فتفويضه معلول فاسد.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب (٤٨) الدعاء عند الاستخارة ح (٦٣٨٢).

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه فيه، وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله؛ يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

وقول يحيى بن معاذ وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلا[1]. أهـ.

[اشتباه التوكل المحمود بالتوكل المذموم]

كثيرًا ما يشتبه في هذا الباب المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه **التفويض بالإضاعة**؛ فيضيع العبد حظه ظنّاً منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض. فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه: **اشتباه التوكل بالراحة** وإلقاء حمل الكَلِّ؛ فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل على عدم الراحة. وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريح من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة، وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون، وهذا لون.

ومنه: **اشتباه خَلع الأسباب بتعطيلها**؛ فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد. وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٢٥ - ١٣٠.

ومنه: اشتباه الثقـة بالله بالغرور والعجز؛ والفرق بينهـما: أن الواثق بالله قد فعل مـا أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميـتها وتزكيـتها؛ كغارس الشـجرة، وباذر الأرض. والمغتر العـاجز: قد فرط فيـما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشـتبـاه الطمأنينة إلـى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلـى المعلوم، وسكون القلب إليه؛ ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئًا إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام، فقال له أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارت زمزم؛ أي شيء كنت تشرب؟

فقام وقـبل رأسه، وقال: جزاك الله خيرًا حـيث أرشدتني؛ فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام، ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونـهم وطمأنينتهم إلى المعلوم وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حـضره هَمُّه وبَثُّه وخوفه؛ فعـلم أن طمأنينته وسكونه لم يكونا إلى الله[1]. أهـ.

[توكل يوقع في الغبن]

كثير من المـتوكلين يكون مغبونًا في توكله، وقد توكل حقـيقة التوكل وهو مغبون؛ كمن صـرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فـيها قوة توكله،

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٣٠.

ويمكنه نيلها بأيسر شيء، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين، والله أعلم[1]. أهـ.

[العجز والكيس]

رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أُحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فتجهزوا وخرجوا للقاء عدوهم، وأعطوهم الكيس من نفوسهم، ثم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فأثَّرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝** ﴾ [المائدة: ١١]، فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوبًا بنوعٍ من التوكل، فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا يجعل عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٣٢ - ١٣٣.

لا يتم المقصـود إلا بها كلها.

ومن ها هنا غلط طائفـتان من الناس، **إحـداهمـا**: زعمت أن الـتوكل وحده سـبب مسـتقلّ كافٍ في حـصول المـراد، فعطلت له الأسـباب التي اقتضتـها حكمة الله الموصلة إلي مسـبباتها، فوقعوا في نوع تـفريط وعجز بحـسب ما عطلوا مـن الأسبـاب، وضعف توكلهـم من حيث ظنوا قـوته بانفراده عن الأسـباب، فجمـعوا الهم كله وصيروه همًـا واحدًا، وهذا وإن كان به قوة من هذا الوجه، ففيه ضَـعف من جهة أخرى؛ فكلما قوي جنب التوكل بإفـراده، أضعفـه التفريطُ في الـسبب الذي هو محلٌّ التـوكل، فإن التوكل مـحله الأسبـاب ، وكماله بالـتوكل على الله فيـها، وهذا كـتوكل الحراث الذي شق الأرض، وألقى فـيها الـبذر، فتـوكل على الله في زرعه وإنباته؛ فـهذا قد أعطى التـوكل حقه، ولم يضعـف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بورًا، وكذلك توكل المسافـر في قطع المسافة مع جده في السير، وتوكل الأكيـاس في النجاة من عذاب الله والفـوز بثوابه مع اجتـهادهم في طاعته، فهذا هو التـوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حسب من قام به. وأما توكل العـجز والتفـريط، فلا يترتب عليـه أثره، وليس الله حسب صاحـبه؛ فإن الله إنمـا يكون حسب المتـوكل عليه إذا اتقاه، وتقـواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعًا وقدرًا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته، فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم وكفايته

إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل على الله كما قال بعض السلف: مَنْ سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله؛ فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما لا بد أن يجعل الله له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكافيه. والمقصود أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله، ونيل مطلوبه؛ أن يحرص على ما ينفعه، ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب وقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته ثم قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه، وتوكل عليه[1]. أهـ.

[كيف يندفع شر الحاسد]

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله تعالى من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه. . .

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه؛ فمن اتقى الله تولى الله حفظه، ولم يكله إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ**

(١) زاد المعاد: ٢/ ٣٦٢ - ٣٦٤.

كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)(١)، فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصر على حاسده وعدوه، بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه؛ فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر؛ فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لايري إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه؟ بل بغي عليه وهو صابر. وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعه الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغي جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًا.

السبب الرابع: التوكل على الله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك؛ فإن

(١) رواه أحمد: ١/٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة، ح ٢٥١٦.

الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إلهي وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه؛ قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده؛ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره...

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه؛ وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر...

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة

اللينة التي رضيت بوكـالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خيـر من انتصارها هي لنفسهـا، فوثقت بالله وسكنت إليه، وأطمأنت بـه، وعلمت أن ضمانه حق ووعـده صـدق، وأنه لا أوفى بعـهده مـن الله ولا أصدق منه قـيـلاً، فـعلمت أن نصـره لهـا أقـوى وأثبت وأدوم وأعظم فـائدة من نصـرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها. ولا يقوى على هذا إلا:

بالسبـب السـادس: وهوالإقبال عـلى الله والإخلاص له وجعل محـبته وترضّيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسـه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشـيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكـلية، فتبقى خواطره وهواجسـه وأمانيـه كلها في مـحاب الرب والتـقرب إليـه وتملّقه وترضـيه واستعطافه وذكـره؛ كما يذكر المحب التام الـمحبة لمحبوبه المـحسن إليه الذي قد امتـلأت جوانحه من حبـه فلا يستطيع قلبه انصـرافًا عن ذكره ولا روحه انصرافًا عن مـحبته، فإذا صار كذلك فكيف يـرضى لنفسه أن يجعل بيت إنكاره وقلبـه معمـورًا بالفكر في حاسـده والباغي عليـه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه؟ هذا مـا لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته.

بل إذا مسـه طيف من ذلك واجتاز بـبابه من خارج ناداه حـرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيـوت الخانات التي كل من جاء حل فـيها ونزل بها، ما لك ولبيت السلطان الذي أقـام عليه اليزك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور.

قال تعـالى حكاية عن عدوه إبلـيس أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، [الإسراء: ٦٥] وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن وصار داخل اليزك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منا، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه، وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب

الذي سلطك به علي.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به؛ فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن؛ فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفئ ناره لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عرَّضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر.. والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي

والمؤذي بالإحسان إليه؛ فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدّق بأن هذا يكون فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عز وجل: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)** ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦]، وقال: ﴿ **أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤)** ﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: (**اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**)[1] كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه: **أحدها**: عفوه عنهم. **والثاني**: استغفاره لهم. **الثالث**: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. **الرابع**: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: (**اغفر لقومي**) كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي.. فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به؛ اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك.

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، ح ٣٤٧٧.

ومع هذا لا يقتـصر على مـجرد العفـو والمسـامحة حـتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك مـن المنافع والإحسـان فـوق ما تؤمله، فـإذا كنت ترجو هذا من ربـك أن يقابل به إساءتك فـما أولاك وأجـدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إسـاءتهم ليعاملك الله هذه المعـاملة؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فكمـا تعمل مع الناس في إسـاءتهم في حقك يفـعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جـزاءً وفاقًا، فانتقم بعـد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك، فكما تدين تُدان، وكما تفعل مع عباده يُفْعَل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلـى من أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الـخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليـه قرابته وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال: (**لا يزال معك من الله ظهير ما دمت عـلى ذلـك**)[1] هذا مع ما يتعجله من ثناء الـناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سـمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبـه ودعاءه وهمته مع المحـسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسـان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفـونه، ولا يريدون منه إقطاعـًا ولاخبزًا، هذا مع أنه لا بـد له مع عدوه وحاسده مـن إحدى الحالتين: إمـا أن يملكه بإحسانه فيـستعبـده وينقاد له ويذل له ويبـقى من أحب الناس إليه، وإمـا أن يفتت كبـده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه؛ فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو المـوفق المعين بيده الخير كله، لا

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب، ح ٢٥٥٨.

إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنِّه وكرمه.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة منفعة للعبد عاجلة وآجلة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولاتضر ولا تنفع إلا بإذنه؛ فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

قال تعالى: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**)[١]، فإذا جرَّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفرد الله بالمخافة، وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده.

---

(١) رواه أحمد: ١/٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة، ح ٢٥١٦.

وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل والله يتولى حفظه والدفع عنه؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولا بد، وبحسب إيمــانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمــانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مُـزِجَ له، وإن كان مرة ومرة فــالله له مرة ومرة، كمــا قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقــبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتــوحيد حــصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنـين؛ قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجّه إلى الله وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره بل يكون خوفه منه وحــده، ولا يرجو سواه بل يرجوه وحــده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستــغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه. ومتى علق قلبــه بغيره ورجاه وخافه وُكِلَ إليه وخُذِلَ من جهته؛ فــمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئًا سوى الله خُذِل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله فى خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، [الفتح: ٢٣][1]. أهـ.

[الالتفات إلى الأسباب]

قال بعض أهل العلــم: الالتفات إلى الأســباب شرك في التــوحيد، ومــحو الأســباب - أن تكون أســبابا - تغــيــير في وجــه العقل، والإعــراض عن

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/٢٠٣ - ٢٠٩.

الأسباب بالكلية قدح في الشرع. والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد: فالالتفات إلى الأسباب ضربان؛ أحدهما: شرك، والآخر: عبودية وتوحيد. فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود؛ فهو معرض عن المسبِّب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها. وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها فهذا الالتفات عبودية وتوحيد؛ إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبِب؛ وأما محوها أن تكون أسبابًا فقدح في العقل والحس والفطرة؛ فإن أعرض عنها بالكلية كان ذلك قدحًا في الشرع، وإبطالا له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب ، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده؛ فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلى الأسباب؛ بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها - بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها - بل يكون قائمًا بها، ملتفتًا إليها، ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها؛ فلا يصح التوكل - شرعًا وعقلاً - إلا عليه سبحانه وحده؛ فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده؛ فهو الذي سبب الأسباب وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سببًا يقتضي وحده أثره، بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه، وجعل

لها أسبابًا تضادها وتمانعها بخلاف مشيئته سبحانه؛ فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها؛ وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئتـه، فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله؛ والجميع بمـشيئته واختـياره؛ فلا يصح التوكل إلا عليـه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخـوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمـته، كما قال أعرف الخلق به ﷺ: **(أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك)**[(١)]، وقال: **(لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك)**[(٢)].

فإذا جمـعت بين هذا التوحيد وبيـن إثبات الأسباب استـقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتبـاعهم؛ وهو الصراط المستقـيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق[(٣)].

[التداوي لا ينافي التوكل]

في الأحاديث الصحـيحة الأمر بالتداوي وأنه لا يُنافي التـوكل، كما لا يُنافـيه دفع داء الجـوع، والعطش، والحـر، والبرد بأضـدادها، بل لا تتم حقيقةُ التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضياتٍ لمسبَّباتها قدرًا

(١) رواه مسلم في الصلاة، باب (٤٢) ما يقول في الركوع والسجود ١/ ٣٥٢ ح(٤٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخـاري في الدعوات، باب (٧) ما يقول إذا نام ح ٦٣١٣، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب (١٧) ما يقول عند النوم ٤/ ٢٠٨١ ح (٢٧١٠).

(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

وشرعًا، وأن تعطيلها يقْدَحُ في نفس التوكل، كما يَقْدَحُ في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطِّلُها أن تركها أقوى في التوكل، فإنَّ تركها عجزٌ يُنافي التوكلَ الذي حقيقتُه اعتمادُ القلب على الله في حصولِ ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطِّلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكُّلَه عجزًا.

وفيها رد على من أنكر التداوي وقال: إن كان الشفاء قد قُدِّرَ، فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قُدِّرَ، فكذلك. وأيضًا فإن المرض حصل بقدر الله، وقَدَرُ الله لا يُدفع ولا يُرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ، وأما أفاضلُ الصحابة، فأعلم بالله وحكمته وصفاتِه من أن يُوردوا مِثْلَ هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كرد قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، وكردِّ قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله: الدافع والمدفوع والدفع.

ويقال لمورد هذا السؤال: هذا يُوجب عليك أن لا تُباشر سببًا من الأسباب التي تجلب بها منفعةً، أو تَدفع بها مضرة؛ لأن المنفعة والمضرة إن قدرتا، لم يكن بد من وقوعهما، وإن لم تقدرا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفي ذلك خراب الدين والدنيا، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق معاند له، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه، كالمشركين

الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فهذا قالوه دفعًا لحجة الله عليهم بالرسل.

وجواب هذا السائل أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره؛ وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيت بالسبب حصل المسبب، وإلا فلا.

فإن قال: إن كان قَدَّر لي السبب فعلته، وإن لم يُقدره لي لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك، وولدك، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به، ونهيته عنه فخالفك؟ فإن قبلته، فلا تَلُمْ مَنْ عصاك، وأخذ مالك، وقذف عرضك، وضيَّع حقوقك، وإن لم تقبله، فكيف يكون مقبولاً منك في دفع حُقوق الله عليك. وقد روي في أثر إسرائيلي: أن إبراهيم الخليل قال: يا رَبِّ ممن الدَّاء؟ قال: «منِّي». قال: «فممن الدَّواء»؟ قال: «منِّي». قال: فَمَا بَالُ الطَّبِيبِ؟ قال: «رَجُلٌ أُرْسِل الدَّواء عَلَى يَدَيْه».

وفي قوله ﷺ: (لكل داء دواء)،[1] تقوية لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيشِ عليه؛ فإن المريضَ إذا استشعرت نفسُه أن لِدائه دواءً يُزيله، تعلَّق قلبُه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له بابُ الرجاء، ومتى قويت نفسُه انبعثت حرارتُه

(١) رواه مسلم في السلام، باب لكل داء دواء...، ح ٢٢٠٤.

الغريزية، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح، قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرضَ ودفعته.

وكذلك الطبيبُ إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبُه والتفتيش عليه. وأمراض الأبدان على أوزان أمراض القلوب، وما يجعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحبُ الداء واستعمله، وصادف داءَ قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى[١]. أهـ.

[دعاء الاستخارة وعنوان السعادة]

صح عنه ﷺ أنه قال: (**إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللَّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللَّهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به**) قال: ويُسمِّي حاجته[٢]؛ رواه البخاري.

فعوض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين؛ يطلبون بها علم ما قسم لهم في الغيب، لهذا سمي ذلك

---

(١) زاد المعاد: ٤/ ١٥ - ١٧.

(٢) رواه البخاري بنحوه في موضع منها كتاب الدعوات، ح ٦٣٨٢.

استقــسام، وهو استفعال مــن القسم، والسين فيه للطلب، وعــوَّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيــد وافتقار، وعبودية وتوكل، وسؤال لمــن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحـسنات إلا هو، ولا يصرف السيـئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحـمة لم يستطع أحد حبسهـا عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم، واختيار الطالع ونحوه.

فهذا الدعاء هو الطالع الـميمون السعيد، طالع أهل السـعادة والتوفيق، الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان، الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر، فسوف يعلمون.

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمـال العلم والقـدرة والإرادة، والإقرار بربوبيـته، وتفـويض الأمر إليـه، والاستـعانة به، والتـوكل عليه، والخـروج عن عهدة نفـسه، والتـبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق.

وفي مســند الإمام أحمــد من حديث سـعد بن أبي وقــاص، عن النبي ﷺ أنه قــال: **(من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضـاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله)**[١].

فتـأمل كيف وقع المقـدور مكتنفًا بأمـرين: التوكل الذي هو مضـمون الاستـخارة قبله، والرضى بما يقـضي الله له بعده، وهما عنوان السـعادة.

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٠٣.

وعنوان الشقاء أن يكتنفه ترك التوكل والاستخارة قبله، والسخط بعده. والتوكل قبل القضاء، فإذا أبرم القضاء وتم، انتقلت العبودية إلى الرضا بعده، كما في المسند، وزاد النسائي في الدعاء المشهور: «**وأسألك الرضا بعد القضاء**»(١). وهذا أبلغ من الرضا بالقضاء؛ فإنه قد يكون عزمًا فإذا وقع القضاء تنحل العزيمة، فإذا حصل الرضا بعد القضاء كان حالاً أو مقامًا.

والمقصود أن الاستخارة توكل على الله وتفويض إلهي، واستقسام بقدرته وعلمه، وحسن اختياره لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربًا، الذي لايذوق طعم الإيمان من لم يكن كذلك، وإن رضي بالمقدور بعدها، فذلك علامة سعادته(٢). أهـ.

خامسًا: الخوف والرجاء

[الخوف]

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فجمع بين المقامات الثلاثة؛ فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. ثم يقول: ﴿**وَيَرْجُونَ**

---

(١) رواه أحمد في المسند: ٥/ ١٩١ وهو جزء من حديث طويل.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٤٤٣ - ٤٤٥.

رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فذكر الحب والخـوف والرجاء؛ والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبيـاء والصالحين يتقـربون إلى ربهـم ويخـافونه ويرجـونه، فـهـم عبيـده كمـا أنكم عبيده، فلماذا تـعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيـد له؟ وقد أمر سبحـانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] فجعل الخوف منه شرطًـا في تحقـيق الإيمان... وقـد أثنى سبـحانه على أقـرب عباده إلـيه بالخوف منه، فقال عن أنبيـائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبيـاء: ٩٠] فـالرغب: الرجـاء والرغـبة، والرهـب: الخـوف والخشـية. وقال عن ملائكـته الذين قد أمنهم من عـذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**)[1]، وفي لفظ آخر: (**إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي**)[2].

وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[3] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وكفى بخشية الله علمًا».

---

(١) متـفق عليه: رواه البـخاري في الاعـتصـام بالكتاب والسنة، ح ٧٣٠١، ومـسلم في الفضائل ٢٣٥٦، ولفظه عندهما: (أعلمهم بالله وأشدهم له خشية).

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، ح ١١١٠، وقال: (أخشاكم) بدلاً من: (أخوفكم).

(٣) رواه النسائي في السهو، ح ١٢١٤، وأحمد: ٤/ ٢٥، ٢٦.

ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به؛ فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفًا وحبًا، فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلا عن الاستقامة، فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور: أحدها: معرفته بالجناية وقبحها. والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها. والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه؛ فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان. فإذا علم قبح الذنب، وعلم سوء مغبته، وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يُمْنَعْها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المصيبة والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس؛ لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل؛ فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ كانت أكثر يمينه

(لا ومقلب القلوب، لا ومـقلب القلوب)[(١)]، وقال بعض السلف: القلب أشد تقلبًا من القِدْر إذا استجمعت غليـانًا. وقال بعضهم: مثل القلب في سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة، تقلبها الرياح ظهرًا لبطن.

ويكفي في هذا قـوله تعـالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأي قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحق بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال وإن توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه. فالخوف حشو قلبه، لكن توارى عنه بغلبـة غيره، فوجود الشيء غيـر العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له المقلب له كيف يشاء لا إله إلا هو[(٢)]. أهـ.

[منزلة الخوف]

﴿وهو فرض على كل أحـد؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]،وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ - إلى قوله - أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]، وفي المسند والترمذي عن عائشـة رضي الله عنها قالت: قلت: «يا رسول الله، قول الله: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب، ح ٧٣٩١.

(٢) طريق الهجرتين: ٢٨٢ - ٢٨٤.

يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: **(لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يُقبل منه)**(١) قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله يُقَوِّم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله عز وجل؛ فإنك إذا خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه؛ قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها. وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، قال حاتم الأصم: لا تغتر بمكان صالح؛ فلا مكان أصلح من الجنة، ولقي فيها آدم ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة؛ فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم؛ فإن بلعام بن باعورا لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم؛ فلا شخص أصلح من النبي ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون.

---

(١) الترمذي في التفسير باب، ومن سورة المؤمنين، ح (٣١٧٤) وابن ماجه في الزهد، باب التوقي في العمل (٤١٩٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ٢/ ٣٩٤، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢).

والخوف ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصود لغيره قصدَ الوسائل؛ ولهذا يزول بزوال المخوف؛ فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات. ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله[1]. أهـ.

[تعريف الرجاء وأنواعه]

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكَر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء؛ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى:

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٩٧ - ٤٩٩.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: **(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)**[(١)].

وفي الصحيح عنه ﷺ **(يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)**[(٢)].

«**الرجاء**» حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب؛ وهو الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ح (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد ٣/ ٤٩١، والحاكم ٤/ ٢٤٠ ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في الصحيحين.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «**الرجاء**» لا يصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فـــالأولان: رجاء رجل عـمل بطاعة الله على نور من الله؛ فـهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها؛ فهو راج لمـغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللســالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفـات عمله، يفتح عليه باب الخوف. ونظر إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء»: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وقال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كـجناحي الطائر؛ إذا استويا استـوى الطير وتَمَّ طيرانه، وإذا نقص أحـدهما وقع فيـه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامـة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألـهم الشكر، راجيًا لتمام النعمـة من الله عليه في الدنيا

والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة[١]. أهـ.

[فوائد الرجاء]

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد أن يُرجَى ويؤمل ويسأل؛ وفي الحديث: (**من لم يسأل الله يغضب عليه**)[٢]. والسائل راج وطالب؛ فمن لم يرج الله يغضب عليه. فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء؛ وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويلقيه في دهليزها؛ فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضًا به وعنه.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٢ - ٤٤.

(٢) الترمذي في الدعوات باب رقم (٢) ح٣٣٧٣ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٦٨٦).

ومنهـــا: أنه يبعثـه على أعلى المقامات؛ وهو مـقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية؛ فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنهـا: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمـائه ومعانيها، والتعلق بها؛ فـإن الراجي متعلق بأسمـائه الحسنى، متـعبِّدٌ بها، داع بهـا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ينبغي أن يُعطَّل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم مـا يدعو بها الداعي. فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء - كما تقدم - فكل واحد منهما يَمُدُّ الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خـائف، وكل خـائف راج؛ ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجـاء في مـوضع يحسن فيه وقوع الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحـقيق: أنه ملازم له؛ فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقـال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثـية: ١٤] قالوا في تفسيـرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنهـا: أن العبد إذا تعلق قلبه برجـاء ربه، فأعطاه ما رجاه كان ذلك

ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحِكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار؛ فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته من: الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه؛ فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة- كما تقدم بيانه - فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة. يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. وبالله التوفيق[1]. أهـ.

[اعتدال الخوف والرجاء]

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد

(١) مدارج السالكين: ٢/٥٨ - ٦٠.

الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يُقوَّى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يُقوَّى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره.

قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن كان الغالب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه[١]. أهـ.

[السرور بالعمل]

«**السرور الباعث**» هو الفرحة والنعيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة؛ فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة، وليس له نظير يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنة، حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل، وبذل

(١) مدارج السالكين: ١/ ٥٠٢.

الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه فَلْيَتَّهِم إيمانه وأعماله؛ فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووَجْد حلاوته؛ فذكر الذوق والوجد، وعلَّقه بالإيمان، فقال: **(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً)**[1]، وقال: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار)**[2].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه؛ فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين؛ فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه[3]. أهـ.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر، ح (٣٤).

(٢) متفق عليه: البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان وباب من كره أن يعود في الكفر، ح(١٦، ٢١)، ورواه مسلم في الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح(٤٣).

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٧٥ - ٧٦.

سادسًا: التوبة

[أنواع الإنابة]

كثيرًا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله عن نبيه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]، والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم: المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي؛ وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات؛ فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات؛ وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادت، ورجاء

الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم: المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه؛ ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم وعلَّقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار؛ كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق؛ فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له. فأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه؛ لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة؛ فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه، أنابت جميع القوى والجوارح، **فأناب القلب** أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار. **وأناب العقل** بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها. **وأنابت النفس** بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة،

وانقادت لأوامره خاضـعة له وداعية فيه مؤثرة إياه على غيـره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمـر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلى مولاها ورضًا بقضائه وتسليمًا لحكمـه، وقد قيل: إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس. وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها - فرضها وسننهـا - على أكمل الوجوه. وأنابت كل جارحـة وعضو إنابتـها الخاصة فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كل محـبة سوى محبته عذاب على صـاحبها، وإن كانت عذبة في مباديها فإنها عذاب في عـواقبها. فإنابة العبد ولو ساعة من عمـره هذه الإنابة الخالصـة أنفع له وأعظم ثمرة مـن إنابة سنين كثـيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بل هذه روحه منيبة أبدًا، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشـتغال فهي كامنة فيها كمون الـنار في الزناد. وأما أصحاب الإنابات المـتقدمة فـإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهـو ينيب ببعضه ساعـة ثم يترك ذلك مقبـلاً على دواعي نفسه وطبعه. والله الموفق المعين، لا رب غيره، ولا إله سواه[1]. أهـ.

[توبة العبد محفوفة بين توبتين من الله]

توبة العبد إلى الله محـفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها. فتـوبته بين تـوبتين من ربه - سـابقـة ولاحـقة - فـإنه تاب عليـه أولا إذنًا

(١) طريق الهجرتين: ١٧٣ - ١٧٤.

وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانيًا، قبولا وإثابة؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين؛ فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم؛ فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء؛ فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا. وعكسه في أهل الزيغ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه: «**الأول، والآخر**»؛ فهو المعدُّ، وهو الممدّ، ومنه السبب والمسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، ويجير من نفسه بنفسه؛ كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»(١). والعبد تواب، والله تواب؛ فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن

---

(١) رواه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح ٤٨٦.

وتوفيق، وقبول وإمداد[١].

[الفرح بالتوبة وبيان أعظم الفرح]

الفرحة التي تحصل بالتوبة فـرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المـعصية إليها ألبتـة. فلو علم العاصي أن لذة التـوبة وفرحـتها تزيد على لذة الـمعصـية وفرحتهـا أضعافا مضاعفـة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المـعصية. وسر هذا الفـرح إنما يعلمه من علم سر فـرح الرب تعالى بتوبة عـبده أشد فرح يقدر، ولقد ضـرب له رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظـم منه؛ وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشـرابه في سـفر ففـقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهـد في طلبهـا فلم يجدها، فيئس منهـا فجلس ينتظر الموت حـتى إذا طـلع البدر رأى في ضوئه راحلته، وقـد تعلق زمامها بشـجرة، فقـال من شدة فرحه: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شـد الفـرح، فـالله أفـرح بتوبة عبده من هذا براحلته[٢].

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه عليـه؛ وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن، لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح،وإن ضعف عن

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣١٢ - ٣١٣.

(٢) ينظر الحـديث عند البـخـاري في الدعـوات، ح ٦٣٠٨، ٦٣٠٩، وعند مـسلم في التوبة، ح ٢٧٤٧.

حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

وها هنا فرحة أعظم من هذا كله؛ وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًا عنك يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل بأمر بإيثارها، فكيف ومِنْ بعدها أنواع من الفرح منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه، ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية، فتفتح ويُصَلِّي عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة، فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها، وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال، ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر. هذا كله قبل الفرح الأكبر - يوم حشر الأجسام - بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه ،وإعطائه النور

التام والناس في الظلمة، وقـطعه جسر جهنم بلا تعـويق، وانتهائه إلى باب الجنة وقـد أزلفت له في المـوقف وتلقى خـزنتهـا له بالتـرحيب والسـلام والبشارة، وقدومه على منازله وقـصوره وأزواجه وسراريه، وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفرح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المـصـدقين برؤية وجـه ربهم تبـارك وتعـالى من فوقـهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم(١). أهـ.

[سر فرح الله بتوبة العبد]

فاعلـم أن الله سبحـانه وتعالى اخـتص نوع الإنسان من بين خلـقه بأن كرَّمـه وفضَّله، وشرَّفـه، وخلقه لنفـسه، وخلق كل شيء له، وخـصه من معرفته ومحبته وقُربه وإكـرامه بما لم يعطه غيره، وسَخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكتـه - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلَّمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخـواص والأحبار، وجـعلهم معـدن أسراره، ومحل حكمـته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار. فـالخلق والأمر، والثواب والعقاب مداره عـلى النوع الإنساني؛ فـإنه خلاصـة الخلق، وهو المقـصود بـالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسـائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيـده، ونفخ فيه

---

(١) الروح: ٢٩٨ - ٢٩٩.

من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدواً له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيرة الله من العالمين؛ فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه. فاتخذه محبوبًا له، وأعَدَّ له أفضل ما يعده محب غنيٌّ قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو هو أبغض خلقه إليه؛ قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له دون وليهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربهم، وكانوا أعداءً له مع هذا العدو يدعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه؛ فعرَّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومآلهم، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخـبره في عـهده: أنه أجـود الأجودين، وأكـرم الأكرمـين، وأرحم الراحمين، وأنه سـبقت رحمته غضبـه، وحلمه عقوبته، وعـفوه مؤاخذته، وأنه قد أفـاض على خلقه النعمة، وكـتب على نفسه الرحـمة، وأنه يحب الإحسـان والجود والعطاء والبـر، وأن الفضل كله بـيده، والخيـركله منه، والجود كله لـه. وأحبُّ ما إليه: أن يجـود على عباده ويُـوسِعهم فـضلاً، ويغـمرهم إحـسانًا وجـودًا، ويتم عليهم نعـمتـه، ويضاعف لديهم منـته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الـجواد لذاته، وجود كل جواد خلقــه الله ويخلقه أبدًا أقل من ذرة بالقيـاس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجـود كل جواد فَمِنْ جوده. ومـحبته للجـود والإعطاء والإحسان والبر والإنعـام والإفضال فوق مـا يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامـهم. وفرحـه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بمـا يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المُعْطَى؟ ففرح المعطي سـبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى؛ إذ هذا شأن الجـواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسـرور، والابتهاج واللذة بعـطائه وجوده فوق مـا يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه عن لذة المـعطي وابتهاجه وسروره. هذا مع كمـال حاجته إلى مـا يعطيه وفقره إليـه، وعدم وثوقه باستـخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتـعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه، ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضَّله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدى؛ فتعرَّض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأَبَق منه، ووالى عدوه وظاهَره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرَّب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقًا شاردًا، رادّاً لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم

استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقـة عدوه، قد استدعى من سـيده خلاف ما هو أهله، إذ عرضت له فكرة فتـذكر برَّ سيـده وعطفه وجوده وكرمـه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليـه، وعرضه عليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفـسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال؛ ففر إلى سـيـده من بلد عـدوه؛ وجَـدَّ في الهـرب إليه حتى وصل إلى بابه، فـوضع خده على عتـبة بابه، وتوسـد ثرى أعـتابه مـتذللاً متضرعًا، خاشـعًا باكيًا آسفًا يتملق سيده ويسترحـمه، ويستعطفه ويعـتذر إليه. قـد ألقى بيده إليه، واستـسلم له وأعطـاه قياده وألقـى إليـه زمـامه؛ فعـلم سيده مـا في قلبـه، فعاد مكـان الغضـب عليـه رضـا عنه، ومكـان الشـدة عليـه رحـمة به، وأبدله بالعقوبة عـفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا؛ فاسـتدعى بالتوبة والرجـوع من سيده مـا هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفـاته العليا. فكيف يكـون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختياراً، وراجع ما يحبه سـيده منه برضاه، وفتح طريق البـر والإحـسـان والجـود التي هي أحب إلـى سـيـده من طريق الغـضب والانتقـام والعقـوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرود وإباق من سيـده، فرأى في بعض السكك بابًا قـد فتح، وخـرج منه صبي يستـغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده، حـتى خرج، فأغلقت الباب فـي وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكرًا. فلم يجد له مأوى غير البيت الـذي أخرج منه، ولا من يؤويه غيـر والدته، فرجع مكسـور القلب

حزينًا، فوجد الباب مُرْتجًا، فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام. فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤيك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: «لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلْتُ عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله ﷺ: (للهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها)[1]، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه؛ فإذا تاب إليه قد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده الذي هو أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان[2]. أهـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ح(٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله، ح(٢٧٥٤).

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢١٧ - ٢٢١.

[علامات التوبة المقبولة]

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين؛ فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه؛ وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلا بد من تقطع القلب: إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمرٌ وراء هذا كله؛ تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا؛ كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده؛ فأُخِذ فأحضر بين يديه، ولم

يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بداً ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها، وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجَى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير؛ سؤال من خضعت لك رقبته، ورَغِمَ لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه».

يا مَن ألُوذ به فيما أُؤمِّله ومَن أعوذ به مما أحاذره

لا يَجْبُر الناسُ عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله[1]. اهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٩٢ - ١٩٣.

سابعًا: التفكر

[استشعار النعم]

ومن دقيق نعم الله على العبد - التي لا يكاد يُفطن لها - أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت ليعرِّفه نعمته عليه.

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريضٍ أعوده فإذا هو يَئِنُّ، فقلت له اذكـر المطروحين على الطـريق، اذكر الذين لا مـأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليـه بعد ذلك ، فسمعته يقـول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

وقـال عـبد الله بن أبـي نوح: قال لـي رجل على بعض السـواحل: كم عَامَلْتَهُ تبارك اسمهُ بما يكره فـعاملك بما تحِب؟ قلت: ما أُحصي ذلك كثرةً. قال: فهل قـصدت إليه في أمر كَرَبَكَ فَـخَذَلَكَ؟ قلت: لا والله، لكنه أحسن إليَّ وأعانني. قـال: فهل سألتـه شيئًـا فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيـئًا سألته؟ ما سألته شيئًا قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني. قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال مـا كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قـال: فربُّك أَحَقُّ وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحـسن قديمًا وحديثًـا إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده؛ إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً.

وقال سفيان الثوري: ما كان الله لينعم على عـبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يُتِمَّ النعمة على من أنعم عليه.

وقال ابن أبي الحواري: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله أن لا يسلبنا إياه. قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قَبِلَهُ. . .

وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم.

قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى أنه قال: «سُرُّوا عبدي المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال: الحمد لله ما شاء الله، قال: رَوِّعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله، الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدي يحمدني حين روعته كما يحمدني حين سررته، أَدْخِلُوا عبدي دار عِزِّي كما يحمدني على كل حالاته». . . والحديث الذي في الصحيح: **(لن يُنجي أحداً منكم عمله)**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **(ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل)**[1] فإن أعمال العبد لا تُوافي نعمةً من نعم الله عليه.

قال عبد العزيز بن داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شق عليَّ منها فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذكري؟ فهانت عليَّ قرحته[2]. أهـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في الرقاق، باب القصد والمداومة، ح ٦٤٦٣، ومسلم بنحوه في صفة القيامة والجنة والنار، ح ٢٨١٦.

(٢) عدة الصابرين: ١٨٩ - ١٩١.

[نعم ربانية]

يختص الله برحمته من يشاء، ويقصـد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا؛ فالطيـبون من خلقه مخـصوصون بفضله ورحـمته، والخبـيثون مقصـودون بعذابه، ولكل واحد قـسطه من الحكمة والابتلاء والامـتحان، وكل مستعـمل فيما هو له مهيأ وله مخلوق، وكل ذلك خـير ونفع ورحمة للمؤمنين؛ فإنه تعالى خلقـهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعـملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته، فكذلك لا تضـرهم الأدواء ولا الـسـمـوم، بل مـتى وسـوس لهم العـدو واغتالهم بشيء من كيده أو مسهم بشيء من طيفه تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وإذا واقعوا مـعصية صغيرة أو كبـيرة عاد ذلك عليـهم رحمة وانقلب في حـقهم دواء وبدل حـسنة بالتوبة النصوح والحـسنات الماحيـة؛ لأنه سبحانه عـرَّفهم بنفسـه وبفضله، وبأن قلوبهم بيده وعصمتهم إليه؛ حيث نقض عزماتهم وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزته فـي قضائه، وبره وإحـسانه في عـفوه ومغـفرته، وأشـهدهم نفوسـهم وما فيـها من النقص والظلم والجـهل، وأشهـدهم حاجتـهم إليه وافتقـارهم وذلهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهـم سبيل إلى النجاة أبدًا، فإنهم لمـا أعطوا من أنفسهم العزم أن لا يعصوه وعـقدوا عليه قلوبهم، ثم عصـوه بمشيئـته وقدرته، عـرفوا بذلك عظيم اقتداره وجـميل ستره إياهم، وكريم حلمه عنهم وسعة مـغفرته لهم برد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حليم ذو أناة لا يعـجل، ورحيم سبقت رحمتـه غضبه، وأنهم متى رجـعوا إليه بالتـوبة وجدوه غفـورًا رحيمًـا حليمًـا كريمًا؛ يغـفر لهم

السيئات ويقيلهم العثرات ويودهم بعد التوبة ويحـبهم، فتضرعوا إليه حينئذ بالدعاء وتوسلـوا إليه بذل العبـودية وعز الربوبية، فـتعـرَّف سبحـانه إليهم بحسن إجابته، وجميل عطفه وحـسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه، ويسرهم للتوبة والإنابة وأقبل بقلوبهم إليـه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه مـعاصيهم وجناياتهم من عطفه عليـهم وبره لهم وإحسانه إليهم، فتـاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، فلما تابوا إلـيه واستغفروه وأنابوا إليه تعرف إليهم تعرفًا آخر: فعرفهم رحمـته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكـرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كـان منهم مـا كـان من طول الشـرور وشـدة النفـور والإيضـاع في طرق معاصيه، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم، وكرمه في أن خلَّى بينهم وبين المـعصيـة فنالوها بنعـمته وإعـانته، ثم لم يُخَلِّ بينهـم وبين ما توجبه من الهـلاك والفساد الذي لا يرجى معـه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي، فاستخرج منهم داءً لو اسـتمر معهم لأفضى إلى الهلاك، ثم تداركهم بروح الرجـاء فقذفه في قلوبهم، وأخـبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظيم الجناية وقـبح المعصية وغـضبه ومقته على من عـصاه فقط لأورثهم ذلك المرض القاتل أو الداء العـضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته كان ذلك عين هلاكـهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي توجبها المعصية من المحن والبلاء الشدائد رحمة لهم وسببًا إلى علو درجاتم ونيل الـزلفى والكرامة عنده، فأشـهدهم بالجناية عـزة الربوبية وذل العبودية، ورقـاهم بآثارها إلى منازل قربه ونيل كرامتـه؛ فهم على كل حال يربحون عليه ويتقلبون في كرمه وإحـسانه، وكل قضاء يقضيه للمؤمن

فهـو خيـر له يسوقه إلى كـرامتـه وثوابه، وكذلك عطاياه الدنيـوية نعم منه عليهم، فإذا اسـترجعها أيضًا منهم وسلبـهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة كما قـيل: إن الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخـرة، فإذا استرجعـها كانت عطايا الآخرة. والرب سبحانه قد تجلَّى لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه، ومُضي مشـيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه، وكرمه وبره وإحسانه، وسـعة مغفـرته ورحمته، وما ألقـاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفـاته إلى حيث احتملته القوى البشرية، ووراءه مـما لـم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خلد مما لا نسبة لما عرفوه إليه[١].

[النعم للتمحيص]

من علامـات السعـادة والفلاح: أن العـبد كلما زيدَ في علـمه زيدَ في تواضعه ورحـمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفـه وحذره، وكلما زيد في عمـره نقَص من حرصـه، وكلما زيد في مـاله زيد في سخـائه وبذله، وكلمـا زيد في قـدْره وجاهه زيد في قـربه من الناس وقـضـاء حوائجـهم والتواضع لهم.

وعلامات الشـقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيـهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقـاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عـمره زيد في حـرصه، وكلمـا زيد في ماله زيد في بخلـه وإمسـاكه، وكلما زيد في قدْرِه وجاهه زيد في كبـره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله

(١) طريق الهجرتين: ١٣٧ - ١٣٩.

وامتحان يَبْتَلِي بها عبادَه، فَيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء؛ كالملك والسلطان والمال. قال تعالى عن نبيّه سليمان لما رأي عرش بلقيس عنده: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شُكر الشَّكور وكفر الكفور. كما أن المحن بلوى منه سبحانه؛ فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ ...﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي ليس كل من وسَّعت عليه وأكرمته ونَعَّمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له. أهـ[(١)].

[النعم الثلاثة]

النعم ثلاثة: نعمةٌ حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها. فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدّها به حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيَّد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصَّره بالطرق التي تسدّها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتمَّ الوجوه، وعَرَّفه النعَم التي هو فيها ولا يشعر بها.

---

(١) الفوائد: ٢٢٥ - ٢٢٦.

ويُحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد فقـال: أمير المؤمـنين، ثَبّت اللهُ عليك النعـم التي أنت فيها بإدامـة شكرها، وحَقَّق لك النعـم التي ترجوها بحسـن الظنِّ به ودوام طـاعـته، وعَرَّفك النعـم التي أنت فيهـا ولا تعـرفها لتشـكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحـسـن تقسيمه[١]. أهـ.

[الملل من النعم]

من الآفات الخفـيّة العامة: أن يكون العـبد في نعمة أنعم الله بـها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها، وربُّه برحـمته لا يخـرجه من تلك النعـمة، ويعذره بجـهله وسوء اختـياره لنفـسه، حـتى إذا ضاق ذرعًـا بتلك النعـمة وسَخِطـها وتبرَّمَ بـها واستَحْكَم مَلَلُه لها سلَبَه الله إياها. فـإذا انتقل إلى ما طلـبه، ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتدَّ قلقه وندمـه، وطلب العودة إلى ما كان فيه. فإذا أراد الله بعـبده خيرًا ورشـدًا أشهده أن ما هو فيه نعـمة من نعَمِه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدّثتـه نفـسُه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهلٍ بمصلحته عاجز عنها، مُفوِّض إلى الله طالب منه حسـن اختياره له.

وليس على العـبد أضـرّ من مَلَلِه لنعم الله؛ فـإنه لا يراها نعمـة، ولا يشكره عليها، ولا يفـرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مـصيبة. هذا وهي من أعظم نِعَم الله عليه.

---

(١) الفوائد: ٢٤٨.

فأكثرُ الناس أعداءُ نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمة، وهم مجتهدون في دفعها وردِّها جهلاً وظلمًا. فكم سَعَتْ إلى أحدهم من نعمة وهو ساعٍ في ردِّها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزوالها بظلمة وجهله؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؛ فليس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوِّه وظهيرٌ على نفسه، فعدوُّه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها، فهو الذي مكَّنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتدَّ ضرامُها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار:

وعاجزُ الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا[(١)]

[سلب النعمة عند الحاجة إليها]

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

(١) الفوائد: ٢٥٧ - ٢٥٩.

فإذا كان يوم استيفاء الأعمـال وإحراز الأجور وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته. هذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف، فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله، فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضـعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستـان عظيم، فيه من جميع الفـواكه والثمر، وسلطان ثمـره أجل الفواكه وأنفعـها؛ وهو ثمر النخيل والأعناب، فـمغله يقوم بكفـايته وكفـاية ذريته، فأصبح يومًـا، وقد وجده محترقًا كله كالصريم، فأي حسرة أعظم من حسرته؟!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره».

وقال مجاهد: «هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت».

وقال السدي: هذا مـثل المرائي في نفقته الذي ينـفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه.

وسأل عـمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًـا عن هذه الآية فقـالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال قولوا نعلم أو لا نعم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها.

قال الحسن رضي الله عنه: «هذا مثل قَلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»(١).

[إحسان الله تعالى إليك]

إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس: أزاح عللك، ومكَّنك من التزود إلى جَنَّته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قُطّاع الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرَّفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسَّرَه للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم، بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولَى بك. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] طردَ إبليسَ عن سمائه، وأخرجه من جنته، وأبعده من قربه إذ لم يَسْجد لك وأنت في صُلْب أبيك آدم لكرامتك عليه. فعاداه وأبعده، ثم واليت عدوه، ومِلْت إليه وصالحته، وتتظلم مع ذلك، وتشتكي الطرد والإبعاد، وتقول:

---

(١) إعلام الموقعين: ١/٢٠١ - ٢٠٢.

عودوني الوصال، والوصفُ عَذْب ورموني بالصدِّ، والصــد صعب

نعم. وكيف لا يَطْرُد من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا؛ قد أفسد ما بينه وبين الله وكَدّره؟

أمــره الله بشكره لا لحاجتــه إليه، ولكن لينال بــه المزيد من فــضله؛ فجعل كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. أمره بسؤاله ليـعطيه فلم يسـأله، بل أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، فـلم يقبل. يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه. ويتظلم ممن لا يظلمه وَيَدَعُ من يعاديه ويظلمه. إن أنعم عليه بالصحـة والعافية والمال والجاه استـعان بنعمه على معاصيــه. وإن سَلَبه ذلك ظَلَّ متسخطًا على ربه وهو شــاكيه. لا يصلح له على عافية، ولا على ابتلاء. العافية تُلـقيه إلى مساخطه، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلى خلقه.

دعاه إلى بابه فــما وقف عليه ولا طَرَقه. ثم فـتحه له فما عـرّج عليه ولا ولَجه. أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامــته فعصى الرسول، وقال: لا أبيع ناجزًا بغائب، ونَقْدًا بنَسيئة، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به، ويقول:

خُـذْ ما رأيتَ، ودَعْ شيئًا ســـمعتَ به

في طلْعة الشـــمس ما يغنيك عن زُحَل

فإن وافق حَظُّه طاعـةَ الرسول أطاعه لنيل حظه، لا لرضـا مرسِله. لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه، حتى أعرض عنه، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هـذا فلم يؤيسه من رحمـته، بل قال: متى جئـتني قبلتـك؛ إن أتيتني ليلاً قبلتك، وإن أتيتني نهـاراً قبلتك، وإن تقـربت مني شبراً تقربت منك ذراعًـا، وإن تقربت مـني ذراعًا تقـربت منك باعًـا، وإن مشـيت إليّ هرولتُ إليك، ولو لقيـتني بقُراب الأرض خـطايا، ثم لقيـتني لا تشرك بي شـيئًـا، أتيتك بـقُرابهـا مغـفـرة، ولو بلغـتْ ذنوبُك عنان السـمـاء، ثم استغفرتني غفرتُ لك، ومَنْ أعظم مني جوداً وكـرمًا؟

عبـادي يبـارزونني بالعظائم، وأنا أكلـؤُهم على فـرُشـهم، إني والجن والإنس في نبإ عظـيم: أخلقُ ويعبُد غيري، وأرزُق ويُشـكر سواي. خـيري إلى العبـاد نازل، وشرهم إليَّ صـاعد. أتحـبب إليهم بنعـمـي، وأنا الغني عنهم. ويتبغضون إليَّ بالمعـاصي، وهم أفقر شيء إليَّ.

من أقبل إليَّ تلقيته من بعـيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيـته فـوق المـزيد، ومن أراد رضاي أردت مـا يريد. ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهلُ ذكري أهـل مجالستي، وأهـل شـكري أهـل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامـتي، وأهل معصـيتي لا أُقَنِّطهم من رحـمـتي، وإن تابوا إليّ فأنا حـبيبهم؛ فإني أحـب التـوابين وأحب المتطـهرين، وإن لم يتـوبوا إليَّ فأنا طـبيبهم؛ أبتليهم بالمصـايب لأطهـرهم من المعـايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها (**لله أشَدُّ فرحًا بتوبة عبده من رَجلٍ أضَلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكة دَوِّية عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى إذا أيِس من حصولها نام في أصل شجرة ينتظر الموت؛ فاستيقظ فإذا هي على رأسه، قد تعلق خِطامها بالشجرة، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته**)[1].

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها. وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه، ومحبة له وبراً به، لا يتكثَّر به من قلة، ولا يتعزز به من ذِلَّة، ولا ينتصر به من غَلَبة، ولا يَعُدُّه لنائبة، ولا يستعين به في أمر؛ ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾**﴾ [الإسراء: ١١١] فنفى أن يكون له وليّ من الذل، والله وليّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه[2]. أهـ.

[المنة لله وحده]

ذكر ابن سعد في «الطبقات»، عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنه كان إذا خطبَ على المنبر فخاف على نفسه العُجْب قطعه، وإذا كتب كتابًا

(١) رواه البخاري تعليقًا بلفظ مقارب في الدعوات، باب التوبة، ح(٦٣٠٨)، ومسلم في التوبة ح (٢٧٤٤) - (٢٧٤٧).

(٢) مدارج السالكين: ١/ ١٩٩ - ٢٠٢.

فخاف فيه العجب مزَّقه، ويقول: اللَّهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله، مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن؛ فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يَغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه، لم يحضره العُجْبُ الذي أصله رؤية نفسه، وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه وإعانته، فإذا غاب عن تلك الملاحظة وَثَبَتْ النفسُ وقامت في مقام الدعوى فوقع العجب، ففسد عليه القول والعمل. فتارة يُحال بينه وبين تمامه ويُقطع عليه، ويكون ذلك رحمةً به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنَّة والتوفيق. وتارة يتمُّ له، ولكن لا يكون له ثمرة، وإنْ أثمرَ أثمرَ ثمرةً ضعيفة غير محصِّلة للمقصود. وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يُصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها، أو يفسدها عليه بمنعه ثمرتها. فلا شيء أفسد للأعمال من العُجب ورؤية النفس.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا أشهده منَّته وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقول ويفعله فلا يعجب به. ثم أشهد تقصيره فيه، وأنه لا يرضى لربه به، فيتوب إليه منه ويستغفره، ويستحي أن يطلب عليه أجرًا. وإذا لم يشهده ذلك،

وغيَّبه عنه، فرأى نفسه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة.

فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدًا فـيه منَّته وفضله وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذا لم يوفه حقه.

والجاهل يعـمل العمل لحظِّه وهواه، ناظرًا فيه إلى نفـسه يمنُّ به على ربه راضيًا بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر[1]. أهـ.

[من عرف نفسه عرف ربه]

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعـلم إلا من عرف نفسه، ووقف بها عند قدرها، ولم يتـجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتـعدّ طوره، ولم يقل هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانّ به ابتـداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلُّه نعم الله علـيه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خـيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهـو لله وبه ومنه، فتُحْدِث له النعم ذلاً وانكسارًا عـجيبًـا لا يعبر عنـه. فكلما جَدَّدَ له نعـمة ازداد له ذلاً وانكسارًا وخشوعًا ومحبة وخوفًا ورجاء.

وهذا نتيجة علمين شريفين:

علمه بربه، وكـماله، وبره وغناه، وجوده، وإحسانـه، وحكمته، وأن الخير كله في يده، وهو ملكه يؤتي مـنه من يشاء ويمنع منه من يشاء، وله

---

(١) الفوائد: ٢٢٢ - ٢٢٣.

الحمد على هذا، وهذا أكمل حمدٍ وأتَّمه.

وعلمه بنفسه، ووقوفه على حدها، وقدرها، ونقصها، وظلمها، وجهلها، وأنه لا خير فيها البتة، لا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذان العلمان صبغة لها، لا صبغة على لسانها، علمت حينئذ أن الحمد كله لله، والأمر كله له، والخير كله في يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها، وأنها هي أولى بالذمِّ والعيب واللوم.

ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله.

فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالاً، وانقطاعُه بفواتهما.

وهذا معنى قوله: مَن عرف نفسه عرف ربه؛ فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها، ولم يتعدَّ بها طورها، وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحبَّ شيء إليه، وأخوَف شيء عنده وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية.. والله المستعان.

ويُحكى أن بعض الحكماء كتبَ على باب بيته: إنه لن ينتفع بحكمتنا

إلا من عرف نفســه ووقف بها عند قدرها؛ فمن كـان كذلك فليدخل، وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة[١]. أهـ.

[سؤال العافية والشكر عليها]

الله سـبحان يحب أن يُسأل العـافية، وما يسأل شيئًا أحبّ إليـه من العافية كما في «المسند» عن أبي صـالح عن أبي هريـرة ﷺ: قام أبو بكر ﷺ على المنبر ثم قال: (**سَلوا الله العـافية فإنه لم يعـط عبداً بعـد اليقين خيراً من العافية**)[٢].

وفي حديــث آخر: (**إن الناس لم يُعْطَوا في هذه الدنيا شيئًـا أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله عز وجل**)[٣]، وقال لعمه العباس: (**ياعم! أكْثِرْ من الدعاء بالعافية**)[٤].

وقال في دعائه يوم الطائف: (**إن لم يكن بك علي غضبٌ فـلا أبالي غيرَ أن عافيتك أوسع لي**)[٥] فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: (**أعوذ برضاك من**

---

(١) الفوائد: ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) رفعه أبو بكر ﷺ إلـى النبي ﷺ كما في مسند الإمـام أحمد: ١/ ٨ من رواية أبي عبيدة عامر بن عبـد الله بن مسعود عن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ بنحوه، ورواه أيضًا أبو هريرة عن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ بنحوه، المسند: ١/ ٤.

(٣) رواه أحمد بنحوه في المسند: ١/ ٧.

(٤) رواه أحمد بنحوه في المسند: ١/ ٢٠٩، والترمذي في الدعوات، ح ٣٥١٤.

(٥) أخرجـه الطبراني فـي الكبير: ١٣/ ٧٣، ١٨١ وذكـره ابن هشام في السـيرة النـبوية: ٢/ ٢٦٨.

سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك)(١).

وفي حديث آخر: **(سلوا الله العفو والعافية والمعافاة)**(٢).

وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها، وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المُبْتَلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المُبْتَلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يَجُرُّ إلى خير ما كنا من رجال البلاء؛ وإنه رُبَّ بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يُؤْمَنُ مَنْ أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نَعُدّ نِعَمَهُ لا نحصيها، وإن ندأب له عملاً لا نجزيها، وإن نُعمَّر فيها لا نبليها.

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر، فقال: **(لقد سألت البلاء فاسأل العافية)**(٣).

وفي «صحيح مسلم» أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت - أي هزل - فصار مثل الفرخ، فقال ﷺ: **(هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟)** قال: نعم،

---

(١) رواه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح ٤٨٦.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) روا أحمد: ٥/ ٢٣١، والترمذي بنحوه في الدعوات، ح ٣٥٢٧.

كنت أقول: اللَّهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رســـول الله ﷺ : (**سبحـان الله لا تطيقه ولا تستطيعـه، أفلا قلت: اللَّهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟!**)[١] ، فدعا الله له فشفاه.

وقـال شيـبان: كـان الحـسن إذا جلس مجلسًـا يقـول: «لك الحمـد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا، ومن كُلٍّ ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيرً كـما تنعمُ كثيرًا، أعطيت خيـرًا كثيرًا، وصرفت شرًا كـثيرًا، فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد». . .

وفي «السنن» عنه ﷺ : (**مَنْ قال حين يصبح: اللَّهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خـلقك فمنك وحدك لا شـريك لك، فلك الحمـدُ ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته**)[٢] . . .

ومَرَّ وهب بمُبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح[٣] وهو يقــول: «الحمد لله على نعمه»، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المُبْتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها أفلا أحمدُ الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري». . .

وقال بكر بن عـبد الله: يا ابن آدم إنْ أردت أن تعرف قـدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء، ح ٢٦٨٨.

(٢) رواه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ح ٥٠٧٣.

(٣) الوَضَح: البَرَص.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصي.

وقال ابن شوذب: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - رضي الله عنه: إن لله على أهل النار مِنّة: لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم...

وقال كعب: ما أنعم الله على عبدٍ من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله ولم يتواضعْ بها إلا مَنَعَهُ اللهُ نَفْعَهَا في الدنيا، وفتح له طبقاتٍ من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وقال الحسن: من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قَصُر علمه وحَضَر عذابه...

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما مِنْ عبدٍ يشرب الماء القُرَاح فيدخل بغير أذى ويُخرج الأذى، إلا وَجَبَ عليه الشكر»...

وكتب بعض العلماء إلى أخ له، أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أجميل ما يسَّر أم قبيح ما ستر؟...

وذكر ابن أبي الدنيا: أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا: أنا الصغير الذي ربَّيْتَهُ فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قَوَّيْتَهُ فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مَوَّلْتَهُ

فلك الحمـد، وأنا العـزب الذي زَوَّجـته فلك الحمـد، وأنا الساغب الذي أشبعـته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كـسوته فلك الحمد، وأنا المـسافر الذي صـاحبـته فلك الحـمد، وأنا الغـائب الذي رددْتَهُ فلك الحمـد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المـريض الذي شـفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته ولك الحمد، ربنا ولك الحـمد حمدًا كثيرًا[1]. أهـ.

[الحكمة في تغييب الآجال]

من حكمته سبحانه فيما منعهم من العلم؛ علم الساعة ومعرفة آجالهم، وفي ذلك من الحكمـة البالغـة ما لا يحتـاج إلى نظر؛ فلو عـرف الإنسان مقدار عمره؛ فـإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعـيش، وكيف يتهنأ بها وهو يتـرقب الموت في ذلـك الوقت؟ فلولا طول الأمل لخـربت الدنيا، وإنمـا عمـارتها بالآمال، وإن كـان طويل العمـر - وقد تحقق ذلك - فـهو واثق بالبقاء فلا يُبالي بالانهماك في الشـهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحـدثت توبة! وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعـالى عز وجل من عباده، ولا يقبله منهم، ولا تصح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسـبق في علمه؛ فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعـوامًا ثم يرضيك ساعة واحـدة إذا تيقن أنه صائر إليك لم تقبل منه، ولم يفـز لديك بما يفوز به مَنْ هَمُّه رضـاك، وكذا سنة

(١) عدّة الصابرين: ١٩٣ - ٢٠١.

الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه؛ فهذا تُرجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه، لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف، يعتلج في صدره شهوة النفس والذنب وكراهة الإيمان له، فهو يُجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب، ولا يقدم خوفًا، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذا ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفًا وتعجيلاً، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس - والاستمرار على ذلك - شديد على النفس، صعب عليها، أثقل من الجبال، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان؛ فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة ولا عاجلاً بآجل، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل:

أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غداً؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس!!

فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

فإذا بلغ العبد حد الكِبَر، وضعفت بصيرته ووهنت قواه، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيِّه، وضعفًا في إيمانه، وصارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها؛ فإن كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي، وكلما صدر منه واحد منها أثر أثرًا زائدًا على أثر ما قبله فيقوى الأثران، وهلم جرًا، فيهجم عليه الضعف والكِبَر ووهن القوة على هذه الحال، فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه، لم يتطهر للقدوم على الله، فما ظنه بربه؟! ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته، ومحيت سيئاته، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون.

ولا شيء لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة، ولكن فرط في أداء الدين حتى نفد المال، ولو أدَّاهُ وقت الإمكان لقبله ربه، وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان! وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات، فإن فنيت فيحمل السيئات.

فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم، ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيس يترقب الموت - وقد وضعه بين عينيه - فينكف عما يضرُّه في معاده، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم[1].أهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٤٩ - ٢٥١.

[نعمة السمع والبصر والبيان]

تأمَّل حالَ من عُدِمَ البصر وما ينالهُ من الخلل في أموره؛ فإنه لا يعرف موضع قدمه، ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره؛ فلا يشعر بحفرة يهوي فيها، ولا بحيوان يقصده - كالسبع - فيتحرز منه، ولا بعدو يهوي نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طُلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته؛ فإنه بمنزلة لحم على وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته؛ فهو أقوى الناس بصيرة وحدسًا، وجمع عليه همَّه، فقلبه مجموع عليه غير مشتت؛ ليهنأ له العيش، وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف.

هذا حكم من ولد أعمى.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية؛ فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عُدِمَ السمع؛ فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية، وتعظم المؤنة على الناس في

خطـابه، ويتبرمـون به، ولا يسمع شيئًا من أخبار النـاس وأحـــاديثهم؛ فهو بينهم شـــاهد كغـائب، وحي كميت، وقريب كبعـيد.

وقد اختلف النظار فـي أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اخـتلالاً لأموره: الضرير أو الأطرش؟ . . . والذي يليق بهذا الموضع أن يقـال: عادم البصر أشدهما ضـررًا، وأسلمُهما دينًا، وأحمدُهـما عاقبة، وعادم السـمع أقلُّهما ضررًا في دنيـاه وأجهلهمـا بدينه، وأسوأ عاقبـة؛ فإنه إذا عدم السـمع عدم المواعظ والنصائح، وأنسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصـر، ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر، وضرر الأعمى في دنياه أكثر.

ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراءُ، وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش، ويبتلي كثيرًا منهم بالعمى.

هذا فصل الخطاب في هذه المسألة؛ فمضرة الطرش في الدين، ومضرة العمى في الـدنيا، والمعـافى من عافـاه الله منهما ومـتَّعه بسـمعـه وبصره وجعلـهما الوارثـين منه. . . وإن عدم الإنسـان بيان اللســان وعدم خـاصة الإنســان - وهي النطق - واشتـدت المؤنة به وعليـه، وعظمت حسـرته، وطال تأسفه على رد الجـواب ورجع الخطاب، فهو كالمقـعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله.

فكم لله على عبده من نعمة ســابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه، فهـو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها! ولو فقـد شيئًا منها لتمنَّى أنه له بالدنيا وما عليها، فـهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه

وجوارحه وقواه، وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن؛ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤][1]. أهـ.

[نعمة البيان الخطي]

التعليم بالقلم هو من أعظم نعم الله على عباده؛ إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبَّطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان يعظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم لما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظًا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجلِّ النعم، والتعليم به، وإن كان مما يتخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله؛ فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/٢٠٦ - ٢٠٩.

هذا، ومن أعطاه الذهن الذي يعي به؟ واللسان الذي يترجم به؟ والبنان الذي يخط به؟

ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟ ومن الذي أنطق لسانه، وحرك بنانه؟ ومن الذي دعم البـنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم!

فقف وقـفة في حـال الكتابة، وتأمل حـالك وقد أمـسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جـماد، فيتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم، وفنون المـراسلات والـخطب، والنظم والنثر، وجـوابات المسائل؛ فمن الذي أجرى فلك المـعاني على قلبك؟ ورسمها في ذهنك؟ ثم أجـرى العبـارات الدالة عليهـا على لسانك؟ ثم حـرك بها بنانك حـتى صارت نقشًا عـجيبًا معناهُ أعجب من صورته؟ فـتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وتُرسله إلى الأقـطار النائية والجهات المتباعـدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك[(١)]. أهـ.

[اللّه تعالى يطعم المرضى ويسقيهم]

في قوله ﷺ [عن المرضى]: (**فإن الله يطعمهـم ويسقيهم**)[(٢)] معنى لطيف لا يعـرفـه إلا من له عناية بأحـكام القلوب والأرواح، وتأثيـرها في

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) رواه الترمـذي في الطـب، ح ٢٠٤٠، وقال حـسـن غريب، وابن ماجـه في الطـب، ح ٣٤٤٤.

طبيعة البدن، وانفعال الطبيعة عنها كما تنفعل هي كثيرًا عن الطبيعة، ونحن نُشير إليه إشارة فنقول: النفس إذا حصل لها ما يشغَلُها من محبوب أو مكروه أو مخوف، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تُحِسُّ بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم فلا تُحِسُّ به، وما مِن أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئًا منه، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها لم تُحِسَّ بألم الجوع، فإن كان الوارد مفرِّحًا قويَّ التفريح قام لها مقامَ الغِذاء، فشبعت به وانتعشت قواها وتضاعفَت، وجرت الدمويةُ في الجسد حتى تظهر في سطحه، فيُشرِقُ وجهه وتظهر دمويته؛ فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق فتمتلئ به، فلا تطلب الأعضاءُ حظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها وإلى الطبيعة منه، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب آثرته على ما هو دونه.

وإن كان الوارد مؤلمًا أو محزنًا أو مخوفًا اشتغلت بمحاربته ومُقاومته ومُدافعته عن طلب الغذاء؛ فهي في حال حربها في شغل عن طلب الطعام والشراب. فإن ظفرت في هذا الحرب انتعشت قواها وأخلفت عليها نظيرَ ما فاتها من قوة الطعام والشراب، وإن كانت مغلوبةً مقهورة انحطت قواها بحسب ما حصل لها مِن ذلك، وإن كانت الحربُ بينها وبين هذا العدوِّ سِجالاً فالقوة تظهرُ تارةً وتختفي أخرى، وبالجملة فالحربُ بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين، والنصرُ للغالبِ، والمغلوب إما قتيل، وإما جريح، وإما أسير.

فالمريض: له مدد مِن الله تعالى يُغذيه به زائدًا على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم، وهذا المـدد بحسب ضعفه وانكـساره وانطراحِه بين يدي ربه عز وجل، فيحصُل له من ذلك ما يُوجـب له قربًا من ربه؛ فإن العبدَ أقربُ ما يكـون من ربه إذا انـكسـر قلبُهُ، ورحـمة ربه عنـدئذٍ قريبة منه فـإن كان وليًا له حصـل له من الأغـذية القـلبية ما تقـوى به قوى طبيعته وتنتعـش به قـواه أعظــمَ مِن قوتهـا وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قوي إيمانه وحُبه لربه وأنسه به وفـرحُه به، وقـوي يقينه بربه، واشتـد شوقـه إليه ورضـاه به وعنه، وجـد في نفسـه من هـذه القوة ما لا يُعبَّـرُ عنه، ولا يُدركه وصـف طبيب، ولا ينالُه علمـه.

ومن غلظ طبعُه، وكثفت نفسُـه عن فهم هذا والتصديق به فلينظر حالَ كثـير من عُشَّـاقِ الصور الذين قـد امتلأت قلوبهم بحُب مـا يعشـقونه من صُورة، أو جـاه، أو مال، أو علم، وقد شاهد الناسُ من هذا عـجائب في أنفسهم وفي غيرهم.

وقد ثبت في «الصـحيح» عن النبي ﷺ أنه كان يُواصِلُ في الصِّـيامِ الأيام ذواتِ العدد، وينهى أصحابه عن الوصال ويقول: (**لست كهيئتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**)[1].

ومعلـوم أن هذا الطعام والشـراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنـسان بفمـه، وإلا لم يكن مواصلاً ولم يتحـقق الفرق، بل لم يكن صائمًـا؛ فإنه

(١) متـفق عليه: رواه البـخاري بنحوه فـي عدة مواضع منهـا كتـاب التمني، ح ٧٢٤١، ومسلم بنحوه أيضًا في الصيام، ح ١١٠٤.

قال: (أظل يطعمني ربي ويسقيني).

وأيضًا فإنه فرَّق بينه وبينهم في نفس الوصال، وأنه يَقدر منه على ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بفمه، لم يقل لست كهيئتكم، وإنما فهم هذا من الحديث من قل نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب وتأثيره في القوة وإنعاشها واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسماني، والله الموفق[١].

[حال الملائكة مع الناس]

الملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره.

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المُثَبِّتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوى قلبه، ويزداد شكرًا، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه.

---

(١) زاد المعاد: ٤/ ٩٢ - ٩٤.

فهم أولياؤه وأنصـاره، وحفظته، ومعلموه، وناصـحوه، والداعون له، والمستـغفرون له، وهم الذين يصلون عليه مـا دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعـثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيـا، ويرغبـونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويُثَـبِّتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفـراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر، قد أطت بهم السماء، وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم، أو راكع أو ساجد، ويدخل البيت المـعمور كل يوم منهم سـبعون ألف ملك، لا يعـودون إليه آخر ما عليهم[1].

[للنفس أربع دور]

لهذه الأنفس أربع [دور] كل دار منها أعظم من التي قبلها.

الدار الأولى: في بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

والدار الثـانيـة: هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكـتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثــالثــة: دار البــرزخ؛ وهي أوسع من هذه الـدار وأعظم؛ بل

---

(١) إغاثة اللهفان: ٥٠٢ - ٥٠٣.

نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

والدار الرابعة: دار القرار؛ وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدها.

الله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشؤها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها، الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها، فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقرّ به الفطر، وما خالفه فهو الباطل. وبالله التوفيق[1]. أهـ.

[حكمة الله في المسخ]

تأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم؛ فإنه لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة.

---

(١) الروح: ١٤٣.

واعتبر هذا بمن مسخـوا قردة وخنازير؛ كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها!

ثم إن كنت من المـتوسـمين فـاقرأ هذه النسـخة من وجـوه أشبـاههم ونظرائهم؛ كيف تراها بادية عليها، وإن كات مستورة بصورة الإنسانية؟

فاقـرأ نسخـة القردة من صور أهل الـمكر والخديعة والفـسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكراً وخداعًا وفسقًا! فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين.

واقرأ نسخة الخـنازير من صور أشباههم - ولا سيمـا أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ - فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب! وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه؛ فـإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا ومن خـاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيُبادر إليه.

فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة، كيف تجده منطبقًا عليهم؟ فإنـهم عمـدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فـعادوهم وتبـرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من الـنصارى واليهـود والمشركـين، فاستـعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خيرٌ منهم.

فأي شـبه ومناسبـة أولى بهذا الضرب من الخنازير؟! فـإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين!

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيراً فأكثر من أن تذكر ها هنا(١). أهـ.

[شواهد السائرين إلى اللّه تعالى]

أول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعُشَّاقها صرعى حولها؛ قد بدَّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب؛ أضحكتهم قليلا، وأبكتهم طويلا؛ سقتهم كؤوس سمها بعد كؤوس خمرها؛ فسكروا بحبها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقّاً، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: (**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدُكم إصبعه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ ترجع؟**)(٢).

وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها واضطرامها، وبُعد قَعْرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها؛ فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُودَ الوجوه، زُرْق

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ح(٢٨٥٨).

العيـون، والسلاسل والأغـلال في أعناقهم؛ فلمـا انتهوا إليـها فُـتِّحت في وجـوههم أبوابهـا؛ فـشـاهدوا ذلك المنظر الفـظيع، وقد تقـطعت قلوبهم حسـرة وأســفًا: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣]، فأراهم شاهد الإيمان، وهم إليها يُدفعون، وأتى النداء من قـبـل رب العـالمـين: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤] ، ثم قيل لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]، فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم، على وجوههم يُسْحَبون، وفي النار كالحطب يُسْجَرون: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعـراف: ٤١]، فـبئس اللحـاف وبئس الفـراش، وإن استـغاثوا من شـدة العطش: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا شربوه قَطَّع أمعاءهم في أجوافهم، وصَهَر ما في بطونهم؛ شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشـاهد انخلع من الذنوب والمعاصي، واتباع الشهوات، ولبس ثيـاب الخوف والحذر، وأخصب قلبـه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشـاهد يكون بعده من المعاصي والمـخالفات؛ فيـذيب هذا الشاهد من قلبه الـفضلات، والمـواد المهلكة، وينضجـها ثم

يخرجها فيجد القلبُ لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ، فضلا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها؛ تربتها المسك، وحَصْباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لَبِن الذهب والفضة وقَصَب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم وُلْدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفُرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنْزَفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون؛ فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحْبَرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة؛ كما قال النبي ﷺ : (**بينا أهلُ الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم - ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾** [يس: ٥٨] **- ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته**

عليهم في ديارهم)[١].

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا، وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها؛ وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسِلا رسله، ومنزلا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويغضب، ويرحم إذا استُرْحم، ويغفر إذا استُغْفِر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويقيل إذا استُقيل، أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء؛ فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم ثم كانوا كلهم على تلك القوة، ثم نسبت تلك القوى إلى قوته تعالى لكانت أقل من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد، ولو قدر جمال الخلق كلهم على واحد منهم ثم كانوا كلهم بذلك الجمال، ثم نسب إلى جمال الرب تعالى لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم، ثم كان كل الخلق على تلك الصفة، ثم نسب

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ح ١٨٤.

إلى علم الرب تعالى لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنَقْرة عصفور في بحر؛ وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله؛ فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغْلِطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسَرَّ القول ومن جهر به؛ فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى نِياط عروقها، ومجاري القوت في أعضائها. يضع السماوات على إصبع من أصابع يده ، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى؛ فالسماوات السبع في كَفِّه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفّاً واحدًا ما أحاطوا بالله عز وجل؛ لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم؛ بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده فله سلوك وسير خاص ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد[1]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/٢٠١ - ٢٠٥.

[هداية الله للحيوان]

الهدهد، من أهدى الحيوان وأبصـره بمواضع الماء تحت الأرض حيث لا يراه غيره، ومن هدايته: ما حكاه الله سبـحانه عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد فقده وتواعده، فلما جاءه بَدَرَه بالعُذر، قبل أن يبدره سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال إياس: والديك الشاب يأخذ الـحبة فيؤثرها الدجاجة، حـتى يلقيها من فيه، والهـرم يبتلعها ولا يلقـيها للدجاجة . . . وهدايـة الحيوانات إلى مصـالح معاشهـا كالبحر، حـدِّثْ عنه ولا حرج، ومن عجيب هدايتـها أن الثعلب إذا امتـلأ من البراغيث أخذ صـوفة بفمه، ثم عمـد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليـلاً قليلاً، حتى ترتفع البرغـيث إلى الصوفة، فيلقيـها في الماء ويخـرج، ومن عـجيب أمـره: أن ذئبًـا أكل أولاده، وكـان للذئب أولاد، وهناك زبيـة[1] فعمد الثعلـب وألقى نفسه فيها، وحفر فيـها سردابًا يخرج منه، ثم عمـد إلى أولاد الذئب فقـتلهم وجلس ناحية ينتظـر الذئب، فلما أقبل وعـرف أنها فعلته هرب قـدامه وهو يتبـعه، فألقى نفســه في الزبية ثم خـرج من الســرداب، فـألقى الذئب نـفـسه وراءه فـلم يجـده، ولم يطق الخروج، فقتله أهل الناحية. . .

ومن عجـيب أمر القرد، ما ذكـره البخاري في صـحيحه، عن عـمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود

---

(١) الزبية: الحفرة.

فرجموهما حتى ماتا»، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم.

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ: أن رجلاً بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها، فقالت: إنّا لم نخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم! فقال: (**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر**)، وما هُما ثم، قال: وبينا رجل يرعى غنمًا له، إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: يا هذا استنقذتها مني؟ فمن لها يوم السَّبُعِ، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم! فقال رسول الله ﷺ: (**إني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر**)، وما هما ثَمّ[1].

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان، أنّ الرجل يسير به، ويأتي به إلى منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل، فإذا خُلي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به، والصوت الذي يحث به على السير...

وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتدنو منه الطير فلا يظهر حركة ولا نفسًا، فلا تشك أنّه ميت، حتى إذا نقرته بمنقارها وثب عليها، فضمها ضمة الموت[2]. أهـ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في المناقب، ح ٣٦٦٣، ومسلم بنحوه في فضائل الصحابة، ح ٢٣٨٨، ورواه أحمد في المسند: ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) شفاء العليل: ١/ ٢٤١ - ٢٥١.

[من علـّم الحيوان هذا]

كثير من العقـلاء يتعلم من الحـيوان البهـيم أمورًا تنفـعه في معـاشه وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

وهداية الحيـوان فوق هداية أكثر الناس؛ قـال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضلَّ سبيلاً منها.

فمن هُدى الأنثى من السباع، إذا وضـعت ولدها أن ترفعـه في الهواء أيامًا تهرب به من الـذرِّ والنمل؛ لأنها تضعه كفلذة مـن لحم، فهي تخاف عليه الذر والنـمل، فلا تزال ترفعـه وتضعه، وتحـوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشـيخ من قريش: من علَّمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علَّمني الله، ما علَّم الحمامة تقليب بيضها حتى تعطي الوجـهين جميعًا نصيبهمـا من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

وقيل لآخر: ما علَّمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: من علَّم الخنفـساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد ثم تسقط مراراً عديدة، حى تستمر صاعدة.

وقـيل لآخر: من علَّمك البكور فـي حوائجك أول النهـار لا تُخلّ به؟

قال: مَنْ علَّم الطير تغدو كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ علَّمك السكون والتحفظ والتماوت، حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به، وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علَّم السنور أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تمور ولا تختلج، كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَنْ علَّمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم الشكوى؟ قال: مَنْ عَلَّم أبا أيوب[(١)] صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي بها على ظهره من بلد إلى بلد، مادًا عنقه مستسلمًا صابرًا على الجوع والعطش والتعب، وغلظة الجَمَّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا معول له غير الصبر.

وقيل لآخر: مَنْ عَلَّمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: مَنْ عَلَّم الديك يصادف الحبّة في الأرض - وهو محتاج إليها - فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا، حتى تجيء الواحدة منهن فتلتقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحبّ الكثير فَرَّقه ههنا وههنا، وإن لم يكن هناك دجاج؛ لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

---

(١) كنية الحمار.

وقيل لآخر: مَنْ علَّمك هذا التحيل في طلب الرزق، ووجوه تحصيله؟ قال: مَنْ عَلَّم الثعلب تلك الحـيل التي يعجز العقلاء عن علمـها وعملها، وهي أكثـر من أن تذكر، ومن علَّم الأسـد إذا مشى وخـاف أن يقتصَّ أثره ويطلب عفـا على أثر مشيتـه بذنبه، ومَنْ علَّمه أن يأتي إلى شـبله في اليوم الثالـث من وضعه، فـينفخ في منخريـه فيتـحرك لأن اللبـوة تضعـه خَوَراً كالميت، فـلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيـفعل به ذلك، ومَنْ ألْهَم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستـها، وإذا مر بفريسة غيره لـم يدن منها، ولو جهده الجوع. . .

ومَنْ عَلَّم الثعلب إذا اشـتد به الجوع أن يستلقي على ظهـره، ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حـتى ينتفخ، فيظن الطير أنه مـيتة، فيقع عليـه فيثب على من انقضى عمره منها؟

ومن عَلَّمه إذا أصابه صدع أو جرح، أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم؟

ومن عَلّم الدب إذا أصـابه كَلْم أن يأتي إلـى نبت قد عـرفـه، وجـهله صاحب الحشائش، فيتداوى به، فيبرأ؟

ومن عَلّم الأنثى من الـفيلـة، إذا دنا وقت ولادها، أن تأتي إلى المـاء فتلده فـيه لأنها - دون سائر الحـيوانات - لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصـالها على خلاف أوصال الحـيوان، وهي عالية، فتـخاف أن تسقطه على الأرض فيتصدع أو ينشق، فتأتي إلى ماء وسط، فـتضعه فيه، يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم؟

ومن عَلَّم الذباب إذا سقط في مائع، أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر؟

ومن عَلَّم الكلب إذا عاين الظباء، أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأن عَدْوَه أشدّ وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عَدْوِها؛ لأنه قد علم أنّ الذكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حقب ببوله، وكل حيوان إذا اشتدّ فزعه فإنه يدركه الحقب، وإذا حقب الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عَدْوه فيدركه الكلب، وأما الأنثى فإنها تحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عَدْوها؟

ومَنْ علّمه أنه إذا كسا الثلجُ الأرض، أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها، علمًا منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق؟

ومن علَّم العصفورة، إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمَّة وحركة حتى يطير معهم؟...

ومَنْ عَلَّم العنكبوت نسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، ويجعل في أعلاها خيطًا، ثم يتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة نزل إليها فاصطادها؟...

ومن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدق الحافر، ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في

زواياه أبوابًا عديـدة، ويجعل بينها وبين وجـه الأرض حاجـزاً رقيقًـا، فإذا أحسَّ بالشرِّ، فَتَح بعضها بأيسر شيء وخـرج منه، ولما كان كثير النسيان، لم يحفر بيـته إلاعند أكمة أو صـخرة أو شجرة، علامـة له على البيت إذا ضلَّ عنه؟

ومَنْ علَّم الفهـد إذا سمن أن يتوارى لثـقل الحركة عليـه، حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر؟

ومن علَّم الأيِّل إذا سقط قرنه أن يتوارى؛ لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قـرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر الحركـة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو؟

وهذا باب واسع جدًا، ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩][(١)]. أهـ

[أمة النمل]

تأمل هذه النملة الضعيفة وما أُعطيته من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادِّخاره وحفظه ودفع الآفة؛ فإنك ترى في ذلك عبراً وآياتٍ، فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابـها طالبة له، فإذا ظفرت به أخذت طرقًا من أسرابهـا إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتـين: رفقة حاملة

(١) شفاء العليل: ١/ ٢٥٢ - ٢٥٧.

تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبًا، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تُخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طرق والجماعة الراجعين من جانبهم، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من ذلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله، بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه، فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلَّوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت.

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه شاهد منهن يومًا عجبًا؛ قال: رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض، فذهبت غير بعيد، ثم جاءت معها بجماعة من النمل، قال: فرفعتُ ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها، فلم يجدن شيئًا فرجعن، فوضعتُه، ثم جاءت فصادفَتْه فزاولَتْه فلم تطق رفعه من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعتُه، فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئًا فذهبن، فوضعتُه، فعادت فجاءت بهن فرفعتُه، فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئًا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوًا عضوًا وأنا أنظر!!

ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت؛ فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا، فإذا أصابه ندى أو بلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها، ولهذا ترى في بعض الأحيان حبًا كثيرًا على أبواب مساكنها مكسرًا ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة.

ومن فطنتهـا أنها لا تتخذ قـريتها إلا على نشز من الأرض لئـلا يفيض عليها السيـل فيغرقها، فلا ترى قـرية نمل في بطن وادٍ ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه.

ويكفي من فطنتـها ما نص الله عـز وجل في كتابه من قـولها لجمـاعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴿١٨﴾﴾ [النـمـل: ١٨]، فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة:

النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة.

ولذلك أعجب سليمان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها.

ولا تستـبعد هذه الفطنة مـن أمة من الأمم تسبح بحـمد ربها كـما في «الصحـيح» عن النبي ﷺ قـال: (**نزل نبي من الأنبيـاء تحت شجرة، فلدغـته نملة، فـأمـر بجـهازه فـأخـرج، ثم أحرق قـرية النمل، فـأوحى الله إليـه: من أجـل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبِّحُ، فهلا نملة واحدةً!**)[1][2]. أهـ.

---

(١) مـتفق عليـه: رواه البـخاري بنحـوه في بدء الخلق، ح ٣٣١٩، ومـسلم بنحـوه في السلام، ح ٢٢٤١.

(٢) مفتاح دارالسعادة: ٢/ ١٥٠ - ١٥٢.

[هداية الله للنمل]

هذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء؛ فإنّ النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة، ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبوب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولاتتغذى منها نملة على ما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل: ١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما بيَّنه من اسم الجنس إرادةً للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول؛ وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لايشعرون بذلك.

وهذا من أعجب الهداية! وتأمل كيف عظَّم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل: ١٧]، ثم قال: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ** ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر

بأنهم بأجـمـعم مَـرُّوا على ذلـك الوادي، ودلَّ على أنَّ ذلك الوادي كـان معروفًا بالنمل، كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر عَمَّا دَلّ على شدة فطنة هذه النملة، ودقة معـرفتها؛ حيث أمـرتهم أن يدخلوا مساكنهم المخـتصة بهم، فقـد عرفت هي والنمل أن لكل طائفـة منها مـسكنًا، لا يدخل عليهم فـيه سواهم، ثم قـالت: لا يحطمنكم سليـمان وجنوده، فجـمعت بين اسـمه وعينه، وعرَّفته بهما، وعرّفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون؛ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن معرّة الجيش كونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حـذرهم، ويدخلوا مساكنهم؛ ولذلك تبسم نبي الله سليمان ضاحكًا من قولها، وإنّه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس أن رسـول الله ﷺ : **(نهى عن قـتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهـدهد، والصُّرَد)**[١][٢].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **(نزل نبي من الأنبياء تحت شـجـرة، فقرصـتـه نملة، فأمـر بجـهازه فـأخرج، وأمـر بقرية النمل فـأحرقت، فأوحى الله إليـه: أمِنْ أجل أن قرصتـك نمـلة، أحرقت أمـة من الأمم تسـبح؟! فـهلا نملة واحدة)**[٣].

وذكر هشـام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لَقـوا من النمل شدّة،

---

(١) الصُّرَد: نوع من الطيور.

(٢) رواه أبو داود في الأدب، ح ٥٢٦٧، وأحمد في المسند: ١/ ١٣٢.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٢٣.

فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند بيوتهن فجلس عليه، ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو لنحرقنّ عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة، عن قسمة بن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى إن للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربّها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه، قال: **(خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو، مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم)**.

ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال: **(خرج سليمان بن داود ليستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّهم إنّا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإمّا أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم)**[1].

ولقد حدثني مَنْ أثق به، أنّ نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولتْ أن تحمله فلم تطق، فذهبتْ وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافتْ في مكانه فلم تجده،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٦/ ٦٢ح ٢٩٤٨٧، ٧/ ٧١ ح ٣٤٢٧٣.

فانصرفوا وتركوها، قال فوضعـتُه، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم، فـرفَعتُـه، فطافت فلم تجده، فـانصرفوا، قـال: فعلت ذلك مرارًا، فلمـا كان في المـرة الأخيـرة استدار الـنمل حلقة، ووضـعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضـوًا، قال شيخنا - وقد حكيت له هذه الحكاية - فقال: «هذه النمل فطرها الله سبحـانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب» والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل.

ويُذكر أن سليـمان بن داود صلوات الله وسـلامه عليه لمـا رأى حرص النملة، وشدة ادخـارها للغذاء استـحضر نملة وسألـها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجـعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركـها سنة، ثم أمر بفتح القـاروة عند فراغ السنة، فوجـد فيها حـبَّة ونصف حبة، فـقال: أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات! فقالت: نعم ولقد صدقتك، ولكن لما رأيتك مـشغولاً بـمصالح أبناء جنسك، حـسبت الذي بقي من عـمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقـتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعـجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف وتجـمع للشتاء، علمًا منها بإعواز الطلب في الشتـاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضـعفها شـديدة القوى؛ فإنها تحـمل أضعاف أضعاف وزنهـا وتجره إلى بيتها، ومن عـجيب أمرها أنك إذا أخذت عـضو جرادة يابسًا فـأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحـة فإذا

وضعته على الأرض، أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فاحتملته، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصنف من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه! فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله، ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا، حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزّقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا تركتها، فلها أولاً صدق الشم، وبُعْدُ الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صاحباتها.

ومن عجيب أمرها: أنّ الرجل إذا أراد أن يحترز من الذَرِّ لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرًا ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذرُّ يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف، إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه! وجرَّبنا نحن ذلك.

وأحمى صـانعٌ مرَّةً طوقًـا بالنار، ورماه على الأرض ليـبرد، واتفق أن أسفل الطوق نمـل، فتوجـه في الجهات ليـخرج فلحقـه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق وكـان فيه! كان ذلك مركـزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط[1]. أهـ.

[هداية الله للنحل]

أمر النحل في هدايتـها من أعجب العجب؛ وذلك أن لها أمـيرًا ومدبرًا وهو اليعسـوب، وهو أكبر جسمًا من جـميع النحل، وأحسن لونًا وشكلاً، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثـر أولادها يكنّ إناثًا، وإذا وقع فيها ذكرٌ لم تدعه يدخل بينها، بل إمّا أن تطرده، وإمـا أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك، وذلك أن الذكر منها لا يعـمل شيئًا ولا يكتسب، ثم تجتـمع الأمهات وفـراخها عند الملك، فـيخرج بهـا إلى المراعي، من المروج والرياض والبساتين والمرابع في أقصد الطرق وأقربها، فتجتني منها كفايتهـا، فيرجع بها الملك، فإذا انتهـوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها.

فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وقد أخذت النحل مقاعدها وأماكنها، فيبـتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمـها إيّاه، فيأخذ النحل في العـمل ويتسارع إليه، ويـترك الملك العـمل ويجلس ناحيـة بحيث يشـاهد النحل، فيـأخذ النحل في إيجـاد الشمع من لزوجـات الأوراق والأنوار، ثم تقتـسم النحل

---

(١) شفاء العليل: ١/ ٢٣٦ - ٢٤١.

فرقًا، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تـفارقه ولاتعمل ولاتكسب، وهم حاشية الملك من الذكـورة، ومنها فرقـة تهيئ الشمع وتصـفيه، والـشمع هو ثفل العسل وفـيه حلاوة كـحلاوة التين، وللنحل بـه عناية شديدة فوق عنايتـها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلّصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها.

وفرقه تبني البيـوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متـونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوسـاخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطـالة قطعتها وقتلتـها حتى لا تفسـد عليهن بقية العـمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها، وأول ما تبني في الخلية مقعد الملك وبيته، فتبني له بيتًا مربعًا يشبـه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستـدير حوله طائفة من النحل تشبـه الأمراء والخدم والخواص لا يفـارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيـئًا يشـبه الحـوض، يصب فيـه من العـسل أصفى مـا يقـدر عليه ويمـلأ منه الحوض، يكون ذلك طعامًا للملـك وخـواصـه، ثم يأخذن في بناء البيوت على خطوط مـتـساوية كـأنهـا سـكك ومحـال، وتبنى بيوتهـا مـسـدسـة الأشـكال متـساوية الأضـلاع؛ فكأنها قـرأت كتاب إقليدس، حـتى عرفت أوفق الأشكال لبـيوتها؛ لأنّ المطلـوب من بناء الدور هو الوثاقة والسَّـعة، والشكل المـسدس - دون سـائر الأشكال - إذا انضـمت بعض أشكاله إلى بعض صارت شكلاً مـستديـرًا كاستـدارة الرحى، ولا يبقى فيـه فروج ولا خلل، ويشدّ بعضه بعضًا، حتى يصير طبـقًا واحدًا محكمًا، لا يدخـل بين بيوته رؤس الإبر، فتبارك الذي ألهمـها أن تبني بيوتها هـذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: أن لا تكون زوايا ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.

الثانيـة: أن تكون تلك البـيوت مشكلة بـأشكال إذا انضم بعضـها إلى بعض امتلأت العرصة منها، ولا يبـقى شيء منها ضائعًا، ثم إنها علمت أن الشكل المـوصـوف بهاتين الصـفتـين هو المســدس فقط؛ فـإن المثلـثات والمربعـات وإن أمكن امـتلاء العرصـة منهـا، إلا أن زواياها ضيقـة، وأما سائر الأشـكال وإن كانـت زواياها واسـعة إلا أنها لا تمتلئ العـرصة منها، بل يبقى فـيما بينها فـروج خالية ضـائعة، وأما المسـدس فـهو مـوصـوف بهاتين الصفتين.

فهداها سبحانه على بناء بيـوتها على هذا الشكل، ومن غير تسطير ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكثيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قربها، وتأتيهـا ذللاً لا تستعصي عليـها ولا تضل عنها، وأن تجـتني أطيب ما في المرعى وألطفـه، وأن تعود إلى بيوتها الخـالية فتصب فـيها شرابًا مخـتلفًا ألوانه فيه شفاء للناس؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فـرغت من بناء البيـوت، خرجت خمـاصًا تسـيح سهلاً وجـبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطانًا، وجعل سـبحانه في أفواههـا حرارة منضجة تنضج مـاجَنَتْه، فتـعيده حلاوة ونضـجًا، ثم تمجه في البـيوت، حتى إذا امتـلأت ختمتـها وسدت رؤوسها بالشمع المصفَّى، فإذا امـتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتًا، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى.

فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى[1]، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة، وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصّها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها، وإذا كان وقت رجوعها، وقف على باب الخلية بوّاب منها ومعه أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرةً، أو رأى بها لطخة من قذر، منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن، ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قدّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية؛ هذا دأب البوّاب كل عشية.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلاّ نادرًا، إذا اشهى التنزّه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعةً من النهار ثم يعود إلى مكانه، ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل فيعرفه باجتماع النحل إليه؛ فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل وانضمت

---

(١) أي فسد، وذهب نباته.

إليه، حـتى تصير كالكرة، فـيأخذ صاحـب النحل رمحًا أو قصـبة طويلة، ويشدّ على رأسهـا حزمةً من النبات الطيب الرائحـة العطر النظيف، ويدنيه إلى مـحل الملك يكون معـه إما مـزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده.

ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عـجيب أمـرها أنهـا تقتل الملوك الظلـمة المـفسـدة، ولا تدين بطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسَّالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخـراجها ونفيـها عن الخلايا، وإذا فـعلت ذلك جاد العسل، وتجـتهد أن تقـتل ما تريد قتله خـارج الخلية، صيـانة للخلية عن جيفته، ومنها صنف قليلة النفع كبـيرة الجسم، وبينها وبين العسَّالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليهـا بيوتها وتقصد هلاكها، والعسَّالة شديدة التيقظ والتـحفظ منها، فإذا هجمت عليـها في بيوتها حولتهـا وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعـسل فلا تقدر على الطيران، لا يفلت منها إلا كلّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال، عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكـرنا أن الملك لايخـرج إلاّ في الأحايين، وإذا خـرج خرج في جموع من الفـراخ والشباب، وإذا عزم على الخـروج ظَلَّ قبل ذلك بيوم أو بيومـين يعلم الفراخ وينزلها منازلهـا ويرتبها، فـيخرج ويخرجن مـعه على

ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكًا آخر، لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها.

وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حَدَثٌ من مرض أو موت، أو كان مفسدًا فقتلته النحل، أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدًا، وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزهًا ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ، وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها، والنحل من أنظف الحيوان وأنقاه؛ ولذلك لا تلقي زبلها إلا وهي تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرص وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لسعًا وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه، وقد خُصَّت من وحي الربِّ تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام، كانت أكثر الحيوان أعداء، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة،

وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم[١].

[الجراد والتسليط]

الجراد من جنود الله؛ ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات؛ فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لا مرد له ولا يحصى منه عدد ولا عدة، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلده لما أمكنه ذلك، فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل، والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه.

فسل المُعطِّلَ: من الذي بعث هذا الجند الضـعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا رام أخذه؛ بعثه على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقـدرون بأجمعهم على دفـعه، بل ينظرون إليه يستـبد بأقواتهم دونهم ويمزقـها كل ممـزق ويذر الأرض قفرًا مـنها وهم لا يستطيـعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها؟

وهذا من حكمته سبحـانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القـوي فينتقم به مـنه، ويُنْزِل به ما كان يُـحذِّرُه منه حتى لا يسـتطيع لذلك مردًا ولا صرفًا.

قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) شفاء العليل: ١/ ٢٣٢ - ٢٣٦.

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يُمكِّن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه؛ فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم فجعل يعجب، فأُتي في منامه فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟! إنما هي تلك القطرات التي كنت تُشيب بها اللبن، اجتمعت وصارت سيلاً.

فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك، تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة .

وتأمل الحكمة في حبس الله الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جُوزُوا على منع ما للمساكين قِبَلَهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال له بلسان الحال: منعتم الحق فمُنِعْتُم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قِبلكم.

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده؛ صدًا بصد ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليهم، كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها عليهم بالربا؛ جُوزُوا إتلافًا بإتلاف، فَقَلَّ أن ترى مُرابيًا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم؛ فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف؛ كل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة؛ فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم.

وليس في الحكمة الإلهية أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شِيبَت لهم الولاةُ، فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها[1]. أهـ.

[حديث الذباب]

قال ﷺ: (**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامْقُلوه - أي فاغمسوه - فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله**)[2].

وقد تكلم على هذا الحديث بعض من لا خلاق له وقال: كيف يكون هذا؟ وكيف يجتمع الداء والشفاء في جناحي الذبابة؟ وكيف تعلم ذلك من نفسها حتى تقدم جناح الداء، وتؤخر جناح الشفاء، وما أربها إلى ذلك؟

قلت: وهذا سؤال جاهل، أو متجاهل. وإن الذي يجد نفسه ونفوس عامة الحيوان قد جُمع فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادة إذا تلاقت تفاسدت، ثم يرى الله سبحانه قد ألَّف بينها وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قوى الحيوان التي بها بقاؤها وصلاحها، لجدير أن لا يُنكر اجتماع الداء والشفاء في جزأين من حيوان واحد، وأن الذي

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٥ - ١٧٨.

(٢) رواه البخاري بنحوه في الطب، ح ٥٧٨٢، وأبو داود بلفظه في الأطعمة، ح ٣٨٤٤.

ألهم النحلة أن تتخذ البيت العجيب الصنعة، وأن تَعْسِل فيه، وألهم الذَّرَّة أن تكتسب قوتها وتدَّخره لأوان حاجتها إليه، هو الذي خلق الذبابة، وجعل لها الهداية إلى أن تقدِّم جناحًا وتؤخر جناحًا، لما أراد من الابتلاء الذي هو مَدْرجةُ التعبد، والامتحان الذي هو مضمار التكليف. وفي كل شيء عبرة وحكمة. وما يَذَّكر إلا أولوا الألباب[1]. أهـ.

[كثرة البهائم والوحوش]

تأمل خَلَّة عجيبة جُعِلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب؛ على كثرتها لا يرى منها شيء، وليست شيئًا قليلاً فتخفي لقلتها، بل قد قيل: إنها أكثر من الناس، واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحاري من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام على اختلافها، وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكادُ ترى منها شيئًا ميتًا؛ لا في كناسه، ولا في أوكاره، ولا في مساقطه ومراعيه وطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه؛ إلا ما عدا عليه عادٍ؛ إما افترسه سبع، أو رماه صائد، أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته؛ فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تُغْلَب على نفسها كمنت حيث لا يُوصَل إلى أقسامها، وقَبَرتْ جيفها قبل نزول البين بها، ولولا ذلك لامتلأت الصحاري بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها، فعاد ضرر ذلك بالناس، وكان سبيلاً إلى وقوع الوباء.

---

(١) مختصر سنن أبو داود: ٥/ ٣٤١ - ٣٤٢.

وقد دلَّ على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما ما جُعِل عيشه بين الناس - كالأنعام والدواب - فلقدرة الإنسان على نقله، واحتياله في دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع.

فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به؛ كيف جعل طبعًا في البهائم وكيف تعلموه من الطير.

وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه، وغربته هو من رحمة الله تعالى، وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم، واستيحاشهم منه، وهو من الطيور التي تنفر منها الإنس ومن نعيقها وتستوحش بها، فأرسل إليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ، وصار بمنزلة المتعلم والمستدل.

ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها؛ فقد قال النبي ﷺ: (**إذا بعثتم إلي بريداً فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه**)[1]، وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها، واسم الرسول إذا جاء إليه، ولما جاءهم سهيل بن عمرو يوم الحديبية قال: (**قد سهل لكم من أمركم**)[2]، ولما أراد

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط ٧/ ٣٦٧ ح ٧٧٤٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ٤٧٠ ح ٣٣٠٠٨.

(٢) رواه البخاري في الشروط، ح ٢٧٣٤.

تغيير اسم حزن بسهل قال: (**لم يزل معنى اسمه فيه وفي ذريَّته**)[١]، ولما سأل عمر بن الخطاب ﷺ الرجل عن اسمــه واسم أبيه وداره ومنزله؟ فأخبر أنه جمرة بن شهاب، وأن داره بالحـرقة، وأن مسكنه منها ذات لظى، قال له: أدرك بيتك قد احترق! فكان كما قال[٢]. أهـ.

[تذليل الأرض للإنسان]

قوله تــعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾**﴾ [الملك: ١٥].

أخبـر سبحـانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقـادة للوطء عليها، وحـفرها وشقها والبناء عليها؛ ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها.

وأخبر سبحانه أنه جعلها مِهادًا، وفراشًا، وبساطًا وقرارًا، وكفاتًا.

وأخـبر أنه دحـاها وطحاها، وأخـرج منهـا ماءها ومـرعاها، وثبـتهـا بالجبال، ونهج فيها الفجاج والـطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها.

ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان.

ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها، وتخرج لك من بطنها أحسن

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في الأدب، باب اسم الحزن، ح ٦١٩٠.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/١٣٩ - ١٤١.

الأشياء وأنفعها؛ فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها، وتضمّه، وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع؛ فلا كان من التراب خير منه أبعد من الأذى وأقرب إلى الخير.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول الذي كيفما يُقاد ينقاد.

وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً؛ فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها؛ ولهذ فُسِّرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه. والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي...

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها؛ فذلّلها لهم، ووطَّأها، وفتق فيها السُّبُل والطرق التي يمشون فيها، وأودعها رزقهم؛ فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن. ثم نبّه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ على أنَّا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطنًا ومستقرًا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار؛ فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته، ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها

وطنًا ومستقرًا، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته.

فلله ما في ضـمن هذه الآية من معرفـته وتوحيـده، والتذكير بنعـمه، والحـث على السيـر إليه والاسـتعـداد للقائه والقـدوم عليه، وإعـلام بأنه سبـحانه يطـوي هذه الدار كأن لم تكـن، وأنه يـحيي أهـلها بعـدمـا أماتهـم وإليه النشور[١].

[تأملات عجيبة في الجبال]

تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي قـد يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها! وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمـام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: «بالذي نـصب الجبال وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟! قال: **(اللَّهم نعم)**»[٢].

فمن منافـعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها[٣] حاضنًا لشراب الناس إلى حين نفاده، وجـعل فيها ليذوب أولاً فأولاً، فتـجيء منه السيول الغزيـرة، وتسيل منه الأنهـار والأودية، فينبت في المـروج والوهاد والربى ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل.

فلولا الجبال لسـقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وسـاح دفعة فعُدم وقت الحاجة إليه وكان في انحـلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت

(١) الفوائد: ٣٦ - ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم بنحوه في الإيمان، ح ١٢.

(٣) القُلل: رؤوس الجبال.

عليه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها: ما يكون في حضونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي هي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها: ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها.

ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن... وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه وتعالى.

ومن منافعها أيضًا: أنها تَرُدُّ الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها؛ ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضًا: أنها تَرُدُّ عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمن وذات الشمال، ولولاها لأخربت السيول في مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها: أنها أعلام يستدل بها في الطرقات؛ فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا؛ فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري: هي السفن، قالت الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فسُمي الجبل علمًا؛ من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها: ما ذكره الله تعالى في كتابه أنه جعلها للأرض أوتادًا تُثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعْظِم بها منفعة وحكمة!...

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته، هذا مع أنها تُسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها - على شدَّتها وعظم خلقها - من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر، وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم ومتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدانُ عرفات، فللَّه كم من ذنب مغفور، وعثرة مقالة، وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة مفروجة، وبلية مدفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة!

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم، الذين جاؤوا من كل فج عميق وقوفًا لربهم، مستكينين لعظمته، خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رؤوسهم، يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة.

فللَّه ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه، حتى أكرمه اللَّه برسالته وهو في غاره؛ فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال، وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالاً هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوي إليه كلما ذكرتها وتهفو نحوها، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبة منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم.

هذا؛ وإنها لتعلم أن لها مـوعدًا ويومًا تُنْسف فيها نسفًا وتصـير كالعهن من هوله وعظمه؛ فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

وكانت أم الدرداء ﵂ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسْمِعِ الجبال ما وعدها ربها؟ فيقول: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾**﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخـشيتها وتدكدكـها من جلال ربها وعظمته، وقـد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

فيا عـجبًا من مضـغة لحم أقسى من هذه الجبـال تسمع آيات الله تتلى عليهـا، ويذكر الرب تبـارك وتعالى فلا تلين ولا تخـشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل، ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن على كلامه وذكره وزواجره ومواعظه.

فـمن لم يَلِن لله في هذه الدار قلبـه، ولم يُنب إليـه، ولم يُذبه بحبـه والبكاء من خشيـته فليتمـتع قليلاً، فإن أمامة المليـن الأعظم، وسيرد على عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم![١]. أهـ.

[عجائب السحاب والمطر]

من آياته السحـاب المسخر بين السمـاء والأرض، كيف ينشئه سـبحانه بالرياح فتـثيره كـسفًا؟! ثم يؤلف بينه ويضـم بعضه إلى بعض، ثم تلقـحه

---

(١) مفتاح دارالسعادة: ٢/ ٨٤ - ٨٩.

الريح - وهي التي سماها سبحانه لواقح - ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها اهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح...

وكان الحسن إذا رأى السحاب قال: في هذا - والله - رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم...

وبالجملة؛ فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدرة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل الماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله ويُنْزِلُه منه مقطعًا بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشًا، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عُيِّنت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه.

فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني،

فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم كيف أودعه في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات؛ فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح الغذاء، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض، وهذا يبرد، وهذا يسخن... إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها[1]. أهـ.

[تعاقب الليل والنهار]

من تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفلَّ كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيالهما آيتان شاهدتان، بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته.

فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار.

فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله.

فكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟

وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه، وأي ثمار ونبات

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٥ - ٣٧.

وحيوان كان يوجد؟

وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات.

ولولا غروبها لم يكن للناس هدوءٌ ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدوء لراحة أبدانهم وجموم حواسهم.

فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته، ما هدأوا، ولا قَرُّوا، ولا سكنوا. بل جعله أحكم الحاكمين، سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشا.

ولولا الليل وبرده، لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان.

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه.

فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم.

وصار النور والظلمة - على تضادهما - متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده[1]. أهـ.

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١/ ٣٠٩ - ٣١١.

ثامنًا: الصبر

[فضل الصبر]

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجندًا غالبًا لا يُهْزَم، وحصنًا حصينًا لا يُهدم ولا يُثْلَم، فهو والنصر أخوان شقيقان؛ فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظَّفَر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفيُّ الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين؛ فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فظفر الصابرون بهذه المعيَّة بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين؛ فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر أن الصبر خير لأهله - مؤكدًا باليمين - فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل: ١٢٦].

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو، ولو كان ذا تسليط؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه إلى محل العز والتمكين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وعلّق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل ذلك عنه المؤمنون؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

[آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين؛ فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خيرٌ مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين؛ فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

[البقرة: ٤٥].

وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون؛ فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

[المؤمنون: ١١١]...

وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبـر أن صبره إنما هو لربِّه، وبذلك جميع المصـائب تهون؛ فـقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الـطـور: ٤٨]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

والصبر آخيَّة[١] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها؛ فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحـبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصـابه خير اطمأن به، وإن أصابتـه فتنة انقلب على وجهـه، خسر الدنيـا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصـفقة الخاسرة. فخـيرُ عيشٍ أدركه السعداء بصـبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فـساروا بين جناحي الصبـر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[٢]. أهـ.

[الصبر في القرآن]

الصبر مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا.

الأول: الأمر به؛ نحو قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

---

(١) الآخية: عود في الحائط أو يدفن طرفه في الأرض ويبـرز طرفه الآخر، كالحلقة تشد فيـها الدابة بحبل لئلا تـشرد. والمقصـود هنا أن الصبر هو الذي يُبـقي المؤمن على إيمانه كما تحفظ الآخية الدابة من الشرود.

(٢) عدة الصابرين: ١١ - ١٣.

وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده؛ كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]؛ فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]؛ فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله؛ كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٧]، وقوله ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم؛ وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ليست معية عامة - وهي معية العلم والإحاطة - كقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، [الأنفال: ٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه؛ كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصروالمدد لهم؛ كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ **(واعلم أن النصر مع الصبر)**[1].

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر؛ كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد، وهو جزء من حديث ابن عباس ﷺ المشهور: **(يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك...)** ١/ ٣٠٧.

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر؛ كقوله تعالى لموسى: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقوله في أهل سبأ: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة؛ سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة[١]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٥٩ - ١٦١.

[الأسباب المعينة على الصبر]

[لما كان] الصبر مُصارعةَ باعث العقل والدين باعثَ الهوى والنفس، وكلُ متصارعـين أراد أن يتغلّب أحدهما على الآخر فالطريـق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبـة له ويضعف الآخـر... فأمـا تقوية باعث الدين فـإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع؛ ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتَّة.

الثاني: مشـهد محـبَّته سبحانه، فيترك معصـيته محبَّة له؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبـين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحـبين؛ فبين ترك المحـب وطاعـته، وترك من يخاف العذاب وطـاعته بون بعيد.

الثـــالث: مشهـد النعمة والإحسان؛ فـإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليـه، إنما يفعل هذا لئام الـناس، فيمنعه مـشهد إحســان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيـه وقبائحه صاعدة إلى ربِّه، فـملَك ينزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة.

الـرابـع: مشهد الغضـب والانتـقام؛ فإن الرب تعالى إذا تمـادى العـبد في معـصيته غضـب، وإذا غضب لم يقم لغضـبه شيء، فـضلاً عن هـذا العـبد الضـعيف.

الخامس: مشهد الفوات؛ وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلاً وعرفًا، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها؟ تذهب الشهوة وتبقى الشقوة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**[1].

قال بعض الصحابة: يُنزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة؛ فإن تاب رجع إليه.

وقال بعض التابعين: ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه، ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: **(الزناة في التنور عراة)**[2]؛ لأنهم تعرَّوا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنُّوراً ظاهراً يُحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر؛ فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين، وأحلى موقعًا، وأتم فرحة، وأما عاقبته؛ فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب الحدود، ح ٦٧٧٢، ومسلم في الإيمان، ح ٥٧.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في التعبير، ح ٧٠٤٧، وهو جزء من حديث طويل.

السابع: مشهد العوض؛ وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهى نفسه عن هـواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعيَّة؛ وهو نوعان: معيَّة عامة، ومعيَّة خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله، وقد تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة؛ كقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟! إنما هي كأحلام نائمٍ أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المعاجلة؛ وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل، فيأخذه الله على غرة، فيحال بينه بين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جرَّبها.

العاشر: مشهد البلاء والعافية؛ فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم.

الحادي عشر: أن يُعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً، حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حينئذ همته؛ فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال؛ ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين، وقوي فيه باعث الشهوة، ومتى عوَّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها، ولا يؤويها ويساكنها؛ فإنها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس، ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير همومًا ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد، فدَفْعُ الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى، وليس المراد أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى؛ فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه؛ فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بد.

فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكن لله كان للرّياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أُنْفِقَ في طاعة الشيطان والهوى، والجاه إن لم يستعمله صاحبه في مرضاة الله استعمله في هواه

و... إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته، فمن عوَّد ... لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومَن عوَّد نفسه العمل ... بكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله. وهذا في جميع ا... ابس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره، وكذا بالعـ...ن.

الرابع عشر: صَرْفُ الفكر إلى عجائب آيات الله التي نَدَبَ عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاضراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاضرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن، والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها؛ فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخسَّ ما فيها وأقله نفعًا إلا ساقط الهمة، دنيء المروءة، ميت القلب؛ فإن حسرته تشتدُّ إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زادٍ يعذب به ويناله بسببه غاية الألم؟! بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنًا.

السادس عشر: تَعَرُّضه إلى مَنْ القلوب بين أصبعيه، وأَزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه على الدوام؛ فلعله أن يصادف أوقات النفحات؛ كما في الأثر المعروف: **(إنَّ لله في أيام دهره نفحات، فتعرَّضوا**

لنفحاته، واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم)[١]، ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه، فمن أُعطي منشور الدعاء أُعطي الإجابة؛ فإنه لو لم يُرِدْ إجابته لما ألهمه الدعاء؛ كما قيل:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفك ما عودتني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال؛ فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته؛ فإنَّه ما حَرَمَه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال؛ كما قيل: **يا آدم! لا تجزعْ مِن قولي لك: واخْرُج منها؛ فلك خلقتُها وسأعيدك إليها**.

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً؛ إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أنْ يعلم العبدُ بأنَّ فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين؛ فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجةً، حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل، نزل حتى ينتهي إلى موضعه من سجين.

---

(١) أخرجه الطبراني بنحوه في المعجم الكبير ١/ ٢٥، ح ٧٢٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١١١، ح ٣٤٥٩٤.

ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم؛ فإنه إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا؛ فهو أولى بها، فالمرءُ مع من أحبَّ طبعًا وعقلاً وجزاءً، وكلٌّ مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: ٨٤]، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أنَّ تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع؛ فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه، وإن فرَّغه حتى أصابه غيث الرحمة ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملاً، بل ربَّما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يُصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع، ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبه وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديرًا بحصول المغل.

وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جلّ جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع؛ كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة؛ فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر

الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، وبظلمه يُؤْثِر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه.

ولو فرَّغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب؛ فإن فضل الله لا يراه إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب، فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها، فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سكر وسد كثيف، فصاحبها يشكو الجدب، والنهر إلى جانب أرضه[1]. أهـ.

[الصبر على فعل الطاعات]

يحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشُّروع فيها بتصحيح النيَّة والإخلاص، وتجنُّب دواعي الرياء والسُّمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل؛ فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتَّفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النيَّة، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود أن لا ينساه في أمره؛ فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون

---

(١) عدة الصابرين: ٧٣ - ٧٩.

مستصــحبًا لذكره في أمره؛ فهذه عبــادة العبيد المخلصين لله، فهــو محتاج إلى الصبر عــلى توفية العبادة حــقها بالقيــام بأدائها وأركانها، وواجــباتها، وسننها، وإلى الصبــر على استصحاب ذكــر المعبود فيهــا، ولا يشتغل عنه بعبادته؛ فــلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قــيام جوارحه بعــبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحال الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البـقـرة: ٢٦٤]، فليس الشــأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها ممَّا يبطلها.

الثاني: أن يصبرعن رؤيتها والعجب بها، والتكبر والتعظم بها؛ فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثـــالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان الـســر إلى ديوان العلانية؛ فإن العبد يعـمل العمل سرًا بينه وبين الله سبحانه، فيكتب في ديوان السرِّ؛ فإن تحدث به نقل إلي ديوان العلانية، فلا يـظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل[1].

[صبرعزيز]

الصبــر عن معــاصي اللسان والـفرج من أصعــب أنواع الصبــر؛ لشدة الداعي إليهما وســهولتهما؛ فإنَّ معــاصي اللسان فاكهة الإنسان؛ كــالنميمة

(١) عدة الصابرين: ٨٦ - ٨٨.

والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه، ومدح من يحبه، ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي، وتيسر حركة اللسان، فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: **(أمسك عليك لسانك. فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: وهل يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)**[1].

ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد؛ فإنه يعز عليه الصبر عنها؛ لهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، يطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خص أهل الصلاة والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم.

وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام، والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، لا يبالي بارتكاب الحرام؛ كما يحكى أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواقعتها قال: يا هذه ! غطي وجهك؛ فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام!

وقد سأل رجل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن دم البعوض، فقال: انظروا إلى هؤلاء! يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ح ٢٦١٦، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن، ح ٣٩٧٣، وأحمد: ٥/ ٢٣١.

واتفق لي قريب من هذه الحكاية: كنتُ في حـال الإحرام، فأتاني قوم من الأعراب المـعروفين بقـتل النفوس والإغارة على الأمـوال يسألوني عن قتل المحرم القمل، فقلت: يا عجـبًا لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام[1]. أهـ.

[صبر الكرام وصبر اللئام]

كل أحدٍ لا بدَّ أن يصبر على بعض ما يكره، إما اختيارًا وإما اضطرارًا؛ فالكريم يصبـر اختيارًا لعلمه بحـسن عاقبة الصبر، وأنه يحـمد عليه، ويذم على الجـزع، وأنه إن لم يصبر لـم يَرُدَّ الجزع عليـه فائتًا، ولم ينـتزع عنه مكروهًا، وأن المـقـدور لا حـيلة في دفـعه، ومـا لـم يُقَـدَّر لا حـيلة في تحصيله، فالجزع ضرره أقرب من نفعه.

قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصـيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر»...

فإذا كـان آخر الأمر الصـبر، والعبد غـير محـمود، فمـا أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره.

وقال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوَّ البهائم».

فالكريم ينظر إلى الـمصيبـة، فإن رأى الجزع يردُّها ويدفـعها فهـذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنَّه يجعل المصيبة مصيبتين.

---

(١) عدة الصابرين: ٩٢ - ٩٣.

وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا؛ فإنَّه يحوم حول ساحة الجزع، فلا يراها تجدي عليه شيئًا ، فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان؛ فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأقل الناس صبرًا في طاعة ربهم؛ فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية، ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله، بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يُتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته، صابرًا على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته؛ فهو أصبر شيء على التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نُودي بهم - يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم -: أين المتقون؟[١]. أهـ.

---

(١) عدة الصابرين: ٦٨ - ٦٩.

تاسعًا: أعمال قلبية أخرى

[حاجة العبد لمعرفة أسماء اللّه وصفاته]

فإن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقَّاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى تَعرَّف به إليه على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحه، وعظم بها غناؤه، وقويت بها معرفته، واطمأنت إليها نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وأن شرفه أيضا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنْزِلُ العبدَ من نفسه حيث يُنْزِلُه العبدَ من نفسه؛ فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا، وعنها نافرًا ومنفرًا فالله له أشد بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا، حتى

تعود القلوب إلى قلبين:

قلب ذكرُ الأسماء والصفات قُوتُه وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها طرفة عين، ومحبتها لحظات لاستغاث: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فلسان حاله يقول:

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ويقول:

وإذا تقاضيت الفؤاد تناسيًا ألفيت أحشائي بذاك شحاحا

ويقول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانًا فننتكس

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته، نافر من سماعها، معرض بكليته عنها، زاعم أن السلامة في ذلك، كلا والله، إن هو إلا الجهالة والخذلان والإعراض عن العزيز الرحيم؛ فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته، وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها والنفرة والتنفير، والاشتغال بما لو كان حقًا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، وقد قمش شبهًا من الكلام الباطل، وارتوى من ماء آجن غير

طائل، تعج منه آيات الصفات وأحاديثهـا إلى الله عجيجًا، وتضـج منه إلى مـنزله ضجـيجًا ممـا يسومهـا تحريفـا وتعطيلاً، ويؤول معـانيها تحـريفًا وتبـديلاً، قـد أعـد لدفـعـها أنـواعًا من العـــدد، وهيـأ لردها ضـروبًا من القـوانين، وإذا دُعي إلى تحكيمها أبى واستكبر(١). أهـ.

[لوازم معرفة أسماء اللّه وصفاته]

علم العـبد بتـفـرد الرب تعالـى بالضر والنفع والـعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عـبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعِلْمُهُ بسمعه تعالى وبصره وعلـمِه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السـمٰوات والأرض، وأنه يعـلم السر وأخـفى، ويعلم خـائنة الأعين ومـا تخفي الصدور يثـمر له حفظ لسانه وجوارحـه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبـه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياءُ اجتنابَ المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظـمته وعزه تثمر له الخضـوع والاسـتكانة والمحبـة، وتثـمر له تلك الأحـوالُ الباطنـةُ أنواعًا من العـبـودية الظـاهـرة هي موجـباتها.

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: ١٦ - ١٨.

فخلقه سبحنه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم، ولا تشينه معصيتهم.

وتأمل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**)[1]، ذكر هذا عقب قوله: (**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**)؛ فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم في غفران زلاتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لجلب منفعة منهم، ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئة بنفع مثله، أو ليدفع عنه ضرراً؛ فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه، ولا ليدفعوا عنه ضرراً، فقال: (**لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني**)؛ إني لست إذا هَدَيْتُ مستهديكم، وأَطْعَمتُ مستطعمكم، وكَسَوْتُ مستكسيكم، وأرويتُ مستسقيكم، وكَفيتُ مستكفيكم، وغَفرتُ لمستغفركم بالذي أطلب منكم أن تنفعوني، أو تدفعوا عني ضرراً؛ فإنكم لن تبلغوا ذلك وأنا الغني الحميد؛ كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بإقداره وتيسيره وخلقه، فكيف بما لا يقدرون عليه؟ فكيف يبلغون نفع الغني الصمد الذي يمتنع في حقه أن يستجلب من غيره نفعًا أو يستدفع منه ضرراً، بل ذلك مستحيل في حقه؟!

ثم ذكر بعد هذا قوله: (**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم**

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٧٧.

وإنسكم وجنكم كـانوا على أفـجـر قلب رجل واحـدٍ منكم مـا نقص ذلك من ملكي شيــئًا)؛ فبين سـبحانه أن ما أمرهم به من الطاعـات، وما نهاهم عنه من السيئات لا يـتضمن استجلاب نفـعهم، ولا استدفاع ضررهم؛ كـأمر السيد عبده، والوالد ولده، والإمام رعيته، بما ينـفع الآمر والمأمور، ونهيهم عما يضر الناهي والمنهي؛ فـبين تعالى أنه المنزه عن لحوق نفـعهم وضرهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم، وبما يأمرهم به.

ولهـذا لمّا ذكـر الأصلين بعـد هذا، وأن تقـواهم وفجـورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئًا، ولا ينقصه، وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيـهم إلى ما عنده كلا نسبةٍ، فتـضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات، وغفران الزلات، وتفريج الكربات لاستجلاب منفعـة، ولا لاستدفـاع مضرة، وأنهم لو أطاعـوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئًا، ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئًا، وأنه الغني الحميد.

ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده، ولا تشينه معاصيهم، ولكن له من الحكم البوالـغ في تكليف عباده وأمـرهم ونهيهم مـا يقتضـيه ملكه التام، وحـمده وحكمتـه،ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عـباده شكر نعمه التي لا تحـصى، بحسب قواهم وطاقتهم، لا بحـسب ما ينبغي له؛ فإنه أعظم وأجـل من أن يقدر خلقه عليـه، ولكنه سبـحانه يرضى من عباده ما تسمح به طبائعهم وقواهم، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم، ولا أنفع للعبد منه[١]. أهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٥١٠ - ٥١٣.

[من آثار الإيمان بصفات الله]

القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال - وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات - فيستنفد حُبُّه من قلب العبد قُوَّةَ الحب كلِّها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله؛ فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبُه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يُراد من القلب نسيانكم وتأبي الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا..

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعُه، سار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركابَ سيره. وكلما قوي الرجاءُ جدَّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعُه في المَغَلّ غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمّارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة، والغضب، واللهو، واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها؛ فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوّةُ الامـتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لهـا، والتواصي بهـا، وذكْرِها، وتَذَكُّـرِها، والتصـديق بالخيـر والامتـثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصـفات السـمع والبصـر والعلم، انبـعثت من العـبد قـوّةُ الحياء؛ فـيستحي من ربه أن يراه على ما يكـره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته مـا يمقته عليه؛ فـتبقى حركاته وأقـواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيـام بمصالح العباد، وَسَوْق أرزاقهم إليـهم، ودفع المصـائب عنهم، ونَصْره لأوليـائه، وحمـايته لهم، ومعيّـته الخاصة لهم انبعثت من العـبد قوة التوكل عليه، والتـفويض إليه، والرضا به وبكلٍّ ما يُجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه. والتوكل معنى يلتئم من علـم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعـبده، وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفـات العزِّ والكبرياء، أعطـت نفسه المطمـئنة ما وصلت إليه مـن الذلِّ لعظمتـه، والانكسار لعـزّته، والخضـوع لكبريائه، وخـشوع القلب والجـوارح له؛ فتـعلوه السكينة والوقـار في قلبه ولسـانه وجوارحـه وسمته، ويذهب طيشه وقوّتُه وحدّتُه[1].

---

(١) الفوائد: ١٠٥ - ١٠٧.

[منزلة المراقبة]

من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «**المراقبة**».

قال الله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا** ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال له: (**أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[١].

[«**المراقبة**» دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه؛ فاستدامته لهذا العلم واليقين هي «**المراقبة**»، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين] والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ وكيف بحال العارفين؟

قال الجريري رحمه الله: من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

---

(١) رواه البخاري في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ح ٥٠، ورواه مسلم في الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ح ٨، ٩.

وقيل: من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يَهِشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.

وقال الجنيد رحمه الله: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون رحمه الله: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

وقال الجريري رحمه الله: أمرنا هذا مبنى على فصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، وأن يكون العلم على ظاهرك قائمًا.

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري رحمهما الله: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم

يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر؛ فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و«**المراقبة**» هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة، والله أعلم[1]. أهـ.

[محاسبة النفس قبل العمل]

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر».

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهمَّ به العبد، وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدوراً له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٧٢ - ٧٤.

تعتاد النفس الشرك، ويخف عليـها العمل لغير الله، فبقـدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليـه العمل لله تعالى، حـتى يصير أثقل شيء عليهـا، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو معـان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونـه إذا كان العمل مـحتـاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يـكن له أعوان أمسك عنه، كمـا أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حـتى صار له شوكة وأنصار. وإن وجده معانًا عليه فليقـدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسـبة نفسه عليها قبل العمل؛ فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقـدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكن فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فـعله خيرًا من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفـعله يكون معانًا عليـه، فإذا حاسب نفـسه على ذلك تبين له مـا يقدم عليه، وما يحجم عنه[1].

[محاسبة النفس بعد العمل]

محاسبة النفس بعد العمل، و [هي][2] ثلاثة أنواع:

أحـــدها: محاسبـتها على طاعة قصرت فيـها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٩٠.

(٢) في الأصل: «هو» بدلاً من «هي»؛ لأن الضمير هناك يعود على كلمة: «النوع الثاني»، فلما حُذِف ذلك هنا عاد الضمير على كلمة «محاسبة النفس».

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور تقدمت، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب نفسه: هل وفىَّ هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به[١].

[اتهام النفس]

في محاسبة النفس عدة مصالح؛ منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا».

وقال مطرف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقليت الناس».

وقال مطرف في دعائه بعرفة: «اللَّهم لا ترد الناس لأجلي».

---

(١) إغاثة اللهفان: ٩١.

وقال بكر بن عبد الله المزني: «لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم، لولا أني كنت فيهم».

وقال أيوب السختياني: «إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل».

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب، وحماد بن سلمة، فقال له حـماد: «يا أبا عبد الله، أليس قـد أمنت مما كنت تخـافه؟ وتقدم على من ترجوه، وهو أرحم الراحمين، فقال: يا أبا سلمة، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: أي والله، إني لأرجو لك ذلك».

وذكر عن مسلم بن سعـيد الواسطي قال: أخبرني حمـاد بن جعفر ابن زيد أن أباه أخبـره قال: «خرجنا في غزاة إلى كـابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع. فقلت: لأرمقن عمله، فالتـمس غفلة الناس، حتى إذا قلت: هدأت العـيون، وثب فدخل غيـضة قريبًا منا، فدخلت على أثره، فتـوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسد حتى دنا منه، فصعدت في شجرة فتراه التفت أو عدَّه جروا؟! فلما سجد قلت: الآن يفـترسه، فـجلس ثم سلم، ثم قـال: أيها السـبع، اطلب الرزق من مكان آخر. فولى وإن له لزئيرًا، أقول: تصدع الجـبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي حتى كـان عند الصبح جلس، فحمـد الله تعالى بمحامـد لم أسمع بمثلها، ثم قـال: اللَّهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومـثلي يصغر أن يجترئ أن يسـألك الجنة. قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات عـلى الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عالم».

وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير، ما أعلم

أن في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إليَّ».

وذكر ابن أبي الدنيا عن الخلد بن أيوب قال: «كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنة. فَأُتِيَ في منامه، فقيل له: إن فلانًا الإسكافي خير منك - ليلة بعد ليلة - فأتى الإسكافي، فسأله عن عمله. فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار، ففضل على الراهب بإزدرائه على نفسه».

وذُكِرَ داود الطائي عند بعض الأمراء، فأثنوا عليه، فقال: «لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدًا».

وقال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلص من رقها؛ فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتًا لها.

قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا عقبة بن صهبان الهنائي قال: «سألت عائشة ﵂ عن قول الله

عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقالت: يا بُني، هؤلاء في الجنة؛ أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا».

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال: «إن قومًا من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا، يزري على نفسه، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم: أن فلانًا صديق»[(١)]. أهـ.

[آثار اليقظة وموجباتها]

اليقظة هي أول مفاتيح الخير؛ فإنَّ الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالا منه؛ فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سِنَةُ القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة

(١) إغاثة اللهفان: ٩٣ - ٩٦.

أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات؛ فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين، فمتى انكشف عن قلبه سِنَةُ هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن أو همة [عالية][1] أثارَها معولُ الفكر في المحل القابل، فضرب بمعول فكره وكبَّر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال:

ألا يا نفس ويحك ساعديني بسعي منك في ظلم الليالي

لعلك في القيامة أن تفوزي بطيب العيش في تلك العلالي

فأثارت تلك الفكرة نورًا رأى في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً: يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله. فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها مستدركًا بها ما فات محييا بها ما أمات، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وُفُورَ نعمة ربه عليه من حين استقر في الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ليلاً ونهارًا، ويقظة ومنامًا، سراً وعلانية، فلو اجتهد في إحصاء أنواعها لما قدر، ويكفي أن أدناها نعمة النَفَس ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة، فما ظنك

---

(١) في الأصل: «عليه»، والسياق يناسبه ما أثبته.

بغيرها؟ ثم يرى في ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها، عاجز عن أداء حقها، وأن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى، وما يستحقه بجلال وجهه وعظيم سلطانه؛ هذا لو كانت أعماله منه، فكيف وهي مجرد فضل الله ومنته وإحسانه؟ حيث يسرها له وأعانه عليها، وهيأها له، وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لا يرى أعماله منه. وأن الله سبحانه لن يقبل عملاً يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلاً منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير، ويرى نفسه أهلاً لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين.

ثم تبرق له في نور تلك اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حق المنعم عليه من نعمه وأوامره لم يُبْقِ له

حسنةً واحدة يرفع بها رأسه، فيطمئن قلبه، وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلاً: **أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلاً لخير، فيوجب له أمرين عظيمين:

أحدهما: استكثار ما منَّ الله عليه.

والثاني: استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت.

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه؛ فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سِنَةِ غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة، والغيرة لربه أن يؤثرعليه غيره، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس في دار سريعة الزوال، وعلى نفسه أن يُملِّك رقها لمعشوق لو فكر في منتهى حُسنه ورأى آخره بعينٍ بصيرةٍ لأنف لها من محبته.

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة[١]. أهـ.

(١) الروح: ٢٦٧ - ٢٦٩.

[النفس اللوامة وأحوالها]

النفس اللوامة - وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢] - اختلف فيها: **فقالت طائفة**: هي التي لا تثبت على حال واحدة - أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد - فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله؛ فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون بالساعة الواحدة - فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر - ألوانًا متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصي، وتتقي وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها؛ فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة. فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا: فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا؛ يقول ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى. ونحو هذا من الكلام.

وقال غيره: هي نفس المؤمن في الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي؛ فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين؛ فإن كل أحد يلوم نفسه برًّا كان أو فاجرًا. فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة؛ فإن كل أحد يلوم نفسه: إن كان مسيئاً على إساءته، وإن كان محسنًا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها؛ فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة. لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة؛ وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته. ولوامة غير ملومة؛ وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله، مع بذله جهده؛ فهذه غير ملومة. وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته؛ فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله.

وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجل[١]. أهـ.

[النفس المطمئنة]

تسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضى به والسكون إليه؛ فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه؛ فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه

(١) الروح: ٢٦٩ - ٢٧٠.

ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة؛ تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكـره - وهو كلامـه الذي أنزله على رسـوله - كـمـا قال تعـالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعـد: ٢٨]؛ فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليـه وبه غرور، والثقة به عجز، قضى الله سـبحانه وتعالى قـضـاء لا مـرد لـه أن من اطمـأن إلى شيء سـواه أتاه الـقلق والانزعـاج والاضطراب من جهتـه كائنًا من كان. بل لو اطمأن العبـد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحـانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفـاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفـسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبـول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له، وفرح القلب به؛ فـإنه معرف من مـعرفات الـرب سبحـانه إلى عبـده على لسان رسوله، فـلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا البـاب حتى يخالط الإيمـانُ بأسماء الرب تعـالى وصفـاته وتوحيده وعلوه على عـرشه وتكلمه بالوحي بشاشةَ قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتـهب بالعطش، فيـطمئن إليـه ويسكن إليـه، ويفرح به ويلين له قلبـه ومفاصلـه، حتى كأنه شاهد الأمر كـما أخبرت به الرسل، بل يـصير ذلك

لقلبه بمنـزلة رؤية الشمس في الظهيـرة لعينه، فلو خالـفه في ذلك مَنْ بين شـرق الأرض وغربهـا لـم يلتـفت إلى خلافـهم، وقـال إذا استـوحش من الغربة: قد كـان الصديق الأكبر مطمئنًا بالإيمان وحـده وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئًا.

فهذا أول درجـات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية مـتضمنة لصفـة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهـاية له؛ فهذه الطمـأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه.

ثم يطـمئن إلى خبره عما بعـد الموت من أمور البرزخ، وما بـدها من أحــوال القيـامة، حتى كأنه يشـاهد ذلك كله عـيانًا؛ هذه حـقيقـة اليقـين الذي وصـف به سـبحانه وتعـالى أهـل الإيمـان حيث قال: ﴿بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾ [البقرة: ٤] فلا يحصـل الإيمـان بالآخرة حتى يطـمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشـك فيها ولا يرتاب؛ فـهذا هو المـؤمن حقًّـا باليوم الآخـر؛ كمـا في حديث حـارثة: **(أصـبـحت مؤمنًا حـقاً. فقـال رسـول الله صلى الله عليـه وآله وسـلم: إن لكل شـيء حقـيقة فـما حـقيـقة إيمـانك؟ قال: عَزَفَتْ نفـسي عن الدنيا وأهلهـا وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجـنة يتـزاورون فيها، وأهـل النـار يعذبون فيهـا. فقال: عبدٌ نوَّر الله قلبه)**[١][٢]. أهـ.

---

(١) أخرجـه بنحوه الطبـراني في الكبيـر ٣/٢٦٦ ح٣٣٦٧، وابن أبي شيـبة في مـصنفه ٦/ ١٧٠ح ٣٠٤٢٥.

(٢) الروح: ٢٦٣ - ٢٦٤.

[الخشوع]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية إلا أربع سنين»[١]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»[٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

و«**الخشوع**» في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

و«**الخشوع**»: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه. وقيل: «**الخشوع**»: الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير باب قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ...﴾ ح (٣٠٢٧).

(٢) ذكرها بن كثير في تفسيره ٤/٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: «**الخشوع**»: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «**الخشوع**» محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. ورأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»[(١)]. وقال النبي ﷺ: (**التقوى ههنا - وأشار إلى صدره - ثلاث مرات**)[(٢)]، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا، وأشار إلى صدره، لا ههنا، وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسَد خاشعًا والقلب ليس بخاشع». ورأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك؛ ليس الخشوع في الرقاب، وإنما الخشوع في القلوب».

---

(١) عزاه الألباني في إرواء الغليل إلى السيوطي في الجامع الصغير من رواية الحكيم الترمذي، وقال الألباني في الإرواء: إنه موضوع (٣٧٣).

(٢) هو جزء من حديث طويل أوله (لا تحاسدوا ولا تناجشوا...) رواه مسلم في البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم... ح (٢٥٦٤).

ورأت عائشـة رضي الله عنها شبـابًا يمشـون ويتماوتون في مـشيـتهم، فـقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مـشى أسرع، وإذا قـال أسمـع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشـبع، وكان هو الناسك حقّاً».

وقال الفـضيل بن عياض: كـان يُكرَه أن يُرِي الرجلُ من الْخشوع أكـثر مما في قلبه.

وقال حـذيفة رضي الله عنه: «أول مـا تفقدون من دينكم الْـخشوع، وآخـر ما تفقـدون من دينكم الصلاة، ورب مـصل لا خير فـيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا».

وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان[١]. أهـ.

[درجات الخشوع]

قال الهـروي رحمه الله: «**وهو على ثلاث درجات: الدرجـة الأولى: التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتِّضاع لنظر الحق**».

التـذلل للأمـر: تلقيه بذِلة القبول، والانقـياد والامتثال، ومواطأة الظاهر البـاطن، مع إظهار الضـعف، والافتـقـار إلى الهداية للأمـر قبل الفـعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأمـا الاستـسـلام للحكم: فيـجوز أن يريد به: الحكم الدينـي الشرعي؛

(١) مدارج السالكين: ٢/٣ - ٤.

فيكون معناه: عدم معارضته برأي أو شهوة. ويجوز أن يريد به: الاستسلام للحكم القدري؛ وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض.

والحق: أن «**الخشوع**» هو الاستسلام للحكمين؛ وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه.

وأما الاتِّضاع لنظر الحق: فهو اتِّضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وهذا **أحد التأويلين** في قوله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقوله: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠]، وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعًا، وإنما يفارق القلب إذا غَفَل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه...

قال: «الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك، وتنسم نسيم الفناء».

يريد: انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك؛ فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من هوى نفساني، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي

ترضاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس ومفسدات الأعمال.

وأمـا رؤية فـضل كل ذي فـضل عليك: فهـو أن تراعي حقـوق الناس فتؤديها، ولا ترى أن مـا فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعـاوضهم عليها؛ فإن هذا مـن رعونات النفس وحـماقاتهـا، ولا تطالبـهم بحقوق نـفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له عـلى غيره فضلا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

وأما تنسم نسـيم الفناء: فلما كان الفناء عنده غاية، جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقته. وعـبر عنها بالنسيم للطف موقعه من الروح، وشـدة تشبثها به. ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلى الفناء، فاضله ومفضوله.

قـال «**الدرجة الثالثة: حفظ الحرمـة عند المكاشفة، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل**».

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة: فهو ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال الذي تقـتضيه المكاشـفة؛ فإن المكاشـفة توجـب بسطًا، ويخاف منه شطح إن لم يصحبه خشـوع يحفظ الحـرمة.

وأما تصفـية الوقت من مراءاة الخلق: فلا يريد به أنه يصـفي وقته عن الرياء؛ فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدرًا وأعلى من ذلك.

وإنما الـمراد: أنه يُخـفي أحواله عن الخلق جـهده، كـخشـوعه وذله

وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله. فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدّي[1] وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي
والخير إن يأتنا من عنده يأتي

---

(١) قال في اللسان: وأكدى الرجل: قل خيره، وقيل: المكدي من الرجال الذي لا يثوب له مال، ولا ينمي (٥/ ٣٨٣٩).

لا أستطيع لنفسي جـلب منفـعة
ولا عن النفس لي دفـع المضـرات
وليس لي دونه مـــولى يُدبِّرني
ولا شـفيع إذا حاطت خطــيئاتي
إلا بإذن من الرحـــمن خـــالقنا
إلى الشفيع، كما قد جاء في الآيات
ولســت أمـلك شـــيئًا دونه أبدًا
ولا شـــريك أنا في بـــعض ذرات
ولا ظـــهير له كي يســـتعين به
كمـا يكـــون لأرباب الـــولايات
والفـقر لي وصــفُ ذاتٍ لازمٌ أبدا
كما الغـنى أبدا وصـــفٌ له ذاتـي
وهــذه الحــال حـال الخلق أجـمعهم
وكلــهـــم عنـــده عـــبدٌ له آتـي
فمن بغى مطــلبًا من غير خـــالقه
فهو الجهول الظلوم المشـــرك العاتي
والحـــمد لله مِلء الكون أجــمعـه
ما كان منه، وما من بعد [قد] ياتي
ثم الصلاة على المختار من مضر
محمد المصــطفى أزكـى البريات

وأمـا تجريد رؤية الفـضل: فهو أن لا يرى الفـضل والإحسان إلا من الله؛ فهو المانّ به بلا سبب منك، ولا شفـيع لك تقدم إليه بالشفاعة، ولا وسيلة سبقت منك توسلتَ بها إلى إحسانه.

والتجـريد: هو تخليص شهود الفضل لوليه، حتى لا ينسبه إلى غيره. وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسـبة إلى سواه. وإنما الشأن في تجريده في الشـهود ليطابق الشهود الحـق في الأمر نفسه. والله أعلـم[1]. أهـ.

[عبادات عظيمة القدر]

لله سبحانه على عبده أمرٌ أمره به، وقضاءٌ يقضيه عليه، ونعمةٌ ينعم بها عليـه، فلا ينفكّ من هذه الثـلاثة. والقـضاء نوعـان: إما مـصائب، وإمـا معـايب. وله عليه عـبودية في هذه المـراتب كلها. فأحَبُّ الخـلق إليه من عرف عـبوديته في هـذه المراتب ووفاها حـقها، فـهذا أقرب الـخلق إليه. وأبعدهم منه مَنْ جهل عبوديته في هذه المراتب، فعطلها علمًا وعملاً.

فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ، وفي النهي اجتنابه خوفًا منه وإجلالاً ومحبة.

وعبوديته في قضاء المصـائب الصبر عليها، ثم الرضا بها - وهو أعلى منه - ثم الشكر عليـهـا، وهو أعلى من الرضا. وهـذا إنما يتـأتى منه إذا تمكن حبه من قلبـه عَلِمَ حسن اختياره له، وبرّه به ولطفه به وإحـسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٥ - ٨.

وعبوديته في قضاء المعايب المبادرة إلى التوبة منها والتنصُّل، والوقوف في مقام الاعـتذار والانكسار، عالـمًـا بأنه لا يرفعها عنه إلا هـو، ولا يقيه شرَّها سواه، وأنها إن استمـرّت أبعدته من قربه وطردته من بابه؛ فيراها من الضرِّ الذي لا يكشفه غيره، حتى إنه ليراها أعظم من ضرّ البدن؛ فهو عائذ برضاه من سخطه، وبعفوه من عقوبته، وبه منه مستجير، وملتجئ منه إليه، يعلم أنه إذا تخلَّى عنه وخلَّى بينه وبين نفسه فعنده أمـثالها وشر منها، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العـبد؛ فهـو أعجز وأضـعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمـرضاة سيده بدون إذنه ومـشيئته وإعانتـه؛ فهو ملتجئ إليه متـضرِّع ذليل مسكين، مُلْقٍ نفسه بين يديه، طريح ببابه، مستخذٍ له، أذل شيء وأكسره له، وأفقره وأحوجـه إليه، وأرغبه فـيه، وأحبه له، بدنُه مـتصرف في أشغـاله، وقلبُه ساجد بين يديه، يعلم يقينًا أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه، وأن الخير كله لله وفي يديه وبه ومنه؛ فهو وليُّ نعمته، ومبتدئه بها من غير استحقاق، ومُجْريها عليه مع تَمَقُّتِه إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته.

فـحظه سبـحـانه الحمـد والشكر والثناء، وحظ العـبـد الذمّ والنقص والعيب. قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء، وولي العبد الملامة والنقائص والعيوب؛ فـالحمد كله له، والخيـر كله في يديه، والفضل كله له، والثناء كله له، والمنّة كلها له؛ فـمنه الإحسان، ومن العبـد الإساءة، ومنه التودُّد إلى العبد بنِعَـمه، ومن العبد التبـغض إليه بمعاصيـه، ومنه النصح لعبده، ومن العبد الغش له في معاملته.

وأما عبودية النعم؛ فمعرفتها والاعتراف بها أولاً، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سببًا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه؛ فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه، ومحبته عليها، وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبُّد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقلّ كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد؛ فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلاً وتواضعًا ومحبة للمنعم. وكلما جدَّدَ له نعمةً أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلاً، وكلما أحدث له قبضًا أحدث له رضًا، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له توبة وانكسارًا واعتذارًا. فهذا هو العبد الكيِّس، والعاجز بمعزل عن ذلك وبالله التوفيق[1]. اهـ.

[الحزن]

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاءً ولا ثوابًا، بل نهى عنه في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ

(١) الفوائد: ١٦٥ - ١٦٦.

لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، فالحـزن هـو بلية من البلايا التي نسـأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهـل الجـنة: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ [فـاطر: ٣٤]، فحـمدوه عـلى أن أذهـب عنهـم تلك البلية ونجاهم منها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: (**اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحـزن، والعـجـز والكسل، والجبن والبـخل، وضلـع الدين وغلبة الرجال**)[1]، فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان: فالهم والحزن قرينان؛ وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على مـا يستقبل فهو الهم، فـالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مـصدره خوف الآتي أثر الهم. والعجز والكسل قريـنان؛ فإنّ تخلف مصلـحة العبـد وبعدها عنه إن كـان من عدم القدرة فـهو عجـز، وإن كان من عدم الإرادة فـهو كسل. والجـبن والبخل قريـنان؛ فإن الإحســان يفرح الـقلب ويشرح الصـدر ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصـول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبـدن، والبخل ترك الإحسان بالمال. وغلبة الدين وقـهر الرجال قرينان؛ فإنّ القهر والغلبة الحاصلة للعـبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره. المقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يسـتعاذ منه؛ وذلك لأن الحزن يضعف القـلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ح ٢٨٩٣.

النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠]، فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره؛ كالمرض والألم ونحوهما. وأما أن يكون عبادة مأموراً بتحصيلها وطلبها فلا.

ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات. ولكن يُحْمَد في الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته؛ فإن المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره في خدمة ربه وعبويته، وإما أن يحزن على تورُّطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته. وهذا يدل على صحة الإيمان في قلبه وعلى حياته؛ حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتاً لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم، فما لجرح بميت إيلام، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى، ولكن الحزن لا يجدي عليه؛ فإنه يضعفه كما تقدم، بل الذي ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر ويبذل جهده؛ وهذا نظير من انقطع عن رفقته في السفر، فجلس في الطريق حزيناً كئيباً يشهد انقطاعه ويحدث نفسه باللحاق بالقوم، فكلما فتر وحزن حدَّث نفسه باللحاق برفقته، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم، ويزول عنها وحشة الانقطاع. فهكذا السالك إلى منازل الأبرار، وديار المقربين.

وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجده في سلوكه؛ فإن التفرقة من أعظم البلاء على السالك، ولا سيما في ابتداء أمره، فالأول حزن على التفريط في الأعمال، وهذا

حزن على نقص حـاله مع الله وتفرقة قلبه، وكيف صـار وقته ظرفًا لتـفرقة حاله، واشتغال قلبه بغير معبوده.

وأخص من هذا الحزن حـزنه على جزء من أجزاء قلبه كـيف هو خال عن محبة الله؟ وعلى جزء من أجزاء بدنه كيف هو منصرف في غير محاب الله؟ فهذا حزن الخاص، ويدخل في هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج.

فهذه المراتب من الحزن لا بد منها في الطريق، ولكن الكيس لا يدعها تملكه وتقعـده، بل يجعل عوض فكرته فـيها فكرته فيـما يدفعهـا به؛ فإن المكروه إذا ورد على النفس فـإن كانت صغيـرة اشتغلت بفكرها فـيه وفي حصوله عن الفكرة في الأسباب التي يدفعـها به فأورثها الحزن، وإن كانت نفسًـا كبيـرة شريفة لم تفكر فـيه، بل تصرف فكرها إلى مـا ينفعهـا، فإن علمت منه مخرجًا فكرت في طريق ذلك المـخرج وأسبابه، وإن علمت أنه لا مـخرج منه، فكرت في عـبوديـة الله فيـه، وكان ذلك عـوضًا لهـا من الحزن، فعلى كل حال لا فائدة لها في الحزن أصلاً والله أعلم.

وقال بعض العارفين: ليست الخاصة من الحزن في شيء.

[وقول أبي العـباس] [1]: «معرفة الله جـلا نورها كل ظلمة، وكشف

---

(١) في الأصل: «وقوله» بدلاً مما أثبته، والضميـر يعود على أبي العباس حيث سبق ذكره في الأصل في أول الكلام عن الحزن، ولمَّا لم يرد ذكـره في بداية الكلام هنا صرحت باسم صاحب الكلام وجعلته بين معكوفين حتى لا يتشتت الذهن في معرفة مرجع الضمير.

سرورها كل غمة» كلام في غاية الحسن؛ فإن من عرف الله أحبه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب؛ فإنه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن؟ وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به من: حبيب أوحياة، أو مال، أونعمة، أو ملك؛ يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ومضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقّاهم الله نضرة وسروراً. فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فهذا هو العلم الذي شمر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم:

تلك المكارم لا قعبانِ من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا[1] أهـ

[أسباب شرح الصدر]

أعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

(١) طريق الهجرتين: ٢٧٨ - ٢٨١.

فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنهـا: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان؛ فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه.

ومنها: العلم؛ فإنه يشرح الصدر ويوسِّعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس؛ فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ، وهو العلم النافع؛ فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنُهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعُّم بعبادته؛ فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحيانًا: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب. وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حِسٌّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشدَّ، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا

الشأن؛ فرؤيتهم قذى عينه ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، وسُجِنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا؛ فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها؛ وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء؛ وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: دوامُ ذكره على كل حال، وفي كل موطن؛ فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان؛ فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق: **(كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد، كلما هَمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه ويُعفى أثره،**

وكلما هَمَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، لم تتسع عليه) [١] فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة؛ فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدرًا وأحرصهم قلبًا؛ لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيلٍ، وعلى كل معرض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصفاته، ودينه، متعلق القلب بغيره. وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر، ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا. فحال العبد في القبر، كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض؛ فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه؛ فهي الميزان والله المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البُرء؛ فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه،

---

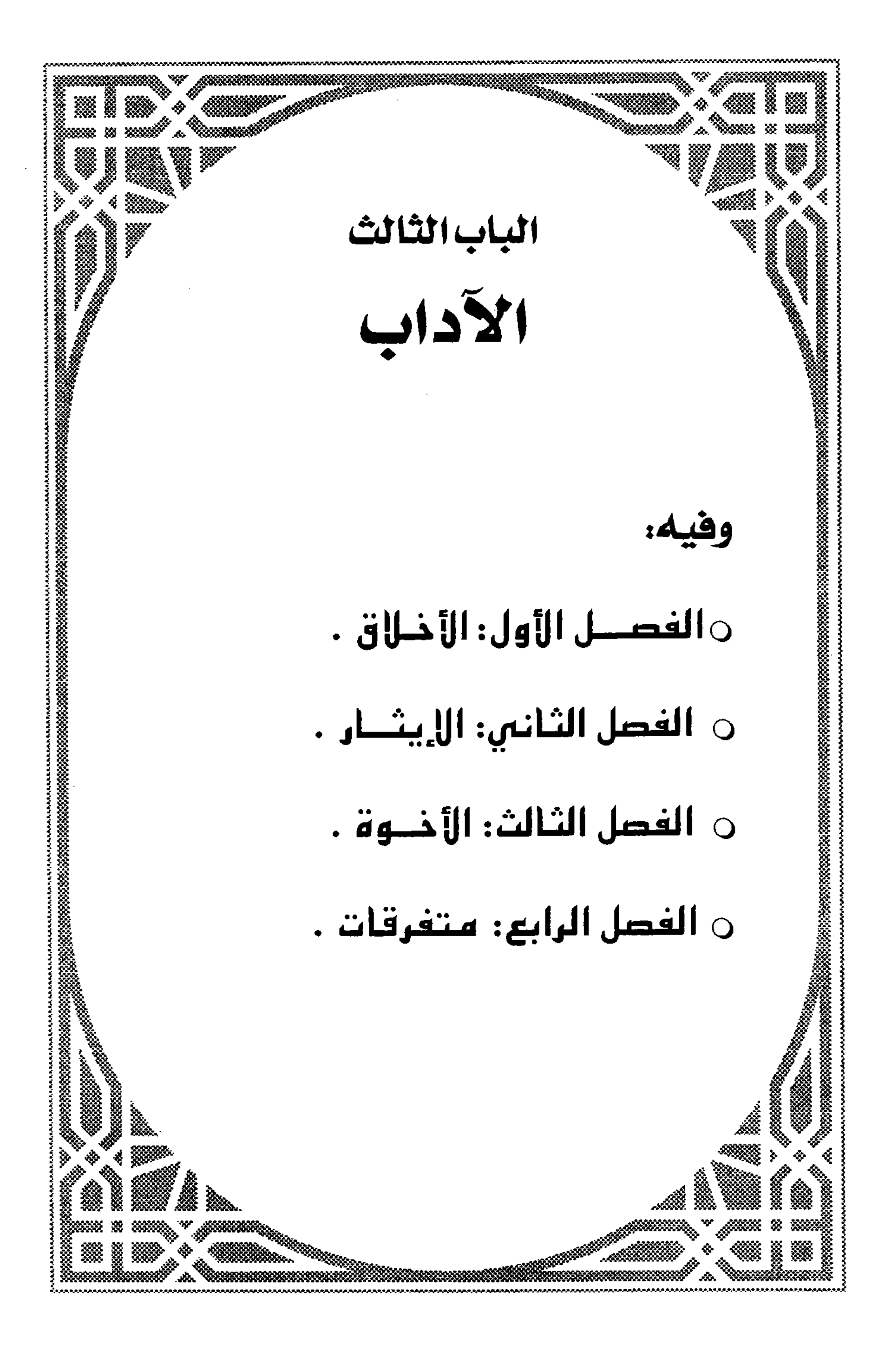
(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الجهاد والسير، ح ٢٩١٧، ومسلم في الزكاة، ح ١٠٢١.

لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب: تحصره، وتحبسه وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصر قلبه، ولا إله لا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٣ - ٢٧.



الباب الثالث

الآداب

وفيه:

- الفصل الأول: الأخلاق .
- الفصل الثاني: الإيثار .
- الفصل الثالث: الأخوة .
- الفصل الرابع: متفرقات .

الفصل الأول: الأخلاق

[حسن الخلق]

في الترمذي عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون**)[١]. قال الترمذي: حديث حسن. والثرثار: هو الكثير الكلام بتكلف، والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه تفاصحًا وتفخمًا وتعظيمًا لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه تكثرًا وارتفاعًا وإظهارًا لفضله على غيره، قال الترمذي: قال عبد الله بن المبارك: «**حسن الخلق**: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى».

وقال غيره: «حسن الخلق قسمان: **أحدهما**: مع الله عز وجل؛ وهو أن يعلم أن كل ما يكون منك يوجب عذرًا، وكل ما يأتي من الله يوجب شكرًا، فلا تزال شاكرًا له، معتذرًا إليه، سائرًا إليه بين مطالعه منته، وشهود عيب نفسك وأعمالك.

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، ح ٢٠١٨، وقال: حسن غريب.

والقسم الثاني: حسن الخلق مع الناس؛ وجماعه أمران: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذى قولاً وفعلاً.

وهذا إنما يقوم على أركان خمسة: العلم، والجود، والصبر، وطيب العود، وصحة الإسلام.

أما العلم: فلأنه يعرف معالي الأخلاق وسفاسفها، فيمكنه أن يتصف بهذا، ويتحلَّى به، ويترك هذا ويتخلى عنه.

وأما الجود: فسماحة نفسه وبذلها، وانقيادها لذلك إذا أراده منها.

وأما الصبر: فلأنه إن لم يصبر على احتمال ذلك والقيام بأعبائها لم يتهيأ له.

وأما طيب العود: فأن يكون الله تعالى خلقه على طبيعة منقادة سهلة القياد، وسريعة الاستجابة لداعي الخيرات.

والطبائع ثلاثة: طبيعة حجرية صلبة قاسية، لا تلين ولا تنقاد، وطبيعة مائية هوائية سريعة الانقياد مستجيبة لكل داع؛ كالغصن أي نسيم مَرَّ يعصفه، وهاتان منحرفتان: الأولى لا تقبل، والثانية لا تحفظ، وطبيعة قد جمعت اللين والصلابة والصفاء؛ فهي تقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، وتدرك حقائق الأمور بصفائها، فهذه الطبيعة الكاملة التي ينشأ عنها كل خلق صحيح.

وأما صحة الإسلام: فهو جماع ذلك، والمصحح لكل خلق حسن؛ فإنه بحسب قوة إيمانه وتصديقه بالجزاء وحسن موعود الله وثوابه يسهل

عليه تحمل ذلك، ويلذ له الاتصاف به. والله الموفق المعين[١]. أهـ.

[أركان حسن الخلق]

حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء؛ وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش؛ كما قال النبي ﷺ: **(ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب)**[٢] وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها على قهر خصمه.

---

(١) مختصر سنن أبي داود: ٧/ ١٦١ - ١٦٢.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب، ح(٦١١٤)، ورواه مسلم في البر والصلة، ح (٢٦٠٩).

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقِحَة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة[(١)]. أهـ.

[تغيير الأخلاق]

فصل نافع جداً عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها؛ فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طُبِعَتْ النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها؛ فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها، واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلاً نضربه، مطابقًا لما نريده؛ وهو: نهر جار في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه، ومُنْتَهٍ إلى تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣١٢ - ٣١٣.

ينتهي حتى يُخَرِّب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق:

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكْره وحَبْسه وإيقافه؛ فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر؛ فإنه يوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائمًا في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون به، فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات، وسقوها به، فأنبتت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هي أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته أن ركب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية، وشهوانية وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان؛ فبقوة الشهوة والإرادة يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوة

الغضب يدفع المضار عنها، فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبدًا به أورثه الحسد، فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم،ومنه يتولد الكبر والفخر والخيلاء؛ فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب ، وتزوج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا فالنهر مثال هاتين القوتين، وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها ويتلفها ولا بد، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حَنْظل وضَريع وشوك وزَقُّوم، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق:

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات راموا قطعه من ينبوعه، فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبَع عليه الجِبِلَّة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة؛ فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس، وصارت الحرب دولا وسِجالا. وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقـة أعرضـوا عنها، وشغلوا نفوسهم بالأعـمال، ولـم يجيبوا دواعي تلك الصفـات مع تخليتـهم إياها على مجراها، لكن لم يمـكّنوا نهرها من إفساد عمرانهم؛ بل اشتغلوا بتـحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهـر لا بد أن يصل إليه، فـإذا وصل وصل إلى بناء مـحكم فلم يهدمه، بل أخذ عنه يمـينًا وشمالا، فهؤلاء صرفوا قـوة عزيمتهم وإرادتهم في العمـارة، وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادة الـفاسدة من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمـية - رحمه الله - عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشـتغال بتنقـية الطريق وبتنظيـفها، فقـال لي في جـملة كـلامه: النفس مـثل الباطـوس - وهو جب القذر - كلمـا نبشـته ظهـر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تـسقف عليه، وتعـبره وتجوزه فـافعل، ولا تشتغل بنبشه؛ فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره.

فـقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيـوخ فقال لي: مثال آفات النفس مـثال الحيـات والعقـارب التي في طريق المسـافر، فإن أقـبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً، وأثنى على قائله.

إذا تبين هذا **فهذه الفرقة الثالثة**: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدىً ولا عبثًـا، وأنها بمنزلة ماء يُسْقى به الورد، والشـوك، والثمار، والحطب،

وأنها صِوان وأصداف لجواهر منطوية عليها، وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر، فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم، وهذه درة في صدفته؛ فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرة من صدفته، وأبقوه على حاله في نفوسهم، ولكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفين، فقال: (**إنها لَمِشْية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع**)[1].

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر - وأظنه في المُسند - (**إن من الخيلاء ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله؛ فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة**)[2].

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلا؟[3]. أهـ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم (٦٥٠٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه من لم أعرفه ٦/١٠٩.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد، باب في الخيلاء في الحرب، ح (٢٦٥٩)، ورواه النسائي في الزكاة باب الاختيال في الصدقة، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٢٣٩٨)، وأما معنى الخيلاء في الصدقة فقال في النهاية: أما الصدقة فأن تهزه أريحية السخاء فيعطي طيبة بها نفسه فلا يستكثر كثيراً ولا يعطي فيها شيئًا إلا وهو مستقل.

(٣) مدارج السالكين: ٢/٣١٦ - ٣١٩.

[حدود الأخلاق]

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانًا، ومتى قصَّرت عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغضب حَدٌّ؛ وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حدَّه تعدّى صاحبُه وجار، وإن نقصَ عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حد؛ وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شَرَهًا ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد؛ وهو المنافسةُ في طلب الكمال والأنفةُ أن يتقدم عليه نظيرُه، فمتى تعدّى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وَضَعْفَ همَّه وصِغَر نفس.

قال النبي ﷺ: **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس)**[1]، فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٦.

وللشهوة حد؛ وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل، والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نَقَصَت عنه ولم يكن فراغًا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة.

وللراحة حد؛ وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعَّالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يُضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلاً وإضاعة، وفاتَ به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مُضراً بالقوى موهنًا لها، وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فمتى جاوز حده صار إسرافًا وتبذيراً، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً.

وللشجاعة حد متى جاوزته صار تهوراً، ومتى نقصت عنه صار جبنًا وخوراً. وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام، كما قال معاوية لعمرو بن العاص ﵁: أعياني أن أعرِفَ أشُجاعًا أنت أم جبانًا؛ تُقدِم حتى أقول من أشجع الناس، وتجبُن حتى أقول من أجبن الناس، فقال:

شجاع إذا أمكَنَتْنيَ فرصةٌ فإنْ لم تكن لي فرصة فجبان

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنًا سيئًا بالبريء، وإذا قصَّرت عنه كان تغافلاً ومبادئ دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعزِّ حد إذا جاوزه كان كِبَرًا وخلقًا مذمومًا، وإنْ قصَّر عنه انحرف إلى الذلِّ والمهانة.

وضابط هذا كله العدل؛ وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به؛ فإنه متى خرج بعض أخلاقه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقُوَّتِه بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية: النوم، والسهر، والأكل، والشرب، والجماع، والحركة، والرياضة، والخلوة، والمخالطة، وغير ذلك؛ إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها عِلْم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلمُ الناس أعلمُهم بتلك الحدود، حتى لا يُدخل فيها ما ليس منها، ولا يُخرِج منها ما هو داخل فيها؛ قال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٩٧]. فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال المشروعات معرفة وفعلاً.. وبالله التوفيق[١]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ٢٠٤ - ٢٠٧.

[الخلق الوسط]

وكل خلق محمود مكتنَفٌ بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان؛ كالجود الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت إما إلى قِحَة وجرأة، وإما إلى عجز وخَوَر ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع، كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد فنحن أغلظ أكباداً من الإبل

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت إما إلى الطيش والنزق والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة؛ ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت إما إلى عجلة وطيش

وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة؛ والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت إما إلى كبر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضى بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت إما إلى حرص وكَلَب، وإما إلى خِسَّة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس؛ كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، ولا تأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثًا وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط مـهيب محبـوب، عزيز جانبه، حبـيب لقاؤه؛ وفي صفـة نبينا ﷺ «من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه عِـشْرة أحبه»[1] والله أعلم[2]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) هو جزء من حـديث صفـة النبي ﷺ الذي رواه علي رضي الله عنه، وقد رواه التـرمذي في المناقب باب مـا جـاء في وصف علي رضي الله عنه للنبي ﷺ وقـال: هذا حديث حـسن غريب ليس إسناده متصل، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٧٤٨).

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٣١٤ - ٣١٦.

الفصل الثاني: الإيثار

[الإيثار]

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشح؛ فإن المؤثِر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده؛ فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: **(إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا)**(١).

فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

---

(١) رواه أبو داود في الزكاة، باب في الشح، ح (١٦٩٨) وصححه الحاكم (١/ ١١، ٤١٥) وقال: حديث صحيح. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (١٤٨٧).

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه؛ فإن المراتب ثلاثة:

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه؛ فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبْقِيَ له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى؛ فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأَثَرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه؛ وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: (**إنكم ستلقون بعدي أثَرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**)(١) والأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفا.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل، فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

وقالوا له يومًا: هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم؛ نزلنا بالبادية على امرأة، فحضر زوجها، فقالت: إنه نزل بك ضيفان؛ فجاء بناقة فنحرها،

---

(١) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ح (٣٧٩٢)، ومسلم في الإمارة، ح (١٨٤٥).

وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرتَ البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مئة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا، فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام. أعطيتموني ثمن قرايَ؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لَتَأْخُذُنَّه أو لأُطاعِننكم برمحي، فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير؛ حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس؛ فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه لخير يراد بك، والله سبحانه وتعالى أعلم[١]. أهـ.

[إيثار الخلق]

الدين كله والمعاملة في الإيثار؛ فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاء وكرمًا. وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه؛

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٩٥ - ٢٩٧.

فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع (**اللَّهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا**)[(١)] وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره. والفرق بين الإيثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به على الغير، وفي الحديث: (**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا**)[(٢)].

فإذا عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالا، ولا يهضم لك دينًا، ولا يسد عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا. فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولى؛ فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان، وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه؛ فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب؛ قال الله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩] فاخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات؛ فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عيانًا مفلسًا. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، ح ٣١٧٣، وأحمد: ١/ ٣٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن، ح ٧٠٥٦، ومسلم في الإمارة، ح ١٧٠٩.

هـذا أنه سبـحانه أمر بالمـسـابقة في أعمـال البـر والتنافس فيهـا والمـبادرة إليها، وهـذا ضـد الإيثار بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال النبي ﷺ: **(لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة)**[١]. والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه - والله أعلم - أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الإشتراك فيه، فلا يسع المؤْثِر والمؤْثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدِّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع - بحيث إذا فعله واحد فات على غيره - فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله. أيضًا فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساوٍ له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الأذان، ح ٦١٥، ومسلم في الصلاة، ح ٤٣٧، ٤٣٩.

له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضًا فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابه، والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه، وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجًا إليه فإذا اختص به أحدهما فات الآخر، فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبرًا على الإيثار به ما لم يخرم عليه دينًا، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقًا عزم على سلوكه إلى ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقًا بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته، فإذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكه أو عطب أو شدة ضرورة - وليس للمؤثر نظيرها - تعين عليه الإيثار، فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته علي ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء وجاوز أقصاه وضرب فيه بأوفر الحظ(١).

[كيف تكسب خلق الإيثار؟]

إن قيل: ما الذي يُسهِّل على النفس الإيثار، فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل: يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها؛ فإن من أفضل أخلاق

(١) طريق الهجرتين: ٢٩٨ - ٣٠٠.

الرجل وأشرفها وأعلاها: الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله. والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل، وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل، وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه ولكنها لا تنقاد إليها انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض؛ فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جداً، بل لا بد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم؛ فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرَّب هذا عرفه، ومن لم يجرِّبه فليستقرِ أحوال العالم. والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى[١]. اهـ.

---

(١) طريق الهجرتين: ٣٠٠ - ٣٠١.

[ضوابط في الإيثار]

قال الهروي: «**وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن توثر الخلق على نفسك فيما لا يَخْرِم عليك دينًا، ولايقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا**».

يعني: أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم؛ مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتَعْرَى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك وتَقْعُدَ كَلاًّ مضطراً، مستشرفًا للناس أو سائلا، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه على المؤثر دينُه؛ فإنه سَفَه وعجز، يُذَمُّ المؤثر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: «**ولا يقطع عليك طريقًا**» أي لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى؛ مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك، وتوجهك وجمعيتك على الله؛ فتكون قد آثرته على الله، وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار؛ فيكون مَثَلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى؛ فإيثارهم عليه عين الغبن. وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره، وما أقل المؤثرين الله على غيره.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح أيضًا؛ مثل أن يؤثر بوقته ويتفرق قلبه في طلب خلفه، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله، فيتفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا أيضًا إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مـهماتهم ومصالحهم - التي لا تتعـين عليك - على الفكر النافع واشتغـال القلب بالله. ونظائر ذلك لا تخفى؛ بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم.

وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحدًا؛ فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم.

وتأمل أحوال أكـثر الخلق في إيثارهم على الله من يضـرهم إيثارهم له ولا ينفعهم. وأي جهالة وسفه فوق هذا؟

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب، وقالوا: إنه مكروه أو مُحرَّم؛ كمن يؤثر بالـصف الأول غيره ويتـأخر هو، أو يؤثره بقـربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه.

وتكلموا في إيثار عائشـة ﵂ لعمر بن الخطاب ﵁ بدفنه عند رسول الله ﷺ في حجرتها.

وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقـربه؛ فلا يتصور في حقه الإيثار بالقـرب بعد الموت؛ إذ لا تقـرب في حق الميت، وإنمـا هذا إيثار بمسكن شريف فـاضل لمن هو أولى به منها، فالإيثـار به قربة إلى الله عز وجل للمؤثر، والله أعلم[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣.



الفصل الثالث: الأخوة

[مواساة المؤمنين]

المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجُّع لهم.

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلما ضَعُفَ الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قَوِيَ قَوِيَتْ. وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كلِّه، فلأتباعه من المواساة بحسب اتِّباعهم له.

ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرّد وهو ينتفض، فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم، وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم[١]. أهـ.

[الفتوة]

منزلة «الفتوة» حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم؛ فهي استعمال حسن الخلق معهم؛ فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله، والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم

(١) الفوائد: ٢٤٦.

منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره.

و«**الفتوة**» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلْق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق، ومنزلة الفتوة، ومنزلة المروءة، وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «**الفتوة**» بل عبرت عنها باسم «**مكارم الأخلاق**»، كما في حديث يوسف بن محمد ابن المنكدر عن أبيه عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ (**إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**)[(١)] . . .

وأقدم من علمته تكلم في «**الفتوة**» جعفر بن محمد، ثم الفضيل ابن عياض، والإمام أحمد، وسهل بن عبد الله، والجنيد، ثم الطائفة.

فيذكر أن جعفر بن محمد سئل عن الفتوة؟ فقال للسائل: ما تقول أنت؟ فقال: إن أُعطيتُ شكرت، وإن مُنِعتُ صبرت. فقال: الكلاب عندنا كذلك، فقال السائل: يا ابن رسول الله، فما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أُعطينا آثرنا، وإن مُنِعنا شكرنا.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

---

(١) رواه بنحوه أحمد: ٢/٣١٨، والحاكم: ٢/٦١٣ وصححه، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٥.

وقال الإمام أحمد رحمه الله - في رواية ابنه عبد الله عنه - وقد سئل عن الفتوة، فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة كلامًا فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوة؟ فقال: لا تنافر فقيراً، ولا تعارض غنياً.

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله: الفتوة أن تُنْصِف ولا تَنْتَصِف.

وقال عمر بن عثمان المكي رحمه الله: الفتوة حسن الخلق.

وقال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: الفتوة أن تكون خصمًا لربك على نفسك.

وقيل: الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال الدقاق رحمه الله: هذا الخُلُق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ؛ فإن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: «أمتي أمتي».

وقيل: الفتوة كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى وهو نفسك؛ فإن الله حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه جعل الأصنام جذاذاً، فكسر الأصنام له؛ فالفتى من كسر صنمًا واحدًا في الله.

وقيل: الفتوة أن لا تكون خصمًا لأحد، يعني في حفظ نفسك، وأما في حق الله، فالفتوة: أن تكون خصمًا لكل أحد، ولو كان الحبيب المصافيا...

وقيل: أن لا تحتجب ممن قصدك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل العافي، يعني طالب المعروف، وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة، وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر.

وقيل: تزوج رجل بامرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميتُ. فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير. فقيل له في ذلك. فقال: كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها، فقيل له: سبقت الفتيان.

وقيل: ليس من الفتوة أن تربح على صديقك.

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال، فقال آخر منهم: أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا.

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل: يا غلام قدم السفرة؛ فلم يقدم، فقالها ثانيًا وثالثًا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا. فقال الرجل: لم أبطأت بالسفرة؟ فقال الغلام: كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد. فلبثت حتى دب النمل، فقالوا: يا غلام مثلك يخدم الفتيان.

ومن الفتوة التي لا تُلْحَق: ما يذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانًا فيه ألف دينار، فقام فزعًا، فوجد جعفر بن محمد فعلق به، وقال: أخذت همياني، فقال: أي شيء كان فيه؟ قال: ألف دينار. فأدخله داره ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر

معتذرًا بالمال، فأبى أن يقبله منه. وقال: شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدًا، فقال الرجل للناس: من هذا؟ فقالوا: هذا جعفر بن محمد ﵄[(١)]. أهـ.

[من درجات الفتوة]

قال الهروي رحمه الله: «**وهي على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: ترك الخصومة، والتغافل عن الزلة، ونسيان الأذية**».

هذه الدرجة من باب الترك والتخلي؛ وهي أن لا يخاصم أحدًا، فلا ينصب نفسه خصمًا لأحد غيرها، فهي خصمه.

وهذه المنزلة أيضًا ثلاث درجات: لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه، ولا يخطرها على باله. هذا في حق نفسه.

وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله، ويحاكم إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: (**وبك خاصمت، وإليك حاكمت**)[(٢)] وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى.

وأما «**التغافل عن الزلة**»: فهو أنه إذا رأى من أحد زَلة يوجب عليه الشرع أخذه بها: أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة، ويريحه من تحمل العذر. **وفتوة التغافل**: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٣٤٧ - ٣٥٠.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في التهجد، ح ١١٢٠، ومسلم في صلاة المسافرين، ح ٧٦٩.

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة؟ فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأوهمها أنه أصم، فسُرَّت المرأة بذلك. وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فلقب بحاتم الأصم وهذا التغافل هو نصف الفتوة.

وأما «**نسيان الأذية**»: فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه.

قلت: وهنا نسيان آخر أيضًا، وهو من الفتوة، وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك، وهذا النسيان أكمل من الأول. وفيه قيل:

ينسى صنائعه، والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

قال الهروي رحمه الله «**الدرجة الثانية: أن تُقَرِّبَ من يقصيك، وتكرم من يؤذيك، وتعتذر إلى من يجني عليك سماحة لا كظمًا، ومودة لا مصابرة**».

هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب؛ فإن الأُولى تتضمن ترك المقابلة والتغافل، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك، ومعاملته بضد ما عاملك به؛ فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين، فخطتُك الإحسان، وخطته الإساءة. وفي مثلها قال القائل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتُذنبون، فنأتيكم ونعتذر

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه.

وهذا مفهوم، وأما «**الاعتذار إلى من يجني عليك**» فإنه غير مفهوم في بادي الرأي؛ إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذارًا، وغايتك أنك لا تؤاخذه، فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة.

ومعنى هذا: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني خليق بالعذر.

والذي يُشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

فـإذا علمت أنك بدأت بـالجناية فـانتـقم الله منك علـى يده كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار. . .

وقـوله «**سمـاحة لا كظمًا، ومودة ولا مـصابرة**»: يعني: اجـعل هذه المعـاملة منك صادرة عن سمـاحة، وطيبة نفس، وانشـراح صدر؛ لا عن كظم، وضيق ومصابـرة؛ فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك وإنما هو تكلف يوشك أن يزول، ويظهر حكم الخـلق صريحًا فتفـتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.

وهـذا الذي قاله الشـيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جـسـر المصابرة والكـظم، فـإذا تمكـن فـيـه أفـضى به إلى هذه المنزلة بـعـون الله، والله أعلم[1]. أهـ.

[المروءة]

«**المـــروءة**» فَعولة من لفظ المـرء، كالفتوة من الفـتى، والإنسانية من الإنسان ولهذا كانت حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم؛ فإن في النفس ثلاثة دواعٍ متجاذبة: داعٍ يدعـوها إلى الاتصاف بأخـلاق الشيطان من: الكبـر، والحسـد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٣.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الملَك من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفتوة كلها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث؛ كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة؛ فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حد المروءة: إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال ما يُجَمِّل العبد ويزينه، وترك ما يُدَنِّسه ويشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «المروءة»: تجنب للدنايا والرذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه، ولينه،واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعَه المحمودة عقلا وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه. فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير. وهي على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه؛ وهي أن يحملها قَسْرًا على ما يُجَمِّل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن أراد شيئًا في سره وخلوته ملكه في جهره وعلانيته، فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشَّأ بصوت مزعج ما وجَد إلى خلافه سبيلا، ولا يُخرج الريح بصوت وهو يقدر على خلافه، ولا يَجْشَع وَيَنهَم عند أكله وحده.

وبالجملة: فلا يفعل خاليًا ما يستحي من فعله في الملأ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل، ولا يكون إلا في الخلوة كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق؛ بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناسَ مرآة لنفسه؛ فكل ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خلق فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسيء الخلق وحسنه، وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها؛ كما رُئي عند بعض الأكابر مملوك سيء الخلق، فَظٌّ غليظ، لا يناسبه، فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق، في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان؛ فإنه قد اشتراها منك، وأنت ساع في تسليم البيع، وتقاضي الثمن. وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملا، ورؤيته شهود مِنَّتِه في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولي له، لا أنت؛ فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وإصلاحك[1]. أهـ.

[آداب الضيافة]

قوله تعالى عن خليلة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن

(١) مدارج السالكين: ٢/٣٥٧ - ٣٦٠.

وجوهًا من المدح، وآداب الضيافة، وإكرام الضيف:

منها: قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ والروغان: الذهاب في سرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل، وتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه، ويحل صُرّة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة ﴿رَاغَ﴾ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار بأن كرامة الضيف معدّة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذ نُزُل الضيفِ حاصلٌ عندهم.

وقوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيّروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين؛ فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن لمدح وأدب آخر، وهو: إحضار الطعام إلى بين أيدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقــوله: ﴿قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾؛ فيه مدح وأدب آخــر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾، وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديك في الطعام، كلوا ، تقدموا، ونحو ذلك[1]. أهـ.

[الاجتماع بالأخوان وآفاته]

الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذا مضرَّته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثــاني: الاجتماع بهم على التـعاون على أسـباب النجـاة، والتواصي بالحـق والصبـر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزيّن بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملـة، فالاجتـماع والخلطة لقــاح: إما للنفس الأمّارة، وإمـا للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته.

وهكذا الأرواح الطيـبة لـقاحـها من المـلَك، والخبـيثـة لقــاحهــا من الشيـطان، وقد جعل الله سـبحــانه بحكمتـه الطيِّبـاتِ للطيِّـبين والطيِّـبين

(١) الرسالة التبوكية: ٢١٢ - ٢١٤.

للطيّبات، وعكْسَ ذلك[١]. أهـ.

[كثرة الخلطة]

ما تؤثره كثرة الخلطة: امتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمّاً وغمّاً، وضعفًا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلَّت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب - عند الوفاة - أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذ الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطَر بعضهم من بعض تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخالط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي**﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾**﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه، ﴿**إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ**

(١) الفوائد: ٨٠.

بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين في غرض؛ يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله؛ فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة وذماً من بعضهم لبعض لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزية إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعِدَين على باطل، متوادَّين عليه لا بد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر،وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذَر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر؛ ولكن أذىً يعقبه عز ومحبة له وتعظيم،وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبُغْضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكيّة، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ فبين العبد وبينه أن يَصْدُقَ الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

الفصل الرابع: متفرقات

[من صفات المؤمن]

هو في واد والناس في واد؛ خاضع متواضع سليم القلب، سلس القياد لحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهد في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من الناس أبعد شيء منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، منفرد في طريق طلبه... لا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود، من جالسه قرَّت عينه به، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه، قد حمل كله ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته وسبَّلَ لهم عِرضَه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز، لايدخل فيما لا يعنيه ولا يبخل بما لا ينقصه، وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس عوضًا منهم ولا مدحة، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولايري له على أحد حقًا، ولا يرى له على أحد فضلاً، مقبل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه[1].

---

(١) طريق الهجرتين: ٥١.

[الحياء]

تأمل هذا الخُلُقَ الذي خُصَّ به الإنسانُ دون جميع الحيوان؛ وهو خُلُق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية؛ فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء .

ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضيفُ، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤدَّ أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجلُ الجميل فآثره والقبيحَ فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة.

وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني - وهو رجاء عاقبتها الحميدة - وإما دنيوي علوي؛ وهو حياء فاعلها من الخَلْق.

قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها.

وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: **(استحيوا من الله حق الحياء)**. قالوا: وما حق الحياء؟ قال: **(أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر المقابر والبلى)**[1] .

---

(١) رواه بنحوه الترمذي في صفة القيامة، ح ٢٤٥٨، وأحمد: ١/ ٣٨٧.

وقال ﷺ: (إذا لم تستحي فاصنع ما شئت)[1].

وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً﴾ [المرسلات: ٤٦].

وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى: أنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله؛ فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب، ومعناه معنى الخبر، وهو في قوة قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي! فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر، والمعنى: أن الرادع من القبيح إنما هو الحياء، فمن لم يستحي فإنه يصنع ما شاء[2].

[أقسام الحياء العشرة]

قُسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فَرَّ هاربًا في الجنة؛ قال الله تعالى: أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا يارب، بل حياء منك.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، ح ٣٤٨٤.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/٢٣٦ - ٢٣٨.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطَوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيَى أن يقول لهم: انصرفوا[(١)].

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه[(٢)].

وحياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها. وفي أثر إسرائيلي: «إن موسى عليه السلام قال: يارب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك هي يارب، فقال الله تعالى: سلني حتى ملح عجينتك، وعلف شاتك».

وقد يكون لهذا النوع سببان.

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤوله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير سورة الأحزاب باب قوله تعالى: ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ** ...﴾ ح (٥١٦٨)، ومسلم في النكاح، ح(١٤٢٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الغسل، ح (٢٦٩)، ومسلم في الحيض، ح(٣٠٣) .

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه؛ حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم: «جمال رائع»، وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس. ولا ريب أن للمحبة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن؛ فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك، ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق. وقهر المحبوب لهم، وذلهم له. فإذا فاجأ المحبوب محبه، ورآه بغتة: أحس القلب بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعة وخوف.

وسَألَنا يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - عن هذه المسألة؟ فذكرت أنا هذا الجواب، فتبسم ولم يقل شيئًا.

وأما الحياء الذي يعتريه منه، وإن كان قادرًا عليه - كأمته وزوجته - فسببه - والله أعلم - أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه، فتولد منها الحياء. أما حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهر؛ لاستيلائه على قلبه، فوهمه يغالطه عليه ويكابره، حتى كأنه معه.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان؛ فإنه يستحيي مع بذله حياء

شرف نفس وعزة، وهذا له سببان.

أحدهما: هذا. **والثاني**: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه؛ وهذا يدخل في حياء التلوم؛ لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون؛ فيجد نفسه مستحييًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر(١). أهـ.

[الورع]

«**الورع**» يطهر دنس القلب ونجاسته، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر؛ ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي، يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليُعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٧ - ٢٧٠.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال: **(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)**[١] فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة؛ فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات، وفي الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ: **(يا أبا هريرة كن ورعًا، تكن أعبد الناس)**[٢].

قال الشبلي: الورع أن يتورع عن كل ما سوى الله، وقال إسحاق ابن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا...

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد باب (١١)، ح ٢٣١٧، ٢٣١٨وابن ماجه في الفتن ح(٣٩٧٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢١١).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى ح(٤٢١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٣٩٨).

وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعُصى الله فيه، والصافي منه الذي لا ينسى الله فيه. وسأل الحسن غلامًا، فقال له: ما مِلاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة. وقال أبو هريرة ﷺ: جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وقال بعض الصحابة: كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام[1].

[مراتب الجود]

«الجود» عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس؛ وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة؛ وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

(١) مدارج السالكين: ١/٢٩ - ٣١.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه؛ فيجود بها تعبًا وكَداً في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِرِه، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّدَى لو قال سائله

هب لي جميع كَرَى عينيك لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله؛ وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلا أبدًا.

ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية [قدس الله روحه] في ذلك أمرًا عجيبًا:

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح؛ وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس،

فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم أنه لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها؛ بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ﵃ النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: (**هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته**)(١) فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته؛ كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: (**أينقص الرطب إذا جَفَّ؟**) قالوا: نعم، قال: (**فلا إذن**)(٢)، ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً في أجوبته ﷺ؛ مثل قوله: (**إن بعتَ من أخيك ثمرة؛ فأصابتها جائحة فلا يَحِلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا، بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق**) وفي لفظ: (**أرأيت إن منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟**)(٣) فصرح بالعلة التي حرم لأجلها إلزامه بالثمن؛ وهي مَنْعُ الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - يعيبونه بذلك،

---

(١) رواه أبو داود في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، ح (٨٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٧٦).

(٢) رواه أبو داود بنحوه في البيوع، باب في التمر بالتمر، ح(٣٣٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٨٧١).

(٣) رواه مسلم بنحوه في المساقاة، باب وضع الجوائح، ح (١٥٥٤).

ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر - مثلاً - فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب الجهل والكبر؛ وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض وهو حلو   مثل من لم يصل إلى العنقود

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه؛ كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه؛ وذلك زكاة الجاه المطالَبُ بها العبد، كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: **(يُصْبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة، ويُميط الأذى عن الطريق صدقة)**(١) متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة رضي الله عنهم؛ كان إذا أصبح قال: «اللَّهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي؛ فمن شتمني، أو قذفني فهو في حل. فقال النبي ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب الجهاد والسير، ح ٢٩٨٩، ومسلم في صلاة المسافرين...، ح ٧٢٠.

(من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟)»[١].

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخَلْق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء؛ وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزّ له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود؛ فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة؛ قال تعالى: ﴿**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ**﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾**﴾ [الشورى: ٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذن فيه، ومقام الفضل وندب إليه، ومقام الظلم وحرمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة؛ وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو؛ وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم؛ وهو أثقل ما يوضع في الميزان؛ قال النبي ﷺ **(لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه)**[٢] وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه؛ والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله ويمكنه أن

---

(١) رواه أبو داود في الأدب، باب ما جاء في الرجل يحل الرجل قد اغتابه، ح(٤٨٨٧)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود برقم (١٠٤٢).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب، ح(٢٦٢٦).

يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم؛ فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه؛ وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم، تَفْضُل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزية وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان[(١)]. أهـ.

[أقوال وأحوال السلف في التواضع]

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لاترى لنفسك قيمة؛ فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي: هو أن لا يرى لنفسه مقاماً ولا حالا، ولا

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٩٧ - ٣٠١.

يرى في الخلق شراً منه.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعِزُّ في التواضع؛ فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة...

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قِرْبة ماء، فقلت: «يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها».

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة، فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره، ويقول: طَرِّقوا للأمير.

وركب زيد بن ثابت مرة، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال: مَهْ يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا، فقال: أرني يدك، فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ.

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حللا، فبعث إلى معاذ حُلَّة مثمنة، فباعها، واشترى بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها، فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولى، فقال معاذ: وما عليك؟ ادفع لي نصيبي، وقد حلفت لأضربن بها رأسك. فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشاب بالشيخ.

ومر الحسن على صبيان معهم كِسرُ خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم؛ لأنهم

لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذرّ ﷺ عَيَّر بلالا ﷺ بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه، فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خَدِّي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة: قَوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز ﷺ - وهو يخطب - باثنى عشر درهما، وكانت قباء وعمامة وقميصا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

ورأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمئة درهم، وأبوك - لا كَثَّر الله في المسلمين مثله - أنا، وأنت تمشي هذه المشيئة؟

وقال حمدون القصار: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة؛ لا في الدين ولا في الدنيا...

وقال بعضهم: رأيت في الطواف رجلا بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئًا، فتعجبت منه، فقال لي: إني تكبرت في وضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه.

وبلغ عمر بن عبد العزيز ﷺ: أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فِصّاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فِصَّه حديدًا

صينيّاً، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه(١).

[الشجاعة والجبن]

فصل في مدح القوة والشجاعة وذم العجز والجبن:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى في حق المؤمنين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤] أي لا تضعفوا. وقال: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (**المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**)(٢).

وكان ﷺ يتعوذ بالله من الجُبْن. والجُبن خلق مذموم عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله. وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن الظن بالله. والشجاعة حصن للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه؛ فهو جند وسلاح، يعطيه عدوه ليحاربه به.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) رواه مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة... ح ٢٦٦٤، ولم أجده عند البخاري.

وقالت العرب: الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أنَّ جبنهم ينجيهم من القَتْلِ والموت، فقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]. . .

واعتُبر ذلك في معارك الحروب بأن مَن يُقتل مدبراً أكثر ممن يُقتل مقبلاً.

وفي وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد ﷺ: احرص على الموت توهَب لك الحياة.

وقال خالد بن الوليد ﷺ: حضرت كذا وكذا زحفًا في الجاهلية والإسلام، وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أوضربة بسيف، وهأنذا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء.

ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره. . . وكانوا يفتخرون بالموت على غير الفراش. ولما بلغ عبد الله بن الزبير ﷺ قتل أخيه مصعب قال: إن يقتل فقد قتل أخوه، وأبوه، وعمه، وإنا والله لا نموت حتف أنفنا، لكن قعصًا بالرماح وتحت ظلال السيوف. . .

ولو لم يكن في الشجاعة إلا أن الشجاع يَرِدُ صيتُه واسمه عند أدنى الخلق ويمنعهم من الإقدام عليه، لكفى بها شرفًا وفضلاً. . .

قال عمرو بن معدي كرب: الفزعات ثلاثة: فمن كانت فزعته في رجليه، فذلك الذي لا تقله رجلاه، ومن كانت فزعته في رأسه، فذلك

الذي يفر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذلك الذي لا يقاتل.

والجبن والشجاعة غرائز وأخلاق؛ فالجبان يفر عن عرسه، والشجاع يقاتل عمّن لا يعرفه. كما قال الشاعر:

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عَنْ أمِّ نَفْسِهِ

ويحمي شُجاعُ القومِ مَنْ لا يناسِبُهُ

والشجاع ضد البخيل؛ لأن البخيل يضنُّ بماله، والشجاع يجود بنفسه[1].

[أصول مهمة في تربية الأبناء]

ممَّا يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناءُ بأمر خُلُقه؛ فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره: من حردٍ[2] وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدّة، وجَشَع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز، فضحته ولا بدَّ يومًا ما؛ ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم؛ وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها، وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعزَّ على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروجُ عن حكم الطبيعة عَسِرٌ جداً.

(١) الفروسية: ٣١٤ - ٣٢٠.

(٢) الحرد هو الغضب. القاموس المحيط مادة (ح ر د).

وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غـاية التجنب؛ فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ، لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه إياه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع؛ فإنه متى سَهَّل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة، وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة، والدَّعَة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل؛ فإن للكسل والبطالة عواقب سوء، ومغبَّة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة: إمَّا في الدنيا، وإمَّا في العقبى، وإمَّا فيهما؛ فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس. فالسيادة في الدنيا، والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلاَّ على جسر من التعب؛ قال يحيى بن أبي كثير: لا يُنال العلم براحة الجسم.

ويعوده الانتباه آخر الليل؛ فإنه وقت قسم الغنائم، وتفريق الجوائز، فمستقل ، ومستكثر، ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً.

ويجنبه فضول الطعام، والكلام، والمنام، ومخالطة الأنام؛ فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوِّت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب؛ فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعزُّ عليه بعده صلاحه، وكم ممَّن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوّت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت

الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده، أو كلامه له، أو الأخذ في يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد استسهل الدياثة، (**ولا يدخل الجنة ديوث**)[١]. فما أفسد الأبناء مثل تغفل الآباء وإهمالهم، واستسهالهم شرر النار بين الثياب؛ فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون؛ فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرَّضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله، وإضاعتهم لها، وإعراضهم عمَّا أوجب الله عليهم من العلم النافع، والعمل الصالح؛ حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

ويجنبه لبس الحرير؛ فإنه مفسد له، ومخنث لطبيعته، كما يخنثه اللواط، وشرب الخمر، والسرقة والكذب. وقد قال النبي ﷺ: (**يحرم الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم**)[٢]، والصبي وإن لم يكن مكلفًا، فوليه مكلف لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه يعتاده، ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قولي العلماء، واحتج من لم يره حرامًا عليه بأنه غير مكلف؛ فلم يحرم لبسه للحرير كالدابة؛ وهذا من أفسد القياس؛ فإن الصبي وإن لم يكن مكلفًا فإنه مستعدٌّ

---

(١) روى الإمام أحمد في منده: ٢/ ٦٩، ١٢٨ أن رسول الله ﷺ قال: (**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق والديُّوث الذي يقر في أهل الخبث**).

(٢) رواه بنحوه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في الحرير والذهب، ح ١٧٢٠، وقال: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في اللباس، ح ٣٥٩٥، ٣٥٩٧، وأحمد: ٤/ ٣٩٤.

للتكليف؛ ولهـذا لا يمكن من الصـلاة بغيـر وضـوء، ولا من الصلاة عـريانًا ونجسًا، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

وممَّا ينبغي أن يعتمد: حال الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيّأ له منها؛ فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غـيره ما كان مأذونًا فيه شرعًا؛ فإنه إن حمله على غيـر ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفـاته ما هو مهيَّأ له؛ فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعيًا؛ فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا؛ فإنَّه يتمكن فيه ويستقرُّ ويزكو مـعه، وإن رآه بخـلاف ذلك من كل وجه، وهو مـستعـد للفروسـية وأسبـابها من الركـوب والرمي، واللعب بالرمح، وأنه لا نفـاذ له في العلم، ولم يخلق له ، مكَّنه من أسـباب الفـروسيـة والتمرّن عـليها؛ فـإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مـستعدًا لها، قـابلاً لها، وهي صناعة مباحـة نافعة للناس، فليمكِّنه منهـا. هذا كله بعد تعليمـه له ما يحتاج إليـه في دينه؛ فإن ذلك ميـسر على كل أحـد لتقوم حـجة الله على العبـد؛ فإن له على عـباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم[١].

[قبل أن تسمي ولدك]

لما كانت الأسـماء قوالب للمعـاني ودالة عليها، اقتـضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب، وأن لا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي

---

(١) تحفة المودود: ١٤٦ - ١٤٨.

المحض الذي لا تـعلق له بها؛ فإن حكمـة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشـهد بخلافه، بل للأسـماء تأثيرٌ في المسميَـات، وللمسميات تأثر عن أسـمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة؛ كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسـم حسن الوجـه. وكان يأخذ المـعاني من أسـمائهـا في المنام واليقظـة؛ كما رأى أنه وأصـحابه في دار عـقبة بن رافع، فـأتوا برطب من رطب ابن طاب، فأوله بأن لهم الرفعة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن الدين الذي قد اختاره الله لهم قـد أرطب وطاب، وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجيئ سهيل بن عمرو إليه.

وندب جماعة إلى حلب شاة، فقـام رجل يحلبها، فقال: **(ما اسـمك؟ قال: مرة. فقال: اجلس. فقام آخر فـقال: ما اسمك؟ قال: أظنه حرب، فقال: اجلس. فقام آخر فقال: ما اسمك؟ فقال: يعيش. فقال: احلبها)**[1].

وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسـماء، ويكره العبـور فيها، كمـا مر في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما، فقالوا: فاضح ومخزٍ، فعدل عنهما، ولم يجز بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسـمَّياتِ مِن الارتباط والتناسب والقرابة، ما بين قوالب الأشياء وحـقائقها، وما بين الأرواح والأجسـام، عبر العقل من

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما يكره من الأسماء، ح ١٨١٩.

كل منهما إلى الآخر، كما كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص، فيقول: ينبغي أن يكون اسمه كيت وكيت، فلا يكاد يخطئ، وضد هذا العبور من الاسم إلى مسماه، كما سأل عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً عن اسمه، فقال: جمرة، فقال: واسم أبيك؟ قال: شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: فمنزلك؟ قال: بحرة النار، قال: فأين مسكنك؟ قال: بذات لظى قال: اذهب فقد احترق مسكنك، فذهب فوجد الأمر كذلك.

فعبر عمر ﷺ من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها، كما عبر النبي ﷺ من اسم سهيل إلى سهولة أمرهم يوم الحديبية، فكان الأمر كذلك، وقد أمر النبي ﷺ أمته بتحسين أسمائهم، وأخبر أنهم يدعون يوم القيامة بها، وفي هذا - والله أعلم - تنبيه على تحسين الأفعال المناسبة لتحسين الأسماء، لتكون الدعوة على رؤوس الأشهاد بالاسم الحسن، والوصف المناسب له.

وتأمل كيف اشتُقَّ للنبي ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما أحمد ومحمد؛ فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد، ولشرفها وفضلها على صفات غيره أحمد، فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد، وكذلك تكنيته ﷺ لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل كنية مطابقة لوصفه ومعناه، وهو أحق الخلق بهذه الكنية، وكذلك تكنية الله عز وجل لعبد العزى بأبي لهب، لما كان مصيره إلى نار ذات لهب، كانت هذه الكنية أليق به وأوفق، وهو بها أحق وأخلق.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة، واسمها يثرب، لا تعرف بغير هذا الإسم، غيَّره بطيبة؛ لمَّا زال عنها ما في لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب استحقت هذا الاسم، وازدادت به طيبًا آخر، فأثَّر طيبها في استحقاق الاسم، وزادها طيبًا إلى طيبها.

ولما كان الاسم الحسن يقتضي مسماه، ويستدعيه من قرب، قال النبي ﷺ لبعض قبائل العرب وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده: **(يا بني عبد الله إن الله قد حسَّن اسمكم واسم أبيكم)**(١) فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم، وبما فيه من المعنى المقتضي للدعوة، وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ؛ فكان الكفار: شيبة، وعُتبة، والوليد، ثلاثة أسماء من الضعف، فالوليد له بداية الضعف، وشيبة له نهاية الضعف، كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جعلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً**﴾ [الروم: ٥٤]، وعتبة من العتب، فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم، وضعف ينالهم، وكان أقرانهم من المسلمين: علي، وعبيدة، والحارث رضي الله عنهم؛ ثلاثة أسماء تُناسب أوصافهم، وهي: العلو، والعبودية، والسعي الذي هو الحرث فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم في حرث الآخرة. ولما كان الاسم مقتضيًا لمسماه، ومؤثرًا فيه، كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه؛ كعبد الله، وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله، واسم الرحمن، أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما،

(١) لم نجده.

كالقاهر، والقادر، فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه؛ وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبة وخوفًا، ورجاءً وإجلالاً وتعظيمًا، فيكون عبدًا لله وقد عبده لما في اسم الله معنى الإلـهية التي يستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر[(١)]. أهـ.

[النصيحة العمرية]

قال علي بن الجعد: حدثنا شعبة قال: أخبرني قتادة قال: سمعت أبا عثمان النهدي قال: أتانا كتابُ عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان، أما بعدُ: فاتزروا، وارتَدوا، وانتَعلوا، وألقُوا الخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وَزِيَّ العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمَّام العرب، وتَمَعْدَدُوا، واخشوشنوا، واخْلَولِقوا، واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوًا، وارتموا الأغراض .

قلت هذا تعليم منه لـلفروسية، وتمرين البدن على التَّبَذُّل، وعدم الرفاهية والتنعم، ولزوم زِيٍّ ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ فأمرهم بالاتزار، والارتداء والانتعال، وإلقاء الخفاف، لتعتاد الأرجل الحر

(١) زاد المعاد: ٢/٣٣٦ - ٣٤٠.

والبــرد، فتــتصلب وتقــوى على دفع أذاهما، وقــوله: وألقوا الســراويلات، استغناء عنها بالأزر وهو زي العرب، وبـين منفعتي الإزار والسراويل تفاوت من وجه، فهذا أنفع من وجه، وهذا أنفع من وجه؛ فالإزار أنفع في الحر، والسراويل أنفع في البرد، والســراويل أنفع للراكب، والإزار أنفع للماشي، وقوله: وعليكم بثيـاب أبيكم إسماعيل، هذا يدل على أن لبـاسه كان الأُزُرَ والأرديةَ، وقــوله: وإياكم والتنعم وزي العــجم فإن التــنعم يُخَنِّثُ النفس، ويكسبها الأنوثــة والكسل، ويخون صاحبه أحوجَ ما يكــون إلى نفسه، وما آثره مَنْ أفلح، وأمــا زِي العجــم، فالمــشابهــة في الزي الظاهر تدعــو إلى الموافــقة في الْهَدْيِ الباطن، كــما دل عليه الشرع والعــقل والحس، ولهذا جاءت الــشريعــة بالمنع من التشــبه بالكفــار، والحيــوانات، والشيــاطين، والنساء، والأعراب وكل ناقص، حتى نُهي في الصلاة عن التشبه بشبه أنواع من الحيوان يفعلها - أو كثيراً منها - الجُهَّال.

نُهي عن نقر كنقر الديك والغــراب، والتفات كالتفات الثـعلب، وإقعاء كإقــعاء الكلب، وافتــراش كافتــراش السَّبُع، وبروك كبــروك الجمل، ورفع الأيدي يمينًا وشمالاً عند السلام كأذناب الخيل.

ونهي عن التشــبه بالشيــاطين في الأكل والشرب بالشمــال، وفي سائر خصــال الشيطان. ونهي عن التــشبــه بالكفار في زيهم وكلامــهم وهديهم، حتى نهــي عن الصلاة بعد الــعصر، وبعــد الصبح؛ فـإن الكفار يســجدون للشمس في هذين الوقتين.

ونهي عنه التشبه بالأعراب وهم أهل الجفاء، والبدو، فقال: (**لا يَغْلِبنَّكم الأعراب على اسم صلاتكم العَتَمَة، وإنها العشاء في كتاب الله**)[١] ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء.

وقوله: وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب؛ فإن العرب لم تكن تعرف الحمَّام، ولا كان بأرضهم، وكانوا يتعوضون عنه بالشمس، فإنها تسخن وتحلل كما يفعل الحمَّام. وقوله: وتمعددوا: أي الزموا المعدّيّة وهي عادة معد بن عدنان في أخلاقه، وزيه، وفروسيته، وأفعاله. وقوله: واخشوشنوا: أي تعاطوا ما يوجب الخشونة، ويصلب الجسم، ويصبره على الحر والبرد، والتعب والمشاق؛ فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه، فيجد عنده خشونة وصبرًا، ما لا يجدها صاحب التنعم والترفه، بل يكون العطب إليه أسرع. وقوله: واخلولقوا: فهو من قوله: اخلولق السحاب بعد تفرقه؛ أي اجتمع وتهيأ للمطر، وصار خليقًا له، فمعنى اخلولقوا: تهيئوا واستعدوا لما يراد منكم وكونوا خلقاء به، جديرين بفعله، لا كمن ضيع أركان وأسباب فروسيته وقوته فلم يجدها عند الحاجة. وقوله: واقطعوا الرُّكُبَ، إنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائمًا بالرِّكاب، فأحبَّ أن يعوِّدهم الركوب بلا رُكُب، وأن يَنْزُوا على الخيل نزوًا. وقوله: ارتموا الأغراض: أمرهم بأن يكون قصدهم في الرمي الإصابة لا على البعد، وهذا هو المقصود من الرمي، ولهذا إنما تكون المناضلة على الإصابة لا على البعد[٢]. اهـ.

---

(١) رواه مسلم بنحوه في المساجد ومواضع الصلاة، ح ٦٤٤.

(٢) الفروسية: ٤٢ - ٤٦.

[مفاسد الكذب]

مفاسد الكذب معلومة عند خاصة الناس وعامتهم، كيف وهو منشأ كل شر، وفساد الأعضاء لسان كذوب! وكم قد أزيلت بالكذب من دول وممالك، وخربت به من بلاد، واستلبت به من نعم، وتعطلت به من معايش، وفسدت به مصالح، وغرست به عداوات، وقطعت به مودات، وافتقر به غني، وذل به عزيز، وهتكت به مصونة، ورميت به محصنة، وخلقت به دور وقصور، وعمرت به قبور، وأزيل به أنس واستجلبت به وحشة، وأفسد به بين الابن وأبيه، وغاض بين الأخ وأخيه، وأحال الصديق عدوًا مبينًا، ورد الغني العزيز ذليلاً مسكينًا، وكم فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ونغَّص عليه حياته! وكم جلا عن الأوطان! وكم سوَّد من وجوه وطمس من نور، وأعمى من بصيرة، وأفسد من عقل، وغيَّر من فطرة، وجلب من معرَّة، وقطعت به السبل، وعفت به معالم الهداية، ودرست به من آثار النبوة، وخفيت به من طرق الرشاد، وتعطلت به من مصالح العباد في المعاش والمعاد!.

وهذا وأضعافه ذرة من مفاسده، وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه، ألا فما يجلبه من غضب الرحمن، وحرمان الجنان، وحلول دار الهوان أعظم من ذلك، وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب، والكاذبين على الله، وعلى رسوله وعلى دينه، وعلى أوليائه، المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية؟! وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق، والصادقين المصدقين بالحق؟ قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ

بالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر: ٣٢ - ٣٤][(١)]. أهـ.

[انتفاع العاطس والمشمت]

لما كان العاطس قد حصلت له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتقنة في دماغه التي لو بقيت فيه أحدثت له أدواء عسرة، شُرِعَ له حمدُ الله على هذه النعمة مع بقاء أعضائه على التئامها وهيئتها بعد هذه الزلزلة التي هي للبدن كزلزلة الأرض لها، ولهذا يقال: سمَّته وشمَّته بالسين والشين، فقيل: هما بمعنىً واحد؛ قاله أبو عبيدة وغيره. قال: وكل داع بخير، فهو مشمت ومسمت. وقيل: بالمهملة دعاء له بحُسن السمت، وبعوده إلى حالته من السكون والدعة؛ فإن العطاس يحدث في الأعضاء حركة وانزعاجًا. وبالمعجمة: دعاء له بأن يصرف الله عنه ما يشمت به أعداءه، فشمته: إذا أزال عنه الشماتة، كقرَّد البعير: إذا أزال قراده عنه. وقيل: هو دعاء له بثباته على قوائمه في طاعة الله مأخوذ من الشوامت، وهي القوائم.

وقيل: هو تشميت له بالشيطان، لإغاظته بحمد الله على نعمة العطاس، وما حصل له به من محاب الله؛ فإن الله يحبه، فإذا ذكر العبد الله وحمده، ساء ذلك الشيطان من وجوه، منها: نفس العطاس الذي يحبه

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥.

الله، وحمد الله عليه، ودعاء المسلمين له بالرحمة، ودعاؤه لهم بالهداية، وإصلاح البال، وذلك كله غائظ للشيطان، محزن له، فتشميت المؤمن بغيظ عدوه وحزنه وكآبته، فسُمِّيَ الدعاء له بالرحمة تشميتًا له لما في ضمنه من شماتة بعدوه، وهذا معنى لطيف إذا تنبه له العاطس والمشمت انتفعا به، وعظمت عندهما منفعة نعمة العطاس في البدن والقلب، وتبيّن السر في محبة الله له، فللَّه الحمد الذي هو أهله كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) زاد المعاد: ٢/٤٣٨ - ٤٣٩.

الباب الرابع

الدعوة والتربية

وفيه:

- الحاجة إلى الدين والتوفيق .
- عبوديات .
- الإقبال على الله وصفات أهله .
- العلم .
- الدعوة .
- الابتلاء .
- الجهاد .
- الدعاء .
- عوائق .
- ضوابط منهجية .
- فروق ينبغي التنبه لها .
- المعرضون عن الله .



الفصل الأول: الحاجة إلى الدين والتوفيق

[حاجتنا إلى الدين]

حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها؛ ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأما أهل البدو كلهم، وأهل الكفور كلهم - وعامة بني آدم - فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانًا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة.

وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إن كثيراً من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم، وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية؛ فمبناها على الوحي المحض.

والحاجة إلى الشريعة أشد من الحاجة إلى التنفس - فضلاً عن الطعام والشراب - لأن غاية ما يُقَدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، أما ما يُقَدَّر عن عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد.

وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر(١). أهـ.

[حاجتنا للتوحيد]

اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به؛ فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولا بد في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/٣١٨ - ٣١٩.

له بملابسته من جنس ما يحصل للجَرِبِ من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يُؤْثِر ذلك لما له في حكها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله وهو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويُؤْثِر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة. والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة؛ ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦] والله أعلم[١]. أهـ.

[اهدنا الصراط المستقيم]

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾؛ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام؛ وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه: هدايةُ التوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبهُ إليه، وتزيينهُ في القلب، وجعله مؤثِرًا له راضيًا به راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان؛ لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين

(١) طريق الهجرتين: ٥٧ - ٥٨.

لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خَلْق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا علم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلا مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه - مما نريده - كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة؛ فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة - وهو الصراط الموصل إليها - فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هُديَ هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم.

وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حَبْوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردَس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حَذْو القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجَنَبَتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٢٩].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر[١]. أهـ.

[لدعاة الحرية]

لا ريب أن إلزام الناس شريعة يأتمرون بأوامرها التي فيها صلاحهم، وينتهون عن مناهيها التي فيها فسادهم أحسن عند كل عاقل من تركهم هملاً كالأنعام؛ لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، وينزو بعضهم على بعض نزو الكلاب والحمر، ويعدو بعضهم على بعض عدو السباع والكلاب والذئاب، ويأكل قويهم ضعيفهم، ولا يعرفون الله،ولا يعبدونه، ولا يذكرونه،ولا يشكرونه، ولايمجدونه ولا يدينون بدين، بل هم من جنس الأنعام السائمة.

ومن كابر عقله في هذا سقط الكلام معه، ونادى على نفسه بغاية الوقاحة ومفارقة الإنسانية.

---

(١) مدارج السالكين: ١/٢٦، ٢٧.

وما نظير مطالبتكم هذه إلا مطالبة من يقول: نحن نطالبكم بإظهار وجه المنفعة في خلق الماء والهـواء، والرياح والتراب، وخلق الأقوات والفواكه والأنعام، بل في خلق الأسماع والأبصـار، والألسن والقوى والأعضاء التي في العبد؛ فإن هذه أسباب ووسائل ووسائط.

وأما أمره وشرعه ودينه: فكماله غاية وسعادة في المعاش والمعاد.

ولا ريب عند العقـلاء أن وجه الحسن فـيه أعظم من وجـه الحسن في الأمور الحسية، وإن كان الحسن هو الغالب على الناس، وإنما غاية أكثرهم إدراك الحُسن والمنفعة في الحسيات، وتقـديمها وإيثارها على مدارك العقول والبصائر؛ قـال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝﴾ [الروم: ٦، ٧]، ولو ذهبنا نذكر وجوه المحاسن المودعة في الشريعة لزادت على الألوف[١]. أهـ.

[منفعة القصاص]

قال تعـالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [البـقـرة: ١٧٩]؛ وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجـواب لسؤال مقدر أن إعـدام هذه البنية الشـريفة وإيلام هـذه النفس وإعدامـها في مـقابلة إعـدام المقتول تكثيـر لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا مـمن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكـمته العـقول؟ فتـضمن الخطاب جـواب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ...﴾؛ وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يُقْتَلُ

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

قصاصًا بمن قتله كف عن القتل، وارتدع، وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر؛ وهو أنهم كانوا إذا قُتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالى القصاص، وأن لايُقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه.

ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل، بل من حيث كونه قصاصًا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنى العظيم؛ فصدَّر الآية بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه، ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل[(١)]. أهـ.

[مثل المشرك والموحد]

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]، هذا مثل

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٥٢٢، ٥٢٣.

ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد؛ فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحون. والرجل المتشاكس: الضيق الخلق. فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شُبِّهَ بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولية لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه، ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[(١)]. أهـ.

[طرق الهداية وأثرها في الثبات]

طرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده، ولطفًا بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم:

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به الرسول ﷺ وما دعا إليه، من غير أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك، كحال الكمل من الصحابة، كالصديق رضي الله عنه.

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٢٠٤.

ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ، وما فُطِر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة؛ كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: «أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]، فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس، فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة؛ فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذى وأصحابة في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان، واثق بأنه سيظهر على الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيمانًا من إيمانه إيمان العادة والمربا والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ واحدًا منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما، ولا من الدين إلا ما رأى

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في بدء الوحي، ح ٤، ومسلم في الإيمان، ح ١٦٠.

عليه أقاربه وأصحابه! فهذا دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله، وشهدت قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره لاختار أن يقذف في النار، وتقطع أعضاؤه، ولا يختار دينًا غيره.

وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرَّت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله، ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا، قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لا يسخطه أحد.

والمقصود أن الداخلين في الإسلام، المستدلين على أنه من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره هم خواص الخلق[١]. أهـ.

[عجز وضعف العبد]

العبد أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضْعَفُه، وإنه لاقوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاة بأرضٍ فلاةٍ تُقلِّبها الرياح يمينًا وشمالاً، ويشهد نفسه كراكب سفينةٍ في البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٤١ - ٣٤٣.

الأمواج؛ ترفعها تارة، وتخفضها تارة أخرى، تجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحًا بين يدى وَليه ، مُلقًى ببابه، واضعًا خَدَّه على ثَرَى أعتابه، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا، ولاموتًا ولا حياة ولا نشورًا، ليس له من نفسه إلا الجهلُ والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله؛ كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنها إلا الراعي، فلو تخلَّى عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاءً.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن؛ فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا، وإن تخلى عنه ووَكَلَه إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً،ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: «من عرف نفسه عرف ربه»، وليس هذا حديثًا عن رسول الله ﷺ إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضًا: «يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك»، وفيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم؛ فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه، وعيبه، وفقره، وذله، وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة: عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به؛ فمعطي الكمال أحق بالكمال؛ فكيف يكون العبد حياً متكلمًا سميعًا بصيرًا مريدًا عالمًا، يفعل باختياره، ومَنْ خلَقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال، بل مَن جعل العبد متكلمًا أولى أن يكون هو متكلمًا ومن جعله حياً عليمًا سميعًا بصيرًا فاعلاً قادرًا، أولى أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد، وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي؛ أي كما أنك لاتعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك؛ فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟

والمقصود: أن هذا المشهد يُعَرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، وليس بيده شيء؛ إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف[١]. أهـ.

[التوفيق والخذلان]

قد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا؛ فيطيعه

(١) مدارج السالكين: ١/٤١٧ - ٤١٨.

ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه، ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له؛ فهو دائر بين توفيقه وخذلانه؛ فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبدَ شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهوأعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كلِّ نَفَسٍ وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فهِجِّيرَى قلبه ودأب لسانه: «يا مقلب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك» ودعواه: «يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طَرْفة عين، ولا إلى أحد من خلقك».

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه، طريحًا ببابه مستسلمًا له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلاً مستكينًا، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ونشورًا.

و«**التوفيق**»: إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد؛ بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبّاً له، مؤثرًا له على غيره،

ويُبَغِّض إليه ما يسخطه، ويُكَرِّهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له؛ قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [الحجرات: ٧، ٨]. فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله، وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقَدِّموا بين يدي رسولي، ولاتقولوا حتى يقول، ولاتفعلوا حتى يأمر؛ فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم؛ وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان؛ فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنت لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم[1]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٠٥ - ٤٠٧.

[التثبيت]

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته، وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حُرِم؛ وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى: لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: (وهو يسألهم ويثبتهم)[(١)].
وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]؛ فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمِرَ به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتًا: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو: القول الحق

---

(١) لم أجده في الصحيحين، وهو عند الترمذي وأحمد من حديث أبي هريرة بلفظ: (وهو يأمرهم ويثبتهم)، سنن الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهله النار، ح ٢٥٥٧، وأحمد: ٢/٣٦٨، ٣٦٩.

والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له. وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها؛ فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة.

ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئًا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم؛ كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر[(١)]. أهـ.

[أساس كل خير]

أساس كل خير: أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٩٢ - ١٩٤، والحديث رواه البخاري في تفسير القرآن، ح ٤٦٩٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، ح ٢٨٧١.

وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكِلَك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك.

فإذا كان كل خير، فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه. فمتى أُعْطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه.

وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم، وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك.

فالله سبحانه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم.

وما أُتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء. ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر، وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد[١]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ١٤٥.

[أسباب التيسير لليسرى]

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦]... فذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به، وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه؛ وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه، وبدنه، ونيته، وقصده.

فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة، هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي؛ فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها.

فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسَقْي دوابهم وأنعامهم وزرعهم؛ فهم ينتفعون بها كيف شاءُوا، فهي ميسرة لذلك.

وهكذا الرجل المبارك، ميسر للنفع حيث حل، فجزاءُ هذا أن ييسره الله لليسرى، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى؛ وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير.

فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته.

وتارك التقوى، وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه، تعسر عليه من أمور

آخرته بحسب ما تركه من التقوى.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم.

ولو قدر أنها لم تتيسر له، فقد يسر الله له من الدنيا ماهو أنفع له مما ناله بغير التقى.

فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤].

فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وهذا أيضًا، ييسر عليه بتقواه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٥]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب؛ وذلك غاية التيسير.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور.

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة، فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير.

فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى؛ وفُسِّرت بـ «لا إله إلا الله»، وفسرت بالجنة، وفسرت بالْخَلَف، وهي أقوال السلف.

واليسرى صفة لموصوف محذوف؛ أي: الحالة والخَلَّة اليسرى، وهي «فُعْلَى» من اليسر.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء...

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٧] أي: نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير.

وقال مقاتل، والكلبي، والفراءُ: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة «اليسرى» أنها الخلة، والحالة السهلة النافعة، الواقعة له، وهي ضد العسرى؛ وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر

على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه.

فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له، منقادة، لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مُهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللا، وتقاد له علمًا وعملاً. فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها ... يصلح للدنيا وللدين[١] أهـ.

[الطيب للطيب والخبيث للخبيث]

الله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار، فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة، ودارًا أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار، ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث، وخلط بينهما، وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاءُ والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذا كان يوم معاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يُخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١٣٢ - ١٤١.

خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام؛ حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليرى عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون.

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾** ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى جعل للسعادة والشقاوة عنوانًا يُعرفان به؛ فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب، ولا يأتي إلا طيبًا ولا يصدر منه إلا طيب، ولا يُلابس إلا طيبًا، والشقي الخبيث لا يليق به إلا الخبيث، ولا يأتي إلا خبيثًا، ولا يصدر منه إلا الخبيث، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه.

وقد يكون في الشخص مادتان، فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهراً، فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة، ويُمسك عن الآخر مواد التطهير، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة، ومادة طيبة، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخبائثه، فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكًا، فإذا خلصت سبيكةُ إيمانه من الخبث، صلح

حينئذ لجواره، ومساكنة الطيبين من عباده. وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها؛ فأسرعهم زوالاً وتطهيراً أسرعهم خروجًا، وأبطؤهم أبطؤهم خروجًا، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

ولما كان المشرك خبيث العنصر، خبيث الذات، لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان؛ كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة.

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرءًا من الخبائث، كانت النار حرامًا عليه، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فطر عباده وعقولهم أنه أحكم الحاكمين، ورب العالمين، لا إله إلا هو[1]. أهـ.

[سبب الخذلان]

سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، أي على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقًا له إذ أُعطِيتُه.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٦٧، ٦٨.

وقال مقاتل: يقول على خير عَلِمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود النبي فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به فشكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه.

والمؤمن يرى ذلك مُلكًا لربه، وفضلاً منه مَنَّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدَّق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه. فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة، وَعَلَتْ بها، واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝﴾ [هود: ٩، ١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء. واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء قوله: ذهب السيئات عني، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته وَمَنِّه لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر.

فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبدٍ، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه؛ فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]؛ فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو تولِّيهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يُعْلَم أنَّ أسبابَ الخذلان مع بقاء النفس على ما خُلِقَت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها؛ فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة.

فأسباب التوفيق منه، ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك. وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضدِّه، وهو الحكيم العليم[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد: ٢٩٠ - ٢٩٢.

الفصل الثاني: عبوديات

[أفضل العبادة وأنفعها]

أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمزها» أى أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض؛ فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس

إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يطالَب بالأوراد من كان غافلا ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب وإجابة الداعي

حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر؛ فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل؛ فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي ﷺ: **(الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله)**[(١)] رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: **(لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم)**[(٢)] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: **(من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء)**[(٣)]، واحتجوا بقوله ﷺ: **(إن الله وملائكته**

---

(١) رواه أبو يعلى (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥) والبزار (١٩٤٩)، والطبراني في الكبير (١٠٠٣٣) وقال في مجمع الزوائد ٨/ ١٩١ رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف ابن عطية الصفار وهو متروك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، ح (٣٧٠١)، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، ح (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ح(٢٦٧٤).

يصلون على معلمي الناس الخير)[١] وبقوله ﷺ: (إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها)[٢].

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته؛ فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

---

(١) رواه بنحوه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ح٢٦٨٥، وقال: حديث حسن غريب صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢١٦١.

(٢) رواه بنحوه أبو داود في العلم، ح ٣٦٤١، والترمذي في العلم، باب فضل الفقه على العبادة، ح ٢٦٨٢، وأحمد: ٥/١٩٦، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٣٠٩٦.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع - وإن بَعُد - كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به؛ فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد؛ فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم؛ فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير؛ فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته؛ فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية؛ كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت

العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه؛ فهذا هو المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقاً، القائم بهما صدقًا؛ مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا؛ لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم؛ حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل؛ كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها؛ وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناسَ بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهًا له! ما أَغْرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان[1]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ١/٩٧ - ١٠٢.

[ما هو سيد عملك]

من الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم؛ قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته؛ قال تعالى: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠]، وقد حُكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريصٌ طالبٌ للقرآن أنه رؤي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله؛ فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة؛ فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي؛ كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات؛ قد فتح له في هذا وسلك منه طريقًا إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم؛ فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق؛ فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه؛ يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت؛ قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت؛ جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلَّمتُ إليه المبيع منتظرًا منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليه أن يتصل به قلبه ويعلق

به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه؛ فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقرب إليه، فإذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقرَّبه واصطفاه وأخذ بقلبه إليه وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يُربي الوالد الشفيق ولده؛ فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من الناس حبيبًا وربًا ووكيلا وناصرًا ومعينا وهاديًا؟! فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقًا إليه، ويقع شكرًا له، ولكن حجب القلوبَ عن مشاهدة ذلك إخلادُها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم. وإلا فأي قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبدًا[١]. أهـ.

[السائرون إلى الله]

الصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان:

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية، وجعلوها دأبهم، من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها، ولكن هممهم مصروفة إلى

---

(١) طريق الهجرتين: ١٧٨ - ١٨٠.

الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم، وعكوفها على الله وحده، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه، وجعلوها قوة تعبُّدِهم بأعمال القلوب من: تصحيح المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، ورأوا أن أيْسَرَ نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحبُّ إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعيةٌ ووارِدُ أنسٍ أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل لم يستبدل به شيئًا سواه البتة، إلا أن يجيء الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد، فإذا جاءت النوافل، فههنا معترك التردُّد، فإن أمكن القيام إليها به فذاك، وإلا نظر في الأرجح والأحب إلى الله، هل هو القيام إلى تلك النافلة ولو ذهب وارده؛ كإغاثة الملهوف، وإرشاد ضال، وجبر مكسور، واستفادة إيمان ونحو ذلك؛ فههنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة، ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربًا إليه فإنه يرد عليه ما فات من وارده أقوى مما كان في وقت آخر. وإن كان الوارد أرجح من النافلة، فالحزم له الاستمرار في وارده حتى يتوارى عنه؛ فإنه يفوت والنافلة لا تفوت.

وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه في الطريق، ومراتب الأعمال، وتقديم الأهم منها فالأهم، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه[1]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ٢٠٩.

[عبودية اللسان]

عبوديات اللسان خمس: **فواجبها**: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن؛ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله؛ كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما مُحرَّمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله؛ كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم؛ وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تَرْكُهُ خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين ذكرهما ابن المنذر وغيره: **أحدهما**: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور وهو: **(كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما ولاه)**[١].

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي؛ وهذا شأن المباح. والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة؛ لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، و**(إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله؛ فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)**[٢] وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم[٣]. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا؛ فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح؛ فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة،

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، ح (٢٤١٢)، وابن ماجه في الفتن، ح ٣٩٧٤، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي برقم (٤٢٤).

(٢) رواه الترمذي في الزهد، باب حفظ اللسان، ح ٢٤٠٧، وأحمد: ٩٦/٣. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم ١٩٦٢.

(٣) يشير إلى حديث معاذ بن جبل حين سأل الرسول ﷺ عن عمل يقربه إلى الجنة... وفي آخره قال ﷺ: **(وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)**. وقد سبق تخريجه ص٤٦٦.

فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة . فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك؛ إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك؛ فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة؛ كالوفاء بالطاعة المنذورة، هو واجب مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جداً؛ فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه[١]. أهـ.

[عبودية السمع]

على السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من: استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٢٣ - ١٢٥.

إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من: رَدّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحقٍ لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة من. شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو؛ كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب - لتجنب سماعها - وجوبَ سدِ الذرائع.

ونظير هذا: المحرِمُ: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه.

ونظيرهذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض.

والمكروه: عكسه؛ وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر[١]. أهـ.

[عبودية النظر]

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة؛ كنظر الخاطب، والمستام والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظرفي كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء والصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه؛ فإن له فضولاً كما للسان فضولا. وكم قاد فضولها إلى فضول عزَّ التخلص منها وأعيا دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضولٍ النظر كما يكرهون فضول الكلام.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٢٥.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هدراً، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. وإن ضَعَّفَهُ بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله؛ كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور - أو مأذون له - في الاطلاع عليها[١]. أهـ.

[عبودية الذوق]

أما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصيًا قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب أو مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه

---

(١) مدارج السالكين: ١/١٢٦.

للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة؛ وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرِدْ أن يدعوك إليه، وكَأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: (**نهى عن طعام المتبارِيَيْنِ**)[١]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به من الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان[٢]. أهـ.

[عبودية الشم]

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسةالشَّم؛ **فالشم الواجب**: كل شمٍّ تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام؛ كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين

(١) أخرجه أبو داود في طعام المتباريين ح (٣٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٣١٩٣).

(٢) مدارج السالكين: ١/ ١٢٧.

ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم، وربِّ الخِبْرة عند الحكم بالتقويم، والعيب ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك؛ ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: **(من عُرض عليه ريحان فلا يرده؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل)**(١).

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع(٢). أهـ.

[النكاح أم نوافل العبادة؟]

استدل على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى عز وجل اختار النكاح لأنبيائه ورسله؛ فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال في حق آدم: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ، باب استعمال المسك، ح(٢٢٥٣).

(٢) مدارج السالكين: ١/١٢٧ - ١٢٩.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات.

واختار لنبيه محمد ﷺ أفضل الأشياء، فلم يحب له ترك النكاح، بل زوّجه بتسع فما فوقهن، ولا هديَ فوق هديه.

ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي ﷺ يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره، وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به، ويثيبه على قضاء وطره ووطرها، فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما

هو أنفع له في دينه ودنياه؛ فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له؛ فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له سترًا من النار.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة.

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له؛ فإن في الحديث المرفوع: **(ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد)**[1][2]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في فضائل الجهاد، باب في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله، ح ١٦٥٥، والنسائي في الجهاد، ح ٣١٢٠، وأحمد: ٢/ ٤٣٧.

(٢) بدائع الفوائد: ٣/ ١٣٦ - ١٣٧.



الفصل الثالث
الإقبال على الله وصفات أهله

[سير الأبرار وحالهم في الدنيا]

الأبرار المقتصدون قطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه؛ فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس، فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى الطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أُمِرَ مكملاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب، فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها؛ قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحببت إليه لقاء الله، ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله؛ فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة. هذا وهم في ذلك كله

مراعـون لحفظ السنن لا يخلون منها بشيء ما أمكنهم؛ فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره، ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة... ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه؛ هذا دأبهم في كل فريضة. فإن كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار - لا يخلون بها أبدًا - فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده، فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة... وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله؛ فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله. فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من: عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم وتفقدهم، وقائم بحقوق أهله وعياله؛ فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار، والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره، فهذا وظيفته دائمًا[١]. أهـ.

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٣ - ٢٠٥.

[حال السابقين المقربين]

[أولاً: أهمية معرفة أحوالهم]

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة.

ولكن محبة القوم تحمل على تعرُّفِ منزلتهم والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم؛ ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة منها: أن لا يزال المتخلف المسكين مزريًا على نفسه ذامًا لها.

ومنها: أن لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى، ذليلاً له حقيرًا؛ يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

ومنها: أنه عساه أن تنهض همته يومًا إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد.

ومنها: أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة لا يُسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

ومنها: أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبشر بالخير فقد أهل له، فليقل لنفسه: يا نفس فقد حصل لك

شطر السعادة فاحرصي على الشطر الآخر؛ فإن السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به، فقد قطعت نصف المسافة فهلا تقطعين باقيها فتفوزين فوزًا عظيمًا.

ومنها: أن العلم بكل حال خير من الجهل؛ فإذا كان اثنان أحدهما عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به، وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الأمرين، فلا ريب أن العالم به خير من الجاهل، وإن كان العالم المتصف به خيرًا منهما، فينبغي أن يُعطى كلُ ذي حق حقه وينزل في مرتبته.

ومنها: أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همَّه ومطلوَبه فلا بد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه.

ومنها: أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة، فعسى أن يرحم بذلك العامل.

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغى إلى من يشبطك عنه وتقول: إنه لا ينفع، بل احذره واستعن بالله ولا تعجز ولكن لا تغتر، وفرق بين العلم والحال، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله، وهيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل.

فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل، فإن وجدت من نفسك حركة وهمة إلى التشبه بهم فاحمد الله

وادخل، فالطريق واضح والباب مفتوح:

إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه تكن مثل ما يعجبك

فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك[١]

[ثانياً: أحوال قلوبهم]

نبأ القوم عجيب، وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم؛ فإنه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القدر المشترك. وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغُمِرَت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَتْ المحبة في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب. قد أنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه. قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والذل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره. فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العلى وأسماءه الحسنى، مشاهداً له في أسمائه وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته، فيا لها من سجدة ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء.

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٥ - ٢٠٦.

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدي ربه؟ قال: أي والله، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة. فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان، وخرق حجب الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلى علم، حتى دخل على ربه في داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله، وهو مستو على عرشه يدبر أمر عباده وتصعد إليه شؤون العباد، وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم، فيأمر فيها بما يشاء، فينزل الأمر من عنده نافذًا كما أمر، فيشاهد الملك الحق قيومًا بنفسه مقيمًا لكل ما سواه غنيًا عن كل من سواه، وكل من سواه فقير إليه: ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحي، ويسعد ويُشقي، ويضل ويهدي، وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين، ويعز أقوامًا ويذل آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين. ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره؛ حيث يقول في الحديث الصحيح: (**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع**)(١)، فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله على من يشاء من عباده بيمينه، وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء عدلاً منه وحكمة لاإله إلا هو العزيز الحكيم، فيشهد وحده القيوم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن، ليس له بواب فيستأذن، ولا حاجب فيدخل عليه، ولا وزير فيؤتى، ولا ظهير

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في التوحيد، ح ٧٤١٩، ومسلم في الزكاة، ح ٩٩٣.

فيستعان به، ولا ولي من دونه فيشفع به إليه، ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده، ولا معين له فيعاونه على قضائها. أحاط سبحانه بها علمًا ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا، ولا يشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين. **لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم وقاموا في صعيد واحد ثم سألوه فأعطى كلاً منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا)**[1]، ذلك بأنه الغني الجواد الماجد، فعطاؤه كلام وعذابه كلام؛ ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ويشهده كما أخبر عنه أيضًا الصادق المصدوق حيث يقول ﷺ: **(إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه)**[2].

وبالجملة فيشهده في كلامه؛ فقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده في كلامه، وتراءى لهم فيه وتعرف إليهم فيه، فبعدًا وتبًا للجاحدين والظالمين:

---

(١) اقتباس من الحديث القدسي الذي رواه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٧٧، والذي أوله: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا...)** الحديث.

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب في قوله ﷺ: إن الله لا ينام، ح ١٧٩.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكر غيره وشغلته عن حب من سواه، وحديث دواعي قلبه إلى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه، فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها: فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله ﷺ (١). أهـ.

[ثالثاً: حالهم عند الاستيقاظ وفي الأسحار]

إذا استيقظ أحدهم وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن فأول ما يجري على لسانه: ذكر محبوبه والتوجه إليه، واستعطافه والتملق بين يديه، والاستعانة به أن لا يخلي بينه وبين نفسه، وأن لا يكله إليها فيكله إلى ضعة وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ فأول ما يبدأ به: (**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**)، متدبرًا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت، وأعاده إلى حاله سويًا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي هو غرض وهدف لسهامها؛ كلها تقصده بالهلاك أو الأذى، والتي من بعضها شياطين الإنس والجن؛ فإنها تلتقي بروحه إذا نام فتقصد إهلاكه وأذاه، فلولا أن الله سبحانه يدفع

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٧ - ٢٠٨.

عنه لما سلم. هذا ويَلقى الروح في تلك الغيبة من أنواع الأذى والمخاوف والمكاره والتفزيعات، ومحاربة الأعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها لتلك الأرواح، فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها، ويجد آثار ذلك فيها إذا استيقظ من: الوحشة، والخوف، والفزع، والوجع الروحي الذي ربما غلب حتى سرى إلى البدن، ومن الناس من تكون روحه أغلظ وأكثف وأقسى من أن تشعر بذلك؛ فهي مثخنة بالجراح، مزمنة بالأمراض ولكن لنومها لا تحس بذلك. هذا وكم من مريد لإهلاك جسمه من الهوام وغيرها وقد حفظه منه فهي في أجحارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لأهلكته، فمن ذا الذي كلأه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره؟! فلو جاءه البلاء من أي مكان جاء لم يشعر به، ولهذا ذكَّر سبحانه عباده هذه النعمة، وعدَّها عليهم من جملة نعمه فقال: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢]، فإذا تصور العبد ذلك فقال: «**الحمد لله**» كان حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك، ثم تفكر في أن الذي أعاده بعد هذه الإماتة حيًا سليمًا قادرٌ على أن يعيده بعد موتته الكبرى حيًا كما كان، ولهذا يقول بعدها «**وإليه النشور**» ثم يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قولة إلا بالله**» ثم يدعو ويتضرع، ثم يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه، ثم يصلي ما كتب الله له؛ صلاة محب ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه، لا صلاة مدل بها عليه، يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره، واستزاره وطرد غيره، وأهَّلَه وحرم غيره؛ فهو يزداد بذلك محبة إلى محبته، ويرى أن قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره

في تلك الصلاة، فهو يتمنى طول ليله، ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك، فهو كما قيل:

يود أن ظلام الليل دام له　　　وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكل آية حظها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تعرَّف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم، وتُطَيِّبُ له السيَر آياتُ الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيب به السير ويهونه، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين إلى سواه، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه. فتأمل هذه الثلاثة وتفقه فيها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلى في كلامه، ويُعطي كلَ آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بأنها كلام الله، بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها. ثم شأن آخر لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب، كما قيل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى　　　إلى غاية ما بعدها لي مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها　　　تيقنت أني إنما كنت ألعب

فواأسفاه وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت

حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرة وأسفا. اللَّهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فإذا صلى ما كتب الله جلس مطرقًا بين يدي ربه هيبة له وإجلالاً، واستغفره استغفار من قد تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه. فإذا قضى من الاستغفار وطرًا وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه الأيمن مُجِمّاً نفسه مريحًا لها مقويا لها على أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمته كأنه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا، فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلي السنة ويبتهل إلى الله بينها وبين الفريضة؛ فإن لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه، ويكثر فيه من قول: «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت**»؛ فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثير عجيب. ثم ينهض إلى صلاة الصبح قاصداً الصف الأول عن يمين الإمام أو خلف قفاه، فإن فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن؛ فإنَّ للقرب من الإمام تأثيرًا في سر الصلاة، ولهذا القرب تأثير في صلاة الفجر خاصة، يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٨]، قيل: يشهده الله عز وجل وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر؛ وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار[(١)]. أهـ.

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٩ - ٢١٢.

[رابعاً: حالهم في يومهم]

فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليته على ذكر الله والتوجه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار فيجعلها وردًا له لا يخل بها أبدًا، ثم يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع ثم يذهب متضرعًا إلى ربه سائلا له أن يكون ضامنًا عليه متصرفًا في مرضاته بقية يومه، فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب. وبالجملة فيقف عند أول الداعي إلى فعله، فيفتش ويستخرج منه منفذًا ومسلكًا يسلك به إلى ربه، فينقلب في حقه عبادة وقربة. وشتان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الرب لا بد له من فعله، وفتش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه ففعل لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقًا له ومنفذًا لمقصده، فسبحان من فاوت بين النفوس إلى هذا الحد والغاية؛ فهذا عبادته عادات، والأول عاداته عبادات. فإذا جاء فرض الظهر بادر إليه مكملاً له ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، فهو لا يبقى مجهودًا، بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله ليقع موقعًا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه. أفلا يستحيي العبد من ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا وهو يرى المحبين في أشغال محبوبيهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعها على أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق، فلا أقل من أن يكون من ربه بهذه

المنزلة. ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيئًا إلا فعله.

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربه في جميع أعماله؛ فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كل عمل[1]. أهـ.

[خامساً: حالهم مع القضاء والقدر]

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبيره تعالى واختياره، بل قد سلموا إليه سبحانه التدبير كله، فلا يزاحم تدبيرُهم تدبيرَه ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقنهم أنه الملك القاهر، القابض على نواصي الخلق، المتولي تدبير أمر العالم كله، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة؛ فلم يُدْخِلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا، ولا بعسى ولعل، ولا بليت، بل ربهم أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه، وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتهموه في تدبيره أو يظنوا به الإخلال بمقتضى حكمته وعدله، بل هو ناظر بعين قلبه إلى بارئ الأشياء وفاطرها، ناظر إلى إتقان صنعه، مشاهد لحكمته فيه وإن لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم.

---

(١) طريق الهجرتين: ٢١٤.

قال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض أحب إلي من أن أقول للشيء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وقال آخر: أذنبت ذنبًا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة - وكان قد اجتهد في العبادة - قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان: ليته لم يكن.

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها؛ لأنها صنعه وأثر حكمته، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء، وهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل مصنوع صنع متقن، والرجل إذا عاب صنعة رجل آخر وذمها سرى ذلك إلى صانعها؛ فمن عاب صنع الرب سبحانه بلا إذنه سرى ذلك إلى الصانع؛ لأنه كذلك صنعها وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صنع لها في خلقها.

فالعارف لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذم إلا ما ذمه، وإذا سبق إلى قلبه ولسانه عيب ما لم يعبه الله وذم ما لم يذمه الله تاب إلى الله منه كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه؛ فإنه يستحيي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها، فهو يرى نفسه بمنزلة رجل دخل إلى دار ملك من الملوك ورأى ما فيها من الآلات والبناء والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضها ويذمه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان خيرًا، ولو كان هذا في مكان هذا لكان أولى، وشاهد الملك يولي ويعزل ويحرم ويعطي فجعل يقول: لو ولى هذا مكان فلان كان خيراً، ولو عزل هذا المتولي لكان أولى، ولو عوفي هذا.. ولو أغنى هذا.. فكيف يكون مقت الملك لهذا

المعترض وإخراجه له من قربه؟!

وكذلك لو أضافه صاحب له فقدم إليه طعامًا فجعل يعيب صفته ويذمه. أكان ذلك يهون علي صاحب الطعام؟ قالت عائشة: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهى شيئًا أكله وإلا تركه»(١).

والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همهم كله في إقامة حقه عليهم، وأما التدبير العام والخاص فقد سلَّموه لولي الأمر كله ومالكه الفعال لما يريد(٢) أهـ.

[لا بد من هاتين القوتين]

السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية. فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوته العلمية كنورٍ عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ح٣٥٦٣، ومسلم في الأشربة، ح ٢٠٦٤.

(٢) طريق الهجرتين: ٢١٦، ٢١٧.

النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها. وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية؛ فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر؛ وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة؛ فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة؛ فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لوكنت تعلمين. فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائه وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها؛ فإنهم وراءها في الطلب. ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة، فلتختر أيها شاءت. وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها،

وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكلما أدمن على السير وواظب عليه غدوًا ورواحًا وسَحَرًا قرُبَ من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنسًا، وكثافته لطافة، ودرنه طهارة(١). أهـ.

[أهل السنة أهل النور]

السُّنَّة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين؛ تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السُّنَّة هم المبيضة وجوههم إذا اسودت وجوه أهل البدعة.

(١) طريق الهجرتين: ١٨٣، ١٨٤.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيض وجوه أهل السُّنة والائتلاف، وتسودّ وجوه أهل البدعة والتفرق. وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فصاحب السُّنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه، وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان.

فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ وآله.

والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله، ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم؛ فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم، وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولاً، فمن أراد الله سبحانه وتعالى به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها؛ كما روى الإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه» من حديث

عبد الله بن عمرو ﵄، عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله)**[(١)].

وكان النبي ﷺ يسأل الله تعالى أن يجعل له نوراً في قلبه، وسمعه، وبصره، وشعره، وبشره، ولحمه، وعظامه، ودمه، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا؛ فطلب ﷺ النور لذاته، ولأبعاضه، ولحواسه الظاهرة والباطنة، ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب ﵁: المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور. وهذا النور بحسب قوته وضعفه يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعى بين يديه ويمينه؛ فمن الناس من يكون نوره كالشمس، وآخر كالنجم، وآخر كالنخلة السحوق، وآخر دون ذلك، حتى إن منهم من يُعطى نورًا على رأس إبهام قدمه يضيء مرة، ويطفأ أخرى، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا، كذلك فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان.

وقال سبحانه وتعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾** [الشورى: ٥٢]. فسمى وحيه وأمره روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا لما يحصل به من الهدى واستنارة القلوب، والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله عز وجل: **﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾**،

---

(١) رواه الترمذي بنحوه في الإيمان، باب افتراق هذه الأمة، ح ٢٦٤٢، وقال: حديث حسن، وأحمد: ٢/١٧٦، وابن حبان في صحيحة: ١٤/٤٣، ح ٦١٦٩، وصححه.

فقيل: يعـود على الكتاب، وقيل: على الإيمان، والصـحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحًا ونورًا وهدىً، ولهذا ترى صـاحب اتباع الأمر والسُّنة قـد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجـلالة والقبول ما قد حُرِمَه غيرُه، كما قال الحسن رحمه الله: إن المؤمن من رُزِقَ حلاوةً ومهابة.

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البـقـرة: ٢٥٧]، فـأولياؤهم يعـيـدونهم إلى ما خلقـوا فـيه من ظلمـة طبـائعهم وجـهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم مـنه وصدوهم؛ فذلك إخـراجهم إياهم من النور إلى الـظلمات.
وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فإحياؤه سبحانه وتعالى بروحه الذي هو وحـيه، وهو روح الإيمـان والعلم، وجعل له نورًا يمـشي به بين أهل الظلمة كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم، وهم لا يرونه كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمـة العمل، وظلمـة المدخل، وظلمـة المخـرج، وظلمة القـبر، وظلـمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ وآله من النور ما ليس لنبي غيره؛ فإن لكل نبي منهم نورين، ولنبينا ﷺ وآله تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]، وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم، ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع؛ فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم.

وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ نكتة بديعة؛ وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، من لا نور له فإنه لايستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه[1]. أهـ.

[من علامات العارف]

من علامات العارف: أنه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له على أحد حقًا.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية: ١٥ - ١٨.

ومن علامـاته: أنه لا يأسف على فائت، ولا يفرح بآت؛ لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال؛ لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال.

وقـال الجنيد: لا يكون العـارف عارفًـا حـتى يكون كالأرض يطؤها البـر والفاجـر، وكالسـحاب يُظِلُّ كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحـب وما لا يحب.

وقال يـحيى بن مـعاذ: يخـرج العارف من الدنيـا ولم يقض وطره من شيئين: بكاء على نفسه، وثناء على ربه. وهذا من أحسن الكلام؛ فإنه يدل على معرفته بنفـسه وعيوبه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكـماله وجلاله؛ فهو شديد الإزراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه. . .

ومن علامات العارف: أن يعتزل الخلق بينه وبين الله، حتى كأنهم أموات لا يملكون له ضراً ولا نفعًـا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشوراً. ويعتـزل نفسه بينه وبين الخلق، حـتى يكون بينهم بلا نفس. وهذا مـعنى قول مـن قال: العارف يقطع الطريق بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق.

وقـيل: العارف ابن وقـتـه. وهذا من أحسن الكـلام وأخصـره؛ فهـو مشغول بوظيـفة وقته عما مضى وصار في العـدم، وعما لم يدخل بعدُ في الوجود؛ فهَمُّه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية.

ومن عـلامــاته: أنه مستـأنس بربه، مستوحش ممن يـقطعه عنه؛ ولهذا قيل: العـارف من أنس بالله، فأوحـشه من الخلق، وافـتقر إلـى الله فأغناه عنهم، وذل لله فـأعزه فـيـهم، وتواضع لله فرفـعه بيـنهم، واستـغنى بالله فأحوجهم إليه. . .

وقال أبو سليمان الداراني: إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه ما لم يفتح له وهو قائم يصلي. وقال غيره: العارف تنطق المعرفة على قلبه وحاله وهو ساكت[١]. أهـ.

[متابعة الرسول ﷺ عزة وكفاية ونصرة]

بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة؛ فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته؛ فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة. وقد أقسم ﷺ بأن (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[٢] وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به ثم يُسلم له تسليمًا، وينقاد له انقيادًا، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئًا بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٧.

(٢) هو معنى حديث متفق عليه؛ فرواه البخاري في الإيمان، ح ١٥، ورواه مسلم في الإيمان أيضًا، ح ٤٤.

غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله. فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغًا محضًا ومخبرًا لا منشئًا ومؤسسًا، فمن أنشأ أقوالاً، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته، ووافقته، وشهد لها بالصحة قبلت حينئذ ، وإن خالفته وجب ردها واطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه. وأما أنه يجب ويتعين فكلا ولما[1]. أهـ.

[من أي الفريقين]

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي، والعطاء والمنع؛ فافترقوا فرقتين:

فرقة قابلت أمره بالترك، ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط؛ وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

---

(١) زاد المعاد: ٣٧، ٣٨.

وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك؛ فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرَّعنا إليك وذكرناك. فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا سِتْر الحياة الدنيا، فإذا مَزَّقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم وقُرَّة الأعين. كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا سِترُ الحياة، فإذا مَزَّقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم.

فإذا تصادمتْ جيوشُ الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أيِّ الفريقين أنت، فانظر مع مَن تميل منهما ومع مَن تقاتل؛ إذْ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استَغَشُّوا الهوى فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرَّغوا قلوبهم للفكر فيما خُلِقُوا له، وجوارحهم للعمل بما أُمِروا به، وأوقاتَهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبُهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتمّوا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه، وتزوَّدوا للآخرة على قدر مُقامهم فيها، فعجَّل لهم سبحانه من نعيم الجنة ورَحِها: أن آنسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجَمَعها على محبته، وشوّقهم إلى لقائه، ونعَّمهم بقربه، وفَرّغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهمّ والحزن على فَوْتها والغمّ من خوف ذهابها؛ فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون، صَحِبوا الدنيا بأبدانهم، والملأ الأعلى بأرواحهم[(١)]. اهـ.

(١) الفوائد: ٢٧٤.

[كن كالنحلة]

إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغن أنت بالله. وإذا فرحوا بالدنيا، فافرح أنت بالله. وإذا أنسوا بأحبابهم، فاجعل أنسك بالله. وإذا تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم، وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزّة والرفعة، فتعرّف أنت إلى الله، وتودَّدْ إليه، تَنَلْ بذلك غاية العزِّ والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءةٍ أو إحسان؛ فقال له رجل: إني أكثر البكاء، فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه. فقال: أوصني. فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكُنْ في الدنيا كالنحلة: إن أكلت أكلت طيبًا، وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه[1]. أهـ.

[فضل أئمة العدل]

أئمة العدل وولاته الذين تُؤَمَّن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم الحدود، ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسُّنة، وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون

(١) الفوائد: ١٧٢.

عليها - والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس، وقد بلغ منهم العرق مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيل أحدهم إما إلى الجنة وإما إلى النار - قال النبي ﷺ: **(المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا)**(١)، وعنه ﷺ: **(إن أحب الخلق إلى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة إمام عادل، وإن أبغض الخلق إلى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة إمام جائر)**(٢) أو كما قال . وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ظلا بظل جزاء وفاقًا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أن أهل السماوات والأرض والطير في الهواء يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم من بين السماوات والأرض حتى الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير يصلى عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدى الذي أنزله الله، وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون، فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالي والإمام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه، فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره، فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم قد

(١) رواه مسلم بنحوه في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل. .، ح ١٨٢٧.
(٢) رواه بنحوه الترمذي في الأحكام، باب الإمام العادل، ح ١٣٢٩، وقال حسن غريب.
ورواه بنحوه أيضًا أحمد: ٣/ ٥٥.

حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار؟ ويكفى في فضله وشرفه أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما في الآثار: أيها الملك المسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم. إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض؛ فإني لا أحجبها ولو كانت من كافر. فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه؟[1]. أهـ.

[ثمرة الطاعة في الدنيا]

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين - بل حق - اليقين؛ فلا بد لكل من عمل صالحًا وهو مؤمن أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله.

ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة؛ حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات؛ ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن،

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٥٤ - ٢٥٥.

ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسًا، وعرَّض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا، منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: «فزت ورب الكعبة»(١) ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قوته من يده، ويقول: «إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها»(٢)، ثم يتقدم إلى الموت فرحًا مسرورًا، ويقول الآخر مع فقره: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف»، ويقول الآخر: «إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وقال بعض العارفين: «إنه لتمر بي أوقات، أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي النعيم».

ومن تأمل قول النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل! فقال: (**إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**)،(٣) علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها، ومايفيض علينا من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذي رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، وغيره إذا تعلق بغباره رأى مُلْكَ الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباءً منثورًا، بل باطلاً وغرورًا(٤). أهـ.

---

(١) جزء من حديث متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير، ح ٢٨٠١، ومسلم في الإمارة، ح ٦٧٧.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في الإمارة، ح ١٩٠١.

(٣) رواه مسلم بنحوه في الصيام، ح ١١٠٤.

(٤) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٨٢ - ١٨٤.

[الإحساس بأثر الطاعة وأثر المعصية]

قلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] وقال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حِسِّي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه، ويجعل إقباله على غيره، لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات لصاح من شدة الألم؛ فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة؛ لذَّاتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبِي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن

للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهَنا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق». وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله؛ ولهذا قال «ما أصابك» ولم يقل: ما أُصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم؛ لا ينكره ذو عقل سليم؛ بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب؛ فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره، ولم أتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيء، فإذا أصابني - أوفوقه أو دونه - كما حسبت، يكون هِجِّيراى: أشهد أن لا إلا إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول

الله، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته؛ فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علمًا بصدقه وبصيرة فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس تَرِين الذنوب على قلبه، فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا القلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتَكَفُّئها، ولا سيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨] فكلُّ ما تراه في الوجود - من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين؛ كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها من سَقْي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية وكان الهلاك؛ كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتي، ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوي إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه؛ ازداد إيمانًا مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه والله أعلم[١]. أهـ.

[الإحسان مع الخوف]

في جامع الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله**

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤١٤ - ٤١٦.

الجنة)[١]. وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون! فقال: **(لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم؛ أولئك يسارعون في الخيرات)**[٢] وقد رُوي من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف.

ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن؛ فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب صفة أواني الحوض، ح ٢٤٥٠، وقال: حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، ح ٣١٧٥، وأحمد ٦/ ١٥٩، ٢٠٥.

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلى مصلاه كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأتى بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر قال لعائشة: يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب. وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ [الطور: ٧] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض،عساه أن يرحمني، ثم قال: بل ويل أمي إن لم يغفر لي ثلاثًا، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس رضي الله عنهما: «مصرَّ الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر».

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته. وقال: لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى؛ قال: فأما طول الأمل فينسى الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحد بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء ﷺ كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان عبد الله بن عباس ﷺ أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أُخلق». وعرضت عليه النفقة فقال: «عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة. وإني أخاف الحساب فيها».

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ: «وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي». وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكذبًا».

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل».

ويذكر عن الحسن ﷺ: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق».

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لحذيفة: «أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ يعني في المنافقين! فيقول: لا. ولا أزكي بعدك أحدًا».

فسمعت شيخنا ﷺ يقول: ليس مراده أني لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب، فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه. قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: (**سبقك بها عكاشة**)[1] ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى، والله أعلم[2]. أهـ.

[من ثمرة الإقبال على الله]

لو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي مُحِبَّه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوّض عنها بشيء أبدًا. وسئل بعض العلماء: أين تجد في

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الطب، ح ٥٧٠٥، ورواه مسلم في الإيمان، ح ٢٢٠.

(٢) الداء والدواء: ٦٠ - ٦٣.

القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**والله لا يعذب الله حبيبه، ولكن قد يبتليه في الدنيا**)[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى بن مريم عليه السلام: **يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم** قالوا: يا نبي الله فمن نجالس؟ قال: **جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهّدكم في دنياكم علمُه**.

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابًا عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله عز

---

(١) لم أجده في المسند، ولا في دواوين السنة الأخرى - حسب بحثي - ولكن الذي في المسند من حديث أنس في هذا المعنى قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى . . . فأخذته، فقال القوم: يارسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفَّضهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**ولاء الله عز وجل لا يُلقي حبيبه في النار**). المسند: ٣/ ١٠٤.

وجل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

وقد رُوي هذا مرفوعًا ولفظه: (**وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل عليه بقلوب عباده، وجعل قلوبهم تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع**)[1]. وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأم ممن شغل قلبه بحب غيره دونه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، قال حدثني الأعمش، عن المنهال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أحببني وحبّب عبادي إلي وحببني إلى عبادي، قال: ياربّ هذا أنا أُحبك وأُحبّب عبادك إليك فكيف أُحبّبك إلى عبادك، قال: تذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل: حبُّه وحبُّ من يحبه وحب عمل يقرب إلى حبه، ومن أجمع ذلك أن يقول: «اللّهم إني أسألك حبَّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ عمل يقربني إلى حبِّك، اللّهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللّهم اجعل حبك أحب إلي من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللّهم حببني إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، اللّهم أحيي قلبي بحبك واجعلني لك كما تحب، اللّهم اجعلني

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط بنحوه، ٥/١٨٦، ح ٥٠٢٥.

أحـبك بقلبي كله، وأُرضيك بجـهدي كـله، اللَّهم اجعل حـبي كله لك، وسعـيي كله في مرضـاتك» وهذا الدعاء هو فسطـاط خيمـة الإسلام الذي قيـامها به، وهو حقـيقة شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون. والله سبحانه تعرَّف إلى عباده من أسمـائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محـبتهم له؛ فإن القلوب مفطورةٌ على مـحبة الكمـال ومن قام به، والله سـبحانه وتعـالى له الكمال المطلق من كل وجه، الذي لا نقص فـيه بوجه مـا، وهو سبحانه الجـميل الذي لا أجمل منه، بل لو كـان جمال الخلق كلهـم على رجل واحدٍ منهم وكانوا جميـعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسـبة إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى حذاء جرم الشمس ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠][1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) روضة المحبين: ٣٥٦ - ٣٦٠.

الفصل الرابع: العلم

[البهجة ونضارة الوجه لمن سمع ووعى وبلّغ]

النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة - وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه - ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **(نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلَّغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)**[1] . . .

وهذه هي مراتب العلم:

أوَّلها وثانيها: سماعهُ وعَقْلُهُ؛ فإذا سمعهُ وعاهُ بقلبِهِ؛ أي: عَقَلَهُ واستقرَّ في قلبِهِ كما يستقرُّ الشيءُ الذي يُوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عَقْلُه هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدرًا زائدًا على مجرد إدراك المعلوم.

المرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده؛ وهو

---

(١) رواه الترمذي في العلم، باب في الحث على تبليغ السماع، ح ٢٦٥٨، وابن ماجه بأخصر منه في المقدمة، باب من بلَّغ علمًا، ح ٢٣٢.

بثه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لذهابه؛ فإن العلم ما لم ينفق منه ويُعلَّم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه نما وزكا على الإنفاق.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن؛ فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يُكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين السرور والنضرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

فالنضرة في وجوههم، والسرور في أقوالهم، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه؛ كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤].

والمقصود: أن هذه النضرة في وجه من سمع سنة رسول الله ﷺ - ووعاها وحفظها وبلغها - هي أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه.

وقوله ﷺ: (**رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**) تنبيه على فائدة التبليغ، وأن المبلَّغ قد يكون أفهم من المبلِّغ، فيحصل له في تلك المقالة ما لم يحصل للمبلِّغ.

أو يكون المعني: إن المبلَّغ قد يكون أفقه من المبلِّغ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها.

وقوله ﷺ: (ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم..) إلى آخره؛ أي: لا يحمل الغل ولا يبقى فيه من هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغل والغش وفساد القلب وسخائمه؛ فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة؛ لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء.

ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والهلاك؛ فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

[الحجر: ٤٢].

فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام مركب السلامة، والإيمان خاتم الأمان.

وقوله: (ومناصحة أئمة المسلمين)؛ هذا أيضًا منافٍ للغل والغش؛ فإن النصيحة لا تجامع الغل؛ إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل.

وقوله: (ولزوم جماعتهم)؛ هذا أيضًا مما يطهر القلب من الغل والغش؛ فإن صاحبه - للزومه جماعة المسلمين - يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره

لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسرهُ ما يسرهم.

وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإن قلوبهم ممتلئة غلاً وغشًا، ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص، وأغشهم للأئمة والأمة، وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين.

فهؤلاء أشد الناس غلا وغشًا بشهادة الرسول والأمة عليهم، وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانًا وظهرًا على أهل الإسلام، فأي عدو قام للمسلمين كانو أعوان ذلك العدو وبطانته!

وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهده فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجي القلوب.

وقوله: **(فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)**؛ هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى؛ شَبَّه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام - وهم داخلوها - لما كانت سورًا وسياجًا عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته[1]. أهـ.

---

(١) مفتاح دار اسعادة: ١/ ٢٧٤ - ٢٧٨.

[زاد المهاجر]

إن من أعظم التعاون على البرِّ والتقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله ورسوله باليد، واللسان، والقلب، مساعدةً، ونصيحة وتعليمًا، وإرشادًا، ومودةً.

ومن كان هكذا مع عباد الله كان الله بكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم، ويسّره لليسرى.

ومن كان بالضد فبالضدِّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

فإن قلت: فقد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه؟

قلت: زاده العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ، ولا زاد له سواه؛ فمن لم يُحصِّل هذا الزاد فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخالفين.

فرفقاء التخلُّف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوةٌ بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩].

فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم بعضًا في العذاب؛ فإن مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مسلاةً، وتأسّى بعض المصابين ببعض؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنهم بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

وأما طريقه: فهو بذل الجهد، واستفراغ الوسع؛ فلن ينال بالمنى، ولا يدرك بالهوينا، وإنما كما قيل:

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا لكي تدرك العزَّ الرفيع الدعائم

فلا خير في نفس تخاف من الرّدى ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم؛ فإن اللوم يدرك الفارس فيصرعه عن فرسه، ويجعله طريحًا في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت، وأخلدت إلى الأرض.

ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر؛ فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحًا رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

وأما مركبه: فصدق اللَّجأ إلى الله، والانقطاع إليه بكلِّيته، وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل فيه، والاستعانة

به، والانطراح بين يديه؛ كالإناء المثلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء فيه، فهو يتطلع إلى قَيّمه ووليه أن يجبره، ويلّم شعثه، ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة، ومنازلها[(١)]. أهـ.

[التأني والتثبت في طلب العلم]

قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨]، ومن أسرار هذه الآيات أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامعَ شدةُ محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه.

بل من آداب الرَّب التي أدب بها نبيه ﷺ أمرُه بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه.

فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا أحدها.

والثاني قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

---

(١) الرسالة التبوكية: ١٨٩ - ١٩٣.

أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طـه: ١١٣، ١١٤]، والثالث: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقـرأه إياه. وهذا يتناول حال القراءة وما بعدها[١]. أهـ.

[الحاجة إلى معرفة الرسول ﷺ وهديه]

اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخـرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى مـعرفة الطيب والخبيث على التفصـيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم؛ فالطيب من الأعمـال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزانُ الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقـوال والأخلاق والأعـمال، وبمـتابعـتهـم يتمـيز أهل الهـدى من أهل الضلال، فالضـرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحـه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتهـا، فأي ضرورة وحاجة فُرِضَتْ، فـضرورةُ العبد وحاجتـه إلى الرسل فوقهـا بكثير. وما ظنك بمن إذا غـاب عنك هديُه وما جاء به طرفـةَ عين فـسد قلبُك وصار كـالحوت إذا فـارق الماء ووضع في المِقلاة؟! فحال العبد عند مفـارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢٩٥ - ٢٩٦.

أعظم، ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته حزبه، والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1]. أهـ.

[أصلان مهمان لكل إنسان]

كمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة تُرَقِّيه، وعلم يبُصِّره ويهديه؛ فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما؛ إما أن لا يكون له علم بها، فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رُفِعَ له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله.

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابع لشرف معلومه، كانت نهاية سعادة العبد - الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له

(١) زاد المعاد: ١/ ٦٩ - ٧٠.

إلا بها - أن تكون إرادته متعلقة بـالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همتـه مسـافرة إلى حـضرة الحي الذي لا يمـوت. ولا سبـيل له إلى هذا المطلب الأسنـى والحظ الأوفى إلا بالعلم المـوروث عن عـبـده ورسـوله وخليله وحـبيبـه الذي بعثـه لذلك داعيًـا، وأقامـه على هذا الطريق هاديًا، وجـعله واسطة بينـه وين الأنام، وداعـيًا لـهم بإذنه إلى دار السـلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يـديه، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًـا إليه؛ فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسـدودة، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة.

فحق على من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًا عن الله واعيًا أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله، وأن يصيرها آخيته التي إليها مفزعه في حياته ومآله[١]. أهـ.

[فضل العلم على المال]

وفضل العلم على المال يعلم من وجوه:

أحدها: أن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

الثاني: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أن المال تذهبه النفقات، والعلم يزكو على النفقة.

الرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه قبره.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٢١٤ - ٢١٥.

الخامس: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

السابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

الثامن: أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله - وذلك من كمالها وشرفها - والمال لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه؛ فحرصها على العلم عين كمالها، وحرصها على المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية؛ فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.

العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها. . .

الحادي عشر: أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الثاني عشر: أن قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه، فهذا متقوم بماله، فإذا عدم ماله عدمت قيمته فبقي بلا قيمة، والعلم لا تزول قيمته، بل هي في تضاعف وزيادة دائمًا. . .

الثالث عشر: أن ما أطاع الله أحدٌ قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الرابع عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

الخامس عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرًا؛ فإنه معشوق النفوس، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع، وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه...

السادس عشر: أن المال يُمدَح صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلم إنما يُمدَح بتحليه به واتصافه به...

السابع عشر: أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه، فيتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم؛ فلذة الغنى بالمال لذة زائله منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم[1]. أهـ.

[معرفة سبيل المجرمين من كمال الإيمان]

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/٤١٨ - ٤٢١.

وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ [النساء: ١١٥].

والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة. وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسُّبُل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغيِّ إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضدَّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضدُّ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا

إليه، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضدِّه، عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة؛ فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين؛ فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما؛ كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وهذا من كمال علم عمر ﷺ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ، فإنه من الجاهلية؛ فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المؤمنين، ودعا إليها، وكفَّر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفَّر من خالفها.

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملاً؛ وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام؛ وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدِّها؛ فهو يعرف ضدَّها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئًا ما خلاف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى؛ فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألوه عن هذه المسألة: أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجرٌ عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه، فأبغضها لله، وحذرها، وحذَّر منها، ودفعها عن نفسه، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه، ولا تورثه شبهةً، ولا شكًا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمرُّ بقلبه؛ فإنه كلما مرت بقلبه وتصوَّرت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به، فيقوى إيمانه به. كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرَّت به فرغب عنها إلى ضدِّها ازداد محبة لضدِّها ورغبة فيه وطلبًا له

وحرصًا عليه. فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدْوَم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى؛ فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدَّت إرادته لها وشوقه إليها صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشدّ وحرصه عليه أتمّ، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك؛ فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم. ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكبًا على النجائب! فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره؛ فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات، إما حجابًا له عنه، أوحاجبًا له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة، وإن تفصَّلت له في بعض الأشياء. ومن تأمَّل كتبهم رأى ذلك عيانًا. وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحبُّ أن تُعرف سبيل أعدائه لتُجتنب وتُبغض، كما يحب أن تُعرف سبيل أوليائه لتُحب وتُسلك. وفي هذه

المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من: معرفة عموم ربوبيته سبحانه، وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وتعلُّقها بمتعلقاتها، واقتفائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلـهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم[١]. أهـ.

[مفاتيح]

قد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحًا يفتح به؛ فجعل مفتاح الصلاة: الطهور، كما قال ﷺ: (**مفتاح الصلاة الطهور**)[٢]، ومفتاح الحج: الإحرام، ومفتاح البِرّ: الصدق، ومفتاح الجنة: التوحيد، ومفتاح العلم: حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر: الصبر، ومفتاح المزيد: الشكر، ومفتاح الولاية والمحبة: الذكر، ومفتاح الفلاح: التقوى، ومفتاح التوفيق: الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة: الدعاء، ومفتاح الرغبة في الآخرة: الزهد في الدنيا، ومفتاح الإيمان: التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الدخول على الله: إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب: تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة: الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق: السعي مع الاستغفار والتقوى، ومفتاح العِزّ: طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة: قصر الأمل، ومفتاحُ كل خير: الرغبة في الله والدار الآخرة،

---

(١) الفوائد: ١٦٠ - ١٦٤.

(٢) رواه الترمذي في الطهارة، ح ٣، وأحمد: ١/ ١٢٣.

ومفتاح كلّ شرٍّ: حبّ الدنيا، وطول الأمل.

وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم؛ وهو معرفة مفاتيح الخير والشر، لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظّه وتوفيقه؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشر مفتاحًا وبابًا يدخل منه إليه، كما جعل الشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله، والغفلة عن ذكره والقيام بحقه: مفتاحًا للنار، وكما جعل الخمر: مفتاح كلّ إثم، وجعل الغناء: مفتاح الزنا، وجعل إطلاق النظر في الصور: مفتاح الطلب والعشق، وجعل الكسل والراحة: مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي: مفتاح الكفر، وجعل الكذب: مفتاح النفاق، وجعل الشح والحرص: مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ: مفتاح كل بدعة وضلالة.

وهذه الأمور لا يصدق بها إلا كلُّ من له بصيرة صحيحة، وعقل يعرف به ما في نفسه، وما في الوجود من الخير والشر، فينبغي للعبد أن يعتني كل الاعتناء بمعرفة المفاتيح، وما جعلت المفاتيح له، والله من وراء توفيقه وعدله، له الملك وله الحمد، وله النعمة والفضل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] [1] أهـ.

[الارتباط بين الظاهر والباطن]

الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته؛ فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به

(١) حادي الأرواح: ١٠١ - ١٠٢.

الدماء وعصم به المال والذرية. ولا يجزئ باطن لا ظاهر له، إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك. فتخلُّفُ العملِ ظاهراً مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطن وخلوّه من الإيمان، ونقصُه دليلُ نقصِه، وقوّته دليلُ قوّته.

فالإيمان قلبُ الإسلام ولبُّه، واليقين قلب الإيمان ولبُّه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقينَ قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول[1]. أهـ.

[الغيث إذا أصاب أرضًا]

في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (**مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**)[2] فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات.

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وهم الذين قاموا بالدين علمًا وعملاً ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ،

---

(١) الفوائد: ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في العلم، باب فضل من عَلِم وعلَّم، ح ٧٩، ومسلم في الفضائل، ح ٢٢٨٢.

فهـؤلاء أتباع الرسل - صلـوات الله عليهم وسلامـه - حقًـا، وهم بمنزلة الطائفة الـطيبة من الأرض التي زكت فـقبلت المـا فأنبتت الـكلأ والعشب الكثيـر، فزكت في نفسهـا وزكا الناس بها. وهؤلاء هم الذين جمـعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعـوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسـلم الذين قال الله تعـالى فيهم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]، أي البصائر في دين الله عز وجل، فبالبصـائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغـه وتنفيذه والدعوة إليـه؛ فهذه الطبـقة كان لها قـوة الحفظ والفهم في الدين والبـصر بالتأويل، ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها ورزقت فيها فهمًا خاصًا؛ كما قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه.

فهذا الفـهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبـتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن.

الطبـقة الـثانيـة: فإنها حـفظت النصوص وكان همها حفظهـا وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم، فـاستنبطوا منها واستخـرجوا كنوزها واتجروا فيها وبذروها في أرض قابلة للـزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البـقرة: ٦٠] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ: **(نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، ثم أدركها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه،**

ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[1]، وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن؛ مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثًا، الذي يقول فيه: «سمعت، ورأيت»، وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علمًا وفقهًا. قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار، وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس. وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم: ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾**﴾ [الحديد: ٢١] وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درسًا فكانت همته مصروفة إلى الحفظ، وبلّغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها...

وأما الطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا؛ فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٧١.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية، ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء؛ لا رواية ولا دراية ولا رعاية: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إنْ همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه - مع ذلك - لباسه وزينته، [فإن ترقت همته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية كان همه في نصرة النفس السبعية. وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء؛ فإن النفوس ثلاثة: كلبية وسبعية وملكية][(١)].

فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والقذرة، والسبعية لا تقنع بذلك بل بقهر النفوس؛ تريد الاستيلاء عليها بالحق والباطل. وأما الملكية فقد ارتفعت عن ذلك وشمرت إلى الرفيق الأعلى؛ فهمتها العلم والإيمان ومحبة الله تعالى والإنابة إليه وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها، وربها ووليها، لا لتنقطع به عنه[(٢)].

---

(١) ما بين المعكوفين مُصوَّب من طبعة أخرى للوابل الصيب تحقيق محمد الطالبي، ونشر دار طيبة، وهي طبعة حديثة «١٤٢٥هـ» صدرت بعد الانتهاء من العمل في كتابي واعتمادي على طبعة دار الكتاب العربي.

(٢) الوابل الصيب: ٨٢ - ٨٦.

[عظم أمر الإفتاء]

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «أدركت مئة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول؛ ما منهم من أحد إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أفتى الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون». وعن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه.

وقال حصين الأسدي : «إن أحدكم ليفتي في المسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر». وعن الحسن والشعبي مثله.

وقال الحاكم: سمعت أبا عبد الله الصفار يقول: سمعت عبد الله ابن أحمد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت محمد بن عجلان يقول: «إذا أخطأ العالم: (لا أدري) أصيبت مقاتله». وروي ذلك بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكر أبو عمر عن القاسم بن محمد أنه جاءه رجل فسأله عن شيء فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني دفعت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي؛ والله لا أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها؛ فوالله ما رأيت في مجلس أبيك مثل اليوم، فقال القاسم: « والله لئن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا أعلم».

وذكر أبو عمر عن ابن عيينة وسحنون: «أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا».

وكان مالك بن أنس يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجب فيها أن يعرض نفسه على الجنة أو النار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة»، سئل عن مسألة فقال: «لا أدري» فقيل له إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب وقال: «ليس في العلم شيء خفيف؛ ألم تسمع قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝﴾ [المزمل: ٥] فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة، وقال: كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحدهم في مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه، مع ما رزقوا من السداد والتوفيق مع الطهارة، فكيف بنا الذي غطت الخطايا والذنوب قلوبنا».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «جاء رجل إلى مالك يسأله عن شيء أيامًا ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أريد الخروج، وقد طال التردد إليك، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه.

وسئل الشافعي عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب يرحمك الله فقال: «حتى أدري الفضل في سكوتي أو في الجواب».

وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا، ولا يقول شيئًا إلا قال: اللَّهم سلّمني وسلّم مني.

وقال سحنون: «أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره»، فقال: تفكرت فيه وجدته المفتي؛ يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث

فيستمتع بامرأته ورقيقه وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا.

وجاء رجل إلى سحنون يسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال: مسألتي، أصلحك الله اليوم ثلاثة أيام. فقال له: وما أصنع بمسألتك؛ مسألتك معضلة، وفيها أقاويل، وأنا متحير في ذلك، فقال: وأنت أصلحك الله لكل معضلة، فقال سحنون: هيهات يا ابن أخي، ليس بقولك هذا أبذل لحمي ودمي للنار، وما أكثر ما لا أعرف، إن صبرتَ رجوتُ أن تنقلب بمسألتك، وإن أردت أن تمضي إلى غيري فامض تجاب في مسألتك في ساعة، فقال: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك. قال فاصبر، ثم أجابه بعد ذلك.

وقيل له إنك تُسأل عن المسألة، لو سئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها فتتوقف فيها. فقال: إن فتنة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال.

وقال بعض العلماء: قلّ من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها، إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره. وإن كان كارهًا لذلك غير مختار له، ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب.

وقال بشر الحافي: من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل. وذكر أبو عمر عن مالك: أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك، أمصيبة دخلت عليك؟ وارتاع لبكائه. فقال: لا، ولكن أُستفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم.

قال ربيعة: ولَبَعْضُ من يفتي ههنا أحق بالحبس من السراق[١]. أهـ.

[الإفتاء]

قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وذلك يتناول القول على الله بغير علم في أسمائه وصفاته وشَرْعه ودينه.

وفي حديث أبي هريرة المرفوع: **(من أُفتي بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه)**[٢].

روى الزهري عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع النبي ﷺ قومًا يتمارَون في القرآن فقال: **(إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا، ولا يكذب بعضه بعضًا، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم منه فكِلُوه إلى عالمه)**[٣] فأمر من جهل شيئًا من كتاب الله أن يكله إلى عالمه، ولا يتكلف القول بما لا يعلمه.

وروى مالك بن مغْوَل عن أبي حصين، عن مجاهد، عن عائشة رضي الله عنها أنه لما نزل عذرها قَبَّل أبو بكر رأسها. قالت: فقلت: ألا عذرتني عند النبي ﷺ؟ فقال: أي سماء تُظِلُّني، وأي أرض تُقِلُّني إذا قلت ما لا أعلم.

وروى أيوب عن ابن أبي مُلَيكة قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن آية فقال: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، وأين أذهب، وكيف أصنع

---

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ٢٣٤ - ٢٣٦.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة، ح ٥٣، وأحمد: ٢/ ٣٢١.

(٣) رواه أحمد: ٢/ ١٨٥.

إذا أنا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟

وذكر البيهقي من حديث مسلم بن أبي عمران البطين عن عَزْرَة التميمي قال: قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة: وابَرْدَها على كبدي! ثلاث مرات، قالوا: يا أمير المؤمنين، وما ذاك؟ قال: أن يُسأل الرجل عما لا يعلم، فيقول: الله أعلم.

وذكر أيضًا عن علي ﷺ قال: خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كن فيه عوضًا من سفره: لا يخشى عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال الزهري عن خالد بن أسلم، وهو أخو زيد بن أسلم: خرجنا مع ابن عمر نمشي فلحقنا أعرابي فقال: أنت عبد الله بن عمر قال: نعم، قال: سألت عنك، فدللت عليك، فأخبرني: أترث العمة؟ قال: لا أدري، قال: أنت لا تدري؟! قال: نعم اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم، فلما أدبر قَبَّل يديه، وقال: نِعِمًّا قال أبو عبد الرحمن؛ سئل عما لا يدري فقال: لا أدري.

وقال ابن مسعود ﷺ: من كان عنده علم فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم؛ فإن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]. وصح عن ابن مسعود، وابن عباس: من أفتى الناس في كل ما يسألوه عنه فهو مجنون.

وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبي إذا سئل عن مسألة شديدة قال: رُبَّ ذاتِ وَبَر لا تنقاد، ولا تنساق، ولو سُئِل عنها الصحابة لعَضَّلَتْ بهم.

وقال أبو حصين الأسدي: «إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر».

وقال ابن سيرين: «لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول ما لا يعلم».

وقال القاسم: «من إكرام الرجل نفسَه أن لا يقولَ إلا ما أحاط به علمه».

وقال: «يا أهل العراق، والله لا نعلم كثيراً مما تسألونا عنه، ولأن يعيش الرجل جاهلاً إلا أن يعلم ما فرض الله عليه خير له من أن يقول على الله ورسوله ما لا يعلم».

وقال مالك: «من فقه العالم أن يقول: لا أعلم؛ فإنه عسى أن يتهيأ له الخير».

وقال : «سمعت ابن هُرْمُز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: (لا أدري)، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه».

وقال الشعبي: «لا أدري: نصف العلم».

وقال ابن جُبَيْر: «ويل لمن يقول لما لا يعلم: إني أعلم».

وقال الشافعي: «سمعت مالكًا يقول: سمعت ابن عجلان يقول: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مَقاتِله»، وذكره ابن عجلان عن ابن عباس ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «جاء رجل إلى مالك، فسأله عن شيء، فمكث أيامًا ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الله، إني أريد الخروج، فأطرق

طويلاً، ورفع رأسه، فقال ما شاء الله يا هذا، إني أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه».

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: العجلة في الفتوى نوعٌ من الجهل والخرق. قال: وكان يقال: التأني من الله، والعجلة من الشيطان. وهذا الكلام قد رواه الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **(التأني من الله. والعجلة من الشيطان)**(١)، وإسناده جيد.

وقال ابن المنكدر: العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم.

وقال ابن وهب: «قال لي مالك وهو ينكر كثرة الجواب في المسائل: يا عبد الله ما علمتَ فقل، وإياك أن تُقَلِّد الناس قلادة سوء».

وقال مالك: «حدثني ربيعة قال: قال لي أبو خَلَدَة - وكان نعم القاضي - يا ربيعة أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا يكن همك أن تتخلص مما سألك عنه».

وكان ابن المسيب لا يكاد يفتي إلا قال: «اللَّهم سلمني وسلم مني».

وقال مالك: «ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعًا لذلك؟ سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني

---

(١) رواه البيهقي في السنن، باب التثبت في الحكم، ح ٢٠٠٥٧، ١٠/١٠٤، وأبو يعلى في مسنده: ٧/٢٤٧، ح ٤٢٥٦.

بذلك»، فقيل له: يا أبا عبد الله، فلو نَهَوْك؟ قال: كنت أنتهي.

وقال ابن عباس ﵄ لمولاه عكرمة: اذهب فأفت الناس، وأنا لك عون، فمن سألك عم يعنيه، فأفْته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفْتِه؛ فإنك تطرح عن نفسك ثلثي مؤنة الناس.

وكان أيوب إذا سأله السائل قال له: أعِدْ. فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولاً أجابه، وإلا لم يجبه، وهذا من فهمه وفطنته رحمه الله.

وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال.

ومنها: أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم، فإذا أعادها ربما بينه له.

ومنها: أن المسؤول قد يكون ذاهلاً عن السؤال أولا، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك.

ومنها: أنه ربما بان له تعنُّت السائل، وأنه وضع المسألة، فإذا غيَّر السؤال، وزاد فيه ونقص، فربما ظهر أن المسألة لا حقيقة لها، وأنها من الأغْلُوطات أو غير الواقعات التي لا يجب الجواب عنها؛ فإن الجواب بالظن إنما يجوز عند الضرورة، فإذا وقعت المسألة صارت حال ضرورة، فيكون التوفيق إلى الصواب أقرب، والله أعلم[1]. اهـ.

---

(١) إعلام الموقعين: ٢/ ١٦٤ - ١٦٨.

[القول على الله بغير علم]

حرَّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفُتْيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يُحَرِّمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال. وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

وقال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرَّم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا، ولم أحرم كذا. فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورودَ الوحي المبين بتحليله وتحريمه: أحله الله وحرَّمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل» وقد نهى النبي ﷺ في الحديث الصحيح

أميره «بريدة» أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله، وقال: (**فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم، أم لا؟ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك**)(١) فتأمل كيف فرق بين حكم الله، وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يُسمَّى حكم المجتهدين حكم الله.

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حكمًا حكم به، فقال: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر، فقال: لا تقل: هكذا، ولكن قل: هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: «لم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا اقتُدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكْره كذا، ونرى هذا حسنًا فينبغي هذا، ولا نرى هذا. ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام؛ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ [يونس: ٥٩]، الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرَّمه الله ورسوله(٢). أهـ.

[زلة العالم]

المصنفون في السُّنَّة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبيان زلة العالم، ليبيِّنوا بذلك فساد التقليد، وإن العالم قد يزل ولا بد؛ إذ ليس بمعصوم،

(١) رواه مسلم بنحوه في الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء، ح ١٧٣١.

(٢) إعلام الموقعين: ١/ ٣٩ - ٤١.

فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم.

فهذا الذي ذمَّه كل عالم على وجه الأرض وحرَّموه، وذمُّوا أهله، وهو أصلُ بلاء المقلدين وفتنتهم؛ فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه، وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك؛ إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولا بد.

وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير هذا عن أبيه عن جده مرفوعًا: **(اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته)**[(١)].

وذكر من حديث مسعود بن سعد، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن أشد ما أتخوَّف على أمتي ثلاثٌ: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم)**[(٢)] ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها؛ إذ لولا التقليد لم يخف من زلة العالم على غيره.

فإذا عرف أنها زلة لم يجز له أن يتبعه فيها باتفاق المسلمين، فإنه اتباع للخطأ على عمد، ومن لم يعرف أنها زلة فهو أعذر منه، وكلاهما مفرِّط فيما أمر به.

---

(١) رواه البيهقي في سننه، باب ما تجوز به شهادة أهل الأهواء، ١٠/ ٢١١، ح٢٠٧٠٦.

(٢) رواه الطبراني في الكبير: ٢٠/ ١٣٨، ح ٢٨٢، وفي الأوسط بنحوه: ٨/ ٣٠٧، ح ٨٧١٥.

وقال الشعبي: قال عمر: «يُفْسِد الزمان ثلاثة: أئمة مُضلّون، وجدال المنافق بالقرآن - والقرآن حقٌّ - وزلة العالم» وقد تقدم أن مُعاذًا كان لا يجلس مجلسًا للذكر إلا قال حين يجلس: الله حكم قِسْط، هلك المرتابون... الحديث وفيه: وأحذركم زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشبهات التي يقال: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه؛ فإنه لعله يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته؛ فإن على الحق نوراً.

وذكر البيهقي من حديث حماد بن زيد، عن المثنى بن سعيد، عن أبي العالية قال: قال ابن عباس ﷺ: ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل وكيف ذاك يا أبا عباس؟ قال: يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ﷺ، فيدع ما كان عليه. وفي لفظ: فيلقى مَنْ هو أعلم برسول الله ﷺ منه، فيخبره فيرجع، ويقضي الأتباع بما حكم.

وقال تميم الداري: اتقوا زلة العالم، فسأله عمر: ما زلة العالم؟ قال: يزل بالناس فيوخذ به فعسى أن يتوب العالم، والناس يأخذون بقوله.

وقال شعبة: عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال معاذ بن جبل: يا مَعْشَرَ العرب، كيف تصنعون بثلاث: دنيا تقطع أعناقكم، وزلة عالم، وجدال منافق بالقرآن؟ فسكتوا فقال: أما العالم، فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وإن افتتن فلا تقطعوا منه إياسكم؛ فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب، وأما القرآن فله منار كمنار الطريق، فلا يخفى على أحد، فما عرفتم

منه فلا تسألوا عنه، وما شككتم فكِلُوه إلى عالمه. وأما الدنيا فمن جعل الله الغنى في قلبه فقد أفلح، ومن لا فليس بنافعته دنياه.

وذكر أبو عُمَر من حديث حسين الجعفي، عن زائدة، عن عطاء ابن السائب عن أبي البختري، قال سلمان كيف أنتم عند ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم؟ فأما زلة العالم، فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وأما مجادلة المنافق بالقرآن، فإن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فلا يخفى على أحد، فما عرفتم منه فخذوه، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى الله، وأما دنيا تقطع أعناقكم، فانظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم. قال أبو عمر: وتُشَبَّهُ زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

قال أبو عمر: وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه.

وقال غير أبي عمر: كما أن القضاة ثلاثة؛ قاضيان في النار، وواحد في الجنة، فالمفتون ثلاثة، ولا فرق بينهما إلا في كون القاضي يُلزم بما أفتى به، والمفتي لا يُلزِمْ به.

وذكر أبو عمر عن أبي البختري عن علي، قال: إياكم والاستنان بالرجال؛ فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة، ثم ينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النارِ، فينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بد فاعلين فبالأموات لا بالأحياء.

وقال ابن مسعود: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر؛ فإنه لا أُسْوَة في الشر.

قال أبو عمر: وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**يذهب العلماء، ثم يتخذ الناس رؤوسًا جُهالاً يُسألون، فيفتون بغير علم، فيضلُّون ويُضِلُّون**)(١).

قال أبو عمر: وهذا كله نفي للتقليد وإبطال له لمن فهمه، وهُدي لرشده، ثم ذكر من طريق يونس بن عبد الأعلى: ثنا سفيان بن عيينة، قال: اضطجع ربيعة مقنعًا رأسه، وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في إمامهم، ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروهم به ائتمروا.

وقال عبد الله بن المعتمر لا فرق بين بهيمة تنقاد وإنسان يقلد(٢). أهـ.

[عالم السوء]

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشهوات؛ فإنهم لا تتمُّ لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضادّه من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق

---

(١) رواه بنحوه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم، ح ١٠٠، ومسلم في العلم، ح ٢٦٧٣.

(٢) إعلام الموقعين: ٢/ ١٧٣ - ١٧٧.

الشبهة والشهوة ويثور الهوى؛ فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق. وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩] وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩]. . فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى من علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا، وإن عَرَضَ لهم عَرَض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أوَلاَ يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا؛ فلا يحملهم حبُّ الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسُّنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخِستَّها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران؛ فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السُّنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سُّنة والسُّنة بدعة[١]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ١٤٩ - ١٥٠.

الفصل الخامس: الدعوة

[فضل الدعوة إلى اللَّه]

درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو عَلَّم غيره شيئًا من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: **(والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)**[(١)]، وصح عنه ﷺ أنه قال: **(من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئًا)**،[(٢)] وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: **(إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**[(٣)]، وصح عنه ﷺ أنه قال: **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)**[(٤)]، وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: **(إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها)**[(٥)]، وعنه ﷺ أنه قال: **(إن**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب المناقب، ح ٣٧٠١، ومسلم في فضائل الصحابة، ح ٢٤٠٦.

(٢) رواه مسلم بنحوه في العلم، باب من سن سنة حسنة، ح ١٠١٧.

(٣) رواه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ح ١٦٣١.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في العلم، ح ٧١، ومسلم في الزكاة، ح ١٠٣٧.

(٥) رواه بنحوه: أبو داود في العلم، ح ٣٦٤١، والترمذي في العلم ح ٢٦٨٢ وفيه: =

الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير)[١]، وعنه ﷺ أنه قال: **(إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر)**[٢]، وعنه ﷺ: **(العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد)**[٣]، وعنه ﷺ أنه قال: **(نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها)**[٤]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد ذكرنا مئتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيا لها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها؛ أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة تُملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب. تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات، وتتوجه

= **(والحيتان في جوف الماء)** بدلاً من قوله: **(النملة في جحرها)**، وإنما ورد ذكر النملة في الحديث الذي يليه؛ كما هو مبين في هامش (١) من صفحة ٧١٠.

(١) رواه الترمذي في العلم، باب فضل العلم على العبادة، ح ٢٦٨٥؛ وفيه: (إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)، وقال: حسن غريب.

(٢) هو تتمة الحديث المخرج في هامش (٥) من صفحة ٧٠٩.

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء... ح ٢٢٨.

(٤) سبق تخريجه ص ٦٧١.

نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه. وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماء.

وهؤلاء هم العدول حقًا بتعديل رسول الله ﷺ لهم؛ إذ يقول فيما يرُوى عنه من وجوه شد بعضها بعضًا: (**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**)(١) وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه في (الرد على الجهمية): الحمد لله الذي يجعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى؛ فكم من قتيل لإبليس قد أجبروه، ومن ضال جاهل قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم: ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين. وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢). أهـ.

[حقيقة دعوة الرسل]

الرسل من أولهم إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أُرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٣٤٤ ح ٥٩٩، والبيهقي في سننه: ١٠/ ٢٠٩، ح ٢٠٧٠٠.

(٢) طريق الهجرتين: ٣٥٣ - ٣٥٤.

بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل مِلَّة على لسان كل رسول.

فَعَرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه؛ يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم؛ يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي؛ يؤتي الحكمة من يشاء؛ مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير؛ كل يوم هو في شأن؛ يغفر ذنبًا ويفرج كربًا، ويفك عانيا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويغيث ملهوفًا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره؛ فأزِمّة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه؛ وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم؛ وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر

من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط[(١)]. أهـ.

[آيات الرسل وطريقتهم في الدعوة]

من أخفى آيات الرسل: آيات هود عليه السلام؛ حتى قال له قومه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، ومع هذا فبينته من أظهر البينات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]؛ فهذا من أعظم الآيات أن رجلا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جَزِع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، مُعلِم لقومه أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم - إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة - أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٢٩٢ - ٢٩٣.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبيَّن أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم؛ فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه؛ فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه - في قوله وفعله - يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه؛ فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسلَه على أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قومًا غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم بيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)**(١)(٢). أهـ.

[مراتب الدعوة]

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن، ح٤٩٨١، ومسلم في الإيمان، ح ١٥٢.

(٢) مدارج السالكين: ٣/٤٠٣ - ٤٠٤.

فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه إما أن يكون طالبًا للحق راغبًا فيه محبًا له مؤثرًا له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال. وإما أن يكون معرضًا مشتغلاً بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

إحداهما: أن يُرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل.

وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهمًا فيه وحججه، مع أنها في أعلى مراتب الحجج، وهي طريقة أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات؛ فهي أقرب شيء تناولاً، وأوضح دلالة، وأقوى برهانًا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك[1]. أهـ.

[الداعية الناجح]

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم؛ فترك الدنيا فضيلة، وترك

---

(١) الصواعق المرسلة: ١٢٧٦/٤.

الذنوب فريضة. فكيف يُؤمَر بالفضيلةَ من لم يُقِم الفريضة!

فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة على محبته. فإذا تعلّقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشقُّ عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد. ولكن تخيَّرْ من المرضعات أزكاهنّ وأفضلهن؛ فإن للَّبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفعُ الرضاعة ما كان من المجاعة، فإن قويت على مرارة الفطام وإلا فارتضع بقدرٍ؛ فإن من البشم[(١)] ما يقتل[(٢)]. أهـ.

[شروط الانتفاع بالعظة]

قال الهروي رحمه اللَّه: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، وتذكر الوعد والوعيد».

---

(١) البشم: التخمة.

(٢) الفوائد: ٢٤٣ - ٢٤٤.

إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة - وهي الترغيب والترهيب - إذا ضعفت إنابته وتذكره؛ وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب؛ ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

و«**العظة**» يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة، ووصفُ الحسن لها ذاتي.

وأما «**الموعظة**» فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «**الجدال**» قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه، وحدته، ورفقه؛ فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن. ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما ما ذكره بعض المتأخرين: أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات فـ «**الحكمة**» هي طريقة البرهان، و«**الموعظة الحسنة**» هي طريقة الخطابة،

و«**المجادلة بالتي هي أحسن**» طريقة الجدل. فالأول: بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان، ولا ينقاد إلا له؛ وهم خواص الناس. والثاني: بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة؛ وهم الجمهور. والثالث: بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل؛ وهم المخالفون؛ فتنزيل(١) القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم، وذلك باطل قطعًا من وجوه عديدة ليس هذا موضع ذكرها. وإنما ذكر هذا استطرادًا لذكر العظة، وأن المنيب المتذكر لا تشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض؛ فإنه شديد الحاجة جداً إلى العظة ليتذكر ما قد نسيه، فينتفع بالتذكر.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حُرِم الانتفاع بموعظته؛ لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواءً لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه؛ بل الطبيب المذكور عندهم أحسن حالاً من هذه الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم دواء آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوة على ترك التداوي، وقد يقنع بعمل الطبيعة وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ؛ فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها، ولا بد منها، ولأجل هذه النفرة قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود: ٨٨]، وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له،

---

(١) قوله: فتنزيل القرآن... إلخ هو جواب كلمة أمَّا المذكورة في أول الفقرة، فليتنبه لذلك حتى يفهم مراد ابن القيم رحمه الله.

المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هَلاَّ لنفسك كان ذا التعليم؟

تصف الدواء لذي السقام من الضنى ... ومن الضنى تمسي وأنت سقيم

لاتَنْه عن خُلُق، وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبل ما تقول ويُقْتَدى ... بالقول منك، وينفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ**﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ** ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر يستحيل حصوله بدونه[١]. أهـ.

[أقل الناس دينًا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

من له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا والله المستعان.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٣٤ - ٤٣٦.

وأيّ دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتَهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا: إن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعر وجهه فيَّ يومًا قط.

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: **(أما زهدك في الدنيا، فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يارب، وأي شيء لك عليَّ؟ قال: هل واليت فيَّ وليًا، أو عاديت فيَّ عدوًا؟)**(١). أهـ.

[المخاطبة بالقول اللين]

كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة، فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة،

(١) اعلام الموقعين: ٢/ ١٥٥ - ١٥٦.

وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة؛ وهـو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختـارها صاحبها على الآخـرة الدائمة الباقية، فـسكرتها فوق سـكرة القهـوة بكثيـر، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين؛ فـمخاطبـة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شـرعًا وعقـلاً وعرفًـا، ولذلك تجد الناس كالمـفطورين عليه، وهكـذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤسـاء العشائر والقبائـل. وتأمل امتثال موسى لـما أمر به؛ كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات: ١٨]، فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: إلى أن أزكـيك؛ فنسب الفعل إليـه هو، وذكر لفظ التـزكي دون غيـره لما فيه من البـركة والخير والنمـاء، ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩] أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال: إلى ربك استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مـريم: ٤٢] فابتـدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسـمـه باسمه، ثم أخرج الكلم معـه مخرج السؤال فقال: لم تعبد ما لا يسـمع ولا يبصـر ولا يغني عنك شيئًا، ولم يقل: لا تعبد، ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] فلم يقل له: إنك جـاهل لا علم عندك، بل عـدل عن هذه العبـارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، ثم قال:

﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم: ٤٣]. وهذا مثل قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [النازعات: ١٩]، ثم قال: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤٥] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.

وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

ونظير هذا خطاب صاحب ﴿ يس ﴿١﴾ ﴾ [يس: ١] لقومه؛ حيث قال: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس: ٢٠ – ٢٢].

ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٢ – ٤]، وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن؛ إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده [هو](١) ألطف خطاب وألينه؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. الآيات. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم

---

(١) في المطبوعة: وألطف، وما أثبته هو ما يقتضيه السياق.

بالله الغرور ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر: ٥]، وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]، من اللطف الذي سلب العقول.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥] على أحد التأويلين؛ أي: نترككم فلا ننصحكم، ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

وتأمل لطف خطاب نُذُر الجن لقومهم وقولهم: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣١][(١)]. أهـ.

[الاهتمام بالألفاظ]

رأى الرشيد في دار حزمةَ خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ قال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل الخيزران لموافقة اسم أمه.

ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده - وفي يده مسواك - ما جمع هذا؟ قال: ضد محاسنك يا أمير المؤمنين. وهذا من الفراسة في تحسين اللفظ، وهو باب عظيم النفع، اعتنى به الأكابر والعلماء، وله شواهد كثيرة

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١١٧ - ١١٨.

في السنة، وهو من خاصية العقل والفطنة.

فقد روينا عن عمر ﷺ أنه خرج يَعُسُّ المدينة بالليل: فرأى نارًا موقدة في خباء، فوقف وقال: «يا أهل الضوء» وكره أن يقول يا أهل النار.

وسأل رجلاً عن شيء: «هل كان؟» قال: لا. أطال الله بقاءك. فقال: «قد علمتم فلم تتعلموا؛ هلا قلت: لا، وأطال الله بقاءك؟».

وسُئل العباس ﷺ: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله.

وسئل عن ذلك قُباث بن أشيم؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أسنّ منه.

وكان لبعض القضاة جليس أعمى، فكان إذا أراد أن ينهض يقول: يا غلام، اذهب مع أبي محمد. ولا يقول: خذ بيده. قال: والله ما أخل بها مرة واحدة.

ومن ألطف ما يحكى في ذلك: أن بعض الخلفاء سأل رجلاً عن اسمه فقال: سعد يا أمير المؤمنين، فقال: أي السعود أنت؟ قال سعد السعود لك يا أمير المؤمنين، وسعد الذابح لأعدائك، وسعد بَلَع على سماطك، وسعد الأخبية لسرك. فأعجبه ذلك.

ويشبه هذا: أن مَعْن بن زائدة دخل على المنصور، فقارب في خَطْوه. فقال له المنصور: كبِرت سنُّك يا معن. قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: إنك لجلد. قال: على أعدائك. قال: وإن فيك لبقية. قال: وهي لك.

وأصل هذا الباب قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، إذا كلَّم بعضهم بعضًا بغير التي هي أحسن فرب حرب وقودها جُثث وهام أهاجها قبيح الكلام.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي)[1] وخبثت ولقست وعثت متقاربة في المعنى، فكره رسول الله ﷺ لفظ «الخبث» لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه - وإن كان بمعناه - تعليمًا للأدب في المنطق، وإرشادًا إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال[2]. أهـ.

[أهمية الأسلوب والتعبير]

كم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق، وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل، ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس، ولكثرته وشهرته يستغني عن الأمثلة. بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة وكسوْها ألفاظًا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها، ولقد أحسن القائل:

تقول هذا جناء النَّحْلِ تمدحهُ وإن تشأ قلت: ذا قيءُ الزنابير

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب، ح ٦١٧٩، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، ح ٢٢٥٠.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ٤٢ - ٤٤.

مدْحًا وذمًّا، وما جاوزت وصْفهما والحق قد يعتريه سوءُ تعبير

ورأى بعض الملوك كأن أسنانه قد سقطت، فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه، فأقصاه وطرده، واستدعى آخر فقال له: لا عليك، تكون أطول أهلك عمرًا، فأعطاه وأكرمه وقربه، فاستوفى المعنى، وغير له العبارة، وأخرج المعنى في قالب حسن[1]. أهـ.

[الوقوف مع الظواهر والألفاظ وتسمية الأشياء بغير اسمها]

ما مَثَلُ من وقف مع الظواهر والألفاظ ولم يراع المقاصد والمعاني إلا كمثل رجل قيل له: لا تسلم على صاحب بدعة، فقبل يده ورجله ولم يسلم عليه، أو قيل له: اذهب فاملأ هذه الجرة، فذهب فملأها، ثم تركها على الحوض وقال: لم تقل: إيتني بها، وكمن قال لوكيله: بع هذه السلعة، فباعها بدرهم وهي تساوي مئة - ويَلْزَم مَنْ وقف مع الظواهر أن يصحح هذا البيع، ويُلْزم به الموكل، وإن نظر إلى المقاصد تناقض حيث ألقاها في غير موضع - وكمن أعطاه رجل ثوبًا فقال: والله لا ألبسه لما له فيه من المنة، فباعه وأعطاه ثمنه فقبله، وكمن قال: والله لا أشرب هذا الشراب، فجعله عقيدًا أو ثَرَدَ فيه خبزًا وأكله، ويلزم مَنْ وقف مع الظواهر والألفاظ أن لا يحد من فعل ذلك بالخمر، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن من الأمة من يتناول المحرم ويسميه بغير اسمه فقال: (**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يُعْزَفُ على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله**

(١) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٩١ - ٢٩٢.

بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير)(١) رواه أحمد وأبو داود.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعًا: **(يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)**(٢).

وفيه عن عُبَادة بن الصامت عن النبي ﷺ: **(يشرب ناس من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه)**(٣).

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي أمامة يرفعه: **(لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)**(٤).

قال شيخنا رضي الله عنه: وقد جاء حديث آخر يوافق هذا مرفوعًا وموقوفًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **(يأتي على الناس زمان يُستحلُ فيه خمسة أشياء: يستحلون الخمر باسم يسمونها إياه، والسُّحْت بالهدية، والقتل بالرهبة، والزنا بالنكاح، والربا بالبيع)**(٥) وهذا حق؛ فإن استحلال الربا باسم البيع ظاهر كالحيل الربوية التي صورتها صورة البيع وحقيقتها حقيقة الربا، ومعلوم أن

---

(١) رواه بتمامه ابن ماجه في الفتن، ح ٤٠٢٠، ورواه أيضًا مختصرًا أبو داود في الأشربة، ح ٣٦٨٨، ٣٦٨٩.

(٢) رواه الإمام أحمد بنحوه: ٤/ ٢٣٧، ٥/ ٣٤٢.

(٣) ليس فيما وصل إلينا من نسخ المسند حديث بهذا المعنى عن عبادة بن الصامت، وإنما الذي فيه هو ما ذكر في الهامش السابق، وأحدهما (٤/ ٢٣٧) عن رجل مبهم من أصحاب النبي ﷺ، والثاني (٥/ ٣٤٢) عن أبي مالك الأشعري.

(٤) رواه ابن ماجه في الأشربة، ح ٣٣٨٤.

(٥) لم أجده.

الربا إنما حرم لحقيقته ومفسدته، لا لصورته واسمه؛ فَهبْ أن المرابي لم يسمِّه ربًا وسماه بيعًا، فذلك لا يخرج حقيقته وماهيته عن نفسها...

وأما استحلال السحت باسم الهدية - وهو أظهر من أن يذكر - كرشوة الحاكم والوالي وغيرهما؛ فإن المرتشي ملعون هو والراشي؛ لما في ذلك من المفسدة، ومعلوم قطعًا أنهما لا يخرجان عن الحقيقة وحقيقة الرشوة بمجرد اسم الهدية، وقد علمنا وعلم الله وملائكته ومن له اطلاع على الحيل أنها رشوة. وأما استحلال القتل باسم الإرهاب الذي تسميه ولاة الجور سياسة رهيبة وناموسًا وحرمة للملك فهو أظهر من أن يذكر...

ولو أوْجَبَ تبديل الأسماء والصور تبدل الأحكام والحقائق لفسدت الديانات، وبدلت الشرائع، واضمحل الإسلام.

وأي شيء نفَعَ المشركين تسميتهم أصنامَهم آلهةً، وليس فيها شيء من صفات الإلهية وحقيقتها؟ وأي شيء نَفَعهم تسمية الإشراك بالله تقربًا إلى الله؟

وأي شيء نَفَع المعطِّلين لحقائق أسماء الله وصفاته تسمية ذلك تنزيهًا؟

وأي شيء نفع الغلاة من البشر واتخاذهم طواغيت يعبدونها من دون الله تسمية ذلك تعظيمًا واحترامًا؟

وأي شيء نفع نُفاة القدر المخرجين لأشرف ما في مملكة الرب تعالى من طاعات أنبيائه ورسله وملائكته وعباده عن قدرته تسمية ذلك عدلاً؟

وأي شيء نفعهم نفيهم لصفات كماله تسمية ذلك توحيدًا؟

وأي شيء نفع أعداء الرسل من الفلاسفة القائلين بأن الله لم يخلق

السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يعلم شيئًا من الموجودات، ولا أرسل إلى الناس رسلاً يأمرونهم بطاعته تسمية ذلك حكمة؟

وأي شيء نفع أهل النفاق تسمية نفاقهم عقلاً معيشيًا، وقدْحهم في عقل من لم ينافق نفاقهم ويداهن في دين الله؟

وأي شي نفع المكَسَة تسمية ما يأخذونه ظلمًا وعدوانًا حقوقًا سلطانية، وتسمية أوضاعهم الجائرة الظالمة الناقضة لشرع الله ودينه شرع الديوان؟

وأي شي نفع أهل البدع والضلال تسمية شبههم الداحضة عند ربهم، وعند أهل العلم والدين والإيمان عقليات وبراهين، وتسمية كثير من المتصوفة الخيالات الفاسدة والشطحات حقائق؟

فهؤلاء كلهم حقيق أن يتلى عليهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣][(١)] أهـ.

[طلاقة الوجه وعبوسه]

ومن أنواع مكايد إبليس ومكره: أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلصه من شره إلا تجهمُه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه، فيُحَسِّن له العدو أن يلقاه ببشره وطلاقة وجهه وحسن كلامه، فيتعلق به، فيروم التخلص منه فيعجز،

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٥٠ - ١٥٤.

فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته، فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه، ومن ههنا وصى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع وأن لا يسلم عليهم، ولا يريهم وجهه، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض.

وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان، وقالوا: متى كشفت للمرأة أو الصبي بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك، ومتى لقيتهما بوجه عابس وقيت شرهما.

ومن مكايده: أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس ولا تريهم بشرًا ولا طلاقة فيطمعوا فيك، ويتجرءوا عليك، وتسقط هيبتك من قلوبهم، فيحرمك صالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك، ومحبتهم لك، فيأمرك بسوء الخلق، ومنع البشر والطلاقة مع هؤلاء، وبحسن الخلق وبالبشر مع أولئك ليفتح لك الشر ويغلق عنك باب الخير(١). أهـ.

[إعزاز النفس وإذلالها]

من مكايد إبليس أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصونها حيث يكون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها؛ كجهاد الكفار والمنافقين، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ فيخيل إليك أن ذلك تعريض لنفسك إلى مواطن الذل، وتسليط الأعداء وطعنهم فيك، فيزول جاهك فلا يقبل منك بعد ذلك ولا يسمع منك.

---

(١) إغاثة اللهفان: ١٢٩.

ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في إعزازها وصيانتها؛ كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيل إليك أنك تعزها بهم، وترفع قدرها بالذل لهم، ويذكرك قول الشاعر:

أهين لهم نفسي لأرفعها بهم ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وغلط هذا القائل؛ فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده؛ فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه(١). أهـ.

[احتقار الناس]

من كيد إبليس وخداعه: أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجت تبذلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترى في طريقك منكرًا. وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه، منها: الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوض عنه بما يقرب الناس إليه.

---

(١) إغاثة الهفان: ١٢٩.

وقد كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السوق؛ قال بعض الحفاظ: «وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه» ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشتري.

ومر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وعلى رأسه حزمة حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من الكبر**)[1].

وكان أبوهريرة رضي الله تعالى عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة، ويقول: «افسحوا لأميركم.. افسحوا لأميركم».

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وهو خليفة في حاجة له ماشيًا، فأعيي، فرأى غلامًا على حمارٍ له، فقال: يا غلام احملني فقد أعييت، فنزل الغلام عن الدابة وقال: اركب يا أمير المؤمنين، فقال: لا، اركب أنت وأنا خلفك، فركب خلف الغلام، حتى دخل المدينة والناس يرونه[2]. أهـ.

[قبح تبغيض الله إلى خلقه]

الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها، يُبَغِّضُون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا

---

(١) لم أجد الحديث بهذه الرواية عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ولكن أصل الحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، ح ٩١.

(٢) إغاثة اللهفان: ١٣٠.

يعلمون. ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها:

فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإنْ طال زمانها وبالغ العبدُ وأتى بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتَّقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر.

ويَرْوون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة، وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم يترك في السماء رقعة ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، ولكن جنى عليه جاني القدر، وسطا عليه الحكم فقلَبَ عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتى قال بعض عارفيهم: إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جُرْمٍ منك ولا ذنب أتيته إليه.

ويحتجون بقول النبي ﷺ: **(إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها)**[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب القدر، ح ٦٥٩٤، ومسلم في القدر، ح ٢٦٤٣.

ويروون عن بعض السلف: أكبرُ الكبائر الأمنُ من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

وذكر الإمام أحمد بن حنبل عن عون بن عبد الله أو غيره أنه سمع رجلاً يدعو: اللَّهم لا تؤمنِّي مكرك، فأنكر ذلك وقال: قل اللَّهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك.

وَبَنَوْا هذا على أصلهم الباطل؛ وهو إنكار الحكمة والتعليل والأسباب، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب، وإنما يفعل بمشيئة مجرَّدة من الحكمة والتعليل والسبب؛ فلا يفعل لشيء ولا بشيء، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل الطاعته أشد العذاب، ويُنَعِّم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب، وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء، ولا يُعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله، فحينئذٍ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون، لا لأنه في نفسه باطل وظلم؛ فإن الظلم في نفسه مستحيل؛ فإنه غير ممكن، بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة، وجعل الشيء موجوداً ومعدومًا معًا في آن واحد؛ فهذا حقيقة الظلم عندهم.

فإذا رجع العامل إلى نفسه قال: من لا يستقر له أمر، ولا يؤمن له مكر، كيف يوثق بالتقرُّب إليه؟ وكيف يعول على طاعته واتباع أوامره وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة؟ فإذا هجرنا فيها اللذات، وتركنا الشهوات، وتكلَّفنا أثقال العبادات، وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب علينا الإيمان كفرًا والتوحيد شركًا، والطاعة معصية، والبرَّ فجوراً ويديم علينا

العقوبات، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة.

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم، وتخمر في نفوسهم، صاروا إذا أُمِرُوا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمُك إن كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسِلْتَ وبَطلْتَ وتعطلت وتركت ما أمرك به، ربما قربك وأكرمك ، فيُودِعُ بهذا القول قلبَ الصبي ما لا يثقُ بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة ولا وعده على الإحسان. وإن كبر الصبي، وصلح للمعاملات والمناصب، قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميرًا، ويأخذ الكيِّس المحسن لشُغْله فيخلده في الحبس ويقتله ويصلبه. فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه، وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبه، وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة والبريء بالعذاب. فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة؛ فلا بفعل الخير يستأنس، ولا بفعل الشر يستوحش. وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين، والتنفير عن الله، لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين. ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل. وكُتب الله المنزلة كلها ورُسله كلهم شاهدة بضدّ ذلك، ولا سيما القرآن. فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه، لصلُحَ العالم صلاحًا لا فساد معه.

فالله سبحانه أخبر - وهو الصادق الوفي - أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسنُ لديه ظلمًا ولا هضما، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرّة ولا يُظْلَمُها: ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزي بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وهو الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلَّم الجاهلين، وبصر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى الشاردين. وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده، بحيث يعذر العبد من نفسه، ويتعرف بأنه سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه؛ كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

وقال عمن أهلكهم في الدنيا إنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴿١٤﴾ **فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ** ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥].

وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٩].

قال الحسن: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم؛ ما وجدوا عليه حُجّة ولا سبيلاً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]. فهذه الجملة في موضع الحال أي قطع دابرهم حال كونه سبحانه محموداً على ذلك، فقطع دابرهم قطعًا مصاحبًا لحمده؛ فهو قطع وإهلاك يحمد عليه الرب تعالى؛ لكمال حكمته وعدله، ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها.

فوضعها في الموضع الذي يقول مَنْ عَلِمَ الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولا يليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]؛ فحذف فاعل القول إشعاراً بالعموم، وأن الكون كله قال: «الحمد لله رب العالمين» لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله.

ولهذا قال في حق أهل النار: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم.

وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب.

وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذٍ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه وردَّه؛ فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على ردِّه ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيراً لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.

وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكَّن من أسباب الهداية وأنه لا يضل إلا الفاسقين والظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم؛ كما قال: ﴿**كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وقال عن أعدائه من اليهود: ﴿**وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغيّ على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه.

وأما المكر الذي وصف به نفسه؛ فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله؛ فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن؛ فيكون المكر منهم أقبح

شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه؛ فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس،ولو كان عملاً صالحًا مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه. وقوله لم يبق بينه وبينها إلا ذراع يشكل على هذا التأويل؛ فيقال: لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خُذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها وعمِلت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس: فإن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أُمِرُوا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحق؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته. وقوله: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنما هو في حق الفجار

والكفار؛ ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون. والذي يخافه العارفون بالله من مكره: أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب على غرة وفترة.

وأمر آخر: وهوأن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلى عنهم إذا تخلّوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: إن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنون به وذلك مكر(١). أهـ.

[أوجه الشبه بين المؤمن والنخلة]

تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك؛ فإنه لما قدَّر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة ذكور الحيوان وإناثه، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان؛ خصوصًا بالمؤمن - كما مثَّله النبي ﷺ - وذلك من وجوه كثيرة:

أحدها: ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة

(١) الفوائد: ٢٣٠ - ٢٣٧.

التي ﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها؛ كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل، فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها؛ فلا يسقط عنها صيفًا ولا شتاء؛ كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره؛ أما قصيرها فلا يحتاج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها؛ فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها؛ وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله، لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم؛ فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قُوتًا وأدمًا وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار...

الوجه السادس من وجوه التشبيه: أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة؛ فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة؛ فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب، ويستر به الفرج والخلل،

وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحُصُر وغيرها، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس.

وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم، وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثامن: أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها؛ وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر؛ وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدًا، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر، حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وآراب؛ وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط، بل إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأمونًا.

في «الترمذي» مرفوعًا إلى النبي ﷺ: **(خيركم من يرجي خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)**[1][2] أهـ.

---

(١) رواه الترمذي في الفتن، باب النهي عن سب الريح، ح ٢٢٦٣، وأحمد: ٢/ ٣٦٨، ٣٧٨.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١٦ - ١٢٠.

[المسلم وشجرة العنب]

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: (**لا يقولن أحدكم: الكرم؛ فإن الكرم: الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب**)[١].

العرب تسمي شجر العنب كرمًا لكرمه، والكرم كثرة الخير والمنافع والفوائد لسهولة تناولها من الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠**﴾ [لقمان: ١٠]، وفي آية أخرى: ﴿**مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧**﴾ [ق: ٧]؛ فهو كريم في مخبره، بهيج في منظره، وشجر العنب قد جمع وجوهًا من ذلك.

منها: تذليل ثمره لقاطفه.

ومنها: أنه ليس دونه شوك يؤذي مجتنيه.

ومنها: أنه ليس بممتنع على من أراده لعلو ساقه وصعوبته كغيره.

ومنها: أن الشجرة الواحدة منه - مع ضعفها ودقة ساقها - تحمل أضعاف ما تحمله غيرها.

ومنها: أن الشجرة الواحدة منه إذا قطع أعلاها أخلفت من جوانبها وفروعها، والنخلة إذا قطع أعلاها ماتت، ويبست جملة..

ومنها: أن ثمره يؤكل قبل نضجه، وبعد نضجه، وبعد يبسه.

---

(١) أخرجه بلفظه أبو داود في الأدب، ح ٤٩٧٤، وأصله في الصحيحين: البخاري، كتاب الأدب، ح ٦١٨٣، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب، ح ٢٢٤٧.

ومنها: أنه يتخذ منه من أنواع الأشربة الحلوة والحامضة - كالدبس والخل - ما لا يتخذ من غيره، ثم يتخذ من شرابه من أنواع الحلاوة والأطعمة والأقوات ما لا يتخذ من غيره، وشرابه الحلال غذاء وقوت ومنفعة وقوة.

ومنها: أنه يدخر يابسه قوتًا وطعامًا وأدمًا.

ومنها: أن ثمره قد جمع نهاية المطلوب من الفاكهة من الاعتدال؛ فلم يفرط إلى البرودة كالخوخ وغيره، ولا إلى الحرارة كالتمر؛ بل هو في غاية الاعتدال، إلى غير ذلك من فوائده.

فلما كان بهذه المنزلة سموه كرمًا، فأخبرهم النبي ﷺ أن الفوائد والثمرات والمنافع التي أودعها الله قلب عبده المؤمن - من البر وكثرة الخير - أعظم من فوائد كرم العنب؛ فالمؤمن أولى بهذه التسمية منه.

فيكون معنى الحديث على هذا: النهي عن قصر اسم الكرم على شجر العنب، بل المسلم أحق بهذا الاسم منه.

وهذا نظير قوله ﷺ: **(ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب)**[1]؛ أي مالك نفسه أولى أن يسمى شديداً من الذي يصرع الرجال.

وكقوله: **(ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكنه الذي لا يسأل الناس، ولا يُفْطَنُ له فيُتصدق عليه)**[2] أي هذا

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الأدب، ح ٦١١٤، ومسلم في البر والصلة ح ٢٦٠٩.

(٢) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الزكاة، ح ١٤٧٩، ومسلم في الزكاة، ح ١٠٣٩.

أولى بأن يقال له مسكين من الطوّاف الذي تسمونه مسكينًا.

ونظيره في المفلس، والرقوب وغيرهما.

ونظيره قوله: **(ليس الواصل بالمكافئ، ولكنه الذي إذا قطعت رحمه وصلها)**(١) وإن كان هذا ألطف من الذي قبله.

وقيل: في معنى النهي وجه آخر؛ وهو: قصد النبي ﷺ سلب هذا الاسم المحبوب للنفوس التي يلذ لها سماعه عن هذه الشجرة التي تتخذ منها أم الخبائث؛ فيسلبها الإسم الذي يدعو النفوس إليها، ولا سيما فإن العرب قد تكون سمتها كرمًا، لأن الخمر المتخذة منها تحث على الكرم وبذل المال، فلما حرّمها الشارع نفى اسم المدح عن أصلها، وهو «الكرم» كما نفى اسم المدح عنها، وهو الدواء، فقال: **(إنها داء، وليست بدواء)**(٢) ومن عرف سر تأثير الأسماء في مسمياتها نفرة وميلاً عرف هذا؛ فسلبها النبي ﷺ هذا الاسم الحسن، وأعطاه ما هو أحق به منها؛ وهو: «قلب المؤمن»(٣). أهـ.

[الخطب النبوية]

كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وذكر الجنة، والنار، وما أعد الله

---

(١) رواه البخاري في الأدب، ح ٥٩٩١.

(٢) رواه أحمد: ٤/٣١٧، ولمسلم نحوه في الأشربة، ح ١٩٨٤.

(٣) مختصر سنن أبي داود: ٧/٢٦٨ - ٢٧١.

لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته؛ فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا، ومعرفةً بالله وأيامه؛ لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورًا مشتركة بين الخلائق؛ وهي النوح على الحياة، والتخويف بالموت؛ فإن هذا أمر لا يُحصل في القلب إيمانًا بالله، ولا توحيدًا له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيرًا بأيامه، ولا بعثًا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه؛ فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة، غير أنهم يموتون، وتُقسم أموالهم، ويُبلي التراب أجسامهم، يا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا؟! وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به؟!

ومن تأمل خطب النبي ﷺ، وخُطب أصحابه ﵃، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه؛ فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم. ثم طال العهد، وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسومًا تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها، وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننًا لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا الخطب بالتسجيع والفقر، وعلم البديع، فنقص بل عدم حظ القلوب منها، وفات المقصود بها[١]. أهـ.

---

(١) زاد المعاد: ١/٤٢٣ - ٤٢٤.

[العلاج بتطييب قلب المريض]

روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : (**إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل؛ فإن ذلك لا يرد شيئًا، وهو يطيب نفس المريض**)[١].

وفي هذا الحديث نوع شريف جدًا من أشرف أنواع العلاج؛ وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها، الذي هو غاية تأثير الطبيب.

وتفريج نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال ما يسره عليه له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها؛ فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي، وقد شاهد الناس كثيرًا من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه، ويعظمونه، ورؤيتهم لهم، ولُطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوع يرجع إلى المريض، ونوع يعود على العائد، ونوع يعود على أهل المريض، ونوع يعود على العامة.

وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده، ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين

---

(١) رواه بنحوه ابن ماجه في الجنائز، باب عيادة المريض، ح ١٤٣٨، والترمذي في الطب، باب التداوي بالرماد، ح ٢٠٨٧، وقال حديث غريب.

ثدييه، ويدعو له، ويـصف له ما ينفعه في علته، وربـما توضأ وصبَّ على المريض من وضـوئه، وربما كان يقـول للمريض: **(لا بأس طهـور إن شـاء الله)**[١]، وهذا من كمال اللطف، وحسن العلاج والتدبير[٢]. أهـ.

[الراحمون]

إذا أشرق في القلب نور الإيمان، واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة؛ فتراه رحيمًا رقيق القلب بكل ذي قربى، ومـسلم يرحم النملة في جحـرها والطير في وكره، فـضلا عن بني جنسه؛ فـهذا أقرب القلوب من الله؛ قال أنس: «كـان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال».

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبـه الرحمة والرأفـة، وأبدله بهما الغلظة والقـسوة. وفي الحديث الثابت: **(لا تنزع الرحمة إلا من شقي)**[٣] وفيه **(من لا يَرْحَم لا يُرْحَم)**[٤] وفيه **(ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)**[٥] رواه أحمد

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها كتاب المرضى، ح ٥٦٥٦.

(٢) زاد المعاد: ٤/١١٦ - ١١٧.

(٣) رواه الترمـذي في البر والصلة، باب رحـمة الناس، ح ١٩٢٣، وقـال: حسن، وأبو داود في الأدب باب الرحمة، ح ٤٩٤٢، وأحمد: ٢/٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب، ح ٥٩٩٧، ومسلم في الفضائل، ح ٢٣١٨.

(٥) رواه الترمذي في البر والصلة، باب رحمة الناس، ح ١٩٢٤ وقال: حسن صحيح.

والحاكم، وفيه: (**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**)[١] رواه أحمد.

والصديق ﷺ إنما فَضَلَ الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية؛ ولهذا أظهر أثرها في جميع مقاماته حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بعيسى وإبراهيم. والرب سبحانه وتعالى هو الرءوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته. وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم[٢]. أهـ.

[الاستهانة بأهل الغفلة]

من **علامات الإنابة**: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتح باب الرجاء لنفسك؛ فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة؛ ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ على نفسك النقمة. فإن كنت لا بد مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، ح ٢٨٦٥، وأحمد: ٤/ ١٦٢.

(٢) الروح: ٣٠٠.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله؛ فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم - بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني - لم يجد بداً من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك ألبتة؛ ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة، فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها - أو كلها - أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأعراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه. وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله. ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة؛ وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب؛ فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه؛ من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال؛ إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد عُطِّلتْ منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبب النفوس؛ فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا[(١)]. أهـ.

[رحمة العصاة]

إن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه؛ غضبًا منه لله، وحرصًا على أن لا يعصى؛ فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّي ونفسه استغاث بالله، والتجأ إليه، وتململ بين يديه تململ السليم، ودعاه دعاء المضطر، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينًا، مع قيامه بحدود الله، وتَبَدَّل دعاؤه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفة من عمره،

---

(١) مدارج السالكين: ١/٤٢٨ - ٤٢٩.

يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم[(١)].

[التعيير]

وقوله - أي الهروي رحمه الله -: «وكل معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك».

يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها؛ وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ: **(من عيَّرَ أخاه بذنب لم يمتْ حتى يعمله)**[(٢)] قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث: هذا من ذنب قد تاب منه.

وأيضًا: ففي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعيَّر، وفي الترمذي أيضًا مرفوعًا: **(لا تُظْهِرِ الشماتةَ لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك)**[(٣)].

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته؛ لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كَسْرَته بذنبه،

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤١٧.

(٢) رواه الترمذي في القيامة، ح٢٥٠٥، وحكم عليه بالانقطاع، وكذا ضعَّفه الألباني؛ ضعيف الترمذي رقم ٤٤٩، وضعيف الجامع رقم ٥٧١٠.

(٣) رواه الترمذي في القيامة، ح ٢٥٠٦، وقال: هذا حديث حسن غريب، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي رقم (٤٥٠).

وما أحدث له من الذلَّة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكسَ الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفعُ له، وخير من صولة طاعتك، وَتَكَثُّرِكَ بها والاعتداد بها، والمنَّة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا الْمُدِلّ من مَقْتِ الله؛ فذنبٌ تذل به لديه أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا؛ فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك أن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُدلّ، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زَجَل المسبحين المدلّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر؛ فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يَطَّلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي ﷺ: (**إذا زنت أمة أحدكم، فَلْيُقِمْ عليها الحدَّ ولاَيُثَرِّبْ**)[1] أي لا يُعيِّر؛ من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ [يوسف: ٩٢]؛ فإن الميزان بيد الله، والحكم لله، فالسوط الذي ضُرِبَ به هذا العاصي بيد مُقَلِّب القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿**وَلَوْلَا أَن**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع، باب بيع العبد الزاني (٢١٥٢)، ومسلم في الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٧٠٣).

ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ (لاَ وَمُقَلِّبِ القلوب)[1]، وقال: (ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل؛ إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزِيغه أزاغَه) ثم قال: (اللَّهم مقلبَ القلوب ثَبِّتْ قلوبناَ عَلَى دينك)[2]، (اللَّهم مُصَرِّفَ القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)[3][4].

[إقالة العثرات]

قوله ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)[5] قال ابن عقيل: المراد بهم الذين دامت طاعاتهم وعدالتهم، فزلّت في بعض الأحايين أقدامهم بورطة.

قلت: ليس ما ذكره بالبيّن، فإن النبي ﷺ لا يعبّر عن أهل التقوى والطاعة والعبادة بأنهم ذوو الهيئات، ولا عهد بهذه العبارة في كلام الله ورسوله للمطيعين المتقين، والظاهر أنهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه

---

(١) البخاري في الأيمان، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ (٦٦١٧) (٦٦٢٨).

(٢) ابن ماجة في المقدمة، ح (١٩٩) وأحمد ٤/ ١٨٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة برقم (١٦٥).

(٣) مسلم في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ح(٢٦٥٤).

(٤) مدارج السالكين: ١/ ١٨٢ - ١٨٤.

(٥) رواه أبو داود في الحدود، باب في الحد يشفع فيه، ح ٤٣٧٥، وأحمد: ٦/ ١٨١.

والشرف والسؤدد؛ فإن الله تعالى خصّهم بنوع تكريم وتفضيل على بني جنسهم، فمن كان منهم مستوراً مشهوراً بالخير حتى كبا به جواده، ونبا عضب صبره، وأديل عليه شيطانه، فلا تسارع إلى تأنيبه وعقوبته، بل تقال عثرته ما لم يكن حدًا من حدود الله؛ فإنه يتعين استيفاؤه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع؛ فإن النبي ﷺ قال: (**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**)[١]، وقال: (**إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**)[٢]، وهذا باب عظيم من أبواب محاسن هذه الشريعة الكاملة، وسياستها للعالم، وانتظامها لمصالح العباد في المعاش والمعاد[٣]. أهـ.

[السكينة وحقيقتها وأقسامها]

لشدة الحاجة إلى السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها نشير إلى ذلك بحسب علومنا القاصرة، وأذهاننا الجامدة، وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون؛وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب المغازي، ح ٤٣٠٤، ومسلم في الحدود، ح ١٦٨٨.

(٢) هو الحديث السابق نفسه، وفيه: (أهلك الذين من قبلكم) بدلاً من: (بنو إسرائيل).

(٣) بدائع الفوائد: ٣/ ١٢٢.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها؛ كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا، وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء الله قد أحاطوا به؛ كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره؛ فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر؛ فإن الكذاب - ولا سيما على الله - أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون، وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان.

وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك؛ ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤] فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وذلك يوم الحديبية. قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨] لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لمَّا منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبَّتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير، وتحتمل الآية وجهًا آخر؛ وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين؛ وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦]، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية

الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم؛ فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله؛ أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمرة هذه السكينة: الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية؛ وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على الله تعالى، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: **(لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)**[1].

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

---

(١) رواه البيهقي في سننه موقوفًا على سعيد بن المسيب: ٢/ ٢٨٥، ح ٣٣٦٥ وكذا رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٢/ ٨٦، ح ٦٧٨٧، وعبد الرزاق في مصنفه: ٢/ ٢٦٦، ح ٣٣٠٨، ٣٣٠٩؛ كلاهما ذكره موقوفًا على ابن المسيب.

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها؛ فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه.

فتأمل كلَّ مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟[١]. أهـ.

[متى تحتاج السكينة]

العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يعبر فينقلب ترَحًا وحزنًا، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح، وتجاوز الحد فانقلب تَرَحًا عاجلاً، ولو أُعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير، وبالله التوفيق، وعند هجوم الأسباب المؤلمة على اختلافها الظاهرة والباطنة، فما أحوجه إلى السكينة حينئذ، وما أنفعها له، وأجداها عليه، وأحسن عاقبتها!

---

(١) أعلام الموقعين: ٢٥٦/٤ - ٢٦٠.

والسكينة في هذه المـواطن علامة على الظفـر، وحصول المحـبوب، واندفاع المكروه، وفقدها عـلامة على ضد ذلك، لا يخطئ هذا ولا هذا، والله المستعان[١]. أهـ.

[فضل الغربة وأهلها]

[قـال] النـبي ﷺ : (**بدأ الإسلام غريبًـا، وسيعود غريبًـا كما بدأ، فطوبى للغـــرباء**. قـيل: ومن الغرباء يا رســول الله؟ قـال: **الذين يَصْلُحُـون إذا فسـد الناس**)[٢] . . .

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحـاق عن أبي الأحـوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ؛ فطـوبى للغـــرباء**. قيل: ومــن الغرباء يا رســول الله؟ قال: **النُّـزَّاع مـن القبـائل**)[٣]، وفي حديث عبد الله بن عـمرو قال: قال النبي ﷺ - ذات يوم ونحن عنده - :(**طوبى للغـرباء**. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **ناس صالحون قليل في ناس كثير؛ من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**)[٤].

وقال أحـمد: حدثنا الهيـثم بن جميل حـدثنا محمد بن مـسلم حدثنا

---

(١) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٦٠.

(٢) رواه مسلم في الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، ح١٤٥، ١٤٦.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن باب بدأ الإسلام غـريبًا، ح (٣٩٨٨)، ورواه أحمد في المسند ١/ ٣٩٨، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٣).

(٤) رواه أحمد ٢/ ١٧٧.

عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (**إن أحب شيء إلى الله الغرباء**. قيل: ومن الغرباء؟ قال: **الفرارون بدينهم؛ يجتمعون إلى عيسى ابن مريم** عليه السلام **يوم القيامة**)(١).

وفي حديث آخر (**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**، قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: **الذين يحيون سنتي، ويعلمونها الناس**)(٢)

وقال نافع عن مالك: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد، فوجد معاذ ابن جبل رضي الله عنه جالسًا إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي. فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثًا حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: (**إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا؛ قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**)(٣).

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جداً سموا «غرباء»؛ فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات؛ فأهل الإسلام في

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٢٤، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥، وفي إسناده سفيان بن وكيع وهو ضعيف.

(٢) رواه البيهقي في الزهد، ح (٢٠٧)، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص ٢٣ وفي مسند الشهاب: ١٣٨/٢، ح ١٠٥٢، ١٠٥٣.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن باب من ترجى له السلامة من الفتن، ح(٣٩٨٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه برقم (٨٦٣).

الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم؛ كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكنَّ من تَنأَيْنَ عنه غريب

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى، الوحيد من ليس له مثلي أنيس، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة»[1]. أهـ.

[أنواع الغربة]

الغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق؛ وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه «بدأ غريبًا» وأنه «سيعود غريبًا كما بدأ» وأن «أهله يصيرون غرباء».

---

(١) مدارج السالكين: ٣/١٤٩ - ١٥١.

وهذه الغـربة قد تكون فـي مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «**الغـربة**» هم أهل الله حقاً؛ فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقـوا الناس أحوج ما كانوا إليـهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامـة مع آلهتهم بقوا فـي مكانهم، فيقال لهم «ألا تنطلقـون حيث انطلق الناس؟ فيـقولون: فارقنـا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليـوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهـذه «**الغــربة**» لا وحشة على صاحـبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد مـا تكون وحشته إذا استأنســوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث الـقاسم عن أبي أمامـة عن النبي ﷺ قـــال - عن الله تعالى -: (**إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذِّ، ذو حظ من صلاته، أحسنَ عبادة ربه، وكان رزقه كَفافًا، وكان مع ذلك غامضًا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وصبر على ذلك حتى لقي الله، ثم حلَّت منيته، وقَلَّ تُراثه، وقَلَّتْ بَواكيه**)(١).

ومن هؤلاء الغربـاء من ذكرهم أنس في حديثـه عن النبي ﷺ: (رُبَّ

---

(١) رواه الترمـذي بنحوه في الزهد، باب ما جـاء في الكفاف والصبـر عليه، ح ٢٣٤٧، ورواه ابن مـاجـه في الزهد باب من لا يؤبه له ح(٤١١٧)، ورواه أحـمـد ٥/ ٥٥٢، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (٨٩٧).

أشعثَ أغبر، ذي طِمْرَين لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأَبَرَّه)[(١)].

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: (ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغْبَر، ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره)[(٢)]، وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب؛ لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ - التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة؛ بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقّاً، وأكثر الناس - بل كلهم - لائِمٌ لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهلَ شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي ﷺ: (هم النزاع من القبائل) أن الله سبحانه بعث

---

(١) رواه الترمذي في المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه من حديث أنس - كما ذكر ابن القيم - ح ٣٨٥٤. ونحوه في مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة، ح ٢٦٢٢.

(٢) رواه ابن ماجه بنحوه في الزهد، باب من لا يؤبه له، ح(٤١١٥)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (٨٩٦).

رسوله وأهلُ الأرض على أديان مختلفة؛ فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبًا في حَيِّهِ وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعًا من القبائل؛ بل آحادًا منهم، تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقّاً حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ، بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جداً، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقة واحدة قليلة جداً غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: **(مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شُحاً مطاعًا وهوىً متبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يَدَ لك**

به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامَّهم؛ فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر)[١] ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة؛ ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخُشَني - قال: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامَّ؛ فإن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله، قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم)[٢]»، وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسُّنَّة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه؛ كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ. فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له

(١) رواه بنحوه أبو داود والترمذي كما في الحديث الذي يليه.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي، ح ٤٣٤١، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ح ٣٠٥٨، وقال: حسن غريب.

الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نِسَبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدًا ولا معينًا؛ فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف.

النوع الثاني من الغربة: غربة مذمومة؛ وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

النوع الثالث من الغربة: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم: وهي الغربة عن الوطن؛ فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء؛ فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها. وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **(كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)**[1]، وهكذا هو في نفس

---

(١) رواه البخاري في الرقائق، باب قول النبي ﷺ (كن في الدنيا كأنك غريب...)، ح (٦٤١٦).

الأمر، لأنه أُمِرَ أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. . .

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبًا، وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد[1]. أهـ.

[وحشة التفرد]

لما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريقٍ مرافقُه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق؛ نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين: ﴿ **أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلُّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم؛ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم؛ فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين؛ فليكونا منك على بال:

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ١٥١ - ١٥٦.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة؛ فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته؛ فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والْجَمْز بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «**اللَّهم اهدني فيمن هديت**»[١] أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك؛ فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم؛ فهو توسل إلى الله بإحسانه.

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة، باب القنوت في الوتر، ح ١٤٢٥، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، ح٤٦٤ وقال: هذا حديث حسن.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليَّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك[1].

[هل ذنوب المسلمين حجة للكافرين؟]

قال السائل: نرى في دينكم أكثر الفواحش فيمن هو أعلم وأفقه في دينكم كالزنا واللواط والخيانة، والحسد والبخل، والغدر والجبن، والكبر والخيلاء، وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمروءة والحمية، وكثرة الهلع، والتكالب على الدنيا والكسل عن الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال ماذا على الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتباعهم؟ وهل يقدح ذلك شيئًا في نبوتهم أو يوجب تغييراً في وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الذنوب على اختلاف أنواعها وأجناسها إلا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وهل يجوز ردّ رسالاتهم وتكذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلا من أقبح التعنت؟ وهو بمنزلة رجل مريض دعاه طبيب ناصح إلى سبب ينال به غاية عافيته، فقال: لو كنت طبيبًا لم يكن فلان وفلان فعلاً مرضى، وهل يلزم الرسل أن يشفوا جميع المرضى بحيث لا يبقى في العالم مريض؟ وهل تعنّت أحد على الرسل بمثل هذا التعنّت؟

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٧ - ٣٩.

الوجه الثاني: أن الذنوب أو المعاصي أمر مشترك بين الأمم، لم يزل في العالم من طبقات بني آدم: عالمهم وجاهلهم، وزاهدهم في الدنيا وراغبهم، وأميرهم ومأمورهم، وليس هذا أمرًا اختصت به هذه الأمة حتى يُقدح به فيها وفي نبيّها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل؛ بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان، والذنوب والمعاصي، يكون فيه هذا وهذا، فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع: أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء، وعدد الرمل والحصى، ثم تاب منها تاب الله عليه؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذا في حق التائب، وأن التوبة تجبُّ ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يُكفِّر الذنوب، كما في الحديث الصحيح: (**ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لقيتك بقرابها مغفرة**)[١]؛ فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات من حديث أنس، باب فضل التوبة والاستغفار، ح ٣٥٤٠، وقال: حسن غريب. وبنحوه من حديث أبي ذر رواه مسلم في الذكر والدعاء...، ح ٢٦٨٧.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم محبط حسناتهم، ولا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يعقب لهم شيء من مغفرة ذنوبهم؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: (أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً)[1].

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار، وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا يبقى معه حسنة.

الوجه الخامس: أن يقال لمورد هذا السؤال إن كان من الأمة الغضبية إخوان القرود: ألا يستحي من إيراد هذا السؤال من آباؤه وأسلافه كانوا يشاهدون في كل يوم من الأيام ما لم يره غيرهم من الأمم، وفلق الله البحر فأنجاهم من عدوهم وما جفت أقدامهم حتى قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ولما ذهب لميقات ربه لم يمهلوه أن عبدوا بعد ذهابه العجل المصوغ، وغلب أخوه هارون معهم، ولم يقدر على الإنكار عليهم، وكانوا مع مشاهدتهم العجائب يَهِمُّون برجم موسى وأخيه هارون في كثير من

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما المحفوظ عنه ﷺ: «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته» رواه ابن ماجه في المقدمة، ح ٥٠، وابن أبي عاصم في السنة ص ٢٢.

الأوقات، والوحي بين أظهرهم، ولما ندبهم إلى الجهاد قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، وآذوا موسى أنواع الأذى. . . وقتلهم الأنبياء بغير حق حتى قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا في أول النهار، وأقاموا السوق آخره - كأنهم جزروا غنمًا - أمر معروف.

وقتلهم يحيى بن زكريا ونشرهم إياه في المنشار.

وإصرارهم على العظام واتفاقهم على تغيير كثير من أحكام التوراة. . . أفلا يستحيي عباد الكباش والبقر من تعيير الموحدين بذنوبهم؟ أولا يستحيي ذرية قتلة الأنبياء من تعيير المجاهدين لأعداء الله؟ فأين ذرية من سيوف آبائهم تقطر من دماء الأنبياء، ممن تقطر سيوفهم من دماء الكفار المشركين؟ أو لا يستحق من يقول في صلاته لربه: «انتبه كم تنام، استيقظ من رقدك» ينخيه بذلك ويحميه، من تعيير من يقول في صلاته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

فلو بلغت ذنوب المسلمين عدد الحصى والرمل والتراب والأنفاس، ما بلغت مبلغ قتل نبي واحد، ولا وصلت إلى قول إخوان القردة: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: «إن الله بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه من البكاء وجعلت الملائكة تعوده» ، وقولهم: «إن الله عضّ أنامله على ذلك»، وقولهم: «إنه ندم على

خلق البشر وشقّ عليه لما رأى من معاصيهم وظلمهم»[١]. أهـ.

[منفعة الحق ومنفعة الخلق]

لا أحد من المخلوقين يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحب العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضرُّه أقرب من نفعه. وأما الرب سبحانه فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها. فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة، فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك؛ فإنه لا يريد ذلك البتة بالقصد الأول، بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلاً أو آجلاً، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه، فتأمل ذلك فإن فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسًا من المخلوقين، وسدًا لباب عبوديتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده. فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم؛ فكما لا تخافهم لا ترجوهم. ومما يبين ذلك أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك ضررًا عليك؛ فإن صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها، فهم لايبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك. وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب

(١) هداية الحيارى: ٤٦٢ - ٤٦٨.

من هذه العداوة؛ فهم يريدون أن يصيروك كالكير ينفخ بطنك ويعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة، وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر، وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم، وربما علمت، وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك ورحت صفر اليدين، وكم فوَّتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها، وقطعوا طريق سفرك إلى منازلك الأولى ودارك التي دعيت إليها وقالوا: نحن أحبابك وخدمك، وشيعتك وأعوانك، والساعون في مصالحك. وكذبوا والله إنهم لأعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين، وقطاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾ [المنافقون: ٩]، فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيا حب الله وخوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي

بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (**واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**)[١]. وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. والله أعلم[٢]. أهـ.

[الفراسة]

سببها: نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده؛ يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة، لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة، وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «**الفراسة**» على حسب قوة الإيمان؛ فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحَدُّ فراسة...

وقال: أبوعمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطئ، ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السُّنة، وتعوَّد أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

(١) رواه بنحوه الترمذي في صفة القيامة، ح ٢٥١٦، وأحمد: ١/ ٢٩٣.

(٢) طريق الهجرتين: ٦٢ - ٦٤.

وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض؛ فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة، ولكن يتقي الفراسة من الغير؛ لأن النبي ﷺ قال: **(اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله)**(١) ولم يقل تفرسوا، وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة؟

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق؛ فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

وكان الجنيد يومًا يتكلم على الناس، فوقف عليه شاب نصراني متنكرًا. فقال: أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)** فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه، وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

ويقال في بعض الكتب القديمة: إن الصِّدّيق لا تخطئ فراسته.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿**اسْتَأْجِرْهُ**﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما، حيث استخلفه، وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ح ٣١٢٧، وقال: غريب.

حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورةٌ؛ فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة.

ومر به سواد بن قارب، ولم يكن يعرفه. فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية » فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر، فقال «سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدًا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر رضي الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرني عما سألتك عنه، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، كنت كاهنًا في الجاهلية، ثم ذكر القصة».

وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه صادق الفراسة، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه، فقلت: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟فقال: لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة».

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ؛ قال الله ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورًا يستضيء به في الناس على قصد السبيل، ويمشي به في الظلم، والله أعلم[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٨١ - ٤٨٣.



الفصل السادس: الابتلاء

[الابتلاء جسر لبلوغ أسمى المقامات]

إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجَلِّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر - لكماله - كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة؛ فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة والمنة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان... تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ؛ إمام الحنفاءِ، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم، وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونَصْرُهُ دينَه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده؛ فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثَّره، حتى ملأ السهل والجبل؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرًا أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافًا مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله

لأجله أضعافًا مضاعفة، فلما أُمِرَ إبرهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه رضاءً منهما وتسليمًا، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملأوا الأرض؛ فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله النسل، وبارك فيه، وكثر حتى ملأوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منه محمدًا ﷺ.

وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر بإحضارهم، وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك، فأوحى الله إلى داود: أن قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم - لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمري - أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم، وقد أردت أنت أن تحصي عددًا قدَّرتُ أنه لا يحصى... وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يُحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم؛ وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل. هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم، وفي السماوات بين الملائكة.

فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتبًّا لمن عرفه ثم عامل غيره، ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام؛ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره، حتى كلمه الله منه إليه تكليمًا، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلى السماوات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره؛ فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون، وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن محمد رسول الله ﷺ، وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله، القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاساة الأمر الشديد بين فرعون وقومه - ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله - لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ؛ وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم، حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ؛ وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه، وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب، والافتراء عليه والبهتان؛ وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه،

وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعة.

وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات، وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، وجعل خلاقه ونصيبه فيها؛ فهو يأكل منها رغدًا، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب؛ يُمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في وادٍ، همه ما يقيم به جاهه، ويُسلم به ماله، وتُسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط.

وهمهم إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء؟!

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها   فاعبر إليها على جسر من التعب

والحمد لله وحده، وصلى الله على محمد وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين[1].

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٧.

[تنعم أهل الفجور وابتلاء أهل الصلاح]

الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرًا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فإنا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يَرِدُ بخلاف الحس، ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى. فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة قط.

وإذا قيل: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه، وأهل الحق؟

فإذا كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وإن كان ممن يعلل الأفعال، قال: فعل بهم هذا ليعرضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة بحسب حاصله وبضاعته من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك؛ فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غليانًا... وأنت تشاهد كثيرًا من الناس إذا أصابه نوع من البلاء يقول: يا ربي، ما كان ذنبي حتى فعلت بي هذا؟ وقال لي غير واحد: إذا تبت إليه وأنبت وعملت صالحًا ضيق عليَّ رزقي، ونكد عليَّ معيشتي، وإذا رجعت إلى معصيته، وأعطيت نفسي مرادها، جاءني الرزق والعون، ونحو هذا.

فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه ليرى صدقك وصبرك، هل أنت صادق في مجيئك إليه وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذب فترجع على عقبك؟

وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية على مقدمتين:

إحداهما: حسن ظن العبد بنفسه وبدينه، واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نهى عنه، واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك، وأنه تارك للمأمور، مرتكب للمحظور، وأنه نفسه أولى بالله ورسوله ودينه منه.

والمقدمة الثانية: اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيش عمره مظلومًا مقهورًا مستضامًا، مع قيامه بما أُمِرَ به ظاهرًا وباطنًا، وانتهائه عما نُهِيَ عنه باطنًا وظاهرًا؛ فهو عند نفسه قائم بشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وهو تحت قهر أهل الظلم، والفجور والعدوان.

فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل، ومتدين لا بصيرة له، ومنتسب إلى العلم لا معرفة له بحقائق الدين.

فإنه من المعلوم: أن العبد وإن آمن بالآخرة فإنه طالب في الدنيا لما لا بد له منه من جلب النفع، ودفع الضر، بما يعتقد أنه مستحب أو واجب أو مباح، فإذا اعتقد أن الدين الحق واتباع الهدى، والاستقامة على التوحيد، ومتابعة السنة ينافي ذلك، وأنه يعادي جميع أهل الأرض، ويتعرض لما لا يقدر عليه من البلاء، وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة، لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال دينه، وتجرده لله ورسوله، فيعرض قلبه عن حال السابقين المقربين، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين، بل قد يدخل مع الظالمين، بل مع المنافقين، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فروعه وأعماله؛ كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **(بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا)**[1].

وذلك أنه إذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل إلا بفساد دنياه؛ من

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال. . .، ح ١١٨.

حصول ضرر لا يحتمله، وفوات منفعة لا بد له منها، لم يقدم على احتمال هذا الضرر، ولا تفويت تلك المنفعة.

فسبحان الله! كم صدت هذه الفتنة الكثير من الخلق، بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين.

وأصلها ناشئ من جهلين كبيرين: جهل بحقيقة الدين، وجهل بحقيقة النعيم الذي هو غاية مطلوب النفوس، وكمالها، وبه ابتهاجها والتذاذها، فيتولد من بين هذين الجهلين إعراضه عن القيام بحقيقة الدين، وعن طلب حقيقة النعيم.

ومعلوم أن كمال العبد هو بأن يكون عارفًا بالنعيم الذي يطلبه، والعمل الذي يوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لذلك النعيم؛ وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يُحَصِّله إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر.

فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه وموقوفًا على هذه المقامات الخمسة: علمه بالنعيم المطلوب، ومحبته له، وعلمه بالطريق الموصل إليه، وعمله به، وصبره على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣** ﴾ [العصر: ١ - ٣].

والمقصود: أن المقدمتين اللتين تثبت عليهما هذه الفتنة أصلهما الجهل بأمر الله ودينه، وبوعده ووعيده.

فإن العبد إذا اعـتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقـد أنه قد قام بفعل المأمور باطنًا وظاهراً، وترك المحظور باطنًا وظاهراً، وهذا من جهله بالدين الحق، وما لله عليه، وما هو المراد منه؛ فهو جاهل بحق الله عليه، جاهل بما معه من الدين قدراً ونوعًا، وصفة.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العـاقبـة في الدنيا للكفـار والمنافقـين على المؤمنين، وللفـجار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوعد الله تعالى ووعيده.

فأما المقـام الأول: فإن العبد كثيراً ما يتـرك واجبات لا يعلم بها، ولا بوجـوبها، فـيكون مقـصراً في العلم، وكـثيـراً ما يتـركهـا بعد العلم بـها وبوجوبها، إما كسلاً وتهاونًا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بمـا هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبـات القلوب أشد وجوبًا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجابات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل والمستحبات.

فتراه يتـحرج من ترك فرض، أو من ترك واجب من واجبـات البدن، وقد ترك مـا هو أهم من واجبـات القلوب وفـرضـها، ويتـحـرج من فـعل أدنى المحرمات وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا.

بل ما أكثر من يتعبد لله عز وجل بترك ما أوجب عليه؛ فيتخلى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قـدرته عليه، ويزعم أنه متقرب إلى الله تعالى بذلك، مجتمع على ربه، تارك مـا لا يعنيه؛ فهذا من أمقت الخلق إلى الله تعـالى، وأبغضـهم إليه، مع ظنه أنه قـائم بحقـائق الإيمان

وشرائع الإسلام، وأنه من خواص أوليائه وحزبه.

بل ما أكثر من يتعبد لله بما حرَّمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقربة، وحاله في ذلك شر من حال من يعتقد ذلك معصية وإثمًا؛ كأصحاب السماع الشعري الذي يتقربون به إلى الله تعالى، ويظنون أنهم من أولياء الرحمن، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان.

وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الحق ونوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل، وحبك الشيء يعمي ويصم. والإنسان مجبول على حب نفسه؛ فهو لا يرى إلا محاسنها، ومبغض لخصمه؛ فهو لا يرى إلا مساويه، بل قد يشتد به حبه لنفسه حتى يرى مساويها محاسن؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ويشتد به بغض خصمه حتى يرى محاسنه مساوئ؛ كما قيل:

نظروا بعين عداوة ولو أنها

عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

وهذا الجهل مقرون بالهوى والظلم غالبًا؛ فإن الإنسان ظلوم جهول.

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وقلدوهم فيها: في الإثبات والنفي ، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة.

والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علمًا وعملاً، لم يضمن نصر الباطل، ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة

والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] فاللعبد من العون بحسب ما معه من الإيمان وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان، علمًا وعملاً ظاهراً وباطنًا.

وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه.

وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الإيمان؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي الله حسبك وحسب أتباعك، أي كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له؛ فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله.

ومذهب أهل السُّنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

وكذلك ولاية الله تعالى لعبده هي بحسب إيمانه؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩]، فإذا نقص الإيمان وضعف، كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان.

وكذلك النصر والتأييد الكامل، إنما هو لأهل الإيمان الكامل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه: إما بترك واجب، أو فعل محرم. وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل له عليهم سبيلاً في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى. فالمؤمن عزيز غالب مؤيَّد منصور، مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهرًا وباطنًا؛ وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله،

يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره[(١)]. أهـ.

[أصول جامعة نافعة في ابتلاء المؤمنين وتنعم غيرهم]

تمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة:

الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر وعلى الاحتساب؛ وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته؛ فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء. والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤].

فاشتركوا في الألم وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يحمل عنه من الأذى

---

(١) إغاثة اللهفان: ٥٤٦ - ٥٥٣.

ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حملة، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن؛ فإنه يدفع عنه كثيراً من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته وتبعته.

الأصل الرابع: إن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه، كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه.

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه، دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قال الحسن رحمه الله: «إنهم وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته؛ فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة. ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه؛ كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: (**والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان**

خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)[١].

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب؛ يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة[٢].

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان: أمر لازم، لا بد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم؛ فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذا الدار، حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين؛ فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار؛ كما قال تعالى: ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

---

(١) رواه بنحوه مسلم في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ح ٢٩٩٩.

(٢) هو معنى حديث رواه أحمد: ١/ ١٧٢، ١٧٤، والترمذي في الزهد، ح ٢٣٩٨.

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم، وكسرهم لهم أحيانًا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل.

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وإنكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا. ولو كانوا دائمًا مقهورين مغلوبين منصورًا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة. فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة. فإذا غُلِبُوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلَبُوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين، غالبين، قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول؛ فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا لم يدخل معهم أحد. فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة. فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والأدالة عليهم. فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب دونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها. فتلك المحن

والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنهـــا: أن امتحـانهم بادالة عدوهم عليهم يمحـصهم، ويخلصهم، ويهذبهم؛ كمـا قال تعالى في حكمة إدالة الكفار عـلى المؤمنين يوم أحد: ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)** ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٤].

فذكر سبحانه أنواعًا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار، بعد أن ثبَّتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهـم القرح في طاعته وطاعـة رسوله، فقد مس أعـداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمـته يجعل الأيام دولاً بين الناس، فيصيب كلا منهم نصيبه منها، كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كـونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمـهم موجودين مـشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء؛ فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين؛ أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم، وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين لما جاهدهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع: أنه سبحانه وتعالى إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

وقال تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت، أو لا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر، ولا بد من امتحان هذا وهذا.

فأما من قال: آمنت، فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه ليتبين: هل هو صادق في قوله آمنت، أو كاذب؟ فإن كان كاذبًا رجع على عقبيه، وفر من الامتحان، كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقًا ثُبِّتَ على قوله، ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا على إيمانه.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** (٢٢) ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما من لم يؤمن: فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب، ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوبتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم. فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ، وفي القيامة لكل أحد، ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية؛ فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يُهوِّن به عليه محنته. وأما الكافر والمنافق والفاجر، فتشتد محنته وبليته وتدوم؛ فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

فلابد من حصول الألم والمحنة لكل نفس، آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة. والكافر والمنافق والفاجر، تحصل له اللذة والنعيم ابتداء، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة. يوضحه:

الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدني بالطبع؛ لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم

عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم وإرادتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور، أو المعاونة على محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفة أعقبه ذلك الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد؛ فألم يسير يُعْقِب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعْقِب ألمًا عظيمًا دائمًا، والتوفيق بيد الله.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب.

والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله.

وأشد هذه الأسباب: المصيبة في النفس.

ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها؛ فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا

مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم. فمن عدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن؛ حيث يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦].

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً؛ إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه؛ فإنه فر من الموت لمَّا كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أردا به سوءاً غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعروض والبدن؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل بما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه من التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مُخْلِفه وزره. كذلك من رفَّه

بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى».

واعتبر ذلك بحال إبليس؛ فإنه امتنع من السجود لآدم فرارًا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادمًا لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته.

وكذلك عباد الأصنام: أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته؛ لا بد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته، عقوبة له؛ كما قال بعض السلف: «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته»[١]. أهـ.

[كيف نصبر على البلاء؟]

والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٥٥٨ - ٥٦٥.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن تخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة. قال علي ابن أبي طالب: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولارفع بلاء إلا بتوبة.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدى الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثـــامن: أن يعلـم أن في عـقبى هـذا الدواء من الشـفـاء والعافـية والصـحة وزوال الألم ما لم تحصــل دونه، فإذا طالعـت نفسه كراهـة هـذا الـدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره؛ قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال الله تعالى ﴿**فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا قال القائل:

لعـل عتبك محــمود عـواقبـه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

التـــاسع: أن يعلم أن المصيــبة ما جاءت لتهلكه وتقـتله، وإنما جاءت لتمــتحن صبره وتبـتليه، فيتـبين حينئـذ هل يصلح لاستخدامـه وجعله من أوليائه وحــزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجـتباه وخلع عليـه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكـص على عقبيه طُرِدَ وصُـفِعَ قفاه وأُقصي وتضـاعفت عليه المصيـبة، وهو لايشعر في الـحال بتضاعفـها وزيادتها، ولكن سيـعلم بعد ذلك بأن المصيبـة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصـابر أن المصيبة في حقه صارت نعـمًا عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتبـاينتين إلا صبر ساعة، وتشـجيع القلب في تلك الساعة. والمصـيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات وعن الآخر بالحرمان والخذلان؛ لأن ذلك تقـدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيـه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العــاشــر: أن يعلم أن الله يربي عبـده على السراء والضراء، والنعـمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جـميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة

من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وأن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أم يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلاً محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا. فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه؛ اللَّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرًا خالصا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه[(١)]. أهـ.

[كيف تتحمل أذى الخلق؟]

للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه:

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله - أي الهروي -، وهو مشهد «**القدر**» وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذي

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٧٦ - ٢٧٨.

بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار؛ فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

المشهد الثاني: مشهد **«الصبر»**: فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام؛ فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا - وهو محمود - صبر اضطراراً على أكبر منه، وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد **«العفو والصفح والحلم»**؛ فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته؛ فإنه **«ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»**(١) كما صح ذلك عن النبي ﷺ وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ.

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد **«الرضا»**؛ وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام

---

(١) رواه مسلم في البر، باب استحباب العفو والتواضع، ح ٢٥٨٨.

لله، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق؛ يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتى تسخط به وتشكى منه كان ذلك دليلا على كذبه في محبته. والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خَدِّي أرضا   للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر فليس من ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد «**الإحسان**»؛ وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان؛ فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويُهَوِّن هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة، وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم، وأهل العزائم.

ويُهوِّنه عليك أيضًا علمك بأن الجزاء من جنس العمل؛ فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك: عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في

إساءتك؛ يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك، فهذا لا بد منه، وشاهده في السُّنة من وجوه كثيرة لمن تأملها.

المشهد السادس: مشهد «**السلامة وبرد القلب**»؛ وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته؛ وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه، بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون على مصالحه؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيد لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟

المشهد السابع: مشهد «**الأمن**»؛ فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم واقعه الخوف ولا بد؛ فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيرًا؛ فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل أمن من تولد العداوة أو زيادتها، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكف من جزعه، بعكس الانتقام، والواقع شاهد بذلك أيضًا.

المشهد الثامن: مشهد «**الجهاد**»؛ وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم

الثمن؛ فإن أراد أن يسلِّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة ﷺ، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة - أعزها الله - ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق ﷺ على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطاب ﷺ بمشهد من الصحابة ﷺ : «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد» فاتفق الصحابة على قول عمر ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله حرَّم الله عليه الانتقام؛ كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

المشهد التاسع: مشهد «**النعمة**»؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلومًا يترقب النصر، ولم يجعله ظالمًا يترقب المقت والأخذ. فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين - ولا بد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه؛ فإنه ما أصاب المؤمن هَمٌّ ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه

كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء فهو مغبون سفيه؛ فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك؛ فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة، وأنها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أنَّ جلودهم كانت تُقْرَض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء.

هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض؛ فالعاقل يَعُدُّ هذا ذخرًا ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئًا.

المشهد العاشر: مشهد «**الأُسوة**»؛ وهومشهد شريف لطيف جداً، فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسُل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه؛ فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤذَه مَنْ قبله. وقد قال له وَرَقة بن

نوفل «لَتُكَذَّبن، ولَتُخْرَجَنَّ، ولَتُؤذَيَنَّ»(١) وقال له «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»(٢) وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده الأمثل فالأمثل؟

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على مِحَنِ العلماء، وأذى الجهال لهم، وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سماه «محن العلماء».

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد»؛ وهو أجل المشاهد وأرفعها، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والأنس به، واطمأن إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فَوَّض إليه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته، وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه، عن كل ما سواه؛ فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسِرُّه بتطلب الانتقام والمقابلة؛ فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلب جائع غير شبعان، فإذا رأى أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها فإنه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم(٣). أهـ.

---

(١) رواه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (١/ ٢٣٨).

(٢) رواه البخاري بنحوه في بدء الوحي، ح ٤، ومسلم في الإيمان، ح ١٦٠.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣٢٥ - ٣٣٠.

[علاج المصائب]

قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته؛ فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلّى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجلَّ حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضًا فإنه محفوف بِعَدَمَيْنِ: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، أيضًا فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه حتى يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ولا يُبقي عليه وجوده؛ فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضًا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرُّفَ العبد المأمور المنهي، لا تصرف المُلاَّك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يُخلِّفَ الدنيا وراءَ ظهره، ويجيء ربه فريدًا كما خلقه أوّل مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله، أو أفضل منه، وادّخر له - إن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد، ولينظر يمنة، فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة، فهل يرى إلا حسرة؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى: إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً، أبكت كثيراً، وإن سرت يومًا، ساءت دهرًا، وإن متَّعت قليلا، منعت طويلاً، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور؛ قال ابن مسعود ﷺ: لكل فرحة ترحة، وما مُلِئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا. وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء.

وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتُنا ونحن أقلُّ الناس، وإنه حقٌّ على الله ألا يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا...

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع لا يردها، بل يُضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

ومن علاجها: أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم - وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع - أعظم من المصيبة في الحقيقة.

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويُغضب ربه، ويسرُّ شيطانه، ويُحبط أجره، ويُضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه، ورده خاسئًا، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزَّاهم هو قبل أن يُعَزُّوه، فهذا هو الثباتُ والكمال الأعظم، لا لطمُ الخدودِ، وشقُّ الجيوب، والدعاءُ بالويل والثبور، والسخط على المقدور.

ومن علاجها: أن يعلم أن ما يُعقبه الصبرُ والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصُل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه، فلينظر: أيُّ المصيبتين أعظمُ؟ مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد. وفي الترمذي مرفوعًا: **(يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء)**[(١)].

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما يود أهل العافية في الجنة، ح ٢٤٠٤، وقال: غريب.

ومن علاجها: أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله؛ فإنه من كل شيء عوض إلا الله، فما منه عوض كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض   وما من الله إن ضيعته عوض

ومن علاجها: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له؛ فمن رضي فله الرِّضا، ومن سخط فله السخط؛ فحظُّك منها ما أحدثَتْه لك، فاختر خير الحظوظ أو شرها، فإن أحدثَتْ له سخطًا وكفرًا كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثَتْ له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب أو فعل محرم كتب في ديوان المفرِّطين، وإن أحدثَتْ له شكاية وعدم صبر كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثَتْ له اعتراضًا على الله وقدحًا في حكمته فقد قرع باب الزندقة أو ولجه، وإن أحدثَتْ له صبرًا وثباتًا لله كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضا عن الله كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمَّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه كُتِبَ في ديوان المحِّبين المخلصين.

وفي «مسند الإمام أحمد» والترمذي، من حديث محمود بن لبيد يرفعه: **(إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط). زاد أحمد: (ومن جزع فله الجزع)**[1].

---

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٦، وقال: حسن غريب، وابن ماجة في الفتن، ح ٤٠٣١؛ كلاهما من حديث أنس ﷺ. ومن حديث محمود بن لبيد راه أحمد بنحوه: ٤٢٨/٥، ٤٢٩.

ومن علاجها: أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته، فآخر أمره إلى صبر الاضطرار، وهو غير محمود ولا مُثاب؛ قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومَنْ لم يصبر صبر الكرام، سلا سلو البهائم. وفي «الصحيح» مرفوعًا: (**الصبر عند الصدمة الأولى**)[1] وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سَلَوْتَ سُلُوَّ البهائِم.

ومن علاجها: أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمقت إلى محبوبه.

وقال أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يُرضى به، وكان عمران ابن حصين يقول في علته: أحبه إليَّ أحبه إليه، وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يُمكن كل أحد أن يتعالج به.

ومن علاجها: أن يُوازن بين أعظم اللذتين والتمتعين، وأدومهما: لذة تمتعه بما أُصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح، فيحمد الله على توفيقه، وإن آثر المرجوح من كل وجه، فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أُصيب بها في دنياه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في الجنائز، ح ١٣٠٢، ومسلم في الجنائز، ح ٩٢٦.

ومن علاجها: أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا ببابه، لائذًا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوى إليه.

قال الشيخ عبد القادر: يا بني! إن المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القدر سَبُعٌ، والسَبُعُ لا يأكل الميتة.

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يسبك به حاصله، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبثًا كله؛ كما قيل:

سبكناه ونحسبه لجينا   فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

ومن علاجها: أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبُها، لأصاب العبد - من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب - ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله؛ يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقَّاه وصفَّاه، أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.

ومن علاجها: أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، وأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا، فانظر إلى قول الصادق المصدوق: **(حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)**[1].

وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال؛ فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذُلَّ ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد؛ فإنَّ الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثارُ العاجلة، ورفضُ الآخرة. وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات، فله شأن آخر.

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، ح ٢٨٢٣.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعدَّ لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج؛ فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) زاد المعاد: ٤/١٨٩ - ١٩٦.

[عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم]

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

فالعبد يكره مواجهة عدوِّه بقوَّته الغضبية خشية على نفسه منه وهذا المكروه خيرٌ له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شرٌّ له في معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شرٌ كثير لا يعرفه.

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول؛ فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضرّه وينفعه ميله وحبه، ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفعُ الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه. فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته

وعبوديته، فكل ما هو فيه من محبوب هو شرٌ له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارّها وأسباب هلكتها في محبوباتها. فانظر إلى غارس جنة من الجنات، خبير بالفلاحة، غَرَسَ جنة، وتعاهدها بالسقي والإصلاح، حتى أثمرت أشجارُها، فأقبل عليها يفصل أوصالها، ويقطع أغصانها، لعلمه أنها لو خُلِّيَتْ على حالها لم تطِبْ ثمرتها، فيُطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها، أقبل يقلمها، ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك، ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتًا ويسقيها وقتًا، ولا يترك الماء عليها دائمًا وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها، ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيرًا منها؛ لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديد، ويلقي عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها؛ وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بَضَعَ[1] جلده، وقطع عروقه، وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه[2]؛ كل ذلك رحمة به، وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه، ولم يوسع عليه لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه. وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته؛ حمية له ومصلحة، لا بخلاً عليه.

فأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأعلم العالمين، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من أن لا ينزله بهم؛ نظرًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم. ولو مُكِّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملاً، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا. فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي على الجُهَّلِ به وبأسمائه وصفاته، فنازعوه تدبيره، وقدحوا في حكمته، ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الباطلة، وسياساتهم الجائرة؛ فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حَصَّلوا. . والله الموفق.

ومتى ظفر العبدُ بهذه المعرفة، سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة؛ فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، والرضا جنة

---

(١) بَضَعَ الجلد: أي شَقَّه.

(٢) أبانه عنه: أي قطعه.

الدنيا ومستراح العارفين؛ فإنه طِيْبُ النفس بما يجري عليها من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره؛ فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة، والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتة، كما قال ﷺ في الدعاء المشهور: (**اللَّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونورَ صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي. ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرجًا. قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: بلى، ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن**)[١].

والمقصود قوله: (**عدلٌ فيَّ قضاؤك**)، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده من: عقوبة، أو ألم، وسبب ذلك؛ فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب. وهو عدلٌ في هذا القضاء. وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال ﷺ: (**والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**)[٢].

---

(١) رواه أحمد بنحوه: ١/ ٣٩١.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٩٥.

قال العلامة ابن القيم: فسألت شيخنا: هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظة «بشرطه» ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من: التوبة، والانكسار، والندم، والخضوع، والذُّلّ، والبكاء، وغير ذلك[١]. أهـ.

[الرحمة الحقيقية]

مما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقَّت عليها. هذه هي الرحمة الحقيقية؛ فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه؛ فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة الأم.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد؛ فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: « إن المبتلى إذا دُعي له: اللَّهم ارحمه، يقول الله

---

(١) الفوائد: ١٣٦ - ١٤٠.

سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟» وفي أثر آخر: «إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه». فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

كيف وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها؟

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به؛ فهو الغني الحميد، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه؛ فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغَّص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان؛ فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذَّرهم نفسه، لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه، لئلا يغتروا به[١]. أهـ.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٤٤٤ - ٤٤٥.

[ففروا إلى الله]

كيف يَسْلَم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجارٌ لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدوٌّ لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مُرْدٍ، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزيِّن، وضعف مستولٍ عليه؟ فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلَّى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة[1]. أهـ.

[التحيُّز إلى الله ورسوله]

إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر؛ فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها؛ فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شقّ، والمحادة أن يكون في حدّ وهو في حدّ.

ولا تستسهل هذا؛ فإن مبادئه تجرُّ إلى غايته، وقليلهُ يدعو إلى كثيره. وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر؛ فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته. وأكثر الخلق إنما يكونون بالجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة؛ فهناك لا تكاد تجد أحدًا في الجانب

---

(١) الفوائد: ٧٤.

الذي فيه الله ورسـوله، بل يعده الناس ناقص العقل سيء الاختيـار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مـواريث أعداء الرسل؛ فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر.

ولكن من وطَّن نفسه على ذلك، فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يـكون يقينًا له لا ريب عنده فـيه، وإلى صـبر تام على مـعاداة من عـاداه ولومـة من لامـه. ولا يتم له ذلك إلا برغـبـة قـوية في الله والدار الآخرة؛ بحـيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيـا وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مبـادئ الأمر؛ فإن نفسه وهواه وطبـعه وشـيطانه وإخوانه ومـعاشـريه من ذلك الجانب يدعـونه إلى العاجل، فإذا خـالفهم تصدّوا لحربه، فإنْ صبـر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهـلاً، وذلك الألم لذة؛ فإن الرب شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيُّزِه إلى الله وإلى رسوله، ويُريه كرامـة ذلك؛ فيشتدُّ به سروره وغبطتـه، ويبتهج به قلبـه، ويظفر بقوته وفـرحه وسروره، ويبـقى من كان محـاربًا له - على ذلك - بين هائب له، ومـسالم لـه، ومساعـد وتارك، ويقوي جنده ويضعف جند العدو.

ولا تستـصعب مخالفـة الناس والتحيُّز إلى الله ورسـوله ولو كنت وحدك؛ فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك.

وأعظم الأعـوان لك على هذا - بعـد عون الله - التـجـرُّد من الطمع والفزع؛ فـمتى تجرّدت منهمـا هانَ عليك التحيُّـز إلى الله ورسوله، وكنت

دائمًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله. ومتى قام بك الطمع والفزع، فلا تطمع في هذا الأمر ولا تحدث نفسك به. فإن قلتَ: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلتُ: بالتوحيد، والتوكل، والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شيء[1]. أهـ.

[البلاء بالسراء]

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصدِّيقون.

وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[2].

ولذلك حذَّر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة

---

(١) الفوائد: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، ح ٢٤٦٤، وقال: حديث حسن.

والجهاد وتعلم العلم والصدقة، وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر؛ كما في «جامع الترمذي» من حديث إسرائيل: حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين؛ هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: **(الولد مبخلة مجبنة)**[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب؛ قال: حدثني زيد بن واقد؛ قال: حدثني عبد الله بن بريدة؛ قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: **«صدق الله، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»**[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب من سورة التغابن، ح ٣٣١٧، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه في الأدب، باب بر الولد...، ح ٣٦٦٦.

(٣) رواه أحمد: ٥/ ٣٥٤، والترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، ح ٣٧٧٤. وقال: حسن غريب.

وهذا من كمال رحمته ﷺ، ولطفه بالصغار، وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

وإنما كان الصبر على السراء شديدًا؛ لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها[(١)]. أهـ.

[الاستدراج بالنعم]

ربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك. وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: (**إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾** [الأنعام: ٤٤])[(٢)].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به. وقد قال تعالى:

(١) عدة الصابرين: ٨٣ - ٨٥.

(٢) رواه أحمد: ٤/ ١٤٥.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥]، وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي ليس كل من نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيَّقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: **«إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»**(١).

وقال بعض السلف: «رُب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم»(٢). أهـ.

[رضا العبد بطاعته]

رضاءُ العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب جلَّ جلاله ويليقُ أن يعامل به.

وحاصلُ ذلك أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله

---

(١) لم أجده في الترمذي، وهو عند أحمد: ١/ ٣٨٧.

(٢) الداء والدواء: ٥٣ - ٥٤.

بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه، بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة مثل الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها. فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلّ المواقف وأفضلها؛ فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران: ١٧] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل.

وفي الصحيح: (أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا. ثم قال: اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)(١) وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله؛ فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١ - ٣].

---

(١) رواه مسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، ح٥٩١.

ومن ههنا فَهِم عُمر وابن عباس - رضي الله عنهم - أن هذا أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكأنه إعلام بأن قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: (**سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللَّهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**)(١).

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لاَ جَهْلُ أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وقال بعض العارفين: متى رضيتَ نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟

ولله در الشيخ أبي يزيد حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في

---

(١) هما حديثان أدخل بعضهما في بعض؛ فالأول هو المعروف بكفارة المجلس؛ وهو قوله: (**سبحانك اللهم وبحمدك... أستغفرك وأتوب إليك**). رواه الترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، ح ٣٤٣٣، وقال: حسن صحيح غريب. والثاني هو قوله: (**اللَّهم اجعلني من التوابين...**) إلخ. رواه الترمذي أيضًا في الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء، ح ٥٥، وقد أعله الترمذي بالاضطراب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٤٨.

تحصيلـه. وكلما شهدت حقـيقة الربوبية وحـقيقة العـبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله[١].

[قتل الأنبياء والأولياء كرامةٌ لهم]

إذا أغـرق اللّـه أعـداءه وأهلكهم وانتـقم منهم كـان هذا غاية الحكمـة والعدل والمصلحة، وإن أغرق أولياءه وأهل طاعـته فهو سبب من الأسباب التي نصبـها لموتهم، وتـخليصهم من الدنيـا، والوصول إلى دار كرامـته، ومحل قربه. ولا بد من مـوت على كل حالٍ، فاختار لهم أكـمل الموتتين وأنفعـها لهم في مـعادهم، ليوصـلهم إلى درجات عاليـة لا تنال إلا بتلك الأسباب التي نصبها الله موصلها؛ كإيصال سائر الأسباب إلى مسبباتها.

ولهـذا سلط على أنبـيائـه وأوليائه مـا سلط عليـهم من القـتل، وأذى الناس، وظلمهم لهم، وعدوانهم عليهم، وما ذاك لهوانهم عليه ولا لكرامة أعدائهم عليه، بل ذاك عـين كرامتهم وهوان أعدائهم عليـه، وسقوطهم من عينه، لينالوا بذلك ما خلقوا له من مـساكنتهم في دار الهوان، وينال أولياؤه وحـزبه ما هيئ لهـم من الدرجات العلى، والـنعيم المـقـيم؛ فكان تسليط أعدائه وأعدائهم عليهم عين كرامتهم، وعين إهانة أعدائهم.

فهـذا من بعض حكمـه تعالى في ذلك، ووراء ذلك من الحكـم ما لا

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٨٠ - ١٨٢.

تبلغه العقول والأفهام، وكان إغراقه وإهلاكه وابتلاؤه محض الحكمة والعدل في حق أعدائه، ومحض الإحسان والفضل والرحمة في حق أوليائه، فلهذا حسن منه.

ولعل الإغراق وتسليط القتل عليهم أسهل الموتتين عليهم، مع ما في ضمنه من الثواب العظيم، فيكون قد بلغ حسن اختياره لهم إلى أن خفف عليهم الموتة وأعاضهم عليها أفضل الثواب؛ فإنه لايجد الشهيد من ألم القتل إلا كمس القرصة.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تنوعت الأسباب والموت واحد

فليس إماتة أوليائه شهداء بيد أعدائه إهانة لهم، ولا غضبًا عليهم، بل كرامة ورحمة، وإحسانًا ولطفًا، وكذلك الغرق والحرق والردم والتردي والبطن، وغير ذلك، والمخلوق ليس بهذه المثابة، فلهذا قبح منه الإغراق والإهلاك، وحسن من اللطيف الخبير[(١)].

[النعيم لا يدرك بالنعيم]

المصالح والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة، ولا يعبر إليها إلا على جسر من التعب.

كذا المعالي إذا ما رُمت تدركها ... فاعبر إليها على جسر من التعب

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم **لا يدرك بالنعيم**، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة والملذة؛ فلا فرحة لمن لا هَمَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمَّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد.

وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله.

وكلما كانت النفوس أشرف، والهمة أعلى، كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وقال ابن الرومي:

قلب يظل على أفكاره ويَدٌ تُمضي الأمور ونفسٌ لهوُها التعبُ

وقال مسلم في «صحيحه»: قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم.

ولا ريب عند كل عاقل أن كمال الراحة بحسب التعب، وكمال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه، وإنما تخلص الراحة واللذة والنعيم في دار السلام، فأما في هذه الدار فكلا ولمَّا[1]... اهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

[التشديد ثم التيسير]

تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في آخره، بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه وتوطين نفسه على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خفّفها، وتصدق بجعلها خمسًا.

ومن ذلك أنه أمر أولاً بصبر الواحد إلى العشرة، ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنين.

ومن ذلك أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.

ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله ﷺ، فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم.

ومن ذلك تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر قد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر؛ يشدد على العبد أولاً ثم يخفف عنه [وحكمة][1] تسهيل الثاني بالأول، وتلقي الثاني بالرضا، وشهود المنّة والرحمة.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: (وحكمته)، أو: (لحكمة)، أو: (والحكمة منه)...؛ إذ هذا هو المقصود من الكلام، والله أعلم.

وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا؛ فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جداً الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذله ويسهل عليهم.

وقد يفعل بعض الحمالين قريبًا من هذا؛ فيزيدون على الحمل شيئًا لا يحتاجونه إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقًا وأمرًا. ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضًا ضد هذا؛ فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه لئلا يفجأ هذا التشديد بغتةً فلا تحمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئًا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة.

وكذلك المحرمات؛ ومن هذا: أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر.

ومن هذا أنهم أمروا أولاً بالصيام وخيّروا فيه بين الصوم عينًا، وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوا أُمِرُوا بالصوم عينًا.

ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أُمِرُوا به فرضًا. وحكمة هذا التدريج: التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئًا فشيئًا.

وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره مقدر على عبده، بل لا بد منه اقتضاه حمده وحكمته؛ فيبتليه بالأخف أولاً ثم يرقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه.

ولهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه وزواله، ولا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولاً وينكسر ويذل لربه ويمد عنقه خاضعًا ذليلاً لعزته، حتى إذا مر به معظمه وغمرته، وأذن ليله بالصباح فإذا سعى في زواله ساعدته الأسباب. ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعًا عظيمًا.. ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى(١). أهـ.

[درس عظيم من قصة الذين خُلفوا]

في نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلَّف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين؛ فأراد هجرَ الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون، فجُرمهم أعظم من أن يُقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه. وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم؛ فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، أما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخلِّي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: **(إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبدٍ شراً أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فيرد يوم القيامة بذنوبه)**(٢).

---

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) رواه بنحوه الترمذي في الزهد، باب الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن، ح ٤٠٣١.

وفي هـذا دليل أيضًـا على هـجـران الإمام، والعــالم، والمطـاع لمن فعل مـا يستوجب الـعتب، ويكون هجرانه دواء له بحـيث لا يضـعف عن حصــول الشفاء به، ولا يزيد في الكمـية والكيفيـة عليه فيـهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه(١) . أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) زاد المعاد: ٣/ ٥٧٨.

الفصل السابع: الجهاد

[الأعداء الثلاثة]

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقُبَّتَه، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا؛ فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها؛ فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذه سورة مكية أُمِرَ فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان، وتبليغ القرآن.

وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عددًا، فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض؛ مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: **(المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)**[1]، كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له؛ فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده،، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتُحِنَ العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله، ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات؛ لا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده. فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته؛ كأنَّه عدو لا يفتر، ولا يُقصِّر

(١) أخرجه أحمد بنحوه ٦/ ٢١ ، والحاكم في المستدرك: ١/ ١١، وصححه، ووافقه الذهبي.

عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أمرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحانًا من الله له وابتلاء، فأعطى الله العبد مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد، وأعطى أعداءه مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا، وبلا أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أُمِرُوا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يؤيسهم، ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم، ويظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم.

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره؛ فإن قوي الإيمان قويت المدافعة، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه؛ فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأُ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا[1]. أهـ.

[الجهاد امتحان وابتلاء]

الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوه وعذبوه، وإن وافقهم، حصل له الأذى والعذاب، تارة منهم، وتارة من غيرهم؛ كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فُجَّار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت

(١) زاد المعاد: ٣/ ٥ - ٨.

عنهم، سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم؛ فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا».

ومن تأمل أحوال العالم، رأى هذا كثيرًا فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربًا من عقوبتهم؛ فمن هداه الله وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومن ابتُلي من العلماء، والعباد، وصالحي الولاة، والتجار، وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزَّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿**مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥]. فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تَحمَّل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله. وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبدَ اشتياقهُ إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل رُبما غيَّبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به؛ ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: (**اللَّهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت**

الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللَّهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[(١)].

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه، فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

ثم عزَّاهم تعالى بعزاء آخر؛ وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه، ثم أخبر أنَّه يُدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين.

---

(١) أخرجه النسائي في السهو، باب نوع آخر، ح ٥٥، وابن حبان ح (٥٠٩) وهو في المسند أيضًا: ٤/ ٢٦٤.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله؛ وهي أذاهم له، ونيلُهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله، كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان؛ فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحمَّلوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبِنَ كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفرَّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة[١].

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ١٥ - ١٨.

[مراتب الجهاد]

الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولاسعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين؛ فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يُسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علِم وعمل وعلَّم فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان: فمرتبتان: **إحداهما**: جهاده على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادت الفاسدة والشهوات. فالجهاد الأول يكون بعُدة اليقين، والثاني يكون بعُدة الصبر؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين إنما تُنال بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس. وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات فثلاث مراتب: الأولى باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه؛ فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد، و(**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**)(١)(٢). أهـ.

[فضل المجاهدين]

المجاهدون في سبيل الله هم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا؛ قد بذلوا أنفسهم في محبة الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ودفع أعدائه،

---

(١) رواه بنحوه مسلم في الإمارة، ح ١٩١٠.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٩ - ١١.

وهـم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أجور من عبدَ الله بسبب جـهادهم وفتوحهم؛ فإنهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهـذا كان الداعي إلـى الهـدى والداعي إلى الضـلال لكل منهمـا بتسـببه مثل أجـر من تبعه. وقد تظاهرت آيات الكتـاب، وتواترت نصوص السُّـنة على الترغـيب في الجـهاد والحض عليـه، ومـدح أهـله، والإخـبار عما لهـم عند ربهـم من أنواع الكرامـات والعطـايا الجزيلات؛ ويكـفي في ذلك قوله تـعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف: ١٠]، فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليهـا رب العالمين العليم الحكيم، فـقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعـودكم للحياة والسلامة، فكـأنها قالت: فما لنا فـي الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ و﴾ مع المغفرة ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف: ١٣] فللَّه ما أحلى هذه الألفاظ، وما ألصقها بالقلوب، وما أعظمها جـذبًا لها وتسييرًا إلى ربها، وما ألطف مـوقعها من قلب كل محب، وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حـين تباشره معانيها. فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم. ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا

يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢]، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده عُمَّارُ المسجد الحرام - وهم عُمَّارُه بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن - وأهل سقاية الحاج؛ لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله. وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عُمَّاره بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٨] فهؤلاء هم عمار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم(١). أهـ.

[أغلى العقود]

قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

(١) طريق الهجرتين: ٣٥٥ - ٣٥٦.

فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكّده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخباره به سبحانه بصيغة الخبر المؤكد بأداة إنَّ.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الفعل الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة (على) التي للوجوب، إعلامًا لعباده، بأن ذلك حق عليه، أحقَّه هو على نفسه.

السادس: أنه أكّد ذلك بكونه حقًا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة، والإنجيل، والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضًا بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار، ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكّداً يؤكد بأن ذلك البيع الذي بايعوا به هو الفوز العظيم، والبيع ها هنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن، وهو الجنة.

وقوله: ﴿**بَايَعْتُم بِهِ**﴾ أي: عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذين وقع لهم العقد، وتمّ لهم دون غيرهم، وهم: ﴿**التَّائِبُونَ**﴾ مما يكره، ﴿**الْعَابِدُونَ**﴾ له بما يحبّ، ﴿**الْحَامِدُونَ**﴾ له على ما يحبون وما يكرهون، ﴿**السَّائِحُونَ**﴾ [التوبة: ١١٢] فسرت السياحة: بالصيام، وفسرت: بالسفر في طلب العلم، وفسرت: بالجهاد، وفسرت: بدوام الطاعة، والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته، والإنابة إليه، والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كلّ ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدّله بهن، بأنهن ﴿**سَائِحَاتٍ**﴾ [التحريم: ٥]، وليست سياحتهن جهاداً، ولا سفراً في طلب العلم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته، والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين؛ هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينين؛ هذا الثناء عليه بأوصاف كماله وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينين في صفة الأزواج؛ فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين؛ فهذا علانية، وهذا في القلب، كما في «المسند» عنه ﷺ: **(الإسلام علانية، والإيمان في القلب)**(١).

وجعل القنوت والتوبة قرينين؛ فهذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره.

وجعل الثيوبة والبكارة قرينين؛ فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أُنُفٌ لم يُرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلامًا بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قرينًا لحفظ حدوده؛ فهذا حفظها في نفس الإنسان وذلك أمر غيره بحفظها. وأفهمت الآية: خطر النفس الإنسانية وشرفها، وعظم مقدارها؛ فإن السِّلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع؛ فالسِّلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر، وأكرمهم عليه.

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(٢). أهـ.

---

(١) رواه أحمد: ٣/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) حادي الأرواح: ١١٩ - ١٢١.

[مهر المحبة والجنة]

جنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء؛ كما قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [التوبة: ٤١]، وعلق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف: ١٠-١٢]، وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾؛ أي: ولكن خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وأخبر سبحانه أنه: ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك أن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله؛ فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المُدَّعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادَّعى الخلي حرفة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأقوالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد؛ فإن

الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضًا واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلَّموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجَلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وفَّاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره: **(أن الله أحياه، وكلمه كفاحًا وقال: يا عبدي تمن علي)**[1] فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به

(١) رواه الترمذي في التفسير، باب من سورة آل عمران، ح ٣٠١٠، وابن ماجه في الجهاد، ح ٢٨٠٠.

علم الخلائق؛ فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له، وشاءه منه.

لقد حرك الداعي إلى الله، وإلى دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيًا، فهزه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطت به رحاله إلا بدار القرار فقال: **(انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي، وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل)**[1][2]. أهـ.

[عوامل النصر الخمسة]

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦]، فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت، وإن قلّت وكثر عدوّها.

(١) رواه البخاري في الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ح ٣٦، ومسلم بنحوه في الإيمان، ح ١٨٧٦.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٧٢ - ٧٦.

أحدها: الثبات. **والثاني**: كثرة ذكره سبحانه وتعالى. **الثالث**: طاعته وطاعة رسوله. **الرابع**: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن؛ وهو جند يُقَوِّي به المتنازعون عدوَّهم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كلٌ منهم وحده، كسرها كلها. **الخامس**: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه، وهو الصبر.

فهذا خمسة أشياء تُبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضُها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوَّى بعضُها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر، ولَمَّا اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد؛ ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان، وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل[1]. أهـ.

[الجهاد علاج الهم والغم]

تأثير الجهاد في دفع الهم والغم، أمر معلوم بالوجدان؛ فإن النفس متى تركت صائلَ الباطل وصولته واستيلاءه، اشتد همُّها وغمُّها، وكربُها وخوفها؛ فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهمَّ والحُزْنَ فرحًا ونشاطًا وقوةً؛ كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ

(١) الفروسية: ٣٢٦ - ٣٢٧.

صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فلا شيء أذهب لجوى القلب وغمِّه وهمِّه وحزنه من الجهاد[1].

[دروس من غزوة أحد]

منها: تعريفهم - أي الصحابة - سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة؛ فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة؛ فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة...

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما

(١) زاد المعاد: ٤/ ٢١٠.

أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبَّبَ لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتُهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم؛ قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ١٧٩] . أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء؛ فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. وقوله: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل؛ فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم فلكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًا، وليسوا

كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنهـا: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا، لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرزق. لا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاءُ، والقبض والبسط؛ فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته؛ إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر؛ فإنَّ خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده، ويجبره، وينصره، كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من

الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء؛ تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليه من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم: بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم. وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾**﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ**

قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب؛ كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولاً بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة؛ فإن عِزَّها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى؛ وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء؛ فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾ [آل عمران: ١٤٠]، تنبيه لطيف الموقع جدًا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم، فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم؛ وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى؛ وهي محق الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه؛ فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، أي: ولما يقع ذلك منكم، فيعلمه؛ فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم؛ فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودن لقائه. فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسبّبه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[1]. أهـ.

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢١٨ - ٢٢٤.

[واجبات منسية]

لله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه.

الثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه؛ فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزل يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب! إن فيهم فلانًا العابد الزاهد، قال: به فابدأ وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وَجْهُهُ فِيَّ في يومٍ قَطُّ[1]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) عدة الصابرين: ٢٠٣ - ٢٠٤.

الفصل الثامن: الدعاء

[هل يرد الدعاء القدر]

سؤال مشهور؛ وهو: أن المدعوّ به إن كان قُدِّر لم يكن بد من وقوعه - دعا به العبد أو لم يدع - وإن لم يكن قد قدر لم يقع، سواء سأله العبد أم لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه. وهؤلاء، مع فرط جهلهم وضلالهم، متناقضون؛ فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدُرًا لك فلا بد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا، أكلت أو لم تأكل، وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسري، وهلم جرا. فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته؛ فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة؛ فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت. وهذا كما إذا رأيت غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر. قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب؛ هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له . . .

والصواب: أو ههنا قسمٌ ثالثٌ غير ما ذكره السائل؛ وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يُقدَّر مجردًا عن سببه، ولكن قُدِّر سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهكذا كما قُدِّر الشبع والري بالأكل والشرب، وقُدِّر الولد بالوطء، وقُدِّر حصول الزرع بالبذر، وقُدِّر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قُدِّر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حُرِمَه السائل ولم يوفق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قُدِّر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة ﵃ أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ، وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر ابن الخطاب ﵁ يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول

لأصحابه: «لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء»، وكان يقول: «إني لا أحمل هم الإجابة معه، ولكن هم الدعاء، فإن أُلهِمتُم الدعاء فإنَّ الإجابة معه». وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه، فقال:

لو لم تُرِدْ نيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما عودتني الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من لم يسأل الله يغضب عليه)[١] وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه.

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر؛ فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال؛ ترتب الجزاء على

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذي في الدعوات، ح ٣٣٧٣، وبنحوه أخرجه ابن ماجه في الدعاء، ح ٣٨٢٧.

الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع...

ومن تفقَّه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلاً منه، وعجزاً وتفريطًا وإضاعة؛ فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلاً. بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك؛ فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة. فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا، وما يضاده سواء؛ فرَبُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرَّبه في نفسه وغيره، وما سمعه في أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة، ثم السنة؛ فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني. ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن

غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا. بعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسُّنة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة؛ فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرَّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

الأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب. وهذه من أهم الأمور؛ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى[(١)]. أهـ.

[إخفاء الدعاء]

قول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء[(٢)]، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه وإسراره؛ قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت -

---

(١) الداء والدواء: ٢٦ - ٣٢.

(٢) يعني بذلك: دعاء العبادة والذكر والثناء، ودعاء الطلب والمسألة.

إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم - وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأن الله تعالى ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣]، وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تُخاطَب الملوكُ ولا تُسأل برفع الأصوات، وإنما تُخفض عندهم الأصواتُ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه بلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده؛ فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته، وكسره وضراعته، إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق؛ فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء؛ فإنَّ رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد

همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًا أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾**﴾ [مريم: ٣]، فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك، أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفي كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه.

ولله المثل الأعلى سبحانه، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: (**اربعوا على أنفسكم؛ إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**)(١)، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾.

---

(١) رواه بنحوه البخاري في عدة مواضع منها كتاب المغازي، ح ٤٢٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء، ح ٢٧٠٤.

وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت؛ فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي لا مسألة البعيد المنادي. وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربًا عامًا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده.

وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة، وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد؛ كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربه تبارك وتعالى: **(من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا)**[1].

فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥]، فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر، وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرنا في كتاب (التحفة المكية)، على أن العبارة تنبو عنه، ولا تُحصِّل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية،

(١) رواه بلفظه مسلم من حديث أبي ذر في الذكر والدعاء، ح ٢٦٨٧، وبنحوه رواه البخاري أيضًا من حديث أبي هريرة في التوحيد، ح ٧٥٣٧.

أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه فأنكر محبة العبد لربه جملة، وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا.

وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب (التحفة) أكثر من مئة طريق، والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال؛ فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته؛ فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها - دقت أو جلت - ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس

للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [يوسف: ٥] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلبّ كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحداً، ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهداً … لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم … وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعًا بعض سرهم … حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدى به ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء

عليه بأسمائه وصفاته؛ فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: **(أفضل الدعاء الحمد لله)**[1] فسمّى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب؛ فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه، والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسي: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: **(يا أيها الناس**

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات، باب دعوة المسلم مستجابة، ح ٣٣٨٣، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الأدب، ح ٣٨٠٠.

اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[١] وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فذكر التضرع فيهما معًا؛ وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها[٢]. أهـ.

[كيد إبليس للأبوين]

فقد قص الله سبحانه علينا قصته معهما وأنه لم يزل يخدعهما، ويعدهما، ويمنيهما الخلود في الجنة، حتى حلف لهما بالله جهد يمينه: إنه ناصح لهما، حتى اطمأنا إلى قوله، وأجاباه إلى ما طلب منهما، فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ما جرى، وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم، وسبق به القدر، ورد الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبة مكره عليه: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له في هذه الحرب، ولم يعلم بكمين جيش: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٧٣.

(٢) بدائع الفوائد: ٣/٧ - ١١.

الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا بإقبال دولة: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفِّيه وحبيبه - الذي خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء - من أجل أكلة أكلها.

وما علم أن الطبيب قد عَلَّم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحس بالمرض بادر إلى استعمال الدواء؛ لما رماه العدو بسهم وقع في غير مقتل، فبادر إلى مداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قلبة.

وبُلي العدو بالذنب فأصر واحتج وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلة. وبلي الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب، وغفر له الذنب، وقبل منه المتاب، وفُتِحَ له من الرحمة والهداية كل باب. ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدي لأحسن الشيم[1]. أهـ.

[موانع استجابة الدعاء]

الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه - بأن يكون دعاء لا يحبه

(١) إغاثة اللهفان: ٥٧١ - ٥٧٢.

الله، لما فيه من العدوان - وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها. كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **(ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه)**(١)، فهذا دواء نافع مزيل للداء. ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها؛ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾** [المؤمنون: ٥١]، وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)**(٢).

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم: أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفًا قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٠، والترمذي في الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، ح ٣٤٧٩، وبنحوه رواه أحمد: ٢/ ١٧٧.

(٢) رواه مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، ح ١٠١٥.

عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلا بعدًا. وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البرّ ما يكفي الطعام من الملح[(١)]. أهـ.

[إجابة الدعاء هل هي كرامة؟]

من الناس من هو معرض عن عبادة الله وعن الاستعانة به؛ فلا عبادة ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض؛ يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمُدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتَّعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته كان مُبْعِدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منه لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظًا، لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن - بجهله - أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه

---

(١) الداء والدواء: ١٦ - ١٧.

الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها؛ كما قيل:

وعاجز الرأي مِضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا مُعَيَّنًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بداً، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكنْ عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده؛ قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] أي ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني

فأسلبه إياه، وأخَـوِّل فيه غيره؟ وليس كل مـن ابتليته فضيـقت عليه رزقه، وجعلته بقَـدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامـتحان مني له: أيصـبر؟ فـأعطيه أضـعاف أضـعاف ما فـاته من سَعـة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبـحانه على من ظن أن سعة الرزق إكـرام، وأن الفقر إهانة، فقـال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامـته عليَّ، ولـم أبتله بالفقـر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المـال وسعة الرزق وتقديره؛ فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامتـه، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفـته ومحبته وطاعته، ويـهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين»[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين: ١/ ٩١ - ٩٣.



الفصل التاسع: عوائق

[عوائق في الطريق]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته، عرضت له الخوادع والقواطع؛ فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس؛ فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والوسع له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك؛ فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات؛ فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا؛ فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه، وسار ناظرًا إلى مراد الله منه، وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومرائيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليّه وسيّده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة.. وبالله التوفيق[1]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ٢٤٧ - ٢٤٨.

[موانع اتباع الحق]

السبب الأول: ضعف معرفته بذلك.

السبب الثاني: عدم الأهلية، وقد تكون معرفته به تامة، لكن يكون مشروطًا بزكاة المحل وقبوله للتزكية، فإذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التي لا يخالطها الماء؛ فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها، فإذا كان القلب قاسيًا حجريًا لا يقبل تزكية ولا توثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر، وبذر فيها كل بذر، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]...

فإذا كان القلب قاسيًا غليظًا جافيًا لا يعمل فيه العلم شيئًا، وكذلك إذا كان مريضًا مهينًا مائيًا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم.

السبب الثالث: قيام مانع؛ وهو إما حسد أو كبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله...

السبب الرابع: مانع الرياسة والملك، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته، فيضن بملكه ورياسته؛ كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنًا، وأحبوا الدخول في دينه لكنهم خافوا على ملكهم!

وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقل من نجا منه إلا من عصم الله، وهو داء فرعون وقومه، ولهذا قالوا: ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧]، أنِفُوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما، وبنو إسرائيل عبيد لهم.

ولهذا قيل: إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال: بينما أنت إله تعبد تصير عبدًا تعبد غيرك! فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال!!

السبب الخامس: مانع الشهوة والمال؛ وهو الذي منع كثيرًا من أهل الكتاب من الإيمان خوفًا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير إليهم من قومهم، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته، فيدخلون عليه منها، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا والفواحش: إن محمدًا يحرم الزنا، ويحرم الخمر، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام...

السبب السادس: محبة الأهل والأقارب والعشيرة؛ يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه، وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم.

وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السبب السابع: محبة الدار والوطن؛ وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب، لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه وداره.

السبب الثامن: من تخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنًا منه

على آبائه وأجداده وذمًا لهم، وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام؛ استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك، وضللوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك...

السبب التاسع: متابعة من يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه، وتخصيصه، وقربه منه.

وهذا القدر منع خلقًا كثيرًا من اتباع الهدى؛ يكون للرجل عدو ويبغض مكانه، ولا يحب أرضًا يمشي عليها، ويقصد مخالفته ومناقضته، فيراه قد اتبع الحق، **فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله**، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم.

هذا كما جرى لليهود مع الأنصار؛ فإنهم كانوا أعداءهم، وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي ﷺ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم.

السبب العاشر: **مانع الإلف والعادة والمنشأ**؛ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: هي طبيعة ثانية، فيُربَّى الرجل على المقالة، وينشأ عليها صغيرًا، فيتربى قلبه ونفسه عليها، كما يتربي لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد، ولا يعقل نفسه إلا عليها، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه، وأن يسكن موضعها، فيعسر عليه

الانتقال، ويصعب عليه الزوال.

وهذا السبب - وإن كان أضعف الأسباب معنى - فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل، ليس مع أكثرهم - بل جميعهم - إلا ما عسى أن يشذ إلا عادة ومربى تربى عليها طفلاً؛ لا يعرف غيرها، ولا يحسن به، فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية.

فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله، خصوصًا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ كيف غيَّروا عوائد الأمم الباطلة، ونقلوهم إلى الإيمان، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عاداتهم وطبيعتهم الفاسدة.

ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدًا من العالمين[١]. أهـ.

[فتنة التقليد والتعصب للمذاهب]

خلف من بعدهم - [أي التابعين والأئمة] - خلوف فرقوا دينهم، وكانوا شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا وكل إلى ربهم راجعون، جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون،

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٣٥ - ٣٤٠.

ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال الشافعي قدس الله تعالى روحه: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سُنَّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس».

قال أبو عمر وغيره من العلماء: «أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله» وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى؛ فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليده.

فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصِّب بالهوى، والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من وراثة الأنبياء.

فإن العلماء هم ورثة الأنبياء؛ فإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في ردِّ ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه، ويضيِّع ساعات عمره في التعصب والهوى، ولا يشعر بتضييعه.

تالله إنها فتنة عمَّت فأعْمَت، ورمت القلوب فأصمت، ربَا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتُّخِذَ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك

بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً، ولما عمَّت بها البليَّة، وعظمت بسببها الرزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدون العلم إلا إياها - فطالب الحق من مظانِّه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون - نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل، وبَغَوْا له الغوائل ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدِّل دينكم، أو أن يُظهر في الأرض الفساد. فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت إلى هؤلاء، ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رُفِعَ له علم السُّنَّة النبوية شمَّر إليه، ولم يحبس نفْسَه عليهم، فما هي إلا ساعةٌ حتى يبعثر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، وتتساوي أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين[(١)]. أهـ.

[فتنة الشبهات والسلامة منها]

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات - وهي أعظم الفتنتين - وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى؛ فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٧ - ٨.

الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

هذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، وحقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وما يثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتَلقى إلا عنه، ولايؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قَبِلَه، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رَدَّه، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهـذه الفـتنة تنشأ تارة من فـهـم فاسـد، وتارة من نقـل كـاذب، وتارة من حـق ثابت خـفي على الرجـل فـلم يظـفر به، وتارة من غـرض فاسـد وهـوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة(١). أهـ.

[آفتان عظيمتان]

حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهـما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، وردّ ما يـرد عليك من الحق رأسًا، ولا تقـبله إلا إذا برز في قالب هـواك؛ قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعـام: ١١٠] فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثـاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامـره عقوبة لك؛ قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة: ٨٣]، فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة(٢). أهـ.

[أنا، لي، عندي]

ليحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، «ولي»، «وعندي»؛ فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتُلي بها إبليس، وفرعون، وقارون: فـ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعـراف: ١٢]

---

(١) اغاثة اللهفان: ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٢) بدائع الفوائد: ٣/ ١٥٣.

لإبليس، و ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] لقارون. وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف ونحوه. «ولي»، في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل: «وعندي» قوله: «اغفر لي جدي، وهزلي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) زاد المعاد: ٢/ ٤٧٥.

الفصل العاشر: ضوابط منهجية

[سد الذرائع]

الدلالة عليها من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فحرَّم الله تعالى سب آلهة المشركين - مع كون السب غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعةً إلى سبهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] ؛ فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزًا في نفسه، لئلا يكون سببًا إلى سَمْع الرجل صوتَ الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ**﴾ [النور: ٥٨]؛ أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم

يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا** ﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة - مع قصدهم بها الخير - لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويقصدون بها السبَّ؛ يقصدون فاعلاً من الرعونة، فنُهِيَ المسلمون عن قولها سدًا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبهًا بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون، ولئلا يُخاطَب بلفظ يحتمل معنى فاسدًا.

الوجه الخامس: قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون: ﴿ **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾** ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]؛ فأمر تعالى أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدهم كفرًا وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظ القول له مع أنه حقيق به ذريعةً إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى.

الوجه السادس: أنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح، لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدةً من مفسدة الإغضاء واحتمال الضَّيم؛ ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقابلة.

الوجه السابع: أنه تعالى نهى عن البيع وقت نداء الجمعة لئلا يتخذ ذريعة إلى التشاغل بالتجارة عن حضورها.

الوجه الثامن: ما رواه حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (**من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: يارسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**)[١] متفق عليه.

ولفظ البخاري: (**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يارسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**)[٢].

فجعل رسول الله ﷺ الرجل سابًا لاعنًا لأبويه بتسببه إلى ذلك، وتوسُّله إليه وإن لم يقصده.

الوجه التاسع: أن النبي ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين - مع كونه مصلحة - لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمدًا يقتل أصحابه؛ فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومَنْ لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل.

الوجه العاشر: أن الله تعالى حرَّم الخمر لما فيها من المفاسد الكثيرة المترتبة على زوال العقل، وهذا ليس مما نحن فيه، لكن حرَّم القطرة الواحدة منها، وحرَّم إمساكها للتخليل ونجسها، لئلا تتخذ القطرة ذريعة إلى الحسوة، ويتخذ إمساكها للتخليل ذريعة إلى إمساكها للشرب، ثم بالغ في

---

(١) هذا لفظ مسلم؛ أخرجه في الإيمان، باب بيان الكبائر، ح ٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، ح ٥٩٧٣.

سد الذريعة، فنهى عن الخليطين، وعن شرب العصير بعد ثلاث، وعن الانتباذ في الأوعية التي قد يتخمر النبيذ فيها، ولا يعلم به، حسمًا لمادة قربان المسكر، وقد صرح ﷺ بالعلة في تحريم القليل فقال: لو رخصت لكم في هذه لأوشك أن تجلعوها مثل هذه(١).

الوجه الحادي عشر: أنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن، والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين، سدًا لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطباع...

الوجه السادس والثلاثون: أن الله تعالى منع رسوله حيث كان بمكة من الجهر بالقرآن، حيث كان المشركون يسمعونه فيسبون القرآن، ومن أنزله ومن جاء به، ومن أنزل عليه(٢). اهـ.

[الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك]

اعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالِم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض؛ قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت من بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، اتبعوا السواد الأعظم؛ فإنه من شذ شذ في النار. ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيولى عليكم ولاة

(١) لم أجد حديثًا بهذا اللفظ أو المعنى، والله أعلم.

(٢) إعلام الموقعين: ٣/ ١٧٧ - ١٨٧.

يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها؛ فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال: قلت يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول لي: صلِّ الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة. قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، أتدري ما الجماعة؟ قلت لا، قال: إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة؛ الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، وفي لفظ آخر: فضرب على فخذي وقال: ويحكم إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى.

وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذ، ذكرهما البيهقي وغيره.

وقال بعض أئمة الحديث وقد ذُكِرَ له السواد الأعظم، فقال: أتدري ما السواد الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه. فمسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور، وجعلوهم عياراً على السُّنة، وجعلوا السُّنة بدعة، والمعروف منكراً لقلة أهله، وتفردهم في الأعصار والأمصار، وقالوا: من شذ شذ الله به في النار، وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحداً منهم فهم الشاذون، وقد شذ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذ والمفتون والخليفة

وأتباعه كلهم هم الشاذون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقُضاتك ووُلاتُك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل وأحمد وحده على الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك؛ فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل؛ فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة، وهي السبيل المَهْيَع لأهل السُّنة والجماعة حتى يلقوا ربهم، مضى عليها سلفهم، وينتظرها خلفهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] ولا حول لا قوة إلا بالله العلي العظيم[١]. أهـ.

[معايير التوظيف]

الإمام أحمد يوجب تولية الأصلح فالأصلح من الموجودين، وكل زمان بحسبه، فيقدم الأدين العدل على الأعلم الفاجر، وقضاة السُّنة على قضاة الجهمية، وإن كان الجهمي أفقه، ولما سأله المتوكل عن القضاة أرسل إليه دَرْجًا مع وزيره يذكر فيه تولي أناس، وعزلة أناس، وأمسك عن أناس، وقال: لا أعرفهم، وروجع في بعض من سمي لقلة علمه، فقال: لو لم يولُّوه لولَّوا فلانًا، وفي توليته مضرة على المسلمين، وكذلك أمر أن يولي على الأموال الديِّن السُّني دون الداعي إلى التعطيل؛ لأنه يضر الناس في دينهم، وسئل عن رجلين: أحدهما أنكى في العدو، مع شربه الخمر،

(١) اعلام الموقعين: ٣/ ٤٨٨ - ٤٩٠.

والآخر أدين؟ فقال: يغزى مع الأنكى في العدو؛ لأنه أنفع للمسلمين.

وبهذا مضت سنة رسول الله ﷺ؛ فإنه كان يولي الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه، كما ولى خالد بن الوليد من حين أسلم على حروبه لنكايته في العدو، وقدّمه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار، مثل عبد الرحمن بن عوف، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله ابن عمر، هؤلاء ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وخالد كان ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ فإنه أسلم بعد صلح الحديبية هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة الحجبي، ثم إنه فعل مع بني جذيمة ما تبرأ النبي ﷺ منه حين رفع يديه إلى السماء وقال: (**اللَّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**)،[1] ومع هذا فلم يعزله، وكان أبو ذر من أسبق السابقين وقال له: (**يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم**)[2]، وأمَّر عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل؛ لأنه كان يقصد أخواله بني عُذْرَة، فعلم أنهم يطيعونه ما لا يطيعون غيره للقرابة، وأيضًا فلحسن سياسة عمرو وخبرته وذكائه ودهائه؛ فإنه كان من أدهى العرب، ودهاة العرب أربعة هو أحدهم، ثم أردفه بأبي عبيدة وقال: «تطَاوَعا ولا تختلفا»، فلما تنازعا فيمن يصلي سلَّم أبو عبيدة لعمرو، فكان يصلي بالطائفتين، وفيهم أبو بكر، وأمَّر أسامة بن زيد مكان أبيه، لأنه مع كونه خليقًا للإمارة أحرص

---

(١) رواه البخاري في المغازي، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد...، ح ٤٣٣٩.

(٢) رواه مسلم في الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ح ١٨٢٦.

على طلب ثأر أبيه من غيره، وقدم أباه زيدًا في الولاية على جعفر ابن عمه مع أنه مولى، ولكنه من أسبق الناس إسلامًا قبل جعفر، ولم يلتفت إلى طعن الناس في إمارة أسامة وزيد، وقال: (**إن تطعنوا في إمارة أسامة، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله وأيم الله إن كان خليقًا للإمارة، ومن أحب الناس إليَّ**)(١) وأمّر خالد بن سعيد بن العاص وإخوته لأنهم من كبراء قريش وساداتهم، ومن السابقين الأولين، ولم يتول أحد بعده.

والمقصود أن هديه ﷺ تولية الأنفع للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه، والحكم بما يُظْهِر الحق ويوضحه إذا لم يكن هناك أقوى منه يعارضه، فسيرته تولية الأنفع، والحكم بالأظهر(٢). أهـ.

[ترفيه الرخص]

وأما قوله - أي الهروي - «**ولا يلتفت** - أي الصادق - **إلى ترفيه الرخص**».

فلأنه - لكمال صدقه، وقوة إرادته، وطلبه للتقدم - يحمل نفسه على العزائم، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرخص.

وهذا لا بد فيه من التفصيل؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابه؛ فإذا كانت الرخص أحب إليه تعالى من العزائم كان التفاته إلى ترفيهها، وهو عين صدقه. فإذا أفطر في السفر، وقَصَرَ وجمع بين

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في مواضع منها كتاب المغازي، ح ٤٢٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة، ح ٢٤٢٦.

(٢) اعلام الموقعين: ١/ ١١٤ - ١١٥.

الصلاتين عند الحاجة إليه، وخفف الصلاة عند الشغل، ونحو ذلك من الرخص التي يحب الله تعالى أن يؤخذ بها فهذا الالتفات إلى ترفيهها لا ينافي الصدق.

بل ههنا نكتة؛ وهي أنه فرق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهًا وراحة، وأن يكون متابعة وموافقة. ومع هذا فالالتفات إليها ترفهًا وراحة لا ينافي الصدق؛ فإن هذا هو المقصود منها، وفيه شهود نعمة الله على العبد، وتعبده باسمه «البر، اللطيف، المحسن، الرفيق»؛ فإنه رفيق يحب الرفق، وفي الصحيح: «**ماَ خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا**»(١) لما فيه من روح التعبد باسم «الرفيق، اللطيف» وإجمام القلب به لعبودية أخرى؛ فإن القلب لا يزال يتنقل في منازل العبودية، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبه استعد بها لعبودية أخرى. وقد تقطعه عزيمتها عن عبودية هي أحب إلى الله منها؛ كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه، والمفطر الذي يضرب الأخبية، ويسقي الركاب، ويضم المتاع؛ ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: (**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**)(٢).

أما الرخص التأويلية، المستندة إلى اختلاف المذاهب، والآراء التي تصيب وتخطئ فالأخذ بها عندهم عين البطالة ومناف للصدق(٣). أهـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في الحدود، ح ٦٧٨٦، ومسلم في الفضائل، ح ٢٣٢٧.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد، باب الخدمة في الغزو، ح ٢٨٩٠، ومسلم في الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، ح ١١١٩.

(٣) مدارج السالكين: ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.

[محبة الزوجة]

من المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل؛ فإنها معينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام، ويعفها، فلا تطمح نفسها إلى غيره. وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتم وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل؛ قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [الروم: ٢١].

وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سئل: (**من أحب الناس إليك؟ فقال: عائشة**)[١] ولهذا كان مسروق رحمه الله يقول، إذا حدث عنها: (حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، المبرأة من فوق سبع سموات).

وصح عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: (**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**)[٢].

فلا عيب على الرجل في محبته لأهله وعشقه لها، إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له؛ من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحب

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في المناقب، ح ٣٦٦٢، ومسلم في فضائل الصحابة، ح ٢٣٨٤.

(٢) رواه النسائي في عشرة النساء، باب حب النساء، ح ٣٩٤٠، وأحمد: ٣/ ٢٨٥.

رسوله؛ فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله، بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة، وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة، ولذلك كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الشراب البارد الحلو، ويحب الحلواء والعسل، ويحب الخيل، وكان أحب الثياب إليه القميص، وكان يحب الدباء؛ فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله، بل قد تجمع الهم والقلب على التفرغ لمحبة الله، فهذه محبة طبيعية تتبع نية صاحبها وقصده بفعل ما يحبه.

فإن نوى به القوة على أمر الله تعالى وطاعته كانت قربة، وإن فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يثب ولم يعاقب، وإن فاته درجة من فعله متقربًا به إلى الله.

فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله تعالى، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محاب الخلق[١].

[البناء المنيع]

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به؛ فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان

---

(١) إغاثة اللهفان: ٥١١ - ٥١٢.

وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدّم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان؛ فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعفَ حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران: **الأول**: صحّة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته، **والثاني**: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه. فهذا أوثق أساس أسَّسَ العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء.

فأحكم الأساس، واحفظ القوة، ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدومًا:

فاقر السلام على الحياة فإنها قد آذَنَتْكَ بسرعة التوديعِ

فإذا كمل البناء فبيِّضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حُطْهُ بسورٍ من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه؛ فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به. فتكون حينئذٍ قد بنْيت حصنًا تحصنت فيه من أعدائك، إذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلاً فييأس منك.

ثم تعاهدْ بناء الحصن كلّ وقت؛ فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نَقَبَ عليك النُّقوبَ من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك إخراجُه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلى سَدِّ النقب ولمِّ شعث الحصن. وإذا دخل نَقْبُه إليك نالك منه ثلاث آفات: إفساد الحصن، والإغارة على حواصله وذخائره، ودلاله السُّرَّاق من بني جنسه على عورته، فلا تزال تبلى منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواك ويهنوا عزمك فتتخلى عن الحصن وتخلي بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعًا، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت

عليهم، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم، ويتكلمون على الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهوتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمون بما ضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به، ويفرحون بالدنيا، ويحزنون على فوات حظهم منها، ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار، ويفسدون حقهم بباطلهم، وهُداهم بضلالهم، ومعروفهم بمنكرهم، ويلْبِسون إيمانهم بظنونهم، ويخلطون حلالهم بحرامهم، ويتردّدون في حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدى الله الذي أهداه إليهم. ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيده(١).

[ما لك وما عليك]

من أركان المحاسبة أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية. وبين ما لك وما عليك.

فالذي لك هو المباح الشرعي؛ فعليك حق، ولك حق. فأدِّ ما عليك يؤتك ما لك. ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ما له؛ فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لا حق أداه. وبإزاء هؤلاء من يرى كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو

---

(١) الفوائد: ٢٢٦ - ٢٢٩.

تركه، فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات، ويظن ذلك حقّاً عليه. أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقّاً عليه.

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرى - لجهله - أن ذلك مما عليه؛ فيوجب على نفسه تركه، أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل الطاعات. وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك؛ ففي الصحيح: أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالُّوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم. فخطب، وقال: (**ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج، ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[١]. فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبَّد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة، فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

ومثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف. ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة؛ فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركًا، ويراها حقّاً عليه، وهي حق له، وله

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح، ح ١٤٠١.

تركها؛ كفعل الرياضات، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم، من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه، فهذا لون وهذا لون[١]. أهـ.

[مدلولات في الرؤيا]

الرؤيا هي جزء من أجزاء النبوة، ونوع من أنواع الوحي؛ فإنها مبنية على القياس والتمثيل، واعتبار المعقول بالمحسوس؛ ألا ترى أن الثياب في التأويل كالقُمُص تدل على الدين، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس، فهو في الدين، كما أوَّل النبي ﷺ القميص بالدين والعلم، والقدر المشترك بينهما أن كلاً منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس. فالقميص يستر بدنه والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس، ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما في كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة، وأن الطفل إذا خلي وفطرته لم يعدل عن اللبن فهو مفطور على إيثاره على ما سواه. وكذلك فطرة الإسلام التي فطر الله عليها الناس.

ومن هذا : تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض كما أن البقر كذلك مع عدم شرها وكثرة خيرها وحاجة الأرض وأهلها إليها؛ ولهذا لما رأى النبي ﷺ بقراً تنحر كان ذلك نحراً في أصحابه. ومن ذلك: تأويل الزرع والحرث بالعمل؛ لأن العامل زارع للخير والشر، ولا بد أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره؛ فالدنيا مزرعة

---

(١) مدارج السالكين: ١/١٧٩ - ١٨٠.

والأعمال البذر، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده. ومن ذلك: تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين، والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ولا ظل ولا ثمر؛ فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك، ولهذا شبه الله تعالى المنافقين بالخشب المسندة؛ لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير، وفي كونها مسنّدة نكتة أخرى؛ وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به، جعل مسندًا بعضه إلى بعض، فشبه المنافقين بالخشب في الحالة التي لا يُنتفَع فيها بها. ومن ذلك: تأويل النار بالفتنة لإفساد كل منهما ما يمر عليه ويتصل به؛ فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان، وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان. ومن ذلك: تأويل النجوم بالعلماء والأشراف لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما، ولارتفاع الأشراف بين الناس كارتفاع النجوم .ومن ذلك: تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس. ومن ذلك: خروج الدم في التأويل يدل على خروج المال، والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما. ومن ذلك: الحدث في التأويل يدل على الحدث في الدين، فالحدث الأصغر ذنب صغير، والأكبر ذنب كبير.

ومن ذلك: أن اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين؛ فاليهودية تدل على فساد القصد، واتباع غير الحق، والنصرانية تدل على فساد العلم والجهل والضلال. ومن ذلك: الحديد بالتأويل وأنواع السلاح يدل على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته. ومن ذلك: الرائحة الطيبة تدل على الثناء الحسن، وطيب القول والعمل، والرائحة

الخبيثة بالعكس، والميزان يدل على العدل، والجراد يدل على الجنود والعساكر، والغوغاء الذين يموج بعضهم في بعض، والنحل يدل على من يأكل طيبًا ويعمل صالحًا، والديك: رجل عالي الهمة بعيد الصيت، والحية: عدو أو صاحب بدعة يهلك بسمه، والحشرات: أوغاد الناس، والخلد: رجل أعمى يتكفف الناس بالسؤال، والذئب: رجل غشوم ظلوم غادر فاجر، والثعلب: رجل غادر مكار محتال مراوغ عن الحق، والكلب: عدو ضعيف كثير الصخب والشر في كلامه وسبابه، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له على دينه، والسنور: العبد والخادم الذي يطوف على أهل الدار، والفأرة: امرأة سوء فاسقة فاجرة، والأسد: رجل قاهر متسلط، والكبش: الرجل المنيع المتبوع[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) اعلام الموقعين: ١/ ٢٠٧ - ٢٠٩.

الفصل الحادي عشر: فروق ينبغي التنبه لها

[الفرق بين حسن الظن بالله والغرور]

اتكال بعض الناس على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: **(أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء)**[(١)] يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان؛ فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا؛ فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة وعادى أولياءَه، ووالى أعداءه، وجحد صفات له، وأساء الظن

---

(١) رواه أحمد: ١٠٦/٤، ولكن نصه: «أنا عند ظن عبدي بي...» وليس فيه كلمة (حسن)، ولم أجدها في روايات أو طرق أخرى للحديث، والله أعلم.

بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب، وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لايعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان غروراً خداعًا من نفسه وتسويلاً من الشيطان، لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الوضع، وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا تخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره، معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خداع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: «دخلت أنا وعروة ابن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها **فقال: ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير؟ قلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك، فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده)؟**»،

وفي لفظ: (**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده**)[١].

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسَّنَّا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، سبحان الله؟! ما يبلغ الغرر بالعبد، وقد قال إبرهيم عليه السلام لقومه: ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه؛ فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: (**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**)[٢].

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن.

---

(١) رواه أحمد: ٦/ ١٠٤.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والورع، ح ٢٤٥٩، وأحمد: ٤/ ١٢٤.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمة، وانتهك حرماته، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن بعدها فهذا حسن ظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل، فإن الحجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاسقين، وقال تعالى ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾**﴾ [النحل: ١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه[١]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ٣٨ - ٤١.

[الفرق بين المداراة والمداهنة]

المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم؛ والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه؛ فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنه لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق؛ وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت أخذ في طبها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده، ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة ثم اله عنها، فلا تزال تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها[١] أهـ.

[الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق]

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله وجناياته

---

(١) الروح: ٢٧٦.

هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق: فيبدو على الجوارح تصنعًا وتكلفًا والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع. فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله، وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه، فصار مخبتًا له. والمخبت: المطمئن؛ فإن الخبت من الأرض ما تطامن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع وتطامن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء، فيستقر فيها. وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالاً له وذلاً وانكساراً بين يديه، سجدة لا يرفع رأسه عنها، حتى يلقاه، وأما القلب المتكبر: فإنه قد اهتز بتكبره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء. فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومراءاة، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات؛ فهو يتخشع في الظاهر، وحية الوادي، وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة[1]. أهـ.

---

(١) الروح: ٢٧٧.

[الفرق بين التواضع والمهانه]

والفرق بين التواضع والمهانة أن **التواضع** يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها، وآفاتها. فيتولد من بين ذلك كله خُلُقٌ هو التواضع؛ وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة لعباده؛ فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها؛ كتواضع السفل في نيل شهواتهم؛ وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع. والله سبحانه يحب التواضع ويبغض المهانة والضعة.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **(وأوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)**(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالا، وعند نهيه اجتنابًا؛ فإن

(١) رواه مسلم في حديث طويل في الجنة وصفة نعميها، ح ٢٨٦٥، وأبو داود في الأدب، ح ٤٨٩٥، وابن ماجه في الزهد، ح ٤١٧٩.

النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراز هربًا من العبودية، وتثبت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه؛ فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، وتطامن لهيبته وأخبت لسلطانه؛ فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقةً من رزق الأمرين والله المستعان[1] أهـ.

[الفرق بين القوة والحمية لله والقوة والحمية للنفس]

القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها لله.

والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة، ونفاذ الكلمة، سواء عز أمر الله أو هان، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس؛ الأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها، فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه؛ وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي أُلقي على قلبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الروح: ٢٧٩.

وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله...

وهذا بخلاف الحمية للناس؛ فإنه حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه؛ فإن الفتنة في النفس، والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب، فإنما هما حرارتان يظهران على الأركان، حرارة من قبل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قبل النفس الأمارة آثارها استشعار فوت الحظ(١).

[الفرق بين المهابة والكبر]

والفرق بين المهابة والكبر: أن **المهابة** أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حلَّ فيه النور ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنَّتْ إليه الأفئدة وقرَّتْ به العيون، وأنست به القلوب؛ فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور، إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر: فأثر من آثار العجب والبغي، من قلب قد امتلأ مثلا بالجهل والظلم، وترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف،

---

(١) الروح: ٢٨٠.

ذاهب بنفسه تيهًا لا يبدأ من لقيه السلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا[1]. أهـ.

[الفرق بين الجود والسرف]

والفرق بين الجود والسرف: أن **الجواد** حكيم يضع العطاء مواضعه، **والمسرف** مبذر قد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه. وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا وهي نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية.

فالحقوق الموظفة: كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف ومكافأة المُهْدِي وما وقى به عرضه ونحو ذلك؛ فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال، طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس، وانشراح صدر، بخلاف المبذر؛ فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافًا لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له. فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيهًا، والثاني بمنزلة من بذر حبة

(١) الروح: ٢٨١.

في سباخ وغراز من الأرض، وإن أنفق بذره في محل النبات بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض؛ فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته، والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء، وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه، وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأي المحال أولى به[1]. أهـ.

[الفرق بين الشجاعة والجرأة]

والفرق بين الشجاعة والجرأة: أن الشجاعة من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن؛ فإنه متى ظن الظفر، وساعده الصبر ثبت، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء، وهو ينشأ من الرئة؛ فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرئة، فزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له، وتضييقها عليه. ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص

---

(١) الروح: ٢٨١.

الذي رواه أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**شر ما في المرء جبن خالع وشح هالع**)[(١)].

فسمى الجبن خالعًا لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرئة؛ كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر: انتفخ سحرك. فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبر العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها.

فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته؛ فإنها خدم له وجنود، كما أنه إذا ولى ولَّت سائر جنوده.

وأما الجرأة: فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض، فإما عليها وإما لها[(٢)]. أهـ.

[الفرق بين الفراسة والظن]

والفرق بين الفراسة والظن: أن **الظن** يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم.

---

(١) رواه بنحوه أبو داود في الجهاد، باب في الجرأة والجبن، ح ٢٥١١، وأحمد: ٢/ ٣٠٢، ٣٢٠.

(٢) الروح: ٢٨٢.

وأما الفراسة: فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين. وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فالفراساة الصادقة لقلب قد تطهَّر وتصفَّى وتنزَّه من الأدناس، وقَرُبَ من الله؛ فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه. وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)**[1].

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه؛ فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: **(.. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي)**[2] أخرجه البخاري.

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ح ٣١٢٧.

(٢) انفرد بروايته البخاري في الرقاق، باب التواضع، ح ٦٥٠٢. وليس فيه آخر فقرة منه: =

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبتة له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به وأبصر به وبطش به، ومشى به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه، فلا تكاد تخطئ له فراسة؛ فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه، وليس هذا من علم الغيب؛ بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان، وبادر من القلب إلى العين، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه.

ورأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة.

ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق.

ورأى أمراءه بمؤته وقد أصيبوا وهو بالمدينة.

ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة، فخرج إلى المصلى فصلى عليه.

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين، وهم يقاتلون عدوهم فناداه: يا سارية الجبلَ.

= (فبي يسمع وبي يبصر..) إلخ، وفيه بدلاً منها قوله: (وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته).

ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعي، فصعَّد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله؛ إني لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا. ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال: هذا سيد الفتيان إن لم يحدث...

وهذا عثمان بن عفان ﷺ دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه! فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة، وهي نور يقذفه الله في القلب، فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها[1]. أهـ.

[الفرق بين العفو والذل]

والفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام؛ فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق. بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس؛ فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩]؛ فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم، وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى

(١) الروح: ٢٨٤ - ٢٨٧.

الخلق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرَّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يُستَذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]. والله غفور رحيم.

والمخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهابة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل؛ فما زاد الله بعفو إلا عزا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو؛ ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط، وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩] كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا، بل لا بد من المجاوزة، شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرَّم الزيادة وندب إلى العفو.

والمقصود: أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الأمارة. ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء[1].

[الفرق بين الانتصار والانتقام]

فالانتصار: أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه؛ فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغي عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيرةً على ذلك العز أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل؛ فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيًا فيه وإذلالاً له.

وأما النفس المطمئنة التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله بها ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب نصحًا منه لسيده، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي على عفوه ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه

---

(١) الروح: ٢٨٨ - ٢٩٠.

وجمَّله وألبسه ثيابًا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأي سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته؛ كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة عليَّ واستخفافا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته، فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به، فذل وانكسر قلبه فإنَّ سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظة، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه؛ كما رُوي عن علي رضي الله عنه أنه مر برجل فاستغاث به، وقال: هذا منعني حقي، ولم يعطني إياه، فقال: أعطه حقه. فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع، وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقد منه. فقال قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه عليٌّ تسع درر، وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان. فعاقبه عليٌّ لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك - وعنده المغيرة بن شعبة - فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل، فسال الدم فجاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: أقدنا من المغيرة. فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله لا أقيدكم منه. فرأى أبو بكر أن ذلك انتصارًا من المغيرة وحمية لله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينة. فترك قوده لاجترائه على الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته. فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون[1]. أهـ.

---

(١) الروح: ٢٩٠.

[الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل]

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة؛ فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته؛ قال عمر ابن الخطاب ﷺ: لست بخب ولا يخدعني الخب.

وكان عمر أعقل من أن يُخْدَع وأورع من أن يَخْدَع، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من: مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس؛ فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا[١]. أهـ.

[الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها]

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه؛ فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه؛ مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته

---

(١) الروح: ٢٩٢.

ورجائه؛ فيكون راغبًا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم: فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر؛ فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشياطين مصالي وفخوخًا، وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله، والكبر على عباد الله، والفخر بعطية الله، والهون في غير ذات الله[1]. أهـ.

[الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة]

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها؛ فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه؛ فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا، يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيبًا وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلاً إليه، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم

(١) الروح: ٢٩٦ - ٢٩٧.

لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه؛ فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته؛ فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته؛ وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها. تأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنّته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف - وهي المنازل العالية في الجنة - لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل إن أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة، وهذا بخلاف طلب الرياسة؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك. ولا تنال إلا به

وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده[1].

[الفرق بين الحب في الله والحب مع الله]

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله - وهذا من أهم الفروق - كل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا:

فالحب في الله: هو من كمال الإيمان.

والحب مع الله: هو عين الشرك. والفرق بينهما أن المحب في الحب تابع لمحبة الله؛ فإذا تمكنت محبته من قلب العبد، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه؛ كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه تعالى يحبهم، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم. وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبًا لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضًا إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمدًا مطيعًا لله فيه أو متأولاً أو مجتهدًا أو باغيًا نازعًا بائنًا.

والدين كله يدور على أربع قواعد: حب، وبغض، ويترتب عليهما:

---

(١) الروح: ٣٠٢.

فعل، وترك؛ فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك لله، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه. وهذا بخلاف الحب مع الله؛ فهو نوعان: نوع يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك. ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يُخْرِج من الإسلام.

فالأول: كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله، كما يحبون الله. فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها، ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته؛ فكل من عبد شيئًا من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهًا وليًا وأشرك به؛ كائنًا ذلك المعبود ما كان، ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

والنوع الثاني: محبة ما زيَّنه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء. فهذه المحبة ثلاثة أنواع: فإن أحبها لله توصلاً بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته، أثيب عليها، وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه، ويلتذ بالتمتع بها؛ وهذا حال أكمل الخلق

الذي حُبِّبَ إليه من الدنيا النساء والطيب، وكانت محبته لهما عونًا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره. وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحب فيه. وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها أو الظفر بها، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالمًا لنفسه متبعًا لهواه.

فالأولى: محبة السابقين.

والثانية: محبة المقتصدين.

والثالثة: محبة الظالمين. فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق؛ فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة، والمهدي من هداه الله[١]. أهـ.

[الفرق بين التوكل والعجز]

والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقة به والتجاء إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه، وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته ودرعه؛ بل ظاهر يوم أحد بين

(١) الروح: ٣٠٣.

درعين، واختفى في الغار ثلاثًا؛ فكان متوكلاً في السبب لا على السبب.

وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما؛ فإما أن يعطل السبب عجزًا منه ويزعم أن ذلك توكل، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلا عن المسبب معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًا، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب. فهذا توكله عجز وعجزه توكل، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا.

فأحد الطرفين: عطل الأسباب محافظة على التوكل.

والثاني: عطل التوكل محافظة على السبب.

والوسط: علم أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب؛ فتوكل على الله في نفس السبب. وأما من عطَّل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمنٍ؛ كمن عطَّل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطَّل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري. فالتوكل نظير الرجاء والعجز نظير التمني.

فحقيقة التوكل: أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره

بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه المليء بالوكالة الوفي بالكفالة؛ فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان طالبًا للراحة، مؤثرًا للدعة يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قُدِّر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني. فيقال له: نعم، وهذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعي غيرك؟ وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه؟ وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد؟ فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقًا، فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضًا فهذا الذي أورَدَتْه عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها، حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل يعطلها اعتمادًا على التوكل؟ أم يقوم بها مع التوكل؟ بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه؛ فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك، أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب، واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجاراً، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت، اقتداء بسيد المتوكلين، صلوات الله وسلامه عليه وآله[1]. أهـ.

[الفرق بين النصيحة والتأنيب]

والفرق بين النصيحة والتأنيب: أن **النصيحة** إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له؛ وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلى خلقه؛ فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

وأما المؤنب: فهو رجل قصده التعيير والإهانة، وذم من أنَّبه وشتمه في صورة النصح؛ فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًا للذم والإهانة

---

(١) الروح: ٣٠٥ - ٣٠٧.

في صورة ناصح مشفق. وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غلب قال: وَأَنَّى ضمنت له العصمة، والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساوئه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك.

فيا عجبًا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه؛ وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير؟!!

ومن الفرق بين الناصح والمؤنب، أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته، وقال: قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل. ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنب بضد ذلك[(١)]. أهـ.

[الفرق بين المبادرة والعجلة]

والفرق بين المبادرة والعجلة: أن **المبادرة** انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها؛ فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته؛ فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من

(١) الروح: ٣٠٨.

يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها.

فالمبادرة: وسط بين خلقين مذمومين: أحدهما التفريط والإضاعة، والثاني الاستعجال قبل الوقت، ولهذا كانت العجلة من الشيطان؛ فإنها خفة وطيش، وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشرور، وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرين الندامة؛ فقَلَّ من استعجل إلا ندم. كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة[(١)]. أهـ.

[الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى]

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى - وإن اشتبهت صورتهما - أن **الإخبار بالحال** يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه؛ فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، قال: يا ابن أخي، لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحدًا.

ففي ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما. ولعل من هذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لما قالت عائشة: **(وارأساه. فقال:**

---

(١) الروح: ٣٠٩.

بل أنا وارأســـاه)[١]، أي الوجع القوي بي أنا دونك، فتــأسي بي فلا تشتكي. ويلوح لي فيه معنى آخر؛ وهو أنها رضي الله عنها كانت حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ بل كانت أحب النســاء إليه على الإطلاق، فلما شكت إليــه رأسها أخبـرها أن بمُحِبِّهــا من الألم مثل الذي بها؛ وهذا غــاية الموافقــة من المحب ومحــبوبه؛ يتألم بتألمــه، ويسر بسروره، حــتى إذا آلمه عضو من أعـضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة.

فـالمـعنى الأول: يفهم أنك لا تشتكي واصبــري؛ فبي من الوجع مثلما بك، فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنـى الثاني: يفهم إعلامها بصدق محبته لها؛ أي انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني مـتوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك، كما يسرني ما يسرك.

كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوى: فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المـبتلى إلى غيره؛ فـإن شكا إليه سبحــانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استــعطاف وتملق واسترحام له؛ كـقول أيوب عليه السلام: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقول يعـقوب عليه السلام: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦].

---

(١) رواه البخاري في الأحكام، باب الاستخلاف، ح ٧٢١٧، وفيه قصة.

وقول موسى عليه السلام: «**اللَّهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك**»[(١)].

وقول سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم: (**اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**)[(٢)].

فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه؛ فإن الله تعالى قال عن أيوب عليه السلام: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ [الأنبياء: ٨٣] وأخبر عن نبيه يعقوب عليه السلام أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وفى، مع قوله: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦] ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره، ولا يُلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، ٣/٣٥٦، ح ٣٣٩٤، وفي الصغير ١/٢١١، ح ٣٣٩، وليس فيهما قوله: (وبك المستغاث، وعليك التكلان).

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة دون إسناد؛ حيث قال: «فيما ذُكِرَ لي»، انظر السيرة النبوية لابن هشام، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد: ٢/٢٦٨، ط. دار الجيل، بيروت ط (١) ١٤١١هـ.

وابن إسحاق ثقة لكنه مدلس، فالحديث عنه صعيف حيث لم يصرح بالسماع من أحد.

كما قال بعضهم: لما قال: مسني الضر، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] ولم يقل صبوراً حيث قال: مسني الضر.

وقال بعضهم: لم يقل: ارحمني، وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله، ووصف ربه.

وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم.

وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى الشكوى إلى الله تنافي الصبر، وغلط أقبح الغلط؛ فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه؛ فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه، وقلة صبره؛ فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف؛ فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم[(١)]. أهـ.

[الفرق بين تجريد متابعة المعصوم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها]

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها:

---

(١) الروح: ٣١٠.

أن تجريد المتابعة: أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد، ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولا، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيًا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب. ومعاذ الله أنه تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها، بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به، ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص ولا تَضْعُفْ، واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا، ولكن لم يصل إليك هذا، مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم، واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه؛ فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك.

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك، فهلا وافقته إن كنت صادقًا، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم، ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى بهم؛ فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا أو دعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم. ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه؛ فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه، ولا طلب لدليله من الكتاب والسُّنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به. ولذلك سُمي تقليدًا، بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم

بمنزلة الـدليل إلى الدليل الأول، فـإذا وصل إليـه اسـتـغـنى بدلالتـه عن الاستدلال بغـيره، فمن لاستدل بالنجم على القـبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعي: أجمع الناس على أن من استبان له سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الروح: ٣١٧.

الفصل الثاني عشر: المعرضون عن الله

[سير الأشقياء في الدنيا]

الأشقياء قطعوا المراحل سائرين إلى دار الشقاء، متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدع إلى دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده؛ فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه؛ يعلم سوء حاله، ويعترف بتفريطه، ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان(١).

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٠٣.

[المغرورون]

كثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: «أستغفر الله» زال الذنب، وراح هذا بهذا. وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مئة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: (**من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مئة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**)[١]، وقال لي آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا وقد مُحي عنه ذلك، وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي ربِّ أصبت ذنبًا فاغفر لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؛ قد غفرت لعبدي فليصنع ما شاء**)[٢] قال: وأنا لا أشك أن لي ربًا يغفر الذنب ويأخذ به. وهذا الضرب من الناس قد تعلَّق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء. وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح، ح ٦٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح، ح ٢٦٩١.

(٢) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في التوحيد، ح ٧٥٠٧، ومسلم في التوبة، ح ٢٧٥٨.

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار.

وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللَّهم إني أعوذ بك من العصمة.

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده.

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانًا وصلاحًا، فلا يَدَعوه أن يخلصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك؛ فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلَّصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنة فاتكلوا؛ كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، وهو لا يرضى أن يكون في النار. وهذ من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه؛ فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل،

والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرِّين على الكبائر، فحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وكاتكال بعضهم على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين؛ فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان. ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة، وهذا إنما أُتي صاحبه من قلة علمه وفهمه؛ فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته؛ وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله وهواه. وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤﴾ [الليل: ١٤]، هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم،

ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال: ﴿**لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴿١٥﴾**﴾ [الليل: ١٥] ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها؛ فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضمونًا له أن يُجنَّبها.

وأما قوله في النار: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ فقد قال في الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيراً قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها، غير تائب منها، هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يُصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم

الإصرار وتعاونا على عموم التكفير؛ كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما. وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل[١]. أهـ.

[آدميون بنفوس حيوانية]

من الناس من لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان؛ ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية؛ لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب، ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة، ولا يسمح لكلب بشيء منها، وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق: ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب، ولا يستحيي من قبيح؛ إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَث أو تتركه يلهث. إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك، وإن منعته هرَّك ونبحك.

---

(١) الداء والدواء: ٣٣ - ٣٧.

ومنهم: من نفسه حمارية؛ لم تخلق إلا للكد والعلف، كلما زيد في علفه زيد في كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة، ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حَمَّلَه كتابه، فلم يحمله معرفة ولا فقهًا ولا عملا. ومثَّل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثلين أسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبُعية غضبية؛ همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته. طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.

ومنهم: من نفسه فأرية؛ فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره. تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم: من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَّات؛ كالحية والعقرب وغيرهما. وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه؛ فيُدخل الرجل القبر والجمل القِدْر. والعين وحدها لم تفعل شيئًا؛ وإنما النفس الخبيثة السُّمِّية تكيفت بكيفية غضبية، مع شدة حَسَدٍ وإعجاب، وقابلت المَعِين على غِرَّة منه وغفلة، وهو أعزل من سلاحه، فلدَغَتْه كالحية التي تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه، فإما عطب وإما أذى. ولهذا لا يتوقف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة، بل إذا وُصف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه. والذنب لجهل المعين وغفلته وغِرَّته عن حمل سلاحه كل وقت. فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح؛ كالحية إذا قابلت دِرْعا سابغًا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف، فحق على من أراد حفظ نفسه

وحمايتها أن لا يزال متدرعًا متحصنًا لابسًا أداة الحرب، مواظبًا على أوراد التعوذات، والتحصينات النبوية التي في القرآن، والتي في السُّنة...

ومن الناس: من طبعه طبع خنزير؛ يمر بالطيبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه. وهكذ كثير من الناس: يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها، فجعلها فاكهته ونُقْله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التَّطَوس والتزين بالريش، وليس وراء ذلك من شيء.

ومنهم: من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان، وأغلظه كبدًا.

ومنهم: من هو على طبيعة الدُّبِّ أبكم خبيث، وعلى طبيعة القرد.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا، وأكرمها طباعًا، وكذلك الغنم. وكل من ألِفَ ضَرْبًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه، فإن تغذى بلحمه كان الشَّبه أقوى؛ فإن الغاذي شبيه بالمغتذي.

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم[(١)]. أهـ.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٩٤ - ٣٩٦.

[أتباع كل ناعق]

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق؛ يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق»...

فالهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم، وأصله من الهمج جمع همجة؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب. **والرعاع** من الناس: الحمقى الذين لا يعتد بهم.

وقوله: «**أتباع كل ناعق**»؛ أي: من صاح بهم ودعاهم تبعوه؛ سواء دعاهم إلى الهدى أو إلى ضلال؛ فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعَون إليه أحق هو أم باطل؟ فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان؛ فإنهم الأكثرون عددًا، الأقلون عند الله قدرًا، وهم حطب كل فتنة؛ بهم توقد ويشب ضرامها؛ فإنها يعتزلها أولو الدين، ويتولاها الهمج الرعاع.

وسمي داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أين ذهب!

قال تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (١٧١) ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم؛ فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل، بل الكل عندهم سواء.

وقوله ﷺ: «**يميلون مع كل ريح**»، وفي رواية: «مع كل صائح»؛ شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف، وشبه الأهوية والآراء بالرياح، والغصن يميل مع الريح حيث مالت، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع، ولو كانت عقولاً كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح.

وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع، تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى، والمنافق كشجرة الأرز التي لا تُقطع حتى تستحصد؛ فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها، فلا يزال بين عافية وبلاءٍ، ومحنة ومنحةٍ، وصحة وسقم، وأمن وخوف، وغير ذلك؛ فيقع مرة ويقوم أخرى، ويميل تارة ويعتدل أخرى، فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره، والكفر كله خبث ولا يصلح إلا للوقود، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن.

فهذه حال المؤمن في الابتلاء.

وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع، فكما قيل:

تزول الجبال الراسيات وقلبه   على العهد لا يلوي ولا يتغير

وقوله ﷺ: «**لم يستضيئوا بنور العلم، لم يلجؤوا إلى ركن وثيق**»؛ بيَّن السبب الذي جعلهم بتلك المثابة؛ وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ**﴾ [الحديد: ٢٨] فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب!

فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل.

فإن الحق متى استقر في القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه، ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانًا.

فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه(١). أهـ.

[خطر المنافقين وحالهم]

هم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهم في الدرك الأسفل من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥]؛ فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر؛ أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٤١٢ - ٤١٥، مع الحذف والاختصار.

بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها؛ فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم تنقضي ويعقبها النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلذا قيل ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين...

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء؛ ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نورًا يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]ويضرب بينهم وبين المؤمنين: ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣، ١٤]، وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء؛ أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه. وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم؛ فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم

كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣] وقال تعالى فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى في الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنى آخر أيضًا؛ وهو أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين؛ فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضًا، ومن هاهنا دخل عليهم البلاء؛ فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وصغوهم وجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل؛ وهو أن جعل مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار. فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان، والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الأسفل من النار. ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة (٢ - ٢٠) فقسمهم إلى مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وكافر ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن، وهم المنافقون، ذكر في

حق المؤمنين ثلاث آيات[١]، وفي حق الكفار آيتين[٢]، فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية[٣] ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر أنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدى، وأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى القلوب، وأن الله يزيدهم مرضًا إلى مرضهم، فلم يدع ذما ولا عيبًا إلا ذمهم به. وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته[٤].

[أوصاف المنافقين]

من تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل؛ فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض - وهو مرض الشبهات والشكوك - ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وبعباده، وبالطغيان، واشتراء الضلال بالهدى، والصم والبكم والعمى، والحيرة والكسل عند عبادته، والزنا، وقلة ذكره، والتردد - وهو التذبذب - بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى

(١) سورة البقرة: الآيات من ٣ إلى ٥.
(٢) سورة البقرة: الآيات من ٦ إلى ٧.
(٣) سورة البقرة: الآيات من ٨ إلى ٢٠.
(٤) طريقة الهجرتين: ٤٠٢ - ٤٠٤.

هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذبًا وباطلاً وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة على المؤمنين ولا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة، وكراهتهم لظهور أمر الله، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدقين، ويعيبون مزهدهم، ويرمون بالرياء وإرادة الثناء في الناس مكثرهم، وأنهم عبيد الدنيا إن أُعطوا منها رضوا وإن مُنِعوا سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأن يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله: قد اتخذوا أيمانهم جُنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم؛ وهذا شأن المنافق: أحلف الناس بالله كاذبًا؛ قد اتخذ يمينه جنة ووقاية يتقي بها إنكار المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجس - والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره - فهم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويؤون من حاربهم

وحارب الله وسوله، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الاضرار بهم وتفريق كلمتهم - هذا شأن المنافقين أبدًا - وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء - هذه عادتهم في كل زمان - وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأماني الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجسامًا تعجب الرائي أجسامهم، والسامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خشبًا مسندة، لا إيمان ولا فقه، ولا علم ولا صدق، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئًا، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة - كحال كثير من الزنادقة - وإما احتقارًا وازدراء بمن يدعوهم إلى ذلك، ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم عن الانفاق في مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلاً، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادُّون من حاد الله ورسوله، وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم، وبأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

ومن صفاتهم: التي وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعًا، وترك

حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء.

ومن صفاتهم: التي وصفهم الله بها: الشح على المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف، فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حدد؛ فهم أحدّ الناس ألسنة عليهم كما قيل:

جهلا علينا وجبنا عن عدوكم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها، وأما عند الأمن فيجب ستره، فإذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم، وظهرت المخبآت وبدت الأسرار.

ومن صفاتهم: أنهم أعذب الناس ألسنة، وأمرّهم قلوبًا، وأعظم الناس خلفًا بين أعمالهم وأقوالهم. ومن صفاتهم أنهم لايجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبدًا.

ومن صفاتهم: أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم، وسرائرهم تناقض علانيتهم.

ومن صفاتهم: أن المؤمن لا يثق بهم في شيء؛ فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجًا منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمي منافقًا أخذًا من نافقاء اليربوع - وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابًا مختلفة - فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد، قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه   ومن جحره بالشيحة اليتقصع

فأنت منه كقابض على الماء؛ ليس معك منه شيء.

ومن صفاتهم: كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات على حال واحد: بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدي صالح أو صدق، إذ انقلب إلى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره؛ فهو أشد الناس تلونًا وتقلبًا وتنقلاً، جيفة بالليل قطرب بالنهار. ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسُّنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم؛ قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣)**﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٣].

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به؛ فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعموا أنه لايستفاد منه هدى.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم؛ فيرمونهم - إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى الله ورسوله -

بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض. وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم ورثة الرسول إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله رموهم بالزوكرة والتلبيس والمحال. وإذا رأوا معهم حقًا ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم.

وجملة أمرهم: أنهم في المسلمين كالزغل في النقود؛ يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم.

وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلَّى الله أمرهم في القرآن وأوضح أوصافهم وبيَّن أحوالهم وكرر ذكرهم، لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، ووعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور. فكم لهم من قتيل، ولكن في سبيل الشيطان، وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان، وأسير لا يرجى له الخلاص، وفارّ من الله لا إليه، وهيهات ولات حين مناص. صحبتهم توجب العار والنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار. ومن علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب

رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالا، ويمشي على عقبيه القهقرى إدبارًا منه وهو يحسب ذلك إقبالا. فهم والله قطاع الطريق. فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، إذ هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا، ففرارًا منهم أيها الغنم فرارًا. ومن البلية أنهم الأعداء حقًا وليس لنا بد من مصاحبتهم، وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم. فقد جُعِلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبُعدًا للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حُفَّت به من الشهوات فويل للمغترين. نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم: يا شياه الأنعام حي على الهلاك، حي على التباب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العَذاب، لا الموارد العِذاب. وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة، وقالوا ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس بيوم حطة. فواعجبًا لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأنَّى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق. فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران.

وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم؛ فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «يا حذيفة ناشدتك الله، هل سماني رسول الله مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»؛ يعني لا أفتح عليَّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك.

وقال ابن أبي مليكة: ادركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل(١).

[المصلحون المفسدون]

وهم من حُرِم العلم والعزيمة، وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقوله: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢، ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الضرب شر البرية، يضيقون الديار ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون، ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول يبيتون، ويدعون ولكن مع الله إلهًا آخر يدعون، ويذكرون ولكن إذا ذكِّروا لا يذكرون، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية

---

(١) طريق الهجرتين: ٤٠٥ - ٤٠٩.

يبغون، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون، ويقولون: إنما نحن مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون، وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يشعرون.

فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة، وجلهم - إذا فكَّرت - فهم حمير أو كلاب أو ذئاب![١].

[المتحاكمون إلى الطاغوت]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩.

أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه. والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، و يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة - وهم الصحابة ومن تبعهم - ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للداعي، ورضُوا بحكم غيره. ثم توعَّدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق؛ أي بفعل ما يرضي الفريقين، ويوفق بينهما، كما يفعله من يروم التوفيق بين ماجاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق. والإيمانُ إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول، وبين كل من خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي؛ فمحض الإيمان في هذا الحرب، لا في التوفيق، وبالله التوفيق.

ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحكمِّوا رسوله في كل ما شَجَر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتى يُسلِّموا تسليما، وينقادوا انقيادًا. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك فقد ضل ضلالاً مبينًا، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفْتوا حتى يُفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه.

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلافَ الكتاب والسُّنة».

وروى العوفي رضي الله عنه قال: «نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه».

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] فإذا كان رفعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء

به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون مُحْبطًا لأعمالهم؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنُه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه(١). أهـ.

[المعرضون عن الوحي بالآراء]

فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستعد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله مسدود، وقلبه عن المرسل سبحانه وتعالى وتوحيده، والإنابة إليه والتوكل عليه، والتنعم بحبه، والسرور بقربه، مطرود ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله إن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها، تربّى فيه الصغير وهرم عليه الكبير، فظنت خفافيش الأبصار أنها الغاية التي تسابق إليها المتسابقون، والنهاية التي تنافس فيها المتنافسون، وهيهات أين الظلام من الضياء؟ وأين الثرى من كوكب الجوزاء؟ وأين الحرور من الظلال؟ وأين طريقة أصحاب اليمين من طريقة أصحاب الشمال؟ وأين القول الذي لم تضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم من النقل المصدق عن

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٥٣ - ٥٥.

القائل المعصوم؟ وأين العلم الذي سنده محمد بن عبد الله ﷺ، عن جبرائيل ﷺ، عن رب العالمين سبحانه وتعالى من الخوض الخرص الذي سنده شيوخ الضلال من الجهمية والمعتزلة وفلاسفة المشائين؟ بل أين الآراء التي أعلى درجاتها أن تكون عند الضرورة سائغة الاتباع إلى النصوص النبوية الواجب على كل مسلم تحكيمها والتحاكم إليها في موارد النزاع؟ وأين الآراء التي نهى قائلها عن تقليده فيها، وحض على النصوص التي فرض على كل عبد أن يهتدي بها ويتبصر؟ وأين الأقوال والآراء التي إذا مات أنصارها والقائمون بها فهي من جملة الأموات إلى النصوص التي لا تزول إلا إذا زالت الأرض والسماوات؟

لقد استبان والله الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبين الرشد من الغي لمن له أذنان واعيتان، لكن عصفت على القلوب أهوية البدع والشبهات والآراء المختلفات، فأطفأت مصابيحها وتحكمت فيها أيدي الشهوات، فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها وتقليدها لآراء الرجال، فلم تجد حقائق القرآن والسُّنة فيها منفذًا، وتمكنت فيها أسقام الجهل والتخليط، فلم تنتفع معها بصالح الغذاء، واعجبًا جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء بكلام الله تعالى ونص نبيه المرفوع، واعجبًا كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ فيها والصواب، وعجزت عن الاهتداء بمطالع الأنوار ومشارقها من السُّنة والكتاب، فأقرَّت بالعجز عن تلقي الهدى والعلم من مشكاة السُّنة والقرآن، ثم تلقَّته من رأي فلان ورأي فلان.

سبحان الله! مـاذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي واقـتباس الهدى من مشكاتهـا من الكنوز والذخائر؟ ومـاذا فاتهم من حيـاة القلوب واستنارة البصائر؟ قنعـوا بأقوال استنبطوها بمعاول الآراء فكرًا وتـقطعوا أمرهم بينهم لأجلهـا زبرًا، وأوحى بعضـهم إلى بعض زخرف القـول غرورًا، فـاتخذوا لأجل ذلك االقـرآن مهـجـوراً، درست معـالم القرآن في قـلوبهم فليسـوا يعرفـونها، ودثرت معـاهده عندهم فليسوا يعـمروها، ووقعت أعـلامه من أيديهم فليسوا يرفعـونها، وأفلت كـواكبه من آفـاقهم فليسـوا يبصـرونها، وكسفت شـمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعـقدها فليسوا يثبتـونها، خلعوا نصوص الوحي عن سلطـان الحقيقـة، وعزلوها عن ولاية اليـقين، وشنوا عليـها غـارات التحـريف بالتأويلات البـاطلة، فلا يزال يخـرج عليهـا من جيوشهم المخذولة كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فعاملوهـا بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام، وتلـقوها من بعيد، ولكن بالدفع في صدورها والأعجاز.

وقالوا: مـا لك عندنا من عبور، وإن كـان لا بد فعلى سبيل المـجاز، أنزلوا النصوص منزلة الخليـفة العاجز في هذه الأزمـان: له السكة والخطبة وما له حكم نافـذ ولا سلطان، حرموا والله الوصول بخـروجهم عن منهج الوحي، وتضييع الأصول، وتمسكوا بأعجاز لا صور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليهـا، وتقطعت بهم أسبابهم أحوج ما كانوا إليهـا، حتى إذا بعثر ما في القـبور، وحصـل ما في الصدور، وتمـيز لكل قوم حـاصلهم الذي حصلوه، وانكشفت لهم حقـيقة ما اعتقدوه، وقدمـوا على ما قدموه، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يـحتسبـون، وسقط في أيديهم عند الحصـاد لما

عاينوا غلة ما بذروه. فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثورًا، ويا عظم المصيبة عندما تبين بوارق آماله وأمانيه خلبًا وغرورًا، فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء بربه سبحانه وتعالى يوم تبلى السرائر؟! وما عذر من نبذ كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وراء ظهره في يوم لا ينفع فيه الظالمين المعاذر؟ أفيظن المعرض عن كتاب الله وسنّة رسول ﷺ أن ينجو غدًا بآراء الرجال، ويخلص من مطالبة الله تعالى له بكثرة البحوث والجدال، أو ضروب الأقيسة وتنوع الأشكال، أو بالشطحات والمشارات وأنواع الخيال. هيهات! والله لقد ظن أكذب الظن ومنّى نفسه أبين المحال، وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدى الله تعالى على غيره، وتزود التقوى، وأْتَمَّ بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من التوحيد واتباع الرسول ﷺ بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميع عليم[1].

[من أعرض عن الحق وقع في الباطل]

إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولا بد، حتى في الأعمال.

من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق؛ فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية: ٦٠ - ٦٣.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بدّ.

وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان، ووسخ الأفكار.

فليتأمل من يريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه وفي غيره، والله المستعان(١). أهـ.

[حكم عظيمة من وجود الكفرة والمعاندين والشرور والآثام]

قد يترتب على خلق من يكفر بالله ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك؛ فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان وبقيت آية يتحدث بها الناس على ممر الأزمان، ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التي دمرت ما مَرَّت عليه، ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب التي تتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى بها من شاء الله، فهلك بها من هلك عن بينة، وحيّ بها من حَيّ عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم.

فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها، والجواب عنها، وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٧١.

ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعُدد والشوكة يوم بدر، لما حصلت تلك الآية العظيمة التي ترتب عليها من الإيمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلاً مع عدمها، وقد بيَّنا أن الموقوف على الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

فللّه كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلاً بالإيمان، وكم فتحت لأولي النُهى من باب وصلوا منه إلى الهدى والإيقان، وكم حصل بها من محبوب للرحمن، وغيظ للشيطان، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًا بالنسبة إلى مصالحها وحكمها؛ وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر، وبَلَّ الثياب، وخَرَّبَ بعض البيوت بالنسبة إلى مصلحته العامة.

وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون للأمم من الهدى والإيمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتى تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلى بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة؛ ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يُذَكِّرَ بها أمته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٥، ٦] فذكَّرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكه وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت؛ فإنهم

صاروا إلى النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا، وسومه لهم سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح، أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير، فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته؛ وهو أن يُربى هذا المولود الذي ذَبَحَ فرعون ما شاء الله من الأولاد في طلبه في حجر فرعون، وفي بيته، وعلى فراشه، فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة، وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها، فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه على يد الكريم ابن الكريم ابن الكريم، والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على الألف، لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب، الذي كان فيه مفسدة جزئية في حق يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سببًا لأعظم المصالح في حقه، وحق يوسف، وحق الإخوة، وحق امرأة العزيز، وحق أهل مصر، وحق المؤمنين إلى يوم القيامة.

فكم جَنَى أهلُ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة.

وكـذلك المفـسـدة التي حـصلت لأيوب من مَسِّ الشـيطان له بنصب وعذاب، اضمحلت وتلاشت في جنب المصلـحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره عند مفارقة البلاء، وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها، والشجرة التي جنيت منها ثمار تلك النعم.

وكذلك الأسـباب التي أوصلت خليل الرحمن إلى أن صـارت النار عليه بردًا وسلامًا، من: كفر قومه، وشركـهم، وتكسيره أصنامهم، وغضبهم لها، وإيقاد النار العظيمة له، وإلقائه فيـها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار، وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرنًا بعد قرن.

فكم لله سبـحانه في ضمن هذه الآية من حكمـة بالغة ونعمة سـابغة، ورحـمة وحـجـة وبينة؛ لو تعطلت تلك الأسـبـاب لتـعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات، وحكمته وكمـاله المقدس يأبى ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفـاسد الجزئية في هذه القصة، وبين جعل صاحبهـا إمامًا للحنفاء يوم القيامة، وهل تلك المـفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير؟

ولكن الإنسـان - كما قـال الله تعالى - ظلومٌ جـهولٌ؛ ظلومٌ لنفـسه، جهولٌ بربّه وبعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخـراج رسول الله ﷺ من مكة على تلك الحـال، ودخوله إليها ذلك الدخـول الذي لم يفرح به بشر سواه، وجنود الله قد اكـتنفته من بين يديه ومن خلفـه وعن يمينه وعن شـماله، والمهـاجرون والأنصـار قد أحدقـوا به، والملائكة من فـوقهم والوحي من الله ينزل عليـه، وقد أدخله

حرمه ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟

ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم، لما ظهرت آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم؛ ولهذا أمرهم موسى عليه السلام أن يلقوا أولاً، ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الربّ تعالى وكمال اقتداره وحكمته، أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح، ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس، الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام، والأرض والسماء، والجنة والنار، وسدرة المنتهى وشجرة الزقوم، وليلة القدر وليلة الوباء، والملائكة والشياطين، والمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والحر والبرد، والداء والدواء، والآلام واللذات، والأحزان والمسرات، واستخرج سبحانه من بين ذلك ما هو من أحب الأشياء إليه من أنوع العبوديات، والتعرف إلى خلقه بأنواع الدلالات.

ولولا خلق الشياطين والهوى والنفس الأمارة، لما حصلت عبودية الصبر ومجاهدة النفس والشياطين ومخالفتهما، وترك ما يهواه العبد ويحبه لله؛ فإن لهذه العبودية شأنًا ليس لغيرها، ولولا وجود الكفار لما حصلت عبودية الجهاد، ولما نال أهله درجة الشهادة، ولما ظهر من يُقَدِّمُ محبة فاطره وخالقه على نفسه وأهله وولده، ومن يقدم أدنى حظ من الحظوظ عليه.

فأين صبر الرسل وأتباعهم وجهادهم وتحملهم لله أنواع المكاره والمشاق، وأنواع العبودية المتعلقة بالدعوة وإظهارها، لولا وجود الكفار؟ وتلك العبودية تقتضي درجة لا تنال إلا بها، والربّ تعالى يحب أن يَبْلُغَها رسلُه وأتباعُهم، ويشهدهم نعمته عليهم وفضله وحكمته، ويستخرج منهم حمده وشكره ومحبته والرضا عنه.

وقد استقرت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا على جسر المشقة والتعب، ولا يدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق، ولذلك حَفَّ الجنَّة بالمكاره، والنار بالشهوات، ولذلك أخرج صفيَّه آدم من الجنة وقد جعلها له، واقتضت حكمته أنه لا يدخلها دخول استقرار إلا بعد التعب والنصب، فما أخرجه منها إلا ليدخله إليها أتم دخول.

فللّه كم بين الدخول الأول والدخول الثاني من التفاوت، وكم بين دخول رسول الله ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي ودخوله إليها يوم الفتح، وكم بين راحة المؤمنين ولذتهم في الجنة بعد مقاساة ما قبلها، وبين لذتهم لو خلقوا فيها، وكم بين فرحة من عافاه بعد ابتلائه، وأغناه بعد فقره، وهداه بعد ضلاله، وجمع قلبه عليه بعد شتاته، وفرحة من لم يذق تلك المرارات، وقد سبقت الحكمة الإلـٰهية أن المكاره أسباب اللذات والخيرات؛ كما قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب

والعقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وطلب محمدة من ينفعهم حمده، وكل من كان أتعب في تحصيل ذلك، كان أحسن حالاً وأرفع قدرًا، وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنى والعزِّ والشرف، ويذمون القاعد عن ذلك، وينسبونه إلى دناءة الهمة، وخسة النفس، وضعة القَدْرِ؛ كما قيل:

دع المكارمَ لا تنهضْ لبُغْيَتها واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

وهذا التعب والكد يستلزم آلامًا وحصول مكاره ومشاق هي الطريق إلى تلك الكمالات، ولم يقدحوا بتحمل تلك في حكمة من تحملها، ولا يعدونه عابثًا، بل هذا عندهم هو العقل الوافي، ومن أمر غيره به فهو حكيم في أمره، ومن نهاه عن ذلك فهو سفيه عدوٌ له، هذا في مصالح المعاش، فكيف بمصالح الحياة الأبدية الدائمة والنعيم المقيم؟

كيف لا يكون الآمر بالتعب القليل في الزمن اليسير، الموصل إلى الخير الدائم حكيمًا رحيمًا محسنًا ناصحًا لمن يأمره بذلك، وينهاه عن ضده من الراحة واللذة التي تقطعه عن كماله ولذته ومسرته الدائمة؟! هذا إلى ما في أمره ونهيه من مصالحه العاجلة التي بها سعادته وفلاحه وصلاحه، ونهيه عما فيه مضرته وعطبه وشقاوته.

فأوامر الربّ تعالى رحمة وإحسان وشفاء ودواء وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن، وكم في ضمنه من مسرة وفرحة ولذة وبهجة، ونعيم وقرة عين؛ فما يسميه هؤلاء تكاليف، إنما هو قرة

العيون، وبهجة النفوس، وحياة القلوب، ونور العقول، وتكميل للفطر، وإحسان تام إلى النوع الإنساني، أعظم من إحسانه إليه بالصحة والعافية، والطعام والشراب واللباس.

فنعمته على عباده بإرسال رسله إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه ويبغضه، أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها، بل لا نسبة لرحمتهم بالشمس والقمر والغيث والنبات إلى رحمتهم بالعلم والإيمان والشرائع والحلال والحرام[(١)]. أهـ.

[النظر إلى ما وراء الأوامر]

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].
فشبّه نصيبهم أي المنافقين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائراً تائهًا لا يهتدي سبيلاً ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب - وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من علو إلى أسفل - فشبّه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا الظلمات ورعد وبرق ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن

(١) شفاء العليل: ٢/٦١٧ - ٦٢٣.

تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب.

فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيِّب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر، ضعيف العقل؛ لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحَّت بصيرته؛ فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا

من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيِّب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ويعلم أنه حياة الوجود(١). أهـ.

[لماذا ينقمون منا؟]

قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

هذا شأن أعداء الله دائمًا؛ ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يُحبوا ويُكرموا لأجله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السُّنَّة تجريد متابعتها، وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله، ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السُّنَّة محبتهم للصحابة جميعهم، وتَرَضِّيهِمْ عنهم، وولايتهم إياهم، وتقديم من قدَّمه رسول الله ﷺ منهم،

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية: ٣٧ - ٣٩.

وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث، ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه، وتركهم ما خالفه(١). أهـ.

[شروط توبة المبتدعة والمنافقين]

من شروط توبة الدَّاعي إلى البدعة أن يبيِّن أنَّ ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضدِّه؛ كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البيِّنات والهدى ليضلُّوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إيَّاه، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعه، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان(٢). أهـ.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) عدة الصابرين: ٩٠.



الباب الخامس

ما جاء في الذنوب

وفيه:

- الفصل الأول: آفات المعاصي .
- الفصل الثاني: النظر والعشق والزنا .
- الفصل الثالث: الوقاية من الذنوب .
- الفصل الرابع: حِكَم من قضاء السيئات وتقدير المعاصي .
- الفصل الخامس: متفرقات .

الفصل الأول: آفات المعاصي

[الفساد في الأرض بسبب المعاصي]

قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، ٨٥]، قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم.

وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللَّهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة؛ فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو.. وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عمومًا، وخصوصًا.. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١).. أهـ.

[ضرر الذنوب]

مما ينبغي أن يعلم: أن الذنوب والمعاصي تضر. ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة - دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور - إلى دار الآلام والأحزان والمصائب.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه، فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وأبدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة،

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١٤.

وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه. فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم. رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللَّهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟! وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟ ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرًا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات؛ مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿**لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الحق بن جبير بن نفير عن أبيه قال: «لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى...

وذكر أيضًا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: «أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا».

وذكر أبو نُعيم عن سالم بن أبي الجَعْد عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدري مم هذا؟

قلت: لا. قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بُغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة[١]. أهـ.

[نكتة مهلكة]

ها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب؛ وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يُغبر حَائطٌ في وُقوعِهِ   فَليسَ لَهُ بعدَ الوقوعِ غُبَارُ

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة، وكم جلبت من نقمة. وما أكثر المغترين بها من العلماء الفضلاء، فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين، كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدَّغَل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا يُنسى».

---

(١) الداء والدواء: ٦٤ - ٦٦.

ونظر بعض العبَّاد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأُتي في منامه وقيل له: لتجدن غبها بعد أربعين سنة.

هذا مع أن للذنب نقدًا معجلا لا يتأخر عنه؛ قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: «اللَّهم لا تشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله ويشمت به في القيامة كل عدو».

وقال ذو النون: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية(١). أهـ.

[سوء الخاتمة]

إذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله: «واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابًا، ولها طرق وأبواب؛ أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه

---

(١) الداء والدواء: ٨٠ - ٨١.

تذكرة ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال: ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول قل لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات، قال عبد الحق: وقيل لآخر - ممن أعرفه - قل: لا إله إلا الله فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

قال: وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية ده يازده دن وازده، تفسيره: عشرة بأحد عشر، وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب.

قال: وهذا الكلام له قصة؛ وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت

وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يارُبَّ قائلة يومًا، وقد تعبت: كيف الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاق:

هَلاَّ جعلت سريعًا إذ ظفرت بها حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب، فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه؛ أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾**﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمِع بهذا ولا عُلِم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم،

فربما غلب ذاك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويُصطلم[١] قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لبي وأخذت بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا. قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه.

وقال: ويروى أن رجلاً علق شخصًا، فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألـمًا به، ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له، فبينما هو كذلك إذا جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الريبة؛ لا أُعرِّضُ نفسي لمواقع التهم،

---

(١) يُصطلم: أي يُستأصل.

فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

أسلم يا راحة العليل ... ويا شفا المدنف النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقلت له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة(١). أهـ.

[من آثار التحاكم لغير الشرع]

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسُّنة والمحاكمة إليها، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكَدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربى فيها الصغير، وهرمَ عليها الكبير؛ فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدَع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة

(١) الداء والدواء: ٢٤٦ - ٢٤٩.

والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نُصبت، وجيوشها قد ركبت؛ فبطنُ الأرض والله خير من ظهرها، وقُلَل[1] الجبال خيرٌ من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس[2]. أهـ.

[أضرار الشهوة المحرمة]

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة؛ فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تُضِيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تَثلم عِرضًا توفيرُه أنفع للعبد من ثَلمِه، وإما أن تُذهِب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تُطَرِّق لوضيعٍ إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هَمّاً وغمّاً وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تُنسِي عِلمًا ذكرُه ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمت عدوًا وتُحْزِنَ وليًا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تُحْدِث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق[3]. أهـ.

---

(١) قلل الجبال: قممها.

(٢) الفوائد: ٧٥.

(٣) الفوائد: ٢٠٤.

[آثار المعاصي]

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى أن الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رحمه الله:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأنَّ العلم فضل وفضل الله لا يُؤتاهُ عاصي

ومنها: حرمان الرزق؛ وفي المسند: **(إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)**[1] وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ٢٨٢، وابن ماجه في الفتن باب العقوبات، ح ٤٠٢٢.

إيلام، فلو لم تُتْرَك الذنوب إلا حذرًا من وقـوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم؛ فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه؛ فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصى الله فأرى ذلك في خُلق دابتي وامرأتي.

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرًا، ويا لله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه، وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أُتي؟

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم؛ فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره؛ فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في

ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن؛ أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه. وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه. وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم.

ومنها: حرمان الطاعة؛ فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة، ثم رابعة وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها. والله المستعان.

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد؛ فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر...

ومن آثار المعـاصي: أنها تزرع أمثالها، ويولد بعضـها بعَضًا، حتى يعز على العبد مفـارقتها والخروج منها، كمـا قال بعض السلف: إن من عقوبة السيـئة السيئـة بعدها، وإن ثواب الحسنة الحـسنة بعدها؛ فالعبـد إذا عمل حسنة قـالت أخرى إلى جنبـها اعملني أيضًـا، فإذا عملـها، قالت الثـالثة كذلك، وهلم جرا، فتضـاعف الربح، وتزايدت الحسنات، وكذلك جانب السيئـات أيضاً، حتى تصـير الطاعات والمعـاصي هيئات راسخـة وصفات لازمة، ومـلكات ثابتة، لو عطل المـحسن الطاعـة لضاقت عـليه نفـسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسّ من نفـسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها، فـتسكن نفسه وتقر عينه. ولو عطل المجـرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعـاودها، حتى إن كـثيراً من الفـساق ليـواقع المعصـية من غـير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شـــربت على لـذة ... وأخـرى تداويت منـها بهـا

وقال آخر:

فكانت دوائي، وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبـد يعاني الطاعة ويألفـها ويحبهـا ويؤثرها حتى يرسل الله سبـحانه وتعالى برحـمته عليـه الملائكة تؤزه إليهـا أزًا، وتحرضه عليـها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليـه الشياطـين فتوزه إليـها أزًا؛ فالأول قـوَّى جند الطاعة

بالمدد، فصاروا من أبر أعوانه، وهذا قوَّى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه[١]. أهـ.

[اعتياد القلب على المعصية]

ومن آثار المعاصي أنه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها؛ فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب؛ كما قال النبي ﷺ: **(كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه)**[٢][٣]. أهـ.

[المعصية مهانة للعبد]

المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه؛ قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم. وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن

---

(١) الداء والدواء: ٨٢ - ٨٧.

(٢) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الأدب، ح ٦٠٦٩، ومسلم في الزهد والرقائق، ح ٢٩٩٠.

(٣) الداء والدواء: ٨٨.

مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وإن عظَّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار»[1][2]. أهـ.

[الشؤم]

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة ﷺ: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم».

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السِّنة، وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

---

(١) الأثر رواه الترمذي في صفة القيامة، ح ٢٤٩٧.

(٢) الداء والدواء: ٨٩.

فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له[١]. أهـ.

[الذل]

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ [فاطر: ١٠] أي فليطلبها بطاعة الله؛ فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللَّهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يُذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟[٢] أهـ.

[ذهاب الغيرة]

من عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغيرة حرارته وناره التي

(١) الداء والدواء: ٩٠.

(٢) الداء والدواء: ٩٠.

تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد. وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس. ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغْير منه، والله أغير مني)**(١).

وفي الصحيح أيضًا أنه قال في خطبة الكسوف: **(يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته)**(٢).

وفي الصحيح أيضًا عنه أنه قال: **(لأحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه)** (٣) فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه - مع شدة غيرته - يحب أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود، ح ٦٨٤٦، ومسلم في اللعان، ح ١٤٩٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الكسوف، ح ١٠٤٤، ومسلم في الكسوف، ح ٩٠١.

(٣) هو تتمة حديث: (أتعجبون من غيرة سعد...) الوارد قبل أسطر، ولكن رواية البخاري للحديث كاملاً في كتاب التوحيد، ح ٧٤١٦، كما ورد بنحوه أيضًا من حديث ابن مسعود عند مسلم في كتابه التوبة، ح ٢٧٦٠، وليس فيه ذكر غيرة سعد ابن عبادة.

إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال؛ فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (**إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضه الله، فالتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة**)[1] وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر؛ فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًا...

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس. وقد تضعف في القلب جدًا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك. وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه إليه، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله. ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، كذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له. فانظر ما

---

(١) رواه بنحوه أبو داود في الجهاد ح ٢٦٥٩، والنسائي في الزكاة، ح ٢٥٥٨، وأحمد: ٥/ ٤٤٥.

الذي حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب فتحمى له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً، ولم يجد دافعًا، فتمكن فكان الهلاك.

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع به عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوه[١]. أهـ.

[ذهاب الحياء]

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(الحياء خير كله)**[٢].

وقال: **(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت)**[٣] وفيه تفسيران.

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد؛ والمعنى من لم يستحي فإنه يصنع

---

(١) الداء والدواء: ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، ح ٣٧.

(٣) رواه البخاري في الأدب، ح ٦١٢٠.

ما شاء من القبائح؛ إذ الحامل على تركـها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها. وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفـعل إذا لم تستحي منـه من الله فافعله، وإنمـا الذي ينبغي تركه هو ما تستحيي منه من الله؛ هذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

فعلى الأولى يكون تهديدًا؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جـميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصـود أن الذنوب تضعف الحياء من العبـد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعـلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وَإذا رأى إبليسُ طَلعة وجـهه ... حَيَّا وقال: فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة، والغيـث يسمى حيًا - بالقصر - لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكـذلك سمـيت بالحياء حـياة الدنيـا والآخرة، فمن لا حيـاء فيه فهو ميت في الدنيـا شقي في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحـياء وعـدم الغيـرة تلازم من الطرفين، وكل منهم يـستدعـي الآخر ويطلبه حثيـثًا، ومن استحيى من الله عند معـصيته استحـيى الله من عقوبته

يوم يلقاه، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته[١]. أهـ.

[ضعف تعظيم الله تعالى]

ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى. ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي. وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قَدَروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المُحال، وأبين الباطل. وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم ويستخفُّون به، كما هان عليه أمره واستخفَّ به؛ فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخفُّ بمعاصي الله ولا يستخفُّ به الخلق؟

---

(١) الداء والدواء: ١٠٥.

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]؛ فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟[١]. أهـ.

[نسيان العبد نفسه]

ومن عقوباتها أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر: ١٨، ١٩] فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه؛ أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه، مضيعًا لها، قد أغفل قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته،

(١) الداء والدواء: ١٠٦.

وقد فرَّط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة؛ إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات: نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيَّع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض.

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه تعالى يعوض عن كل ما سواه، ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه[١]. أهـ.

[مغبة البعد عن المؤمنين]

من فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان فاته حسن دفاع الله عنهم؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مئة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

---

(١) الداء والدواء: ١٠٧.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذل من موالاة الله؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم؛ وهو أن يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان. وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه، ولكن لايخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصرّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية. من ههنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر[1]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ١٠٩ - ١١١.

[زوال النعم]

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم؛ فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غُيِّرَ عليه، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غيَّر المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١].

وفي بعض الآثار الإلهية عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: (**وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب**).

ولقد أحسن القائل:

إذا كُنت في نعمة فارعَها ... فإن الذنوبَ تزيلُ النِعمْ

وحُطْها بطاعةِ ربِّ العِبَادِ ... فربُّ العبادِ سريعُ النِقمْ

وإياكَ والظُّلم مَهْمَا استطعتَ ... فظلمُ العبادِ شَديدُ الوَخمْ

وَسَافِرِ بِقَلبكَ بَينَ الوَرَى ... لتُبْصِرَ آثارَ مَن قدْ ظَلمْ

فَتلكَ مَسَاكِنُهُم بَعْدَهُم ... شهودٌ عَلَيهمْ، ولا تَتَّهمْ

وَمَا كَانَ شيءٌ عليهم أضرُّ ... من الظُّلم، وهو الذي قد قَصَمْ

فكَمْ تَرَكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ ... قُصُورٍ، وأخرى عليهم أطَمْ

صَلُوا بالجحيم وفات النعيمُ ... وكان الذي نالهُم كالحُلْم[1] أهـ.

[باب للمرض]

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه؛ فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها. وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها؛ فهواها مرضها، وشفاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد. وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا ألبتة، بل التفاوت

---

(١) الداء والدواء: ١١٣ - ١١٤.

الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا. ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردَّها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه. ويقول الآخر: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال،

إنهم لفي عيش طيب». ويقول الآخر: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها». ويقول آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». ويقول الآخر: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد بعتها بغاية الهوان. كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم؟

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨][1] أهـ.

[عمى البصيرة]

ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

---

(١) الداء والدواء: ١١٦.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم. فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة؛ كما قال النبي ﷺ: (**إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم**)[١] فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علوًا ظاهرًا يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحَمَمَة فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم؟! فالله المستعان[٢]. أهـ.

[تقييد القلوب]

ومن عقوباتها: أن العاصي دائمًا في أسر شيطانه وسجن شهوته وقيود هواه؛ فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسَرَه أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

---

(١) رواه أحمد: ٣/ ١٥٠.

(٢) الداء والدواء: ١١٨.

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب الطائر كلما علا بعُد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات، وفي الحديث: (الشيطان ذئب الإنسان)(١)، وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى؛ فهي وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد عن الله مراتب، بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبُعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله(٢). أهـ.

[نقصان العقل]

كيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوارٍ عنه، ويستعين

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ٢٣٢، ٢٤٣.

(٢) الداء والدواء: ١٢٠.

بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم بل هو سعادة الدنيا والآخرة؟ ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون.

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم

منه، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا[١]. أهـ.

[القطيعة بين العبد وربه]

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأيُّ فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه، وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنوع الآلالم وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ

(١) الداء والدواء: ١٢٢ - ١٢٣.

بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠] يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء؛ فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال، هذا لو لم يك عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذ كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فيكف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة ؟ وما هذا الاستبدال؟ ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب؛ وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة[1]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ١٢٥ - ١٢٦.

[محق البركة]

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه من عصى الله. وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧] وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

وفي الحديث: (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الرَّوْح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)[(١)].

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد»، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الزرق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أن عُمْرَ العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته؛ فإن حياة الإنسان بحياة قلبه

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٧/ ٧٩، ح ٣٤٣٣٢. وليس فيه آخر فقرة منه.

وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه. ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة؛ فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض؟

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة؛ فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك؛ فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا

خير فيه، وكل ما كان قريبًا من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنة الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عُصي الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له؛ فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مئة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ: **(الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه، وعالم أو متعلم)**[1].

وفي أثر آخر: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله) فهذا هو الذي فيه البركة خاصة. والله المستعان[2]. أهـ.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد، ح ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد، ح ٤١١٢.

(٢) الداء والدواء: ١٢٧ - ١٢٩.

[النزول بدل الصعود]

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السَّفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العِلْيَة؛ فإن الله خلق خلقه قسمين: عِلْية، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل المعصيه الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العز لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **(بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري)**(١) فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله؛ فليس من صعد مئة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم؛ وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيدًا أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، لا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ

(١) رواه أحمد: ٢/ ٥٠، ٩٢.

أنه قال: **(إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)**[1].

فأي صعود يوازي هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها؛ فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية؛ إما إلى صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عودتهِ إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة. وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها.

قالوا: وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السالفة لمنزلة كسب الرجل

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في الرقاق، ح ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد والرقائق، ح ٢٩٨٨.

كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدًا من أسفل إلى أعلى، وبينهما بَون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سُلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكمًا مقبولاً، فقال: التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله؛ فقد تقوى هذه الأمور حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة؛ فإنها نفت عنه داء العُجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خدَّ ضراعته وذُله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرَّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيرًا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحييًا منه خائفًا وجلاً، محتقرًا

لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء كما قيل:

استأثر الله بالوفاء وبالحـــ ـــمد، وولي الملامة الرجلا

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرها أهلاً.

وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها، ورأى مولاه قد أحسن إليه، إذا لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه؛ فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز؛ فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم - الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها؛ فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض، وملك السماوات والأرض، وإله السماوات والأرض، ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه هما «الحليم، والغفور» كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض.

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه. ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نَصلُ الذنوب إلى الذنوب، ونَرتَجي ... دَرَجَ الجِنان لدى النعيمِ الخالدِ

ولقد علمنا أخرج الأبوين من ... مَلَكوته الأعلى بذنبٍ واحدِ

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تُضْعِف الخطيئة همته وتُوهِن عزمه، وتُمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

وهذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه - مثل الشكوك والريب والنفاق - فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه[1]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ١٣٠ - ١٣٤.

[خيانة النفس لصاحبها أحوج ما يكون إليها]

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه؛ فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفَّها عما يضره، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم؛ فأعرفهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدا ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به؛ كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها.

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف؛ أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه

ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمَّارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يرتجى معه حياة، فهذا ميت في الدنيا، ميت في الآخرة ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي؛ كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وُسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمرُّ؛ وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل «لا إله إلا الله» فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها. وقيل لآخر قل: «لا إله إلا الله» فقال: شاه، رُخ، غلبتك، ثم قضى وقيل لآخر: قل «لا إله إلا الله» فقال:

يارُبَّ قائلةٍ يومًا، وقد تَعِبَتْ كيف الطريقُ إلى حَمامِ منجابِ

ثم قضى وقيل لآخر: «قل لا إله إلا الله» فجعل يهذي بالغناء، ويقول تاتنا تنتنا، حتى قضى، وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك فقال: وما يغني عني وما أعرف أني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك فقال: هو كافر بما تقول وقضى، وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها، وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله، فلس لله، حتى قضى. وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتري جيد، هذه كذا، حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم. فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وحال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته؛ فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يَسلم على ذلك؟ فهناك: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه، وكان أمره فُرطًا، فبعيد مَنْ قلبُه بعيد من الله تعالى غافل عنه، متعبد

لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [القلم: ٣٩، ٤٠][(١)]. أهـ.

[عمى القلب]

ومن عقوباتها: أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه. وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] فالأيدي: القوى في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

---

(١) الداء والدواء: ١٣٦ - ١٣٨.

القسم الثاني: عكس هؤلاء؛ من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، ويحسب الوَرَمَ شحمًا، والدواء النافع سُمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول؛ قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر - الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين - على أن من عداهم فهو من الخاسرين؛ فقال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ** ﴿١﴾ **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴿٢﴾ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣] ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره؛ فيدرك الباطل حقًا والحق باطلاً، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته، حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يَفْرُق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه فيقال أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس:

فَيا نَظرة مِن قلبِ حُرٍّ مُنَوَّرٍ يكادُ لها الشيطانُ بالنورِ يُحرقُ

أفيستوي هذا القلب وقلبٌ مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه وأعدَّه مسكنه، إذا تصبَّح بطلعته حياه، وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه[1]. أهـ.

(١) الداء والدواء: ١٣٩ - ١٤١.

[عونًا للعدو]

ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه؛ وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام عنه، ولا يغفل عنه؛ يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس؛ فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ فاتتنا شركة صالحيهم في الجنة. وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بُلوا بهذا العدو، وأنه قد سُلط عليهم، أمدّهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها؛ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيَقتِلون ويُقتَلون، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة

التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا؟ وأي تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾**﴾ [الصف: ١٠ - ١٣] ولم يسلط الله هذا العدو على عبده المؤمن - الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه - إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محل معرفته، ومحبته، وعبوديته، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه؛ فولاه أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الرعد: ١١] يعقب بعضهم بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضون عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه؛ فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومددًا إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومدبرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له،

والإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدَّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة؛ فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون؛ قال الله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهؤلاء جندي: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣].

وعلَّم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة؛ فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلَوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى؛ فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر[١]. أهـ.

[إزالة النعم]

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل؛ فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا يُنال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة: سببًا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدةً في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله؛ كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه.

---

(١) الداء والدواء: ١٤٤ - ١٤٦.

فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير[١]. أهـ.

[بعد المَلَك عن العبد]

ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضررًا له، وهو الشيطان؛ فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه»؛ فإذا كان هذا تباعد المَلَك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه؟

وقال بعض السلف: «إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت».

وقال بعض السلف: «إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان».

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له،

---

(١) الداء والدواء: ١٥٩.

فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]، وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبته وعلمه، وقوَّى جنانه، وأيده، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] فيقول له الملك عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك»، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره؛ يحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعدُه بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يُروى مرفوعًا وموقوفًا: (إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة، وللشيطان لمة، فلمَّة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق)[١].

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يُرَى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

---

(١) رواه الترمذي بنحوه في تفسير القرآن، سورة البقرة، ح ٢٩٨٨، وقال: حسن غريب.

وفي الحديث: (**إن السكينة تنطق على لسان عمر**[١] رضي الله عنه)، وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاه على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحقَ، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه؛ كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ. فقال: يارسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت؟ فقال: (**كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس**)[٢] وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك على دعائه، وقال: (**لك بمثله**)،[٣] وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله، وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملَك؛ فملَكُ

---

(١) هو أثر موقوف على علي رضي الله عنه يزكي به عمر رضي الله عنه، رواه أحمد في المسند [موسوعة الكتب التسعة - قرص مدمج].

(٢) روى نحوه أبو داود في الأدب، باب في الانتصار، ح ٤٨٩٦، وفيه أن الرجل الذي كان ينافح عنه الملك هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، ح ٢٧٣٢.

المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده؛ فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: لا جزاك الله خيراً، كما يدعو له إذ أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة ﷺ: «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم وأكرموهم».

ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]؛ أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم. والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد عمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين، والله المستعان[1]. أهـ.

[خسف القلب ومسخه]

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه؛ فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر. وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوَّالاً

---

(١) الداء والدواء: ١٦٠ - ١٦٣.

حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقرَّبه إليه لا يزال جوالاً حول البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالة؛ منها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُش».

ومنها: مسخ القلب؛ فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته؛ فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى

الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان؛ كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر، وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به، وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرور بستر الله عليه، ومستدرج بنعم الله عليه، وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة[١]. أهـ.

[المعيشة الضنك]

ومنها: المعيشة الضَّنك في الدنيا، وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى؛ فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر؛ فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا

(١) الداء والدواء: ١٧٦ - ١٧٨.

يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات. فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقرُّ العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل؛ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] ، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة،وهو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في

مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: (**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذكر**)[١] وقال: (**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**)[٢].

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأيُّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تبارك وتعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾**﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغلِّ والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات، باب عقد التسبيح باليد، ح ٣٥١٠، وقال حسن غريب، وأحمد: ٣/ ١٥٠.

(٢) متفق عليه رواه البخاري في مواضع منها كتاب الحج، ح ١٨٨٨، ومسلم في الحج، ح ١٢٩٠.

والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السُّنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوًى يناقض التجريد والإخلاص[1]. أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) الداء والدواء: ١٧٩ - ١٨١.



الفصل الثاني: النظر والعشق والزنا

[الزنا]

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس؛ من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر؛ ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا. وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢] فأخبر عن فحشه في نفسه؛ وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول، حتى عند كثير من الحيوان كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنا

بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[١]، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا؛ فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء: ٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين؛ ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان، وأنه خلق هلوعًا لا يصبر على سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المعارج: ٢٩ - ٣١] فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

---

(١) رواه البخاري في المناقب، باب القسامة في الجاهلية، ح ٣٨٤٩.

الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج؛ فإن الحوادث مبدؤها من البصر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة، ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيراً[(١)]. أهـ.

[آفات الزنا]

الزنا يجمع خلال الشرّ كلّها من: قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المُرُوءة، وقلة الغيرة؛ فلا تجد زانيًا معه ورعٌ، ولا وفاءٌ بعهدٍ، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله. فالغدر والكذب والخيانة، وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب، مِنْ شُعَبه وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة. ومنها سوادُ الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين، ومنه ظلمةُ القلب وطمسُ نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له. ومنها

(١) الداء والدواء: ٢٢٣ - ٢٢٥.

الفقر اللازم. وفي أثر يقول الله تعالى: (**أنا الله مهلك الطغاة، ومفقر الزناة**).

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء؛ وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها؛ كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن؛ كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)[1]، فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خطّ دائرة أخرى خارجةً عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمَّى مؤمنًا؛ كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمَّى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجود ولا يسمَّى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمّى مُتَّقِيًا، ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة؛ كما قال الله تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في مواضع منها كتاب المظالم والغصب، ح ٢٤٧٥ ومسلم في الإيمان، ح ٥٧.

وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم. والزُّناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيث من الطيب وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيب، ولايدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه؛ فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أُنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف؛ فإنه يرزق المهابة والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرون بعين الخيانة ولا يأمنه أحد على حرمته ولا على ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه يشمها كل ذي قلب سليم تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت

عليه، ولكن كما قيل:

كـلٌ به مثل ما بي غـير أنهـم   من غيرة بعضهم للبعض عُذال

ومنها: ضيقة الصـدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصـودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليـه عاقبه بنقض قصده؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط. ولو علم الفاجر ما في العفـاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذّة أضعاف أضعـاف ما حصل له، دع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنهـا: أنه يُعرض نفسه لفوات الاستمـتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنّات عدن، وقد تقدم أن الله سـبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القـيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبـد من الدُّنيا فإن توسع في حلاله ضيق من حظه يوم القـيامة بقدر ما توسّع فيه، وإن ناله من حرامٍ فاته نظيرُه يوم القيامة.

ومنهـا: أن الزِّنا يجرئه على قطيعـة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضـاعة أهله وعيـاله، وربما قاده قسـرًا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري، أو لا يدري؛ فهذه الـمعصية لا تـتم إلا بأنواع من المعاصي قبلهـا ومعها، ويتـولد عنها أنواع أخر من المـعاصي بعدها؛ فـهي محفوفـة بجند من المعاصي قـبلها وجند بعـدها، وهي أجلب شيء لشـر الدنيا والآخـرة، وأمنع شيء لخيـر

الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عزّ على الناصحين استنقاذه، وأعيى الأطباء دواؤه؛ فأسيرها لا يفدى، وقتيلها لا يودى، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتُلي بها عبد فليُودع نِعَم الله فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال؛ قال الله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾** [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾** [الرعد: ١١](١). أهـ.

[آثار الزنا]

قال ﷺ: **(أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج)**(٢).

وفي الصحيحين عنه ﷺ: **(لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)**(٣) وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه؛ فالزنا أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردة، وأيضًا فإنه انتقل من

---

(١) روضة المحبين: ٣٠٧ - ٣٠٩.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة، باب حسن الخلق، ح ٢٠٠٤، وأحمد: ٢/ ٢٩١.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الديات، ح ٦٨٧٨، ومسلم في القسامة والمحاربين، ح١٦٧٦.

الأكبر إلى ما هو أكبر منه، ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم؛ فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملت على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمَّرَت القبور في البرزخ والنار في الآخرة، فكم في الزنا من استحلال الحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.

وقال سعد بن عبادة ﷺ: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (**تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أُغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها**

وما بطن)[١] متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: (إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه)[٢].

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: (لا أحد أغير من الله، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين،ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه)[٣].

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: (يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، ثم رفع يده وقال: اللَّهم هل بلغت)[٤].

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة؛ كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ؛ سمعت النبي ﷺ يقول: (من

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠٧ هامش (١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح، باب الغيرة، ح ٥٢٢٣، ومسلم في التوبة، ح ٢٧٦١.

(٣) هو تتمة حديث: (أتعجبون من غيرة سعد) وانظر ص ١٠٠٧ هامش (٣).

(٤) سبق تخريجه ص ١٠٠٧ هامش (٢).

أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)»[١] .

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة؛ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

وخص سبحانه حد الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم؛ فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا - وإن كان عامًا في سائر الحدود - ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره؛ فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في مواضع منها كتاب النكاح، ح ٥٢٣١، ومسلم في العلم، ح ٢٦٧١.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر؛ فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيئًا كثيرًا نقاص العقول كالخدم والنساء.

وأيضا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم الاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفي النفوس شهوة غالبة له، فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان. وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربه تعالى في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر. وحد المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره؛ فإن في اللواط من الفساد ما يفوق الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى؛ فإنه يفسد فسادًا لا يرجى له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في

قلبه وروحه نطفة الفاعل كما يعمل السم في البدن(١). أهـ.

[النظر أصل الحوادث]

اللحظات هي رائدة الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج؛ فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات. وقال النبي ﷺ: **(لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى وليس لك الأخرى)**(٢).

وفي المسند عنه ﷺ: **(النظرة سهم مسموم من سهام إبليس)**(٣)، فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه. هذا معنى الحديث. وقال: **(غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم)**(٤)، وقال: **(وإياكم والجلوس على الطرقات. قالوا يا رسول الله مجالسنا، ما لنا بد منها. قال: فإن كنتم لا بد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر وكف الأذى، وردُّ السلام)**(٥).

---

(١) الداء والدواء: ٢٤٠ - ٢٤٤.

(٢) رواه أبو داود في النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، ح ٢١٤٩، والترمذي في الأدب، باب نظرة الفجأة، ح ٢٧٧٧، وقال: حسن غريب.

(٣) رواه الطبراني في الكبير: ١٠/١٧٣، ح ١٠٣٦٢، والحاكم في المستدرك: ٤/٣٤٩، ح ٧٨٧٥ القضاعي في مسند الشهاب: ١/١٩٥، ١٩٦، ح ٢٩٢، ٢٩٣.

(٤) رواه أحمد: ٥/٣٢٣، وابن حبان في صحيحه: ١/٥٠٦، ح ٢٧١، وغيرهما.

(٥) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في المظالم والغصب، ح٢٤٦٥، ومسلم في اللباس والزينة، ح ٢١٢١.

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع. وفي هذا قيل: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده» قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه في أعين العِين موقوف على الخطر
يَسُرُّ مقلته ما ضرَّ مهجتَه لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات؛ فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة على بعضه؛ قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا، أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح. ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه؛ فإن قوله: «لا كله أنت قادر عليه» نفي لقدرته على الكل الذي لا ينفى إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد.

وكم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً، كما قيل:

يا ناظرًا، ما أقلعت لحظاته حتى تشحط بينهن قتيلاً

ولي من أبيات:

ملَّ السلامة فاغتدت لحظاتُه وقفًا على طلل يظن جميلاً

ما زال يتبع إثره لحظـــاته حتى تشحط بينــهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لايصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوأ مكانًا من قلب الناظر، ولي من قصيدة:

يا راميًا بســـهام اللحــظ مجتهــدًا

أنت القتيل بما ترمـي، فلا تصــب

يا باعــث الطرف يرتاد الشـــفاء له

احبس رسولك، لا يأتيك بالعطـب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جـرحًا، فيتبعـها جرحًا على جرح، ثم لا يمنعـه ألم الجراحة من استدعـاء تكرارها. ولي أيضًا في هذا المعنى:

ما زلت تتــبع نظـــــرة في نظـــــرة

في إثر كـــل مليحــــــة ومليــح

وتظـن ذاك دواء جـرحــــك وهـو في

الـتـحــقيق تجــريح على تجـــريح

فذبحــــت طـرفك باللحــاظ وبالبكا

فالــقــلب منك ذبيـــح أي ذبيـــح

وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات[1]. أهـ.

[عشق الصور]

عشق الصور إنما تُبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور؛ ولهذا قال تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤]، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرتُه ونتيجتُه، فصرفُ المسبب صرفٌ لسببه، ولهذا قال بعضُ السلف: العشقُ حركة قلب فارغ، يعني فارغًا مما سوى معشوقه.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ [القصص: ١٠] أي: فارغًا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلُّق قلبها به[2]. أهـ.

[تكرار النظر هل هو علاج؟]

سئل ابن القيم رحمه الله عن تكرار النظر للمرأة حتى لا يتعلق قلبه بها!

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغضّ البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد.

---

(١) الداء والدواء: ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٢) زاد المعاد: ٤/ ٢٦٨.

الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر. **الثالث**: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له. **الرابع**: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة. **الخامس**: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه. **السادس**: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لِتَتِمَّ البلية. **السابع**: أنه لا يُعانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوي بما حرّمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة. **الثامن**: أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومعلومٌ أن الثانية أشدَّ سمًّا فكيف يتداوى من السمّ بالسم؟ **التاسع**: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عزَّ وجل في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضياً تركه، فإذاً يكون تركه لأنه لا يلائم غرضَه لا لله تعالى، فأين معاملةُ الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟ **العاشر**: يتبين بضرب مثل مطابق للحال؛ وهو أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فصح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلى الداخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب، فإن عَجِلَ الحازم

وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقى الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى يفسد القلب ويُعرض عن الفكر فيما أُمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويُلقى القلب في التلف. والسببُ في هذا أن الناظر التذّت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أولاً لاستراح قلبُه وسلم، وتأمل قوله النبي ﷺ: **(النظرة سهم مسموم من سهام إبليس)**[(١)]، فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السمّ الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها وقلبها وعَجُزها»[(٢)]. أهـ.

[دواء العشق]

دواء هذا الداء القتال: أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه

(١) سبق تخريجه ص ١٠٦٤ هامش (٣).

(٢) روضة المحبين: ٨٥ - ٨٦.

وسننه وآياته أولا، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله؛ وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه؛ فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمرٌ يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي وأمر عملي؛ فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة؛ وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره؛ فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

والثاني: عذاب قلبه به؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولا بد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقا إليهم ... ويبكي إن دنوا حذر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاقي

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:

ملكْتَ فؤادي بالقطيعة والجفا ... وأنت خليٌّ البال تلهو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق ... وعيش الخلي عيش المسيب المطلق
طليق برأي العين وهو أسير ... غليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى في صورة الحي عاديا ... وليس له حتى النشور نشور
أخو غمراتٍ ضاع فيهن قلبه ... فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه؛ فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور؛ أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم

شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب؛ وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بعدُ من الله؛ فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، واستولى عليه ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعد منه وليه ومن لا سعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها. وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره، كما قيل:

قالوا: جننت بمن تهوى، فقلت لهم:
العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما إفسادًا معنويًا أو صوريًا، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب؛ فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن، واللسان، فيرى القبيح حسنًا منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعًا: (**حبك الشيء يعمي ويصم**)[١] فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب؛ فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه؛ فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به، كما قيل:

هـويتك إذ عيني عليهـا غـشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولايرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وأما فساد الحواس ظاهرًا، فإنه يُمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق.

وقد رفع إلى ابن عباس ﷺ وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدًا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس ﷺ

---

(١) رواه بو داود في الأدب، باب في الهوى، ح ٥١٣٠، وأحمد: ٥/ ١٩٤.

يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة ... يأتي بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى، كما قيل:

وعش خاليًا فالحب أوله غنى ... وأوسطه سقم، وآخره قتل

وقال الآخر:

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

والذنب له؛ فهو الجاني على نفسه: وقد قعد تحت المثل السائر: «يداك أوكتا وفوك نفخ»[1] أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ٣١٣ - ٣١٧.

[حب الله تعالى وعشق الصور لا يجتمعان]

لا يمكن أن يجمع القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يُخْرج أحدهما صاحبه؛ فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة له إلى محبته، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها. والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعده كاذبًا في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة؛ فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو المردان، أو بمحبة النسوان، أو محبة العشراء والإخوان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبد محبوبه

كائنًا من كان، كما قيل:

أنت القـــتيل بكـل من أحـببتـه

فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلـهه مالكه ومولاه كان إلـهه هواه؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣][1]. أهـ.

[فوائد غض البصر]

في غضّ البصر عدة فوائد: أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة؛ فإن من أطلق نظره دامت حسرته؛ فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما يشتدّ طلبه ولاصبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه.

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّميَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرْمى في الحشيش اليابس، فإن لم يُحرقه كله أحرقت بعضه، والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لايشعر؛ فهو إنما يرمي قلبه.

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

---

(١) الداء والدواء: ٢٦٩ - ٢٧٠.

ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وجاء الحديث مطابقًا لهذا حتى كأنه مشتقٌ منه وهو قوله: **(النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نوراً)**(١) الحديث.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة؛ فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحت الفراسة.

وقال شجاع الكرماني: من عمَّر ظاهره باتباع السُّنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فراستُه. وكان شجاع لا تخطئ له فراسة. والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه؛ فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهّل عليه أسبابه؛ وذلك بسبب نور القلب، ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبه وأظلم، وانسدّ عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. وفي الأثر: إن الذي يخالف هواه يفرق

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٦٤ هامش (٣).

الشيطان من ظله. ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذلّ القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه. قال الحسن: إنهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين إن ذل المعصية في رقابهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سرورًا وفرحةً، وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر؛ وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب. ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذةً أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وها هنا يمتاز العقل من الهوى.

والفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة؛ فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوةُ والهوى القلبَ تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كفّ طفلٍ يسومها حياض الردى والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم؛ فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول، متى هتك الحجاب ضري على المحظور ولم تقف نفسه منه عند

غاية؛ فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا، فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته؛ فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب؛ فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب.

ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببًا   حتى يفكر ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سُكر الشهوة ورقدة الغفلة؛ فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق؛ كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢] فالنظرة كأسٌ من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوىً وسكر مدامةٍ   ومتى إفاقته من به سُكرانِ؟

وفوائد غضّ البصر وآفات إرساله أضعافُ أضعاف ما ذكرنا[1]. أهـ.

(١) روضة المحبين: ٨٨ - ٩٤.

[فوائد غض البصر(٢)]

في غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله سبحانه الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم - الذي لعل فيه هلاكه - إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه؛ فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده من الله سبحانه، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر؛ فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يلبس القلب نورًا، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر؛ قال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ**﴾ [النور: ٣٥]، أي مثل في نوره قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع، وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة،

واشتغال بأسباب الشقاوة؛ فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنُّة وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال، لم تخطئ له فراسة. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه؛ فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب، وضد هذا ما وصف الله به اللوطيين من العمه الذي هو ضد البصيرة فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة؛ فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب؛ كما قال القائل:

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة ... ومتى إفاق من به سُكرانِ

وقال الآخر:

قالوا: جننت بمن تهوى؟ فقلت لهم:

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون في الحين

السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة؛ فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: «الذي يخالف هواه يَفْرَقُ الشيطان من ظله» وضد هذا تجد في المتبع لهواه - من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها - ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهاجمت بهم البراذين، إن ذل المعصية في رقابهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه». وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذل قرين معصيته؛ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] ، والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت»، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب؛ فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه، ويزينها ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب ثم يَعِدُه ويمنِّيه ويُوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليها حطب المعاصي التي

لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات؛ فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة: أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته.

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر ربه؛ قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذا إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما وراءها[1]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ٢٦٤ - ٢٦٨.



الفصل الثالث: الوقاية من الذنوب

[تدرج الشيطان]

الشيطان يريد أن يظفر بالعبد في عَقَبةٍ من سبع عَقَبات، بعضها أصعبُ من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجَز عن الظفَر به فيها.

العقبة الأولى: عقَبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه؛ فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَتْ نارُ عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة: إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسلَ الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدَثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قَلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى. كما قال بعضهم: تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال؛ فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام؛ تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقَبة، وخلَص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحَتْ به نَصَب له أهلُ البدع الحبائل، وبَغُوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر؛ فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحَسَّنها في عينه، وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق؛ وهي قوله: «لا يَضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة». والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السُّنة، وتولية مَنْ عزَله الله ورسوله، وعزْل من ولاّه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق؛ بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب

البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: ٤٠]. فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر؛ فكال لـه منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللَّمَم؛ أوَمَا علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه؛ فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: **(إياكم ومحقرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطبًا كثيراً، فأوقدوا ناراً، وأنضجوا خبزتهم؛ فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه)**[1].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها؛ فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة، والمنازل

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٣١، والطبراني في الكبير: ١٠/ ٢٦١، ح ١٠٥٠٠، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٨٩).

العاليـة، ولو عرف السعر لـما فوت على نفسـه شيئًـا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقـبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعـرفة بقدر الطاعات والاسـتكثـار منهـا، وقلة المـقام على الـميناء، وخـطر التجـارة، وكـرم المشـتري، وقدر ما يعـوض به التجار، فـبخل بأوقاته، وضن بأنفـاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العـقـبـة السـادسـة: وهي عقـبة الأعمـال المرجـوحة المفـضولة من الطاعات؛ فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشـغله بها عما هو أفضل مـنها، وأعظم كسبًا وربحًـا؛ لأنه لـمَّا عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخـسيره كماله وفضله، ودرجاته العـاليـة؛ فشـغله بالمـفـضول عن الفـاضل، وبالمـرجـوح عن الراجح، وبالمـحبوب لله عـن الأحب إليه، وبالمـرضي عن الأرضى له، ولكن أين أصحاب هذه الـعقبة؟ فهم الأفـراد في العالم، والأكثرون قـد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضـل، ومعرفـة مقاديرها،والتمـييز بين عاليـها وسافلها، ومـفضولها وفـاضـلها، ورئيسها ومـرؤوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعـمال والأقـوال سيدًا ومـسـودًا، ورئيـسًـا ومـرؤوسًـا، وذروة ومـا دونهـا، كـمـا في الحـديث الصـحيح: (**سـيد الاسـتغفار: أن يقـول العـبد: اللَّهـم أنت ربي، لا إله إلا أنت** -

الحديث) [١] وفي الحديث الآخر: (**الجهاد ذروة سنام الأمر**)[٢] وفي الأثر الآخر «**إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن**»[٣] ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، **وهي عقبة**: تسليط جنده عليه بأنواع الأذى؛ باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهَر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به؛ فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها

---

(١) جزء من حديث سيد الاستغفار الذي رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ح ٦٣٠٦.

(٢) هذا جزء من حديث معاذ المشهور وفي أوله (قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار... الحديث) رواه الترمذي في الإيمان، باب حرمة الصلاة، ح ٢٦١٦، وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك بلفظ (إن الأعمال تباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم). عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي، ١/٤١٦.

عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً**﴾ [النساء: ١٠٠] سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته؛ كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)**﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ [الفتح: ٢٩] فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: (**إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان**)[١] وفي رواية: (**ترغيمًا للشيطان**) وسماهما (**المرغمتين**)[٢].

فمن تعبَّد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حُمِدَ التبختر بين الصفين، والخيلاء

(١) رواه مسلم في المساجد، باب السهو في الصلاة، ح ٥٧١.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة، باب إذا صلى خمسًا، ح١٠٢٥.

والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله؛ لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول. وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغَمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى[١]. أهـ.

[أصول المعاصي]

أصول المعاصي كلها - كبارها وصغارها - ثلاثة: تعلُّق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية. وهي: الشرك، والظلم، والفواحش؛ فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يُدعى معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض؛ فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]؛

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٢٢٨ - ٢٣٣.

فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا.

وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة؛ فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول ففي قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم، ولا سيما إذا قوت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان. وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣].

فهذه الثلاثة يجرُّ بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض؛ ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيداً وأعظم شركًا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧]. فأخبر أنّ ما عنده خيرٌ لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية. ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فهذا مخالفة القوة الغضبية؛ فجمع بين التوحيد والعفّة والعدل التي هي جماع الخير كله[1]. أهـ.

(١) الفوائد: ١٢٢ - ١٢٣.

[العجز أصل المعاصي]

الله سبحانه يلوم على العجز، ويُحب الكيس، ويأمر به. والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده؛ فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز، فإنه يفتح عمل الشيطان؛ فإنه إذا عجز عما ينفعه، وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان؛ فإن بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم، والحزن، والجبن، والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال؛ فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها «لو» فلذلك قال النبي ﷺ: **(فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)**[1]، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم؛ فإن التمني رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كل شر، وأصل المعاصي كلها العجز؛ فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ[2] أصول الشر وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثماني خصال، كل خصلتين منها قرينتان؛ فقال: **(أعوذ بك من الهم والحزن)** وهما قرينان؛ فإن المكروه الوارد على

---

(١) رواه مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ح ٢٦٦٤.

(٢) يقصد بذلك قوله ﷺ: **(اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدَّين وغلبة الرجال)**.

أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: كتاب الدعوات، ح ٦٣٦٩.

القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين: فإنه إما أن يكون سببهُ أمرًا ماضيًا، فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز؛ فإن ما مضى لا يدفع بالحزن، بل بالرضى، والحمد، والصبر، والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدَّر الله وما شاء فعل. وما يستقبل لا يدفع أيضًا بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة به، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد، والتوكل، والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له والرضى به ربًا في كل شيء، ولا يرضى به ربًا فيم يحب دون ما يكره؛ فإذا كان هكذا، لم يرض به ربًا على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدًا على الإطلاق.

فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما؛ فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء، أو يعوقانه ويقفانه، أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه، وجد في سيره؛ فهما حمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإراداته التي تضره في معاشه ومعاده، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والأنس به، والفرار إليه، والانقطاع إليه، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم، والأحزان والآلام القلبية عن كثير من معاصيه وشهواتها المردية، وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار، وإن أريد بها الخير، كان

حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد، والإقبال على الله، والأنس به، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه، وبحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره، هو المستولي على القلب، الغالب عليه، الذي متى فقده، فقد قُوتَه الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده؛ فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له؛ فمنه الإيجاد، ومنه الإعداد، ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان فبحمده أقامه فيه وبحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا يمنع عبده حقًا هو للعبد، فيكون بمنعه ظالمًا له، بل إنما منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعبده، وليتضرع إليه، ويتذلل بين يديه، ويتملقه، ويعطي فقره إليه حقه، بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامةً إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد؛ فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلاً منه، ولا نقصًا من خزائنه، ولا استئثارًا عليه بما هو حق للعبد، بل منعه ليرده إليه، وليعزه بالتذلل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، ويذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليُلبسه خلعة العبودية، ويوليه بعزله أشرف الولايات، وليشهده حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبره ولطفه في قهره، وأن منعه عطاءٌ، وعزله تولية، وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائقٌ يسوقه به إليه.

وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، والله أعلم حيث يجعل رسالته: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحال التخصيص، ومحال الحرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلى الافتقار إليه والتذلل له وتملقه انقلب المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه وقطعه عنه انقلب العطاء في حقه منعًا، فكل ما شغل العبد عن الله فهو مشؤوم عليه، وكل ما رده إليه فهو رحمة به، والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه؛ فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائمًا، واتخاذ السبيل إليه، وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيئته لنا؛ فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فإن كان مع العبد روح أخرى نسبتُها إلى روحه كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلاً، وإلا فمحلُّه غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء، رجع بالحرمان، ولا يلومن إلا نفسه.

والمقصود أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن، وهما قرينان، ومن **العجز والكسل**، وهما قرينان؛ فإنَّ تخلف كمال العبد وصلاحه عنه، إما أن

يكون لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادرًا عليه، لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير، وحصول كل شر. ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه؛ وهو **الجبن** وعن النفع بماله؛ وهو **البخل**. ثم ينشأ له بذلك غلبتان: غلبة بحق؛ وهي **غلبة الدَّيْن**، وغلبة بباطل؛ وهي **غلبة الرجال**؛ وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال: **(إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل)**[١] فهذا قال: حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكيس الذي لو قام به، لقضي له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كيسًا، ثم غُلِبَ فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل، لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه، وألقوه في النار، قال في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثَّرَتْ أثرها، وترتب عليها مقتضاها[٢]. أهـ.

[الثمرات الدنيوية لترك المعاصي]

سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وَصَوْن العِرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله

---

(١) رواه أبو داود في الأقضية، باب الرجل يحلف على حقه، ح ٣٦٢٧، وأحمد: ٦/ ٢٥.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٣٥٧ - ٣٦٢.

قِوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن،، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفسّاق والفجّار، وقلة الهم والغم والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذلّ، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحَمِيْتهم له إذا أُوذي وظُلِم، وذَبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْب الملائكة منه، وبُعْد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودَّته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على المُلك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجْد حلاوة الإيمان، ودعاء حَمَلَة العرش ومَن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبَينِ به ودعاؤهم له كلَّ وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن

الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة. فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحَرِّ والعَرق، وهو في ظل العرش. فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين؛ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١][١] أهـ.

[وما قدروا اللّه حق قدره]

لم يقدر الله حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته؛ فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويُعظِّم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحيي من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه - إن ساعد القدر - قام قيامًا لا يرضاه مخلوقٍ من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوق مثله، فهل قدر الله حق قدره مَنْ هذا وصفه[٢]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) الداء والدواء: ٢١١ - ٢١٣.

[في الحلال غنية عن الحرام]

الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة، وما يسره من الدين على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسهله للأمة عن الدخول في الآصار والأغلال ، وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال، كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع.

فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب، والمجوس، والصابئين، وعبدة الأصنام.

وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار.

وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع، والتسرّى بما شئنا من الإماء عن الزنا والفواحش.

وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة، والنافعة للقلب والبدن، عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين.

وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة من: الكتان، والقطن والصوف عن الملابس المحرمة من: الحرير، والذهب.

وأغنانا عن سماع الأبيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن.

وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام - طلبًا لما هو خير وأنفع لنا - باستخارته التي هي توحيد وتفويض، واستعانة وتوكل.

وأغنانا عن طلب التنافس في الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا إليه من التنافس في الآخرة، وما أعد لنا فيها، وأباح الحسد في ذلك، وأغنانا به عن الحسد على الدنيا وشهواتها.

وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته - وهما القرآن والإيمان - عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع، والعقار، والأثمان؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأغنانا بالتكبر على أعداء الله تعالى، وإظهار الفخر والخيلاء لهم، عن التكبر على أولياء الله تعالى، والفخر والخيلاء عليهم؛ فقال صلى الله عليه وآله وسلم لمن رآه يتبختر بين الصفين: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن)[١].

وأغنانا بالفروسية الإيمانية، والشجاعة الإسلامية التي تأثيرها في الغضب على أعدائه ونصرة دينه، عن الفروسية الشيطانية التي يبعث عليها الهوى وحمية الجاهلية.

وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف، عن الخلوة البدعية التي يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة.

وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طرق أهل المكر والاحتيال.

فلا تشتد حاجة الأمة إلى شيء إلا وفيما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ما يقتضي إباحته وتوسعته، بحيث لا يحوجهم فيه إلى مكر

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: ٧/ ١٠٤، ح ٦٥٠٨.

واحتيال ، ولا يلزمهم الآصار والأغلال، فلا هذا من دينه، ولا هذا[1]. أهـ.

[الوقاية من الذنب بحفظ الخواطر]

طريق قريب يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال؛ وذلك بحراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله من قِبَلِها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال.

ولا ريب أنَّ دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم؛ فيجد العبد نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف؛ كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة: **(أحدها)**: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك. **(الثاني)**: حياؤك منه. **(الثالث)**: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته. **(الرابع)**: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر. **(الخامس)**: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته. **(السادس)**: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٤٤٥ - ٤٤٧.

(السابع): أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يلُقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حَبَّة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر. **(الثامن)**: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه. **(التاسع)**: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلا؛ فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد. **(العاشر)**: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت رعيته وألقته في الأسر الطويل.

وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فإن الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله؛ فإنَّ أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعيد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر به المُلك في سلطانه، واستقامت له رعيته؛ ولهذا لما تحققت

طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل عملها. وهذا نافع لصاحبه بشرطين: **أحدهما**: أن لا يترك به واجبًا ولا سُنَّة، **الثاني**: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرِّغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا. ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًا، وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة. والله المستعان[١]. أهـ.

[الوقاية من الذنوب بصدق التأهب للقاء الله]

صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته؛ فإنَّ من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى وعلومًا أخر، وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه

(١) طريق الهجرتين: ١٧٥ - ١٧٦.

حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزًا إلى هذه الدار، وهذا معنى ما يذكر عن المسيح أنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين» ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها فضلا عن أن يصدقوا بها - فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أو كيف يولد القلب - لم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة؛ إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه؟ ولكن إذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك وعلم أنه لم يولد قلبه بعد. والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه من: اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه[1]. أهـ.

[أقرب الطرق وأسهلها للجنة]

هلم إلى الدخول على الله، ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولاتعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها؛ وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل.

---

(١) طريق الهجرتين: ١٧٦- ١٧٧.

فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق؛ إنما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب؛ وامتناعك ترك وراحة، وليس هو عملاً بالجوارح يشقُّ عليك معاناته، وإنما هو عزم ونيَّة جازمة تريح بدنك وقلبك وسرّك.

فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنيَّة، وليس للجوارح في هذين نصيب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك - وهو وقتك الذي بين الوقتين - فإنْ أضَعْتَه أضَعْتَ سعادتك ونجاتك، وإنْ حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت؛ فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك: إما إلى الجنة، وإما إلى النار؛ فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرْتَ الشهوات والراحات واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم، الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله[١]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ١٧٠ - ١٧١.

[كيف نصبر عن المعصية؟]

الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

والسبب الثاني: الحياء من الله سبحانه؛ فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع - وكان حييًا - استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك؛ فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: أذنبت ذنبًا فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنبًا فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذًا

بالله من زوال نعمته وتحول عافيته.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه؛ وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال بعض السلف: كفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلاً.

السبب الخامس: محبة الله؛ وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى. وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده، وفي هذا قال عمر: «نعم العبد صهيب؛ لو لم يخف الله لم يعصه»، يعني أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته. فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه...

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقرها، وتسوي بينها وبين السفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها، والشرر الناشئ منها من: سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وألمه،

وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه.

السبب الثامن: قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها. فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته؛ فليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس؛ فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات؛ فإنها تطلب لها مصرفًا فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام. ومن أعظم الأشياء ضررًا على العبد: بطالته وفراغه؛ فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب؛ فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه؛ فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر. فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه، ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم. ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط. فإذا قوي سراج الإيمان في القلب، وأضاءت جهاته كلها به، وأشرق نوره في

أرجائه، سـرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبـعث إليه، فأسـرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعـة مذللة غير متثـاقلة ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامـته، فـهو كل وقت يتـرقب داعيـه، ويتأهب لمـوافاته. والله يخـتص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين: ٢٧٠ - ٢٧٥.

الفصل الرابع:
حِكَم قضاء السيئات وتقدير المعاصي

[أولا: محبة اللَّه تعالى للعفو]

الله سبحانه يحب أن يتفضل على عباده، ويتم عليهم نعمه، ويريهم مواقع بره وكرمه، فلمحبته الإفضال والإنعام ينوِّعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة - وهو أولى بها منهم وأحق - وكان له في تقدير أسبابها من الحِكَم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول، فسبحانه وبحمده.

وحكى بعض العارفين أنه قال : طفت في ليلة مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف، وطابت نفسي، فوقفت عند الملتزم، ودعوت الله، فقلت: اللَّهم اعصمني حتى لا أعصيك، فهتف به هاتف: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألوني العصمة، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ قال: فبقيت ليلتي إلى الصباح أستغفر الله حياءً منه[(١)] . أهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٥٩.

[ثانيًا: أنه يُعرِّف العبد حاجته لربّه]

ومنها: أنه يُعَرِّف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد ،وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله، وإفساد شأنه كله، وأن مولاه وسيده إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط، فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله.

فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه[١]. أهـ.

[ثالثًا: الاستعانة والالتجاء إلى الله]

ومنها: أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له؛ من استعاذته واستعانته به من شر نفسه، وكيد عدوه، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المئة، ومنها ما لا تُدركه العبارة، وإنما يدرك بوجوده، فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب، ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائيًا عنه، وهذا الذي أثمر له: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهو

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٦٤.

ثمرة: «لله أفرح بتوبة عبده...»....

فكم بين عبادة مدل صاحبها على ربه بعبادته، شامخ بأنفه؛ كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه، فحجبته عن معبوده وإلـهه، وبين عبادة من قد كَسَرَ الذلُّ قلبَه كل الكسر، وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات، فهو لا يرى نفسه مع الله إلا مسيئًا، كما لا يرى ربه - إليه - إلا محسنًا، فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين إلا قد كسر إزراؤه على نفسه قلبَه، وذلَّل لسانه وجوارحه، وطأطأ منه ما ارتفع من غيره، فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس، خاضع، غاض البصر، خاضع الصوت، هادئ الحركات، قد سجد ين يديه سجدة إلى الممات، فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمةً، والله المستعان[(١)]. أهـ.

[رابعًا: معرفة مقدار النفس]

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه، وأنها الظالمة، وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى؛ هو الذي زكاها به، وأعطاها إياه، لا منها، فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله، فهو تعالى الذي يزكي من يشاء من النفوس، فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبر، ويترك تزكية من يشاء منها فتأتي بأنواع الشرِّ والخبث.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٦٥ - ٢٦٦.

وكان من دعاء النبي ﷺ: **(اللَّهم آت نفسي تقواها، وزكـها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها)**[١].

فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف به نفسه ونقصها، فرتب له على ذلك التعريف حِكَم ومصالح عديدة، ومنها أنه يأنف من نقصها ويجتهد في كمالها.

ومنها أنه يعلم فقرها دائمًا إلى من يتولاها ويحفظها.

ومنها أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التي ادعاها أهل الجهل في أنفسهم من قدم! أو اتصال بالقديم! أو اتحاد به! أو حلول فيه! أو غير ذلك من المحالات، فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها لم يقعوا فيما وقعوا فيه[٢]. أهـ.

[خامسًا: بيان عدل الله تعالى]

ومنها إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقل: أنى هذا؟ ولا: من أين أتيت؟ ولا: بأي ذنب أصبت؟ فما أصاب العبد من مصيبة قط - دقيقة ولا جليلة - إلا بما كسبت يداه، وما يعفو الله عنه أكثر، وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، ح ٢٧٢٢.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢٧٠.

ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفِّر بها من خطاياهم؛ فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم، ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم: نعمته عليه فيما يكره؟ أو نعمته عليه فيما يحب؟

و(**ما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**)[١]، وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد، فكل ما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير[٢]. أهـ.

[سادسًا: التفات العبد لمعاملته مع الناس]

ومنها: أن يعامل العبد بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه؛ فإن الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا عفا الله عنه، ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله في إساءته، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه.

ولا تنس حال الذي قبضت الملائكة روحه، فقيل له: هل عملت خيرًا؟ هل عملت حسنة؟ قال: ما أعلمه، قيل: تذكر، قال: كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، أو قال: كنت آمر فتياني أن يتجاوزوا في السِّكَّةِ فقال الله: (**نحن أحق بذلك منك، وتجاوز الله عنه**)[٣].

---

(١) رواه البخاري في المرضى، باب كفارة المرض، ح ٥٦٤٢.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢٧٤.

(٣) رواه النسائي في البيوع، ح ٤٦٩٤، وأحمد: ٢/ ٣٦١، وأصله في الصحيحين: البخاري، ح ٢٠٧٨، ومسلم، ح ١٥٦٢.

فالله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم.

فإذا عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أنفع الأشياء له[١].

[سابعًا: مقابلة إساءة الناس بالإحسان]

ومنها أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه، ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى، وأنه سبحانه يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه، كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه، والله أوسع فضلاً وأكرم وأجزل عطاء؛ فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه.

فليتأمل هو حاله مع الله، كيف هي؟ مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلى ربه، وهكذا هو له.

فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة[٢] ؟! أهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٧٥.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢٧٦.

[ثامنًا: عدم احتقار الناس]

ومنها: أنه يقيم معاذير الخلائق، وتتسع رحمته لهم، ويتفرج بطانه، ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف وأكل بعضه بعضًا، ويستريح العصاة من دعائه عليهم، وقنوته عليهم، وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء؛ فإنه حينئذ يرى نفسه واحدًا منهم، فهو يسأل لهم ما يسأله لنفسه، وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه؛ فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه، ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم، فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء، لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة، ولا يرجو لهم نجاة؟ فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته، ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحسانًا إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة[1]. أهـ.

[تاسعًا: معرفة نعمة المعافاة والتوفيق]

ومنها: أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه؛ فإنه من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار النعمة، فلو عرف أهل طاعة الله أنهم المنعم عليهم في الحقيقة، وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم - وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى - فهم أهل النعمة المطلقة، وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه، وأن ذلك ليس من كرامته على ربه - وإن وسع

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٧٧.

الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها - فإنهم أهل الابتلاء على الحقيقة.

فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله وأن يمتعه الله بعافيته[١]. أهـ.

[عاشراً: آثار التوبة]

ومنها: أن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المعاملة التي لا تحصل بدونها؛ فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر؛ فإنه إذا تاب إلى الله قَبِلَ الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعًا من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها[٢]. أهـ.

[حادي عشر: الفرح بالتوبة]

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح؛ وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل؛ فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٨١.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢٨٢.

وتأمل كيف تجد القلب حيًا فرحًا وأنت لا تدري سبب ذلك الفرح ما هو، وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب، ولا يعرف فرحًا غيره.

فوازن إذًا بين هذين الفرحين، وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب؛ فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد؟

وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم، والنعيم، وطيب العيش، ووازن بين هذا وهذا، ثم اختر ما يليق بك ويناسبك! وكلٌ يعمل على شاكلته، وكل امرئٍ يصبو إلى ما يناسبه[1]. أهـ.

[ثاني عشر: استقلال العمل واستكثار النعم]

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه، ولا قليل منه؛ لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسيء مثله، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما يأتي به، فهو دائمًا مستقل لعمله كائنًا ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت.

وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه، وهو من ألطف الوجوه، فعليك بمراعاته، فله تأثير عجيب.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٨٣.

ولو لم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لكفى به، فأين حال هذا مِنْ حال مَنْ لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغي أن يُعطى ما هو فوقها وأجل منها! وأنه لا يقدر أن يتكلم؟ وكيف يعاند القدر وهو مظلوم من الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته؟ بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكماله، وأنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك، ولكنه مظلوم مبخوس الحظ!

وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله، وأشدهم مقتًا عنده، وحكمة الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال؛ فهم بين عتب على الخالق، وشكوى له، وذل لخلقه، وحاجة إليهم، وخدمة لهم؛ أشغل الناس قلوبًا بأرباب الولايات والمناصب، ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوساخهم، وأفرغ الناس قلوبًا عن معاملة الله، والانقطاع إليه، والتلذذ بمناجاته، والطمأنينة بذكره، وقرة العين بخشيته والرضا به.

فعياذًا بالله من زوال نعمته وتحول عافيته، وفجأة نقمته، ومن جميع سخطه[1]. أهـ.

[ثالث عشر: الإفاقة واستجماع القوة للعدو]

ومنها أن القلب يكون ذاهلاً عن عدوه معرضًا عنه، مشتغلاً ببعض مهماته، فإذا أصابه سهم من عدوه استُجمِعَتْ له قوتُه وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًا كريمًا؛ كالرجل الشجاع إذا جرح؛ فإنه لا

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٨٤ - ٢٨٥.

يقوم له شيء، بل تراه بعده هائجًا طالبًا مقدامًا، والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربًا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جُرِحَ فإنه لا يطاق.

فلا خير فيمن لا مروءة له بطلب أخذ ثأره من أعدى عدوه، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدو أعدى له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه، كما جاء عن بعض السلف: إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره[1]. أهـ.

[رابع عشر: معرفة نعمة الأنس بعد الوحشة]

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الأنس والقرب؛ ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله بل أطمأنت وسكنت إلى غيره: علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته التي تليق به، وإن استغاث استغاثة الملهوف وتفلق تفلق المكروب، ودعا دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقًا فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه: علم أنه موضع لما أهل له، فرد عليه أحوج ما هو إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذ مقداره فعض عليه النواجذ وثنى عليه الخناصر، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٨٧.

وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك.

فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده!

ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر.

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبًا عشك البالي

ولا تك ممن مد باعًا إلى جنى فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبد إذا بلي بعد الأنس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنَّت وأنَّت وتصدعت وتعرَّضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدًا، ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه؛ فإن هذه الذكرى تمنعها القرار وتهيج منها البلابل.

وإن استمر إعراضها ولم تحن إلى مجدها الأول، ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها إلى مراجعة قربها من ربها؛ فهي ممن إذا غاب لم يطلب، وإذا أبق لم يسترجع، وإذا جنى لم يستعتب.

وهذه هي النفوس التي لم تؤهل لما هنالك.

وبحسب المعرض هذا الحرمان؛ فإنه يكفيه، وذلك ذنبٌ عقابه فيه[1]. أهـ.

[خامس عشر: نسيان الحسنات وتذكر السيئات]

ومنها أن الله سبحانه إذا إراد بعبده خيرًا أنساه رؤية طاعاته، ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه، ونسي طاعاته، وجعل

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٩٠ - ٢٩١.

همه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه؛ كما قال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالو: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب، واستغفر وتضرع وأناب إلى الله، وذل له وانكسر، وعمل لها أعمالاً فتكون سبب الرحمة في حقه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتدُّها على ربه، وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار.

فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه. وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره، والله المستعان[1]. أهـ.

[سادس عشر: التواضع للناس والإمساك عن عيوبهم]

ومنها: أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه توجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقًا؛ فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه، فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله، فإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقًا من الإكرام يتقاضاهم إياها ويذمهم على ترك القيام بها؛ فإنه عنده أخس قدرًا وأقل قيمة من أن

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٩٤ - ٢٩٥.

يكون لها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها، أو له - لأجله - فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجله، فيرى أن من سلَّم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه، وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله، فما أطيب عيشه! وما أنعم باله! وما أقر عينه!

وأين هذا ممن لا يزال عاتبًا على الخلق، شاكيًا ترك قيامهم بحقه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخط؟!

فسبحان من بَهرت حكمته عقول العالمين(١). أهـ.

[سابع عشر: العفو عن الناس]

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مُسيئًا خاطئًا مفرطًا، مع فرط إحسان الله إليه في كل طرفة عين، وبره، ودفعه عنه، وشدة حاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه نفسًا واحدًا، وهذه حاله معه، فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب، وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه ولا يُخِلُّون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك؟ وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم، ويعفو عنه، ويسامحه، ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢٩٦.

فهـذه الآثار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه، ومن اجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرنا فهي - والله - علامة الشقاوة، وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله، فيعاقبه باستحقاقه.

وتتداعى السيئات في حق مثل هذا، وتتألف، فيتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوي بها في دركات العذاب؛ فالمصيبة كل المصيبة الذنب يتولد من الذنب، ثم يتولد من الاثنين ثالث، ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعًا، وهلم جرا.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك، من حيث لا يشعر؛ فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض، يتلو بعضها بعضًا، ويثمر بعضها بعضًا؛ قال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها».

وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد، والله المستعان[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة: ٣٠٠ - ٣٠١.



الفصل الخامس: متفرقات

[احذر الغرور]

يا مغرور بالأماني: لُعِنَ إبليس، وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها [أي الجنة] بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحلّ، وأمر بإيساع الظهر سياطًا [أي بالجلد] بكلمة قذف، أو بقطرة من مُسْكِر، وأبان عضواً من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هرَّة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، فالعمر بآخره والعمل بخاتمته.

من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه، ولو قدمت لقمة وجدتها، ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى إليك، فوقف بالباب، فرده بوابُ «سوفَ ولعلَّ وعسى». كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طبيب له

ولا عائد، وهوى مستيقظٍ، وعقلٍ راقدٍ، ساهٍ في غمرته عَمِهٍ في سكرته، سابح في لجة جهله، مستوحشٍ من ربه، مستأنسٍ بخلقه، ذِكرُ الناسِ فاكهتُه وقُوْتُه، وذِكرُ اللهِ حبسُه وموتُه، لله منه جزء يسيرٌ من ظاهره، وقلبُه ويقينُه لغيره..

لا كان من لسواك فيه بقية يجدُ السبيل بها إليها العدل[1] أهـ.

[المنتكس]

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]؛ فشبَّه سبحانه من آتاه كتابه، وعلَّمه العلم الذي منه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا، لا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته؛ وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من

(١) الفوائد: ٩٦ - ٩٧.

الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مئة كلب لم يدع كلبًا واحدًا ينال منها شيئًا إلا هَرَّ عليه، وقهره لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال رزية نبحه، وحمل عليه، وكأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سرٌ بديع؛ وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة؛ فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان، وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له؛ إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر، وترك اللهث؛ وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها؛ فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء؛ فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا؛ يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدة حرصه؛ فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب

له دوام اللهف؛ فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة، فهو يلهف، وإن تركته، ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير؛ كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعي أو لم يُدعَ، وُعِظَ أو لم يُوعَظْ؛ كالكلب يلهث طُرِدَ أو تُرِكَ.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب؛ فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال كالكلب؛ إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: ١٩٣]: وتأمل ما في هذا المثل من الحِكَم والمعنى.

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته؛ فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه.

ثم قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، أي خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل فسلخناه منها، لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٦٠]، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله محميَّ الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم؛ فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله؛ فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأسًا؛ فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه.

والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه، ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس ﷺ: ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا؛ قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا

المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما يُنبِّهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل،: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ، والمخلد من الرجال هو الذي يبطئ مشيته، ومن الدواب: التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته. وقال الزجاج: خلد، وأخلد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء، ويقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا، فأخلدوا

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٧] أي قد خلقوا للبقاء؛ لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبدًا، وقيل: هم المقرَّطون في آذانهم والمسوَّرون في أيديهم. وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافي بين القولين.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.

وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا، وأطاع شيطانه. وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعني: الذين حاربوا

موسى وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل[1]. أهـ.

[المؤمن إذا أذنب ثم تاب هل يعود إلى مكانه أم لا؟]

العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه إلى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه هل يعود إلى مثل ما كان؟ أو لا يعود، بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته؟ أو يعود خيرًا مما كان؟ **فقالت طائفة**: يعود بالتوبة إلى مثل حاله الأولى؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا مُحي أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه؛ فكأنه لم يكن، فيعود إلى مثل حاله. **قالوا**: ولأن التوبة هي الرجوع إلى الله بعد الإباق منه؛ فإن المعصية إباق العبد من ربه، فإذا تاب إلى الله فقد رجع إليه، وإذا كان مسمى التوبة هو الرجوع، فلو لم يعد إلى حالته الأولى مع الله لم تكن توبته تامة، والكلام إنما هو في التوبة النصوح. **قالوا**: ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب في الحال بالإقلاع عنه، وفي المستقبل بالعزم على أن لا يعود، فكذلك ترفع أثره في الماضي جملة، ومن أثره في الماضي انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده، فلا بد من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة، واذا ارتفع بها عاد إلى مثل حاله. **قالوا**: ولأنه لو بقي نازلاً من مرتبته منحطًا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت في الماضي شيئًا، وإن عاد إلى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة إنما كان

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٧٩ - ١٨٤.

بالتـوبة فلو ضعف تأثيـر التوبة عن إعـادته إلى منزلته الأولى لضـعف عن تبليغه تلك المنزلة التي وصل إليها، وإن لم تكن التـوبة ضعيفة التأثير عن تبليغـه تلك المنزلة لم تكن ضعيـفة التأثيـر عن إعادته إلى المنزلة الأولى.

قالوا: وأيضا ربط سبحانه الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها؛ فالجزاء من جنس العمـل، فكما رجع التائب إلى الله بقلـبه رجوعـًا تامًا رجع الله عليه بمنزلته وحاله، بل ما رجع العبد إلى الله حتى رجع الله بقلبه إليه أولا فرجع الله إليه وتاب عليه ثانيـًا؛ فتوبة العبد محفـوفة بتوبتين من الله: توبة منه إذنًا وتمكينًا فتاب بها العبد، وتاب الله عليـه قبولاً ورضى. فتوبة العبد بين توبتـين من الله، وهذا يدل على عنايتـه سـبحـانه وبره ولطفـه بعبـده التائب، فكيف يقال: إنه لا يعيـده مع هذا اللطف والبر إلى حاله؟ **قـالوا**: وأيضًا فإن التوبة من أجلِّ الطاعات وأوجبـها على المؤمنين، وأعظمها غناء عنهم، وهم إليها أحـوج من كل شيء، وهي من أحب الطاعات إلى الله؛ فإنه يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، وإذا كـانت بهـذه المـثابة فـالآتي بهـا آت بمـا هو من أفـضل القـربات وأجلِّ الطاعات، فإذا كـان قد حصل له بالمعصـية انحطاط ونزول مرتبة فـبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة، فإن لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فإنها لا تكـون أنزل. **قـالوا**: وأيضًا فإنا إذا قابلنا بين جناية المعـصية والتقرب بالتوبة وجـدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحـاصل من المعصـية، والكلام إنمـا هو في التـوبة النصوح الكاملـة، وجانب الفـضل أرجح من جانب العدل، ولهذا كان في جانب العدل آحاد بآحاد، وجانب الفضل آحاد بعشرات إلى سـبعمئة إلى أضـعاف كثيرة، وهذا يدل على رجـحان جانب

الفضل وغلبته، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة؛ فإن رحمة الرب تغلب غضبه. **قالوا**: وأيضًا فالذنب بمنزلة المرض، والتوبة بمنزلة العافية، والعبد إذا مرض ثم عوفي وتكاملت عافيته رجعت صحته إلى ما كانت، بل ربما رجعت أقوى وأكمل مما كانت عليه؛ لأنه ربما كان معه في حال العافية آلام وأسقام كامنة فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ثم زالت بالعافية جملة، فتعود قوته خيرًا مما كانت وأكمل، وفي مثل هذا قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل...

وقالت طائفة: لا يعود إلى مثل ما كان، بل لا بد أن ينقص حاله، فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب. فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط في حقوقه، وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته، فإذا تاب إلى ربه ورجع إليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه، وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود. **قالوا**: ولأن هذا في زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير إلى الله، فلو كان واقفًا في موضعه لفاته التقدم، فكيف وهو في زمن المعصية كان سيره إلى وراء وراء؟ فإذا تاب واستقبل سيره فإنه يحتاج إلى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل إلى الموضع الذي تأخر منه. **قالوا**: ونحن لا ننكر أنه قد يأتي بطاعات وأعمال تبلغه إلى منزلته، وهذا مما لا يكون؛ فإنه بالتوبة قد وجه وجهه إلى الطريق، فلا يصل إلى مكانه الذي رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله إليه، ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل أعمالاً عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم. **قالوا**:

وأيضًا فلو رجع إلى حاله التي كان عليها أو إلى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالاً منه، فكيف يكون هذا؟ وأين مسير صاحب الطاعة في زمن اشتغال هذا بالمعصية؟ وكيف يلتقي رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب؟ فإذا رجع أحدهما إلى طريق الآخر والآخر مجدٌّ على سيره فإنه لا يزال سابقه ما لم يَعْرِض له فتور أو توان، هذا ما لا يمكن جحده ودفعه. **قالوا**: وأيضًا فمرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالأسقام، والتوبة بمنزلة شرب الدواء، والمريض إذا شرب الدواء وصح، فإنه لا تعود إليه قوته قبل المرض، وإن عادت فبعد حين. **قالوا**: وأيضًا فهذا في زمن معالجة التوبة ملبوك في نفسه، مشغول بمداواتها ومعالجتها، وفي زمن الذنب مشغول بشهواتها، والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه في سيره، فكيف يلحقه هذا؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها. وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان؛ فإن كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرًا وأعظم تشميرًا وأعظم ذلاً وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان، وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه[١]. أهـ.

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٢١ - ٢٣٢.

[أقسام الذنوب]

الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب الملكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية؛ كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك، ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعل له ندًا، وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل.

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منه أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام؛ فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية.

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته[١]. أهـ.

[أيسر وأضر حركات الجوارح]

اللفظات: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة؛ بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة هي أربح منها، فلا يضيعها بهذه؟ وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان؛ فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها»، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه،

(١) الداء والدواء: ١٨٤ - ١٨٦.

حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه؛ أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدور بلسانك.

في حديث أنس المرفوع: **(لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)**(١)، وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: **(الفم والفرج)**(٢)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد سأل معاذ رضي الله عنه النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار فأخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: **(ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: كف عليك هذا، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُب الناس على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)**(٣) قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل

---

(١) رواه أحمد: ٣/ ١٩٨.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة، باب حسن الخلق، ح ٢٠٠٤، وأحمد: ٢/ ٢٩١.

(٣) سبق تخريجه ص ١٠٨٩.

بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يَتألَّى عليّ أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك**)[١] فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم**» وعند مسلم: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**)[٣] وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ: (**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما**

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان...، ح ٢٦٢١.

(٢) رواه أبو داود في الأدب، باب النهي عن البغي، ح ٤٩٠١.

(٣) رواه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان، ح ٦٤٧٨، ومسلم في الزهد والرقائق، ح ٢٩٨٨.

بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله لها به سخطه إلى يوم يلقاه)(١) وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: **(تُوفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ ومن يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه)**(٢) قال: حديث حسن.

وفي لفظ: «إن غلامًا استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بني؛ لك الجنة، فقال النبي ﷺ: **(وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره)**(٣).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)**(٤).

وفي لفظ لمسلم: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت)**(٥).

---

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب في قلة الكلام، ح ٢٣١٩، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي في الزهد، باب فين تكلم بكلمة يضحك بها الناس، ح ٢٣١٦، وقال: غريب.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده: ٧/ ٨٤، ح ٤٠١٧.

(٤) متفق عليه: رواه الباري في مواضع منها كتاب الرقاق، ح ٦٤٧٥، ومسلم في الإيمان، ح ٤٧.

(٥) رواه مسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء، ح ١٤٦٨.

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: (**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**)[١].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: (**قل آمنت بالله ثم استقم. قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا**)[٢] والحديث صحيح.

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكرٍ، أو ذكر الله عز وجل**)[٣] قال الترمذي: حديث حسن. وفي حديث آخر: (**إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**)[٤].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد، ولقد رؤي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها؛ قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي. وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر الله، ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، ح ٢٣١٧، ٢٣١٨.

(٢) رواه بنحوه أحمد في المسند: ٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٥.

(٣) رواه الترمذي في الزهد، ح ٢٤١٢، وقال: حسن غريب.

(٤) رواه الترمذي في الزهد، باب حفظ اللسان، ح ٢٤٠٧.

وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام، أو كما قال. وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد.

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من الله وما والاه، وكان الصديق ﵁ يمسك على لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد. والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره. والله عند لسان كل قائل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها؛ فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته؛ فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة؛ فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به[١]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ٢٣٤ - ٢٣٩.

[تعميم إبليس للشياطين للاهتمام بثغر اللسان]

قوموا على ثغر اللسان؛ فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من: ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع. ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل؛ فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم؛ أما سمعتم قول الناصح «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس».

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أُهلِكُ منه بني آدم وأكبُّهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجيب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانًا على الإنس بكل

طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مَرصَد؛ أما سمعتم قَسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧][1] أهـ.

[الكلمة الخبيثة]

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة؛ فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؛ فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل ولا جني ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق ولا أعلاها مورق، ولا جنى لها، ولا تعلو بل تُعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق، في خطابهم وكسبهم، وجده كذلك؛ فالخسران كل الخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً، ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

---

(١) الداء والدواء: ١٥٠ - ١٥١.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة - وهي الشرك - كشجرة خبيثة، يعني: الكفار، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً؛ فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء، ويقول: ليس له عمل صالح في الدنيا والآخرة.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر؛ ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى توافي بها القيامة.

وقوله: اجتثت. أي استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله بالفريقين أصحاب الكلم الطيب، والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون، عن القول الثابت؛ فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبَّت المؤمنين بفضله لإيمانهم[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٩١ - ١٩٢.

[توجيه إبليس للشياطين]

امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يسد عليكم الأمر؛ فاجتهدوا أن لا تُدْخِلوا منه إلا الباطل؛ فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستحسنه؛ تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجًا، وألقوا الكلمة، فإن رأيت منه إصغاء إليها فزُجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به؛ إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القائلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه، وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك[١]. أهـ.

---

(١) الداء والدواء: ١٤٨ - ١٤٩.

[إنفاق المال لكسب الثناء والصد عن سبيل اللّه]

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧]، هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته؛ فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسب الثناء وحسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جدًا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

واختلف في الصِّرِّ، فقيل: البرد الشديد: وقيل: النار؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صِرٌّ لتصريتها عند الالتهاب وقيل: الصر: الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها.

والأقوال الثلاثة متلازمة؛ فهو برد شديد محرق بيبسه للحرث، كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد. وفي قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة، حتى أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها[1]. أهـ.

---

(١) إعلام الموقعين: ١/٢٠٣ - ٢٠٤.

[آفات الخمر]

نفى الله تعالى عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من: الصداع، والغَوْل، واللَّغوِ، والإنزاف، وعدم اللذة؛ فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا: يغتال العقل، ويكثر اللغو على شربها، بل لا يطيب لشرابها ذلك إلا باللغو، وتنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان؛ توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، ويلحق شاربها بأنقص نوع للإنسان، وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس، وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو إهلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قيامًا له، ولمن تلزمه مؤنته، وتهتك الأستار وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب، وأفقرت من غني، وأذلَّت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، ونسخت مودة، ونسجت عداوة، وكم فرقت بين رجل وحبِّه فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرةٍ وأجرت من عَبْرَة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير، وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بلية، وعجلت من منية، وكم أورثت من خزية، وجرت على شاربها من محنة، وجرأت عليه من سَفَلة؛ فهي جِماع

الإثم، ومفتاح الشر، وسلابة النِّعم، وجالبة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمرة الجنة في جوف عبد؛ كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: (**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**)[١] لكفى.

وآفات الخمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وكلها منتفية عن خمر الجنة[٢]. أهـ.

[أقسام اللذات]

أقسام اللذات ثلاثة: لذة جثمانية، ولذّة خيالية وهمية، ولذة عقلية روحانية.

فاللذة الجثمانية: لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذّة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم؛ فليس كمال الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنها لو كانت كمالاً لكان أفضلُ الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلاً وشربًا وجماعًا، وأيضًا لو كانت كمالاً لكان نصيب رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكمل من نصيب أعدائه. فلما كان الأمر بالضد تبين أنها ليست في نفسها كمالاً، وإنما تكون كمالاً إذا تضمنت إعانة على اللذة الدائمة العظمى.

وأما اللذّة الوهميَّة الخيالية: فلذة الرئاسة والتعاظم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم.

---

(١) رواه مسلم في الأشربة ح ٢٠٠٣، وبنحوه البخاري في الأشربة، ح ٥٥٧٥.

(٢) حادي الأرواح: ٢٣٧ - ٢٣٨.

وهذه اللذة وإن كان طلابها أشرف نفوسًا من طلاب اللذة الأولى، فإن آلامها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها؛ فإن صاحبها منتصب لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروط وحقوق تفوت على صاحبها كثيرًا من لذاته الحسية، ولا يتم إلا بتحمل مشاق وآلام أعظم منها. فليس هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسرت بحصولها. وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدنيا، وإنما غايتها دفع آلام كما يدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع. ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرئاسة والجاه. والتحقيق أن اللذّة أمر وجودي يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضادّ.

وأما اللذّة العقلية الروحانية: فهي كلذة المعرفة والعلم، والاتصاف بصفات الكمال من: الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والمروءة وغيرها؛ فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة، فإذا انضمّت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، والرضا به عوضًا عن كل شيء، ولا يتعوض بغيره عنه؛ فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلى لذات الدنيا، كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا؛ فإنه ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا؛ ولذلك كان مثقال ذرة من إيمان بالله ورسوله يخلص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: من قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم

تقرّ بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها، ويفر منه فـرارهم من المؤلم. وهذا موضع الحاكم فيه الذوق لا مجـرد لسان العلم. وكان بعض العارفـين يقول: مساكـين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها، فـيقال له: وما هو؟ فيقول: «محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته».

وقال آخر: «أطيب مـا في الدنيا معرفـته ومحبتـه، وألذ ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة».

وقال آخر: والله إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: «إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحـال إنهم لفي عيش طيب»... وقال بعض المـحبين: «إن حبَّه عز وجل شـغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحـبة غيره؛ فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذّة تداني محبته، ولا يؤملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم.

وقال بعض السلف: «ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمـر الآخرة؛ فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به مَنْ لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غيـر ذلك تركه على ما هو عليه، ثم قـرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ [محـمـد: ٢٤]. ولو لم يكن لـلقلب المشـتغل بمحـبة غير الله المـعرض عن ذكره العـقوبة إلا صدؤه وقـسوته

وتعطيله عما خلق له لكفى بذلك عقوبة»[١]. أهـ.

[استيفاء الطيبات في الدنيا]

قال سليمان التيمي، عن أبي مجلز: قلت لابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: ٥٥]: ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب، حدثنا يزيد ابن زريع، عن سليمان التيمي، عن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال: «في افتضاض العذارى».

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيي بن يمان، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبير: إنَّ شهوته لتجري في جسده سبعين عامًا يجد اللذة، ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلى التطهير، ولا ضعف ولا انحلال قوة، بل وطؤهم وطء التذاذ ونعيم، لا آفة فيه بوجه من الوجوه.

وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام، فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربْها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة)**[٢].

---

(١) روضة المحبين: ١٤٢ - ١٤٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة، ح ٥٦٣٣، ومسلم في اللباس والزينة، ح ٢٠٦٧.

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حُرِمها هناكَ، كما نعى سبحانه وتعالى على من أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها، ولهذا كان الصحابة - ومن تبعهم - يخافون من ذلك أشدَّ الخوف، وذكر الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله: أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم، فقال: ما هذا؟ قال: لحم اشتريته لأهلي بدرهم، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا اشتراه! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جرير بن حازم، قال: حدثنا الحسن قال: قدم وفد أهل البصرة مع أبي موسى على عمر، فكنا ندخل عليه كل يوم وله خبز يُلتُّ، ربما وافقناها مأدومة بالسمن، وربما وافقناها مأدومة بالزيت، وربما وافقناها مأدومة باللبن، وربما وافقنا القدائد اليابسة، قد دقت ثم أغلي بماء، وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل، فقال ذات يوم: إني والله قد أرى تقديركم وكراهيتكم لطعامي، إني والله لو شئت لكنت من ألينكم طعامًا، وأرقكم عيشًا، ولكني سمعت الله تعالى عير قومًا بأمر فعلوه، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

فمن ترك اللذة المحرمة لله استوفاه يوم القيامة أكمل ما تكون، ومن استوفاها ها هنا حرمها هناك أو نقص كمالها، فلا يجعل الله لذة من أوضع في معاصيه ومحارمه، كلذة من ترك شهوته لله أبدًا، والله أعلم[١]. أهـ.

---

(١) حادي الأرواح: ٣١٠ - ٣١١.

[الفرح بالذنوب]

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها؛ ففرحه بها غطَّى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سُكر الشهوة يحجبه عن الشعور به. ومتى خَلا قلبه من هذا الحزن، واشتدت غِبطته وسروره، فلْيَتَّهِم إيمانَه، ولْيَبْكِ على موت قلبه؛ فإنه لو كان حيّاً لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك؛ فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها. وهي موضع مَخوف جداً، مترامٍ إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه[١]. أهـ.

[فروق بين المبتدع والمذنب]

لما كانت البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكذيبًا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ عناداً وجهلاً، كانت من أكبر الكبائر، وإن قصرت عن الكفر، وكانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب؛ كما قال

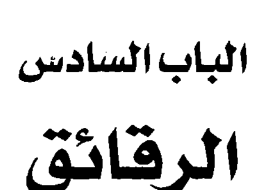
(١) مدارج السالكين: ١/ ١٨٧.

بعض السلف: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها» وقال إبليس: «أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا».

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك. والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه[١]. أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) الداء والدواء: ٢١٥.

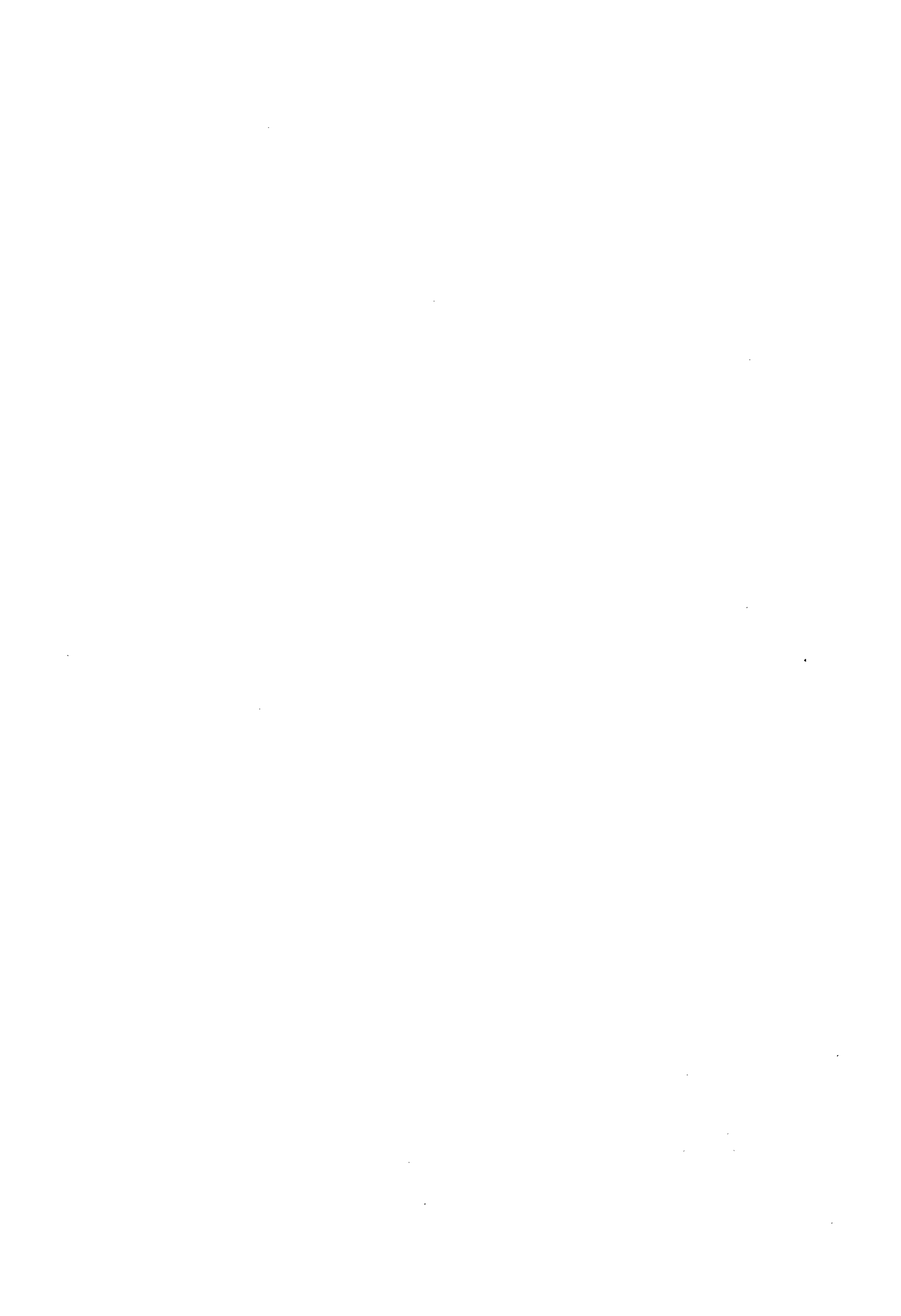


الباب السادس

الرقائق

وفيه:

- الفصل الأول: حقيقة الدنيا .
- الفصل الثاني: الزهد .
- الفصل الثالث: نعيم الجنة .
- الفصل الرابع: متفرقات .



الفصل الأول: حقيقة الدنيا

[مثال جميل لأهل الدنيا]

الدنيـا وأهلها في اشـتغـالهم بنعيـمهـا عن الآخرة، وما يـعقبـهم من الحسرات؛ مَـثَلُ أهلها في غفلتهم مَثَـلُ قوم ركبوا سفينـة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجـزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصـادف المكان خاليًا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفـقها لمراده، ووقف بعضـهم في الجزيرة يـنظر إلى أزهارها وأنوارها العجـيبـة، ويسمعُ نغمات طيـورها، ويعجبه حُسْن أحجـارها، ثم حدثته نفسه بفـوت السفينة وسرعة مـرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضـيقًا فجلـس فيه، وأكب بعضهم على تلك الحـجارة المستحسنة والأزهار الفائقـة فحمل منها حملة، فلما جـاء لم يجد في السفينة إلا مكانًـا ضيِّقًا وزاده حمله ضـيقًا، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بدًا، ولم يجد له في السـفينة موضعًـا، فحمله على عنقـة وندم على أخذه فلم تنفعه الندامـة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أراييحـها وآذاه نتنها، وتولَّج بعضهم في تلك الغـياض ونسي السفينة وأبعد في نزهتـه، حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يـبلغه صوته لاشتغاله بمـلاهيه؛ فهو تارة يتناول مـن الثـمـر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتـارة يعـجب من حـسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخـرج عليه غير منفك من شوك

يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوتٍ هائل يفزعه، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تَغُرَّهُ أحجار ونبات يصير هشيمًا؛ قد شغل باله وعَوَّقَهُ عن نجاته ولم يصحبه[1]. أهـ.

[النذير العريان]

أهل الدنيا مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم، فمروا بواد مُعْشِبٍ كثير المياه والفواكه، فنزلوا به وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور، فمرَّ بهم رجل يعرفون نُصْحَهُ وصِدْقَهُ وأمانته، فقال: إني رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادي وهو قاصدكم، فاتبعوني أسلك بكم على غير طريق العدو فَتَنْجُوا منه، فأطاعته طائفةٌ قليلة، فصاح فيهم: يا قوم! النجاة النجاة أُتِيتُمْ أُتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم، فقالوا: كيف نرحلُ من هذا الوادي وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟ فقال لهم الناصح: لِيَنْجُ كُلٌّ واحد منكم بنفسه مما خَفَّ عليه من متاعه وإلا فهو مأخوذٌ، وماله مُجتَاحٌ، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية

(١) عدة الصابرين: ٣١٦.

والدَّعَة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقـاعدين؛ فهم أكثر مني مالاً وأهلاً، فمـا أصابهـم أصابني مـعهم ونهض الأقلون مع الناصح فـفازوا بالنـجاة، وصبح الجيش أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشـار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعـينه في الحديث المـتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **(إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم! إني رأيتُ الجيش بعيني وأنا النذيُر العـريان فـالنجـاةَ النجـاةَ، فـأطاعه طـائفـة من قـومـة فأدلجـوا وانطلقـوا على مهلهم فنجـوا، وكذبت طائفة منهم فـأصبحوا مكانهم، فـصبّحـهم الجـيش فأهلكهم واجتـاحهم، فذلك مَـثَلُ مَنْ أطاعني واتبع ماجئت به، ومـثل من عصاني وكـذب بما جئت به من الحق)**[1][2]. أهـ.

[نحن ضيوف مرتحلون]

رجل هيّأ داراً وزينها ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليها، فكلما دخل داخلٌ أجلسـه على فراش وثير، وقدم إليه طبـقًا من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوانٍ مُفْـتَخرة فيهـا من كل ما يحتاج إليـه، وأخدمه عبـيده ومـماليكه، فـعرف العاقل أن ذلك كـله متاع صـاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضـيافة مدة مقامه في الدار، ولم يعلق قلبه

---

(١) متفق عليه: رواه بنحـوه البخـاري في الاعتصـام، ح ٧٢٨٣، ومسـلم في الفضـائل، ح ٢٢٨٣.

(٢) عدة الصابرين: ٣٢٤.

بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف؛ يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدَّمه له، ولا يسأله عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه، فدخل الدار كريمًا وتمتع فيها كريمًا، وفارقها كريمًا، وربُّ الدار غير ذَامٍّ له. وأما الأحمق فحَدَّثَ نفسه بسُكَنى الدار وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبئها فيه، وكلما قدَّم إليه ربها شيئًا أو آلة حدَّث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، وربُّ الدار يشاهد ما يصنع، وكَرَمُهُ يمنعه من إخراجه من داره، حتى إذا ظن أنه استبدَّ بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحقيقي، واستوطنها واتخذها دارًا له، أرسل إليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجًا عنيفًا، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، فإنه مطابق للحقيقة والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «كل أحد في هذه الدنيا ضيفٌ، وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة».

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: «مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدِّثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدِّثه. فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، وقال. ثم تصنعت له أحسن ما كانت

تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، قال: تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منه، فقال رسول الله ﷺ: **(بارك الله لكما في ليلتكما)**[١] وذكر الحديث»[٢]. أهـ.

[خُطّاب الدنيا وخُطّاب الآخرة]

ملكٌ بنى دارًا لم ير الراؤون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقًا وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأةً جميلة قد زُيِّنتْ بأنواع الزينة، وأُلبِسَتْ أنواع الحلي والحلل، وممر الناس كلهم عليها، وجعل لها أعوانًا وخدامًا تحت يدها ويد أعوانها زادًا للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغى منك زادًا يوصله إليَّ فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إليَّ، بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره، ومن مد إليك عينيه ورضي بك وآثرك عليَّ، وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان واستخدميه واجعليه يركض

(١) رواه بهذا الطول بنحوه أحمد: ٣/١٠٦، ١٠٧، وأصله في الصحيحين: البخاري في العقيقة، ح ٥٤٧٠ وغيرها، ومسلم في اللباس والزينة، ح ٢١١٩.

(٢) عدة الصابرين: ٣٢٥ - ٣٢٦.

خلفك ركض الوحش، ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله، وسلِّطي عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً، حتى تنقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة، والله المستعان؛ وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروي عن الله عز وجل: يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك[١]. أهـ.

[لماذا أنزل المال؟]

الله سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به؛ كما في «المسند» عنه ﷺ قال: يقول الله تعالى في الحديث القدسي: (**إنَّا نزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغى له ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب**)[٢].

فأخبر سبحانه أنه أنزل المال لِيُستَعانَ به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام، فإذا زاد المالُ

---

(١) عدة الصابرين: ٣٢٨.

(٢) رواه بنحوه أحمد في المسند: ٥/٢١٩ من حديث أبي واقد الليثي، وأصله مختصراً في الصحيحين: رواه البخاري من حديث ابن عباس في الرقاق، ح ٦٤٣٦، ومسلم من حديث أنس في الزكاة، ح١٠٤٨.

عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التي أُنْزِلَ لها كان الـتراب أولى به، فـرجع هو والجوف الذي امـتلأ به بمـا خُلِقَ له من الإيمان والعلـم والحكمة؛ فإنه خُلـق لأنْ يكونَ وعاءً لمعـرفة ربه وخـالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليـه من المال ما يستعينُ به على ذلك، فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمـحبـة المال الفـاني الذاهب - الذي هو ذاهب عن صاحـبه أو بالعكس - وجـمعِه والاسـتكثارِ منه، ومع ذلك فـلم يمتلئ بل ازداد فـقرًا وحِرْصًـا، إلى أن امـتلأ جـوفه بالتـراب الذي خلق منه، فرجع إلى مـادته الترابية التي خُلق منها هو وماله، ولم تتكمَّل مـادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده.

فـالمـال إن لم ينفع صـاحـبـه ضرَّه ولا بـد، وكذلك الـعلم والملك والقـدرة؛ كل ذلك إن لم ينفعـه ضَرَّهُ؛ فـإن هذه الأمور وسـائل لمقـاصد يُتَوَسَّلُ بها إليها في الخير والشـر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها.

فأربـح الناس من جعلهـا وسائل إلى الله والدار الآخـرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده. وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخـرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد - ولو جعلهـا كذلك لكان خاسرًا - لكنه جـعلها وسائل إلى ضد مـا جعلت له؛ فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها[1]. أهـ.

(١) عدة الصابرين: ٢٢٣ - ٢٢٤.

[ألهاكم التكاثر]

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾ [التكاثر: ١ - ٨] .

أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها؛ فقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أي شغلكم على وجه لا تعذرون فيه؛ فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه. فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: (**إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**)[١] كان صاحبه معذوراً، وهو نوع من النسيان. وفي الحديث: (**فلها ﷺ عن الصبي**)[٢]؛ أي ذهل عنه. ويقال: لها بالشيء: أي اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح؛ ولهذا يجمع بينهما؛ ولهذا كان قوله ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أبلغ في الذمّ من (شغلكم)؛ فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاهٍ به.. فاللهو هو ذهولٌ وإعراض.

والتكاثر: تفاعل من الكثرة؛ أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة، ح ٣٧٣، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، ح٥٥٦.

(٢) لم أجده.

ذكر المـتكاثر به إرادة لإطلاقه وعـمومه، وأنَّ كل مـا يكاثر به العبد غـيره سـوى طاعة الله ورسـوله وما يعـود عليـه بنفع معـاده فهـو داخل في هذا التكاثر؛ فالتكاثر في كل شيء من: مال، أوجـاه، أو رياسة، أو نسوة، أو حـديث، أو علم، ولا سـيـما إذا لـم يحتج إلـيه، والتـكاثر في الكتب، والتصـانيف، وكثـرة المسـائل، وتفريعـها، وتوليـدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكـثر من غـيره؛ وهـذا مذمـوم إلاَّ فيـما يقـرب إلى الله؛ فالتكاثر فـيه منافسة في الخـيرات ومسابقـة إليها. وفي صحـيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير: أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قـال: **(يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لـك من مالك إلا ما تصدّقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟)**[١][٢] أهـ.

[من كانت الدنيا همه]

إذا أصبح العـبد وأمسى وليس همُّـه إلا الله وحده تحمَّل اللهُ سبـحانه حوائجه كلها، وحَمَل عنه كل ما أهمّه، وفَرّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإنْ أصبح وأمسى والدنيـا همُّه حمَّله اللهُ همومها وغمـومها وأنكادها، ووكّله إلى نفسه، فـشغل قلبه عن محـبته بمحبة الـخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهـم، وجوارحه عن طاعـته بخـدمتـهم وأشغـالهم؛ فهو يـكدح كدح

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق، ح ٢٩٥٨.

(٢) الفوائد: ٥٤ - ٥٥.

الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره.

فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦][١] أهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) الفوائد: ١٢٦.

الفصل الثاني: الزهد

[زهد المشمرين]

المشمرون في السير إلى الله نوعان:

أحـدهـمـا: الزهد في الدنيا جـملة، وليس المراد تخليهـا من اليد ولا إخراجهـا وقعوده صفرًا منها، وإنمـا المراد إخراجها من قلبـه بالكلية: فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت في يده.

فليس الزهد أن تتـرك الدنيـا من يدك وهي في قلبك، وإنمـا الزهد أن تتركهـا من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشـدين وعمر ابن عبد العزيز الذي يضـرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فـتح الله عليه من الدنيا ما فتح، وما يزيده ذلك إلا زهدًا فـيـهـا. ومن هذا الأثر المـشـهـور - وقد روي مـرفـوعًـا وموقـوفًا-: «ليس الزهد في الدنيـا بتحريم الحـلال، ولا بإضاعـة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك».
والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحـدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ

وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]، وسماها سبحانه: «متاع الغرور»، ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها واطمأن إليها، وقال النبي ﷺ: (ما لي وللدنيا؛ إنما أنا كراكب قال[(١)] في ظل شجرة ثم راح وتركها)[(٢)]، وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: أن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا؛ فإنه وإن فوَّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية، وعقل حقير، وقدر خسيس.

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجل خطراً؛ وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)[(٣)] فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده

---

(١) من القيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

(٢) رواه بنحوه ابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا، ح ٤١٠٩، والترمذي في الزهد، ح ٢٣٧٧، وأحمد: ١/ ٤٤١.

(٣) رواه بنحوه الترمذي في الزهد، ح ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد، ح ٤١٠٨، وأصله عند مسلم في الجنة وصفة نعيمها، ح ٢٨٥٨.

درهم زغل قيل له: اطرحه فلـك عوضه مائة ألف دينار مثـلاً، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها.

الثـالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعـه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب لـه ما لم يقض له منها؛ فمتى تيـقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليـه الزهد فيهـا؛ فإنه متى تيـقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمـونه منها سيـأتيه بقي حرصه وتعـبه وكده ضائعًـا، والعاقل لا يرضى لنفســه بذلك . فهذه الأمور الـثلاثة تسهل على العـبد الزهد فيهـا، وتثبت قدمه في مقامه، والله الموفق لمن يشاء.

النوع الثاني من زهد المـشمرين: الزهد في نفسك؛ وهو أصـعب الأقسام وأشقها، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يَلِجُوه؛ فإنَّ الزاهد يسهل عليه الزهد في الحرام لسوء مغـبته وقبح ثمرته، وحمايـة لدينه وصيانة لإيمانه، وإيثارًا للـذة والنعيم على العـذاب، وأنفة من مشـاركة الفـساق والفـجرة، وحمية من أن يستأسر لـعدوه. ويسهِّل عليه الزهدَ في المكروهات وفضول المباحات علمُه بما يفوتـه بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم. ويسهِّل عليه زهدَه في الدنيـا معرفتُه بما وراءها وما يطلـبه من العوض التام والطلب الأعلى. وأمـا الزهد في النفس فـهو ذبحـهـا بغيـر سكين، وهو نوعان: **أحدهما** وسيلة وبداية؛ وهو أن تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء، فلا تغـضب لها ولا ترضى لهـا ولا تنتصر لهـا ولا تنتقم لهـا؛ قد سبَّلت عرضهـا ليوم فقرها وفاقتها، فـهي أهون عليك من أن تنصر لها، أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعـتك، أو تكرمها إذا عصتك، أو تغضب لها إذا

ذُمت؛ بل هي عندك أخس مما قيل فيها، أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك وإن كان صعبًا عليها. وهذا وإن كان ذبحًا لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتة. وهذه العقبة هي آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين. . .

وهذا الزهد هو أول نقدة من مهر الحب، فيا مفلس تأخر.

والنوع الثاني: غاية وكمال؛ وهو أن يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقي منها شيئًا، بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه؛ قد خرج عنها وسلمها لربه، فهو يبذلها له دائمًا بتعرض منه لقبولها. وجميع مراتب الزهد المتقدمة مباد ووسائل هذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعنّ متمنّ؛ كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلم.

قال بعض السلف: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فمن ضيع الأصول حرم الوصول[١]. أهـ.

[الزهد في الدنيا]

قال الهروي رحمه الله: «الزهد في الزهد؛ وهو بثلاثة أشياء: باستحقار ما زهدت فيه، واستواء الحالات فيه عندك، والذهاب عن شهود

---

(١) طريق الهجرتين: ٢٥٢ - ٢٥٤.

الاكتساب، ناظرًا إلى وادي الحقائق».

وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء:

أحدها: احتقـاره ما زهد فيه؛ فإن من امتلأ قلبه بمـحبة الله وتعظيمه لا يرى أن مـا تركه لأجلـه من الدنيا يستـحق أن يجعل قـربانًا، لأن الدنيـا بحذافـيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضـة؛ فالعارف لا يرى زهده فـيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحيي مَنْ صَحَّ له الزهد أن يجعل لما تركه لله قدرًا يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيـه كما فني عنه، ويستحيي من ذكره بلسانه وشهوده بقلبه.

وأما استـواء الحالات فـيه عنده: فهو أن يرى ترك مـا زهد فيه وأخذه متسـاويين عنده؛ إذ ليس له عنده قدر، وهذا من دقائق فقـه الزهد، فيكون زاهدًا في حـال أخذه كـمـا هو زاهد في حـال تركه؛ إذ همـتـه أعلى عن ملاحظته أخذًا وتركًا لصغره في عينه.

وأمـا «**الذهاب عن شهود الاكـتساب**» فمعناه: أن من استـصغر الدنيا بقـلبـه، واستوت الحـالات في أخـذها وتركهـا عنده: لم ير أنه اكتـسـب بتركـها عند الله درجة ألبـتة؛ لأنها أصـغر في عينه من أن يرى أنه اكـتسب بتركها الدرجات .

وفيه معنى آخر: وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيـئًا ولا أخذ شيئًـا، بل الله وحده هو المعطي المـانع، فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر، وما تركه لله فالله

سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحده عن شهود كسبه وتركه؛ فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع، وسلك في وادي الحقيقة، غاب عن شهود اكتسابه، وهو معنى قوله: «**ناظرًا إلى وادي الحقائق**» وهذا أليق المعنيين بكلامه، فهذا زهد الخاصة؛ قال الشاعر:

إذا زهدتني في الهوى خشية الردى
جلَت لي عن وجه يُزَهِّد في الزهد[1] أهـ.

[أقسام الزهد]

الزهد أقسام: زهد في الحرام، وهو فرض عين. وزهد في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة؛ فإنْ قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًا. وزهد في الفضول. وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهد في الناس. وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله. وزهد جامع لذلك كله، وهو الزهد فيما سوى الله، وفي كل ما شغلك عنه.

وأفضلُ الزهد إخفاء الزهد، وأصعبُه الزهدُ في الحظوظ. .

والفرق بينه وبين الورع: أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورعُ ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة. والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع.

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٧ - ٢٨.

قال يحيى بن معاذ: عجبت من ثلاث: رجل يرائي بعمله مخلوقًا مثله ويترك أن يعمله لله، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئًا، ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودّتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودّته[1]. أهـ.

[كيف تكون زاهدًا؟]

لا تتمُّ الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا، وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخِسّتها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخرُ ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبُها لا ينفكُّ من هَمّ قبل حصولها، وهَمّ في حال الظفر بها، وغَمٍّ وحزن بعد فواتها.. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها، ومجيئها ولا بُدّ، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرّات، والتفاوت الذي بينها وبين ما ههنا؛ فهي كما قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تمَّ له هذان النظران آثرَ ما يقتضي العقلُ إيثارَه، وزَهِدَ فيما يقتضي الزهد فيه. فكلُّ أحدٍ مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة

(١) الفوائد: ١٧٢ - ١٧٣.

إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبيَّن له فضل الآجل على العاجل، وقويَتْ رغبتُه في الأعلى الأفضل. فإذا آثَرَ الفاني الناقص، كان ذلك إما لعدم تبيُّن الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكلٌّ واحد من الأمرين، يدلُّ على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة؛ فإن الراغب في الدنيا، الحريص عليها، المؤْثِر لها، إما أن يصدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدِّق؛ فإنْ لم يصدِّق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإنْ صدق بذلك ولم يؤْثِرْهُ، كان فاسدَ العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاصر ضروري، لا ينفك العبدُ من أحد القسمين منه؛ فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فسادٍ في الإيمان، وإما من فسادٍ في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسولُ الله وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وَعَدُّوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولَوصلوا منها إلى كل مرغوب؛ فقد عُرِضَتْ عليه مفاتيحُ كنوزِها فردَّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وَعَلِموا أنها معبر وممرّ لا دار مقام ومستقرّ، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتمَّ الزيارة حتى أذَّن بالرحيل.

قال النبي ﷺ: **(ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظلٍّ شجرة ثم راح وتركها)**[1] أهـ.

---

(١) سبق تخريجه ص ١١٧٠.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥]، فأخبر عن خِسَّة الدنيا وزَهَّدَ فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها. . .

وقد توعَّد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضيَ بالحياة الدنيا، واطمأنَّ بها، وغفل عن آياته، ولم يَرْجُ لقـاءه؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧، ٨]. . .

وَعَيَّر سبحانه مَنْ رضي بالدنيا من المؤمنين؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيـا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكـفي في الزهـد في الدنيا قوله تعـالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧][1]. أهـ.

---

(١) الفوائد: ١٤٠ - ١٤٣.

[قوادح في الزهد]

النقص في الزهد يكون من أحد وجوه:

أولها: أن يزهد فيما ينفعه من الدنيا، ويكون قوة له على سيره، ومعونة له على سفره، فهذا نقص؛ فإن حقيقة الزهد هي أن تزهد فيما لا ينفعك، والورع أن تتجنب ما قد يضرك، فهذا الفرق بين الأمرين.

الثاني: أن يكون زهده مشوبًا إما بنوع عجز أو ملالة وسآمة، وتأذيه بها وبأهلها، وتعب قلبه بشغله بها، ونحو هذا من المزهدات فيها؛ كما قيل لبعضهم: ما الذي أوجب زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها. فهذا زهد ناقص؛ فلو صفت للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها. بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة، ورغبته في الله وقربه؛ فهذا لا نقص في زهده ولا علة من جهة كونه زهدًا.

الثالث: أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنى عنه بما زهد لأجله، فهذا نقص أيضًا؛ فالزهد كله أن تزهد في رؤية زهدك وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة، وأن لا تقف عنده فتنقطع، بل أعرض عنه جادًا في سيرك، غير ملتفت إليه، مستصغرًا لحاله بالنسبة إلى مطلوبك(١). أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين: ٢٥١.

الفصل الثالث: نعيم الجنة

[أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟]

لما علم الموفـقون ما خُلقوا له، وما أريد بإيجادهم رفـعوا رؤوسهم، فإذا عَلَمُ الجنة قد رفع لهم، فشمَّروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم، فاستقامـوا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفـد بصبابة عيش إنمـا هو كأضـغـاث أحلام، أو كطيف زار في المنـام، مشـوب بالنغص، ممـزوج بالغصص، إن أضـحك قليلاً أبكى كـثيـرًا، وإن سر يومًـا أحزن شهـورًا، آلامه تزيد على لذاته، وأحـزانه أضعاف أضـعاف مـسراته، أوله مخاوف، وآخره متـالف، فيا عجبًا من سفيه فـي صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضـها السماوات والأرض بـسجن ضيق بين أرباب العـاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحـتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخـراب والبوار، وأبكارًا عـربًا أترابًا كأنهن اليـاقوت والمـرجان بـقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات، أو متخذات أخذان، وحورًا مقصورات في الخيام بخبيثات سيئاتٍ بين الأنام، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مـذهب للعقل مـفسـد للدنيـا والدين، ولذة النظر إلى وجه العـزيز الرحيم بالتـمتع برؤية الوجه القبـيح الدميم، وسمـاع الخطاب من الرحمن

بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي يا أهل الجنة: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتُقيموا فلا تظعنوا، وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي   متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذيذة   حبًا لذكرك، فلْيلُمني اللّومُ

وإنَّما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة؛ إذا حُشر المتقون إلى الرحمن وفدًا، وسيق المجرمون إلى جهنم وردًا، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد، ليعلمن أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد لهم من الإكرام، وادُّخِرَ لهم من الفضل والإنعام، وما أُخفي لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر، لعلم أيّ بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته، وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكا كبيراً لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال.

فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسرتها تحت الحجال يجلسون، وعلى الفرش - التي بطائنها من إستبرق - يتكئون، وبالحور العين يتمتعون، وبأنواع الثمار يتفكهون، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ

الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢٤]، ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾** ﴾ [الزخرف: ٧١]. تالله، لقد نُودي عليها في سوق الكساد فما قلب ولا استام إلا أفراد من العباد، فواعجبًا لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبُها؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قر للمشتاق القرار، دون معانقة أبكارها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟(١). أهـ.

[من أوصاف الجنة]

كيف يُقْدَرُ قَدْرُ دارٍ غرسها الله بيده، وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كلِّ عيبٍ وآفةٍ ونقصٍ.

فإن سألت عن أرضها وتربتها، فهي المسك والزعفران.

وإن سألت عن سقفها، فهو عرشُ الرحمن.

وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر.

وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلو والجوهر.

وإن سألتَ عن بنائها فلبنةٌ من فضةٍ ولبنة من ذهب.

---

(١) حادي الأرواح: ٢٦ - ٢٩.

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة واحدة إلا ساقُها من ذهب وفضة لا من الحطبِ والخشبِ.

وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلالِ، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكن من رقائق الحُلَلِ.

وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمُهُ، وأنهار من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيَّرونَ، ولحم طير مما يشتهون.

وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيلُ والكافور.

وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستفز بالطّرب لمن يسمعها.

وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجدُّ السريع في ظلها مئة عام لا يقطعها.

وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من جملة الخيام.

وإن سألت عن علاليـها وجواسقها فـهي غرف من فوقها غـرف مبنية، تجري من تحتها الأنهار.

وإن سـألت عن ارتفاعـها فـانظر إلى الكوكب الطالع، أو الغـارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب.

وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلى الرتب.

وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات، وهي : الحجال مُزَرة بأزرار الذهب. فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثة وثلاثين على صورة آدم عليه السلام أبي البشر

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم، فعلى صورة القمر.

وإن سألت عن سمـاعهم فغناء أزواجهم من الحـور العين، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيّين، وأعلى منهما سماع خطاب ربِّ العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليهـا، فنجائب أنشأها الله مما شاء تسير بهم حيث شاؤوا من الجِنان.

وإن سألت عن حُليّهم وشارتهم، فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان.

وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون[١]. أهـ.

---

(١) حادي الأرواح: ٣٥٥ - ٣٥٧.

[نساء الجنة]

إن سألت عن عرائسهم وأزواجهم (أي أهل الجنة)، فَهُنَّ الكواعب الأترابُ، اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب، فللوردِ والتفاح ما لبسته الخدود، وللرُّمان ما تضمنته النهودُ، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللدقة واللّطافة ما دارت عليه الخصور، تجري الشمس في محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا تبسمت، إذا قابلت حِبَّها فقل ما شئت في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنّك بمحادثة الحبيبين، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، يرى وجهه في صحن خدِّها، كما يرى في المرآة التي جلاها صيقلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا. حُلَلُها. لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بينَ الأرض والسماء ريحًا، ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمستْ ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن من على وجهها بالله الحيِّ القيوم، ونصيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، ووصاله أشهى إليها من جميع أمانيها، لا تزداد على تطاول الأحقاب إلا حسنًا وجمالاً، ولا يزدادُ لها على طول المدى إلا محبة ووصالاً، مبرأة من الحبلِ والولادةِ والحيضِ والنفاس، مطهرةٌ من المخاط والبصاق والبولِ والغائط وسائر الأدناس، لا يفنى شبابُها، ولا تبلى ثيابُها، ولا يخلقُ ثوب جمالها، ولا يُملُّ طيبُ وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها، فلا تطمح لأحد سواه، وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه؛ إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية

الأماني والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جانّ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سـروراً، وكلّما حدثتـه ملأت أذنه لؤلؤاً منظومًـا ومنثوراً، وإذا برزت ملأتْ القصرَ والغرفة نوراً.

وإن سألت عن السنِّ فأتراب في أعدل سنٍّ الشباب.

وإن سألت عن الحسنِ فهل رأيت الشمس والقمر.

وإن سألت عن الحدقِ فأحسن سواد في أصفى بياض، في أحسن حَوَر.

وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان.

وإن سألت عن النهود فهنّ الكواعب؛ نهودهن كألطف الرمان.

وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوتُ والمرجان.

وإن سألت عن حسن الخلقِ فهنَّ الخـيراتُ الحسان، اللاتي جُمِعَ لهن بين الحـسن والإحـسان، فـأعطين جـمـال الباطن والظـاهر، فهن أفـراح النفوس، وقرة النواظر.

وإن سألت عن حسن العـشرة، ولذّة ما هنالك فهن العُرُبُ المتـحببات إلى الأزواج بلطافة التبعلِ التي تمتزجِ بالزوج أي امتزاج.

فـمـا ظنك بامـرأة إذا ضحكت فـي وجه زوجـهـا أضـاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتـقلت من قصر إلى قصر، قلت: هذه الـشمس متنقلة في بروج فلكِهـا، وإذا حاضـرت زوجهـا فيـا حسن تلك المـحاضـرة، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة:

وحديثُها السحرُ الحلال لو أنه ... لم يَجنِ قتلَ المسلم المتحرِّزِ
إنْ طال لم يُمَلَلْ وإن هي حدثتْ ... ودَّ المحدَّثُ أنّها لم تُوجِزِ

إن غنت فيا لذَّةَ الأبصار والأسماعِ، وإن آنستْ وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قَبَّلت فلا شيءَ أشهى إليه من ذلك التقبيل، وإن نوَّلت فلا ألذَّ ولا أطيب من ذلك التنويل[1]. أهـ.

[يوم المزيد]

إن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه، وذلك موجود في الصِّحَاحِ، والسنن، والمسانيدِ، من رواية جرير، وصهيب، وأنس، وأبي هريرة، وأبي موسى، وأبي سعيد، فاستمع[2] يوم ينادي المنادي: يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيَّ على زيارتهِ، فيقولونَ: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدتْ لهم، فيستوونَ على ظهورها مسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جُعِلَ لهم موعدًا، وجُمِعُوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك ثم نصبت لهم منابرُ من نور، ومنابرُ من لؤلؤٍ، ومنابرُ من زبرجدٍ، ومنابرُ من ذهب، ومنابرُ من فضلة، وجلس أدناهم -

(١) حادي الأرواح: ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) قوله: (فاستمع) هو جواب (إن) الشرطية التي بدأ بها الكلام.

وحاشاهم من الدنيا أن يكون فيهم دنيء - على كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، فنادى المنادي: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريدُ أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلْنا الجنة، ويزحزحنا عن النار، فبينما هم كذلك إذا سطع لهم نورٌ أشرقت له الجنة، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الجبارُ جل جلاله، وتقدست أسماؤه، قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة: سلام عليكم، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللَّهم أنت السلامُ، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب، ولم يروني؟ فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: أن قد رضينا، فارض عنّا، فيقول: يا أهل الجنّة، إنِّي لو لم أرض عنكم لم أُسْكِنْكُم جنتي، هذا يوم المزيد، فسلوني، فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه، فيكشف الرب جل جلاله الحجب، ويتجلى لهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله سبحانه وتعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة، حتى إنه ليقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥].

فحيّ على جنات عدنٍ فإنّها   منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى   نَعود إلى أوطاننا ونسلَّم[١] أهـ.

❁ ❁ ❁

(١) حادي الأرواح: ٣٥٨ - ٣٦٠.

الفصل الرابع: متفرقات

[حمد وابتهال]

الحـمد لله الذي أغنانـا بشريعتـه التي تدعو إلى الحـكمة والمـوعظة الحـسنة، وتتضـمن الأمر بالمـعروف والـنهي عن المنكر، والأمر بالعـدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ فله المنّة والفضل على ما أنعم به علينا، وآثرنا به على سائر الأمم، وإليـه الرغبة أن يُوْزِعْنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغـفرة والرحمة؛ فأحب الوسائل إلى المحـسن التوسل إليه بإحسـانه، والاعتراف له بأن الأمر كله مـحض فضله وامتنانه، فله علينـا النعمة السابغـة، كما له علينا الحـجة البالغـة، نبوء له بنعمهُ علينا، ونبوء بذنوبنا وخطايـانا، وجهلنا وظلمنا، وإسرافنا في أمرنا، فهذه بضاعتنا التي لدينا. لم تُبْقِ لنا نعمةٌ وحـقوقُها وذنوبُنا حسنةً نرجو بها الفوز بالثـواب والتخلص من أليم العـقاب، بل بعض ذلك يسـتنفد جـميع حـسناتنا، ويستـوعب كل طاعتنـا؛ هذا لو خلصت من الشوائب، وكـانت خالصة لوجهه واقعـة على وَفْقِ أمره. وما هو والله إلا التعلق بأذيال عفوه، وحسن الظن به واللجـاية إليه والاستـعانة به منه، والاستـكانة والتذلل بين يديه، ومـدّ يد الفاقـة والمسكنة إليـه بالسؤال، والافـتقـار إليه في جـميع الأحوال؛ فمن أصـابته نفحة من نفـحات رحمته، وأوقـعت عليه قطرة من قطرات رأفته انتعش بين الأموات، وأناخت بفنائه وفود الخيرات، وترحَّلت

عنه جيوش الهموم والغموم والحسرات.

وإذا نظرت إليَّ نظرة راحم * في الدهر يومًا إنني لسعيد[١]. أهـ.

[المقصود من زيارة القبور]

زيارة الموحدين للقبور مقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكر الآخرة والاعتبار، والاتعاظ. وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (**زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة**)[٢].

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطول عهده به فيهجره ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه، فإذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك، فالميت أولى؛ لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها إخوانهم وأهلهم ومعارفهم، فإذا زاره وأهدى إليه هدية من: دعاء، أو صدقة، أو أهدى قربة، ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له، ولهذا شرع النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يصلى عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلي نفسه باتباع السُّنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ؛ فيحسن إلى نفسه وإلى المزور[٣]. أهـ.

---

(١) هداية الحيارى: ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) رواه بهذا اللفظ: ابن ماجه في الجنائز، باب زيارة القبور، ح ١٥٦٩، ولمسلم في الجنائز نحوه، ح ٩٧٦. وكذا في العديد من دواوين السنة.

(٣) إغاثة اللهفان: ٢٢٣.

[حياة الأرواح بعد مفارقة الأبدان]

من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه؛ فإن من ورائه فضاء وروحًا وريحانًا وراحة، نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك؛ قال بعض العارفين: لِتكُنْ مبـادرتك إلى الخروج من الدنيا كـمبادرتك إلى الخـروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة؛ قال الله تعالى في هذه الحـياة ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

ويكفي في طيب هذه الحـياة مرافـقة الرفيق الأعلـى، ومفارقـة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومـشاهدته الحياة، فضلاً عن مـخالطته وعِشْرته، إلى الرفـيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيـين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم.

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأسرفوا ... في الموت ألفُ فضيلة لا تُعرفُ
منهـا أمـــان لقـــائه بلقـــائه ... وفـراق كل معاشـر لا يُنْصِـفُ

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجِسْرٌ يُعْبَر منه إليها لكفى به تحفة للمؤمن.

جـزى الله عنا المـوت خيرًا فإنه ... أبَرُّ بنا مـن كــل بَـرٍّ وألطــف
يُعَجِّل تخليص النفـوس من الأذى ... ويُدْنِي إلى الدار التي هـي أشـرف

فالاجـتهاد في هذا العـمر القصـير والمدة القليـلة، والسعي والكدح، وتحمل الأثقـال والتعب والمشقة إنـما هو لهذه الحياة، والـعلوم والأعمال

وسيلة إليها، وهي يَقَظَةٌ وما قبلها من الحياة نوم، وهي عين وما قبلها أثر، وهي حياة جامعة بين فقد المكروه وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب؛ حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها؛ لأنها في بلد لا عهد لنا به، ولا إلف بيننا وبين ساكنه؛ فالنفس - لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانًا طويلا - تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلهي على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ، فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العيان، ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقًا إلى ذلك الملكوت، ووجدًا بهذا السرور، وطربًا على هذا الحد، واشتياقًا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخِصْب، والأمن والسرور صَبَر في طريقه على كل مشقة، وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذا نادى به حي على الفلاح، وبذل نفسه في الوصول بَذْل المحب بالرضا السماح، وواصل السير بالغدوِّ والرواح، فحمد عند الوصول مَسْراه، وإنما يحمد المسافر السُّرَى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم السُّرَى وفي الممات يحمد القوم اللقا[1] أهـ.

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

الخاتمة

أيها القارئ الكريم:

بعد أن عشتَ قلبًا وقالبًا مع الكلام النوراني للإمام ابن القيِّم يرحمه الله أود الإشارة للأمور التالية:

إن مئات الصفحات التي قرأتها في هذا الكتاب في الدعوة والتربية وأعمال القلوب لابن القيم هي امتداد لاهتمام من سبقه من أئمة السلف بهذه الموضوعات المهمة رحمهم الله، وخاصة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه. وهي تبرز بوضوح العناية الفائقة التي يوليها السلف لأمور التربية والدعوة وأعمال القلوب التي كانت واضحة في معاملاتهم مع بعضهم البعض، وفي غزارة إنتاجهم وبركة مؤلفاتهم. وفي هذا دعوة للعلماء والمربين للعناية بتلك الموضوعات وتدريسها في حلقات العلم، وطرحها في المجالس والمنتديات، وتربية النشء عليها .

إن غالب ما يحدث اليوم بين بعض أرباب الساحة الدعوية من تشاحن وتلاسن، وجفاء وبغضاء مردُّه إلى ضعف تربية النفس والقصور في تنقيتها من حظوظ الدنيا ودواعي الهوى.

وقد نبَّه الله جل وعلا إلى أن ما يصيبنا من مصائب - ومنها مصيبة الفرقة والخلاف - سببه ما اقترفناه من خطيا القلوب والجوارح؛ قال

تعــالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ويجيء هذا الكتاب محاولة لعلاج هذا الجانب، وليكون بعد توفيق الله من أسباب تقارب القلوب وتلاحم الصفوف، مما سيعزز من العمل الدعوي إن شاء الله.

ولأن العمر واحد والمـشاغل كثيرة والأوقات قصيـرة فإن الأخيار على وجه الخصوص يحتاجون إلى ترتيب الأولويات عندهم؛ سواء في العبادات أو في المعـاملات، وقـد قال ابن الجوزي رحـمه الله: «ينبـغي لمن عرف شرف الوجـود أن يُحصِّل أفضل المـوجود» وقال: «فينبـغي للمستـيقظ ألا يطلب إلا الأنفس»[(١)].

ومن ضمن ما يجب العناية به وتقديمـه: عبادات القلوب التي جاء هذا الكتاب ليلفت الانتبـاه إليها ويدعو للعمل بها، كمـا أنه يربي الفرد ويُعوِّده على تنميتها وزيادتها.

قال شـيخ الإسلام ابن تيميـة - قدس الله روحه - عن أعـمال القلوب إنها: «من أصول الإيمـان وقواعد الدين» و «إنها واجبـة على الخلق باتفاق أئمة الدين» و «إن الناس فيها ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات»[(٢)].

---

(١) صيد الخاطر: ص ٣٠٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٥ - ٦.

وأشار رحمه الله إلى أن: «أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها»[١].

ورغم اشتغال طلبة العلم بالفقه والحديث ونحوهما من العلوم الشرعية، فإن البعض منهم يعاني من قسوة للقلب تصرف عن تأمل الذات والتفتيش في دواخلها، وغيرهم من باب أولى.

ويشير ابن الجوزي رحمه الله إلى ذلك الحال بقوله: «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي لصلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين»، ويعلل سبب ذلك فيقول: «لأنهم تناولوا مقصود الفعل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها»، ثم يقول: «وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقاء في علوم الجدل ما يغالب به الخصم. وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟»[٢].

ولعل هذا الكتاب يساعد في تلبية حاجة القلب والروح لما يزكيها ويسمو بها.

وأخيرًا - أخي القارئ الكريم - إن كنت انتفعت بما قرأت فإن المأمول منك - وأنت الداعية لكل خير - أن تدعو غيرك لقراءة كلام ابن القيِّم

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٥.

(٢) صيد الخاطر: ٢٢٤.

وغيره من السلف في أبواب الدعـوة والتربية وأعمال القلوب؛ فـإن الحاجة لها أشد من حاجة الزرع للمطر وخاصة في هذا الزمان.

زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيثما كان.

وصلى الله على نبينا محمد الرؤوف بأمته، المـبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيـبين الطاهرين وعلى صـحابتـه الكرام الميـامين ومن تبـعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب الإمام ابن القيِّم يرحمه الله:

- **أحكام أهل الذمة**، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م.
- **أسماء مؤلفات ابن تيمية**، لم أجده.
- **إعلام الموقعين**، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٩هـ.
- **إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان**، تحقيق محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الحديث.
- **اجتماع الجيوش الإسلامية**، تحقيق رضوان جامع رضوان، المكتبة التجارية ١٤١٥هـ.
- بدائع الفوائد، تحقيق معروف زريق وآخرون، دار الخير، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- **التبيان في أحكام القرآن**، تحقيق محمد زهري النجار، المكتبة السعيدية.
- **تحفة المودود في أحكام المولود**، بتحقيق شير محمد عيون، دار البيان الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام**، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، تحقيق سعيد محمد اللحام، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

- **حادي الأرواح**، تحقيق علي الشربجي وقاسم النوري، مؤسسة الرسالة.

- **حكم تارك الصلاة**، دار ابن كثير ودار التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

- **الرسالة التبوكية**، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، مكتبة الخراز، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

- **الروح**، مطبعة المدني ودار المدني، ١٤١٣هـ.

- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار الخير، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

- **شفاء العليل**، تحقيق عمر بن سليمان الحفيان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

- **الصواعق المرسلة**، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.

- **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، دار الوطن.

- **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- **الفروسية**، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح، دار التراث، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- **الفوائد**، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

- **الكافية الشافية**، تحقيق عبد الله بن محمد العمير، دار ابن خزيمة، الأولى ١٤١٦هـ.

- **مختصر سنن أبي داود**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة.

- **مدارج السالكين**، تحقيق بشير محمد عيون، دار البيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

- **مفتاح دار السعادة**، تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

- **المنار المنيف**، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلمي، دار العاصمة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

- **هداية الحيارى**، تحقيق محمد أحمد الحاج، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

- **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ.

مراجع التخريج:

وقد اعتُمِدَ فيها أساسًا على الأقراص المدمجة:

١- **قرص موسوعة الحديث الشريف «الكتب التسعة»**، من إصدار شركة حرف.

٢- **قرص الموسوعة الذهبيـة للحديث النبوي الشريف وعلومه**، من إصدار مـركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدرار (٢) عام ١٤٢٢هـ.

❁ ❁ ❁

فهرس موضوعات المجلد الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
الباب الرابع: الدعوة والتربية	٥٨١ - ٩٨٥

الموضوع	الصفحة